



عناصر الموضوع

المجلد السادس

مفهوم الانفاق

أولًا: المعنى اللغوي:

الإنفاق مصدر للفعل الرباعي أنفق، فيقال: أنفق ينفق إنفاقًا، فهو منفق، والمفعول منفق (للمتعدي)، أنفق مالًا: صرفه وأنفده، وهو بذل المال ونحوه في وجه من وجوه الخير، ويأتي بمعنى الفقر والإملاق؛ لأن الإنفاق سبب للافتقار من الشيء المنفق[(١)].

ومنه (النفقة): وهي اسم لما ينفق من الدراهم والزاد ونحوهما، وما يفرض للزوجة على زوجها من مال للطعام والكساء والسكنى والحضانة ونحوها، والجمع: نفقات، ونفاق[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يوجد كبير فرق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للإنفاق، وقد عرفه الجرجاني بقوله: «هو صرف المال في الحاجة»[(٣)]. واختار الراغب: أنه يكون في المال وغيره[(٤)].

فهو على هذا بذل المال ونحوه في وجوه الخير، ويطلق أيضًا على ما ينفقه الرجل على نفسه وعلى عياله.

ويشمل كل ما أمر الله به في دينه من الإنفاق، سواء كان إنفاقًا في حج أو عمرة، أو كان جهادًا بالنفس، أو تجهيزًا للغير، أو كان إنفاقًا في صلة الرحم، أو في الصدقات، أو على العيال، أو في الزكوات والكفارات، أو عمارة السبيل وغير ذلك.

والتعريف المختار للإنفاق أنه: إخراج المال من ملكية صاحبه، في سبيل تحصيل منفعة صحيحة، عينية أو معنوية، له أو لغيره.

---

(١) عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢٠٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٤٢، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٣/ ٢٢٦٠.

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٨٠٦.

(٣) التعريفات ١/ ٥٧.

(٤) المفردات ص ٨١٩.



الانفاق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نفق) في القرآن (٧٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾[الكهف: ٤٢]
الفعل المضارع	٤١	﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[البقرة: ٢٧٢]
فعل الأمر	٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم ﴿٢٥٤﴾﴾[البقرة: ٢٥٤]
المصدر	١	﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ﴿١٠٠﴾﴾[الإسراء: ١٠٠]
اسم	٣	﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴿٢٧٠﴾﴾[البقرة: ٢٧٠]
اسم فاعل	١	﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[آل عمران: ١٧]

وجاء الإنفاق في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الصدقة والزكاة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾[البقرة: ٣]. يعني: يتصدقون ويؤدون الزكاة.

الثاني: النفقة الواجبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق: ٦]. يعني: على الزوجات.

الثالث: الإعمار: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾[الكهف: ٤٢]. يعني: ما عمر فيها.

الرابع: الرزق: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[المائدة: ٦٤]. يعني: يرزق.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧١٥، ٧١٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٣٥، ٤٣٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزكاة:

الزكاة لغة:

النماء، يقال: زكى الزرع يزكو، أي: نما، وهي الطهارة والبركة والمدح(١).

الزكاة اصطلاحًا:

إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص لمالكٍ مخصوص، معتبرًا فيه الحول والنصاب(٢).

الصلة بين الإنفاق والزكاة:

الإنفاق أعم من الزكاة من حيث أحكام الشرع وأصناف المال، فالإنفاق يكون في عموم أنواع المال، ويكون على سبيل الوجوب والاستحباب والإباحة، بينما الزكاة فهي مقدرة في مال مخصوص، ولها حكم الوجوب فقط.

٢ التصدق:

التصدق لغة:

إعطاء الصدقة، تصدق: أي أعطى الصدقة(٣).

التصدق اصطلاحًا:

ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة(٤).

الصلة بين الإنفاق والتصدق:

الإنفاق أعم من التصدق من حيث أحكام الشرع، فالإنفاق يكون على سبيل الوجوب والاستحباب والإباحة، أما التصدق فلها حكم الاستحباب فقط.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٠٧، طلبة الطلبة، نجم الدين النسفي ص ١٦.
(٢) التعريفات ص ١١٤.
(٣) شمس العلوم، نشوان الحميري ٦/ ٣٧٠٧.
(٤) تاج العروس ٢٦/ ١٢، معجم لغة الفقهاء ص ٢٧٢.



٣ الإقراض:

الإقراض لغة:

مصدر من أقرضته المال إقراضًا، ومنه القرض، والجمع قروضٌ[١].

الإقراض اصطلاحًا:

هو إعطاء غيرك من مالك لتقضاه[٢].

الصلة بين الإنفاق و الإقراض:

أن الإنفاق فيه إخراج للمال من الملكية، بينما الإقراض يبقى فيه المال ملك لمخرجه في ذمة غيره؛ ليرده له.

٤ الإيتاء:

الإيتاء لغة:

الإعطاء، آتى يؤاتي إيتاءً، وآتاه إيتاءً، أي: أعطاه، ويقال: آتاه الشيء، أي: أعطاه إياه[٣].

الإيتاء اصطلاحًا:

إعطاء المال للغير على سبيل التمليك وحرية التصرف.

الصلة بين الإيتاء والإنفاق:

الإنفاق أعم من الإيتاء، فالإنفاق قد يكون على سبيل التمليك المفضي إلى حرية التصرف، وقد يكون التصرف في المال مشروطًا، أو يكون له مقابل، بينما الإيتاء لا يكون إلا على سبيل التمليك، ولا يكون مشروطًا، أو له مقابل، وإن لم يكن كذلك فليس بإيتاء[٤].

(١) المطلع على ألفاظ المقنع، شمس الدين البعلي ص ٢٩٥، المصباح المنير، الحموي ٢/ ٤٩٨.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧١، المصباح المنير، الحموي ٢/ ٤٩٨.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٧.
(٤) دستور العلماء، الأحمد نكري ١/ ١٨.

٥ الإعطاء:

الإعطاء لغة:

المناولة، أعطاه الشيء أي: ناوله إياه.

الإعطاء اصطلاحًا:

هو مناولة الشيء للآخر على سبيل تصرف مأذون فيه من المناول[(١)].

الصلة بين الإنفاق والإعطاء:

الإنفاق هو إخراج المال من الملك، والإعطاء لا يقتضي إخراج المعطى المال من الملك[(٢)].

٦ البخل:

البخل لغة:

منع الفضل والإمساك عن البذل، منع الرجل القادر العطاء بالمعروف من ماله[(٣)].

البخل اصطلاحًا:

هو إمساك المال وعدم صرفه في الوجوه المعتبرة حرصًا على بقائه وزيادته وخوفًا من نفاده[(٤)].

الصلة بين الإنفاق والبخل:

بينهما نوع تضاد، فالإنفاق هو البذل تلبية لسد الحاجة، والبخل الإمساك عن البذل وإن دعت إليه الحاجة.

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص ١٦٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) معجم لغة الفقهاء، قلعجي، قنيبي ص ١٠٤.
(٤) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، أبو الفضل البستي ٢/ ٢٤٥.

الأساليب القرآنية في عرض الإنفاق

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن الإنفاق، وهذا ما ستتناوله بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الأمر بالإنفاق:

جاء الأمر بالإنفاق، وبذل المال في سبيل الله صريحًا في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة: ٢٥٤].

وقال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الحديد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[المنافقون: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾[الطلاق: ٧].

فهذه الأوامر المتكررة في الآيات السابقة بالإنفاق من الأموال جاءت بصيغة الأمر (أنفقوا) و(لينفق)، فإن كان المراد بالإنفاق هو الزكاة فلا إشكال؛ لأن الزكاة واجبة، بل ركن من أركان الإسلام، فتحمل هذه الأوامر على الوجوب.

وحجة هذا القول أن قوله: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أمر، وظاهر الأمر للوجوب، والإنفاق الواجب ليس إلا الزكاة، وسائر النفقات الواجبة، والقرآن كثيرًا ما يعبر عن الزكاة بالإنفاق، ويقرن الإنفاق بالصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الأنفال: ٣].

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الحج: ٣٥].

وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الشورى: ٣٨].

وإن كان المراد بالإنفاق هو الإنفاق المستحب فتكون الأوامر الواردة بالإنفاق للندب. وقيل: إنه يتناول الفرض والنفل معًا.

وحجة من قال: الفرض والنفل داخلان في هذا: أن المفهوم من الأمر ترجيح جانب الفعل على جانب الترك، من غير أن يكون فيه بيان أنه يجوز الترك أو لا يجوز، وهذا المفهوم قدر مشترك بين الفرض والنفل،

فوجب أن يكونا داخلين تحت الأمر[1].

فيكون المراد بهذه الأوامر: التحريض على الإنفاق بمرتبتيه، واجب الإنفاق ومندوبه، والاهتمام بالنزاهة من فتنة المال التي ذكرت في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

فيكون قوله: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أي: ما أمرتم به من واجب أو مندوب.

وقد اختار الجصاص في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

أن المراد بالإنفاق هاهنا: النفقة الواجبة من الزكاة ونحوها، حيث قال: «وأيضًا فإن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أمر، وهو يقتضي الوجوب، وليس ها هنا نفقة واجبة غير الزكاة والعشر؛ إذ النفقة على عياله واجبة، وأيضًا فإن النفقة على نفسه وأولاده معقولة غير مفتقرة إلى الأمر، فلا معنى لحمل الآية عليه، فإن قيل: المراد صدقة التطوع، قيل له: هذا غلط من وجهين: أحدهما: أن الأمر على الوجوب فلا يصرف إلى الندب إلا بدليل، والثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ قد دل على الوجوب؛ لأن الإغماض إنما يكون في اقتضاء الدين الواجب، فأما ما ليس بواجب فكل ما أخذه منه فهو فضل وربح، فلا إغماض فيه»[2].

والمقصود أنه تعالى أمر الإنسان بالإنفاق مما رزقه الله، فقال: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي: بعض ما أعطيناكم، تفضلًا من غير أن يكون حصوله من جهتكم وبسببكم، وفي آية أخرى أمره بالإنفاق مما جعله الله مستخلفًا فيه، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧].

فقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ فيه ملاحظة وصول المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقي له، وهذا من أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها، وقيل: هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات، فالأمر للوجوب حتمًا، والإضافة والوصف لتعيين المأخذ[3].

وفي هذا التعبير تجريد للإنسان من المال الذي بين يديه، فليس له الحق في المال الذي بين يديه يعبث فيه كما يشاء، ويتصرف فيه كما يريد؛ ولهذا نهاه الله سبحانه وتعالى عن الإسراف، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٧/ ٥٣، ٥٤.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٤/ ١٧٩.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٧٣.

ونهاه عن التبذير، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

فالمال في الحقيقة مال الله، والعبد مستخلف فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[النور: ٣٣].

فيكون مضمون الآيات السابقة: الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم.

ثانيًا: الثناء على المنفقين، وخاصة عند الحاجة:

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على الإنفاق والترغيب في البذل والعطاء في سبيل الله أنه امتدح المنفقين، ورفع من مكانة المحسنين، وجعلهم مهتدين مفلحين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ٣-٥].

فالإشارة بـ(أولئك) في قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إلى من سبقت أوصافهم، وهم المتقون، أصحاب الصفات الخمس، التي منها الإنفاق مما رزقهم الله، ويشير اسم الإشارة (أولئك) إلى علو مرتبتهم، والعناية التامة بهم، كأنهم حضروا بين يدي المتكلم، وفيه الفصل بين الغاية والوسيلة، فالغاية: الفلاح، ووسيلته: ما سبق، والفلاح: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير[(١)].

وفي آية أخرى جعلهم من المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢-٣].

فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حصر للإيمان فيمن اتصف بالصفات المذكورة التي منها الإنفاق في سبيل الله، والمعنى: إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان هم هؤلاء، فالتعريف في ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تعريف الجنس، المفيد قصرًا ادعائيًا على أصحاب هذه الصفات مبالغة، وحرف (أل) فيه هو ما يسمى بالدالة على معنى الكمال[(٢)].

وقد جاء التعبير عن صفاتهم بصيغة من

---

(١) انظر: تفسير العثيمين الفاتحة والبقرة ١/ ٣٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٧١٢.

صيغ القصر وهي (إنما) للإشعار بأن من هذه صفاتهم هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم وإخلاصهم، أما غيرهم ممن لم تتوفر به هذه الصفات فأمره غير أمرهم، وجزاؤه غير جزائهم، وكفى بهذا شرفًا لهم وفخرًا.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٣-٤].

فقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: يقينًا؛ لأنهم حققوا إيمانهم، بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلب من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أعمال الجوارح كالصلاة والصدقة[1].

وفي هذه الجملة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ قصر آخر يشبه القصر الذي قبله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حيث قصر الإيمان مرة أخرى على أصحاب تلك الصفات ومنها الإنفاق، ولكنه قرن هنا بما فيه بيان المقصور، وهو أنهم المؤمنون الأحقاء بوصف الإيمان، والحق: أصله مصدر (حق) بمعنى ثبت، واستعمل استعمال الأسماء للشيء الثابت الذي لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء: ١٢٢].

ويطلق كثيرًا على الكامل في نوعه، الذي لا سترة في تحقق ماهية نوعه فيه، كما يقول أحد لابنه البار به: أنت ابني حقًا، وليس يريد أن غيره من أبنائه ليسوا لرشده، ولكنه يريد أنت بنوتك واضحة، وآثارها واضحة، ويطلق الحق على الصواب والحكمة، فاسم الحق يجمع معنى كمال النوع، ولكل صيغة قصر منطوق ومفهوم، فمنطوقها هنا: أن الذين جمعوا ما دلت عليه تلك الصلات هم مؤمنون حقًا، ومفهومها: أن من انتفى عنه أحد مدلولات تلك الصلات لم يكن مؤمنًا حقًا، أي: لم يكن مؤمنًا كاملًا، وليس المقصود أن من ثبتت له إحداها كان مؤمنًا كاملًا إذا لم يتصف ببقية خصال المؤمنين الكاملين، فمعنى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أن من كان على خلاف ذلك ليس بمؤمن حقًا، أي: كاملًا[2].

ثم زادهم مدحًا وفضلًا فقال: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كرامات، وعلو منزلة، أو درجات في الجنة يرتقونها بأعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط من ذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أعده لهم في الجنة، لا ينقطع مدده، ولا ينتهي أمده، بمحض الفضل والكرم.

وفي آية ثالثة يقرن المنفقين بمقيمي الصلاة، والمواظبين عليها، وهو تعبير يحمل

(١) تفسير اللباب، ابن عادل ٨/ ١٠٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٧١٥.

بين جنباته بأن هؤلاء من المطيعين لله، والمواظبين على امتثال أوامره، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الشورى: ٣٨].

وسياق الآية ولحاقها جاء في مدح من اتصفوا بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والتجاوز عمن أساء إليهم، والاستجابة لربهم في كل ما دعاهم إليه فعلًا أو تركًا، وفي هذه الآية مدحٌ للذين استجابوا لربهم حين دعاهم إلى توحيده وطاعته، والمقيمي الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها، والذين إذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه، والمنفقين مما أعطاهم الله من الأموال في سبيل الله، والمؤدون ما فرض الله عليهم من الحقوق لأهلها من زكاة ونفقة وغير ذلك من وجوه الإنفاق، فهذه عشرة صفات، بين الله تعالى أن ما أعده لأصحابها يوم يلقونه خير من متاع الدنيا بكامله.

وفي آية أخرى تبرز أهمية الإنفاق بتقديم المنفقين على غيرهم من الأصناف الذين ذكرتهم الآية، والذين أعدت لهم الجنة من الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، فيقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فقد دلت هذه الآية على أن الإنفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، من صفات المتقين أهل الجنة، ونلحظ هنا أن الله تعالى قدم المنفقين على غيرهم، وكفى بذلك حثًا على الإنفاق، أما في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٧].

فالترتيب ها هنا من الأدنى إلى الأشرف، فلا جرم وقع الختم بذكر المنفقين والمستغفرين بالأسحار.

وفي الآية أيضًا دلالة على أن إنفاقهم ليس في حال دون حال، بل في جميع الأحوال ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ والسراء: فعلاء، اسم لمصدر سره سرًا وسرورًا، والضراء من ضره، أي: في حالي الاتصاف بالفرح والحزن، وكأن الجمع بينهما هنا؛ لأن السراء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال الذي هو عزيز على النفس، فقد صار لهم خلقًا، لا يحجبهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة[1].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٨٢٣.

وكذلك امتدح الله تعالى المنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهار، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤]. فقد بين الله تعالى في هذه الآية حسن عاقبة المنفقين، وعظيم ثوابهم في ثلاث جمل، فقال في الجملة الأولى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم، ومربيهم ورازقهم، وقال في الجملة الثانية: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا خوف عليهم من أي عذاب؛ لأنهم في مأمن من عذاب الله، بسبب ما قدموا من عمل صالح، وقال في الجملة الثالثة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يصيبهم ما يؤدي بهم إلى الحزن والهم والغم؛ لأنهم دائمًا في اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان.

ومدح الله تعالى من يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة، فقال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾[البلد: ١٤].

أي: ذي مجاعة شديدة؛ لأن الناس قد يصابون بالمجاعة الشديدة، إما لقلة الحاصل من الثمار والزروع، وإما لأمراض في أجسامهم يأكل الإنسان ولا يشبع، وإما بسبب الحروب أو غير ذلك.

ووجه تخصيص اليوم ذي مسغبة بالإطعام فيه؛ لأن إخراج المال فيه أشد على النفس، والناس في زمن المجاعة يشتد شحهم بالمال؛ خشية امتداد زمن المجاعة، والاحتياج إلى الأقوات، فالإطعام في ذلك الزمن أفضل، وهو العقبة، ودون العقبة مصاعد متفاوتة، فهذه العقبة هي التي تقف بين الإنسان وبين الجنة، فلو تخطاها لوصل! وهذه العقبة العظيمة في الآخرة لا يقتحمها الإنسان إلا بهذه الأعمال العظيمة.

وتصويرها كذلك حافز قوي، واستجاشة للقلب البشري، وتحريك له ليقتحم العقبة، وقد وضحت، ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾[البلد: ١١].

ففيه تحضيض ودفع وترغيب! ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢].

إنه ليس تضخيم العقبة، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ليحفز به الإنسان إلى اقتحامها وتخطيها، مهما تتطلب من جهد ومن كبد، فالكبد واقع واقع، وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره، ويعوض المقتحم عما يكابده، ولا يذهب ضياعًا، وهو واقع على كل حال!

ويبدأ كشف العقبة، وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها

الدعوة في أمس الحاجة إليه، فك الرقاب العانية، وإطعام الطعام، والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة، ولا بزمان خاص، والذي تواجهه النفوس جميعًا، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[البلد: ١٧][(١)].

ولهذا كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر؛ لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذٍ أشق، والأجر على قدر النصب إذا وافق هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وأخلص فاعله.

ومما جاء في مدح المنفقين في سبيل الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الحديد: ١٨].

فذكر هاهنا صنفين: المتصدقين والمقرضين، والمعنى: إن الذين تصدقوا وأقرضوا، والظاهر أن الأول هو الواجب، والثاني: هو التطوع؛ لأن تشبيهه بالقرض كالدلالة على ذلك، وأيضًا ذكر الأول بلفظ اسم الفاعل، الدال على الاستمرار ينبئ عن الالتزام والوجوب، ومن قرأ بتشديد الدال فقط فمعناه: إن الذين صدقوا الله ورسوله وأقرضوا، ويندرج تحت التصديق الإيمان وجميع الأعمال الصالحات، إلا أنه أفرد الإنفاق بالذكر تحريضًا عليه، كما أنه أفرد الإيمان لتفضيله والترغيب فيه[(٢)].

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى لما رغب في الإنفاق، وختم آياته بما يقتضي الوعد من أصدق القائلين بالغنى، والإثابة في الدارين، أتبعه بما للعدو الكاذب من ضد ذلك، فقال محذرًا من البخل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨].

إذن هو الشيطان الرجيم المانع من الإنفاق، أي: الذي اسمه أسوأ الأسماء، فإنه يقتضي الهلاك والبعد، وأحد الوصفين كافٍ في مجانبته، فكيف إذا اجتمعا؟!

فهذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق بأبلغ الألفاظ، وأحسن المعاني؛ فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين، فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل، فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا دعتك

(١) في ظلال القرآن ٨/ ٤٣.

(٢) تفسير النيسابوري ٧/ ١٢٦.

الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك؛ حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه، فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل[(١)] الذي هو من أقبح الفواحش...، فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكاذب في وعده، الغار الفاجر في أمره، فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد[(٢)].

ثالثًا: الوعد بالإخلاف على المنفقين والأجر الكبير في الآخرة:

أمر الله تعالى عباده بالإنفاق في أوجه الطاعات من المال الذي أعطاهم إياه، وجعله بين أيديهم على سبيل الأمانة، أو الإعارة، ووعدهم بالخلف، أي: العوض المضاعف، فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: ٣٩].

أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به الله، وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ (ما) هنا تفيد العموم، يعني: سواء كان المنفق صغيرًا أو كبيرًا. ومعنى: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يخلفه عليكم، يقال: أخلف له، وأخلف عليه، إذا أعطاه عوضه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة، والمقصود: لا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

وقد جاء في الحديث: (**يقول الله تعالى: يا بن آدم أنفق، أنفق عليك**)[(٣)].

قال ابن العربي: «وهذه إشارة إلى أن الخلف في الدنيا بمثل المنفق بها إذا كانت النفقة في طاعة الله، وهو كالدعاء كما تقدم سواء، إما أن تقضى حاجته -أو يدفع الله عنه من السوء مثلها، أو يدخر إلى الآخرة-، وكذلك في النفقة يعوض مثلها، وإما أن يعوض أزيد منها، والتعويض ها هنا بالثواب، وإما أن يدخر له، والادخار ها هنا مثله في الآخرة»[(٤)].

وأكد هذا الوعد بصيغة الشرط، وبجعل جملة الجواب اسمية، وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، بقوله: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكدات، دالة على

---

(١) تفسير الفحشاء في هذه الآية بالبخل هو القول الأول الذي ذكره جمع من المفسرين، منهم: البغوي في المسمى بمعالم التنزيل ١/ ٣٦٣، والشوكاني في فتح القدير ١/ ٤٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٢٣، والألوسي في روح المعاني ٣/ ٤٠، وغيرهم.

(٢) انظر: جامع لطائف التفسير ٩/ ١٢٥ بتصرف.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٢، ٧٢٩٦، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٤) أحكام القرآن ابن العربي ٦/ ٤٦٣.

مزيد العناية بتحقيقه[1].

والمراد بالإنفاق الموعود عليه بالخلف هو الإنفاق المرغب فيه في الدين، وهو المأذون فيه شرعًا، كالإنفاق على الفقراء، والإنفاق في سبيل الله عمومًا.

وروي عن الضحاك أنه سئل عن قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أهو النفقة في سبيل الله؟ قال: لا، ولكن نفقة الرجل على نفسه وأهله، فالله يخلفه[2].

ونجده هنا في هذه الآية لم يذكر وجهة الإنفاق (وهو سبيل الله) بل أطلق فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾؛ لأن ذلك -والله أعلم- أصبح من المسائل المتقررة في أذهان السامعين-، وأن كل من أنفق ماله في لهو الدنيا وفرجتها من غير قصدٍ حسن، بل لمجرد الحظ والهوى ليس له أجر، بل يكون عليه حسرة وندامة، تنقضي لذاته، وتبقى تبعاته، وهو من كفران نعمة المال، فهو معرض للزوال، وإن بقي فهو استدراج، وعلامة إنفاقه في الهوى: أنه إذا أتاه فقير يسأله درهمًا منعه، وينفق في النزهة والفرجة الآلاف، فهذا يكون إنفاقه حسرة عليه، والعياذ بالله.

وأيضًا فإن هذا الوعد بالخلف ليس مدعاة للإنسان أن ينفق كل ما معه بحجة أن الله سيخلفه له، فقد روي عن مجاهد قال: «من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد، فإن الرزق مقسوم، ولعل ما قسم له قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه، فينفق جميع ما في يده، ثم يبقى طول عمره في فقره، ولا يتأولن: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فإن هذا في الآخرة، ومعنى الآية: ما كان من خلف فهو منه»[3].

والصواب ما تقدم من أن الخلف قد يكون إما عاجلًا بالمال في الدنيا، وإما آجلًا بالثواب في الآخرة.

والحاصل أن في هذا دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، وتشجيعًا عليه بإعلام الناس أن الإنفاق لا ينقص المال، والبخل به لا يزيده، فإن التوسعة كالتضييق لحكمة، فلا البخل يزيد في المال، ولا الإنفاق في سبيل الله ينقص منه.

وختم الله هذا بوعده الصادق، وهو أن من أنفق في سبيل الله شيئًا أخلفه الله عليه، وهو تعالى خير الرازقين، فجملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تذييل للترغيب والوعد بالزيادة؛ لبيان أن ما يخلفه أفضل مما أنفقه المنفق و﴿خَيْرُ﴾ بمعنى أخير؛ لأن الرزق الواصل من غيره تعالى إنما هو من فضله أجراه على يد بعض مخلوقاته، فإذا كان

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٤٤٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٧٠٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٣، ولباب التأويل، الخازن ٥/ ٢٢٧.

تيسيره برضا من الله على المرزوق، ووعد به كان ذلك أخلق بالبركة والدوام[1].

ومما جاء في الوعد بالخلف للمنفق قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ففي هذه الآية حث الله تعالى عباده على الإنفاق في سبيله، وقد كرر الله تعالى هذه الآية بهذا السياق في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث النزول أن الله تعالى قال: (من يقرض غير عديم ولا ظلوم)[2].

فطلب الله تعالى من عباده القرض، مع أن المال مال الله، إلا أنه من رحمته تعالى وكرمه يستقرضهم إياه؛ لأنه متول على جميع الخلق، غني بذاته عنهم، ومع هذا يجعل طاعتهم له سلفًا منهم له.

والاستفهام في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾ للحض على البذل والعطاء، والتحريض على التحلي بمكارم الأخلاق، والمعنى: من هذا المؤمن القوي الإيمان الذي يقدم ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وفي غير ذلك من وجوه الخير، كمعاونة المحتاجين، وسد حاجة البائسين؟!

والتعبير بالقرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغنى الحميد، لكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء.

ولم يكتف بالحث على القرض، بل حيث جاء القرض في القرآن قيده بكونه حسنًا، وذلك يجمع أمورًا ثلاثة، أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه، الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضاة الله، الثالث: أن لا يمن به، ولا يؤذي، فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ[3].

فيكون القرض الحسن: هو القرض المستكمل محاسن نوعه من كونه عن طيب نفس، وبشاشة في وجه المستقرض، وخلو عن كل ما يعرض بالمنة، أو بتضييق أجل القضاء، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات، وذكر بعضهم أن القرض الحسن: ما يجمع عشر صفات: أن يكون من الحلال، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء، وأن يكون المرء صحيحًا شحيحًا، يأمل العيش، ويخشي الفقر، وأن يضعه في الأحوج الأولى، وأن يكتم ذلك، وأن لا

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٤٤٨.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ٢/ ١٧٦، ١٨١١.

(٣) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٥٨.

يتبعه بالمن والأذى، وأن يقصد به وجه الله تعالى، وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر، وأن يكون من أحب أمواله إليه، وأن يتوخى في إيصاله للفقير، ما هو أسر لديه من الوجوه، كحمله إلى بيته، ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر[(١)].

وقوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ أي: فيعطيه سبحانه أجره على إنفاقه أضعافًا مضاعفة، ولم يبين هنا قدر هذه الأضعاف الكثيرة، ولكنه بين في موضع آخر أنها تبلغ سبعمائة ضعف، وتزيد عن ذلك؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

والمقصود أن الآية قد اشتملت على ألوان من الحض على الإنفاق في وجوه الخير، ومن ذلك التعبير بالاستفهام في ذاته؛ لأنه للتنبيه، وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة، ومن ذلك أيضًا التعبير بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي﴾ إذ لا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكأن المخاطب لعظم شأنه من شأنه أن يشار إليه، وأن يجمع له بين اسم الإشارة وبين الاسم الموصول، ومن ذلك تسميته ما يبذله الباذل قرضًا، ولمن هذا القرض؟ إنه لله الذي له خزائن السموات والأرض، فكأنه تعالى يقول: أقرضوني مما أعطيتكم، وسأضاعف لكم هذا القرض أضعافًا مضاعفة يوم القيامة ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة، وضم الأجر الكريم إليها، ومن ذلك التعبير عن الإنفاق بالقرض؛ إذ القرض معناه: إخراج المال، وانتظار ما يقابله من بدل[(٢)].

ونظير الآية السابقة، قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾[الحديد: ١١].

فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازى عليه أضعافًا مضاعفة؟ وسمي ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا حثًا للنفوس، وبعثًا لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولابد، طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض مليء، وفيٌّ محسن، كان أبلغ في طيب قلبه، وسماحة نفسه.

فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه، وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم

---

(١) تفسير الألوسي ج٢٠/ ص٣١٧.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٤٠٨٨.

أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم، وعطاء كريم، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان؛ وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها، وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضًا، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة، ولكن قرض إحسان إلى المقرض، واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله، واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم.

وأشار الله في هذا إلى شيئين: إلى الإخلاص في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ يعني: لا يرى سوى الله عز وجل، والمتابعة في قوله: ﴿حَسَنًا﴾ لأن العمل الحسن ما كان موافقًا للشريعة الإسلامية، والإخلاص والمتابعة هما شرطان في كل عمل، ووصف الله تعالى الإنفاق في سبيله بالقرض تشبيهًا بالقرض الذي يقرضه الإنسان غيره؛ لأنك إذا أقرضت غيرك فإنك واثق من أنه سيرده عليك، هكذا أيضًا العمل الصالح سيرد على الإنسان بلا شك.

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ولهذا المنفق فضلًا عن كل ذلك أجر كريم عند خالقه، لا يعلم مقداره إلا هو تعالى، والظاهر أن هذا الأجر هو المغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

وقد جعل الإنفاق سبب للغفران كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (**الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار**)[١].

وقد جاء أنه لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض؟! قال: (نعم يا أبا الدحداح)، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي، فقد أقرضته ربي عز وجل. هكذا كان امتثال الصحابة لهذه الآية، أما اليهود فإنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمران: ١٨١].

فقد روي أنه عليه الصلاة السلام لما كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع، يدعوهم إلى الإسلام، وإقام

(١) تفسير القرآن للعثيمين ١٥/ ٢١.

الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضًا حسنًا، قال فنحاص: إن الله فقير حتى سألنا القرض، فلطمه أبو بكر رضي الله عنه في وجهه، وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجحد ما قاله، فنزلت الآية، ونسب القول إلى الجمع مع كون القائل واحدًا لرضا الباقين بذلك[(١)].

رابعًا: الوعيد الشديد لمن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله:

توعد الله تعالى كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله بعذاب أليم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة: ٣٤-٣٥].

وهذا إخبار من الله تعالى عن الكنوز وأصحابها يوم القيامة، وما يتعلق باليوم الآخر نقبله كما هو، ويصح أن نقول: إنه تصوير لحالهم، تسببه عاقبة أمرهم بمن يكوون بذهبهم وفضتهم.

فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ يحتمل أن يراد بهم: أولئك الأحبار والرهبان السابق ذكرهم في نفس الآية، فيكون قد وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس، بقوله تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ووصفهم أيضًا بالبخل الشديد والامتناع من إخراج الواجبات عن أموال أنفسهم، بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ ويحتمل أن يراد بهم: المسلمون الذين يجمعون المال ولا يؤدون حقه، ويكون اقترانهم بالمرتشين من اليهود والنصارى تغليظًا، ودلالة على أن من يأخذ من أهل الكتاب السحت، ومن لا يعطي من المسلمين زكاة ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم، واحتمال أن يراد بذلك الجميع، وهو كل من كنز المال ولم يخرج منه الحقوق الواجبة، سواء كان من الأحبار والرهبان أو كان من المسلمين.

والكنز بفتح الكاف مصدر (كنز) إذا ادخر مالًا. وكل شيء غمزته في وعاء أو أرض فقد كنزته، واكتنز: اجتمع وامتلأ[(٢)]. يقال: هذا جسم مكتنز الأجزاء إذا كان مجتمع الأجزاء، ويطلق على المال من

(١) أخرجه الترمذي في أبواب السفر، باب ما ذكر في فضل الصلاة ٢/ ٥١٢، ٦١٤، وأحمد ٢٣/ ٤٢٥، ١٥٢٨٤، وصححه الألباني في التعليق الرغيب ٣/ ١٥ و١٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦٣.

الذهب والفضة الذي يخزن، وعلى كل شيء ثمين، سواء دفن في باطن الأرض أو لم يدفن، ولكن شاع استعماله فيما يدفن في باطن الأرض، ولكن شيوعه لا يمنع أصل إطلاقه، ولا يمنع الشيوع من أن يطلق على الأصل اللغوي، ولقد قال شيخ المفسرين الطبري: «الكنز: كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها»[1].

والمعنى: أنهم يجمعونهما ويحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن، أو بوجه آخر، وسمي الذهب ذهبًا لأنه يذهب ولا يبقى، وسميت فضة لأنها تنفض، أي: تتفرق ولا تبقى، وحسبك بالاسمين دلالة على فنائهما، وأنه لا بقاء لهما[2].

وخص الذهب والفضة بالذكر لأنهما الأصل الغالب في الأموال، ولأنهما مقياس التقدير لكل الأموال، ولأنهما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما، وقد قال في ذلك الزمخشري: «إنهما قانون التمول، وأثمان الأشياء، ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال، فكان ذكر كنزهما دليلًا على ما سواهما»[3].

واختلف أهل العلم في معنى الكنز ها هنا، فقال بعضهم: هو كل مال وجبت فيه الزكاة ولم تؤد زكاته وإن لم يكن مدفونًا، قالوا: وعنى بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا يؤدون زكاتها.

وقال آخرون: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أديت منه الزكاة أو لم تؤد، وقال آخرون: الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه إليه. ولعل الأقرب هو القول الأول، وهو أن الكنز هو: كل مال وجبت فيه الزكاة ولم تؤد زكاته وإن لم يكن مدفونًا.

قال الطبري بعد أن ذكر هذه الأقوال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة القول الذي ذكر عن ابن عمر: من أن كل مالٍ أديت زكاته فليس بكنز يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر، وأن كل مالٍ لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب مستحقٌّ وعيد الله، إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وإن قل، إذا كان مما يجب فيه الزكاة»[4].

والوعيد منوط بالكنز وعدم الإنفاق، فليس الكنز وحده بمتوعد عليه، بل الوعيد على الأمرين مجتمعين، لا على أمر واحد منهما، فليس الوعيد على الكنز لذات الكنز، وإنما الوعيد على الأمرين معًا، على الكنز وعدم الإنفاق في سبيل الله، فإذا وجدا معًا كان التبشير بالعذاب الأليم، وكان الوعيد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٤٦.
(٢) القاموس المحيط ١/ ٦٧٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٢٥.
(٤) تفسير روح البيان ٣/ ٣١٨.

الشديد لمن يمنع الإنفاق مع أنه يكنز المال؛ ولذا تضاربت الروايات على أن من يعطي الزكاة لا يكون عليه إثم الكانزين، بل إنه لا يعد كانزًا من يخرج حقه في سبيل الله، وإنما الكانز هو الجامع للمال الذي يمنع حقه.

وقد ورد أن الإنفاق يمنع إثم الكانز الذي يجمع المال، بل قد ورد في الأثر الصحيح: (نعم المال الصالح للمرء الصالح)[1].

كما أن في الآية إشارة إلى أن المال من الذهب والفضة ينبغي ألا يكنز، بل يجب أن يخرج للاستغلال الحلال، بالاتجار والصناعة والزراعة، ولا يبقى في الخزائن، كالماء العطن الذي لا ينتفع به.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وضع الوعيد لهم بالعذاب موضع البشارة بالتنعم لغيرهم، وهذا على سبيل التهكم عليهم[2]؛ لأن العذاب الأليم لا يبشر به، بل يهدد به، فلأنهم كانوا يرتقبون خيرًا في الآخرة من تكاثرهم في المال واكتنازه، فجاءت العقبى غير ما يرتقبون.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: أنها تحول إلى صفائح ويحمى عليها، ثم تكوى بها جباههم، والحمي: شدة الحرارة، يقال: حمي الشيء إذا اشتد حره.

والضمير المجرور بـ(على) عائد إلى (الذهب والفضة) باعتبار أنها دنانير أو دراهم وهي متعددة، وبني الفعل للمفعول لعدم تعلق الغرض بالفاعل، فكأنه قيل: يوم يحمي الحامون عليها، وأسند الفعل المبني للمفعول إلى المجرور لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول المحمي لظهوره؛ إذ هو النار التي تحمى، وعدي بـ(على) الدالة على الاستعلاء المجازي لإفادة أن الحمي تمكن من الأموال بحيث تكتسب حرارة المحمي كلها، ثم أكد معنى التمكن بمعنى الظرفية التي في قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فصارت الأموال محمية عليها النار، وموضوعة في النار، وبإضافة النار إلى جهنم علم أن المحمي هو نار جهنم التي هي أشد نار في الحرارة، فجاء تركيبًا بديعًا من البلاغة والمبالغة في إيجاز[3].

وقوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ الكي: أن يوضع على الجلد جمر أو شيء مشتعل.

وقوله: ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ والمعنى: تعميم جهات الأجساد بالكي، فإن تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكي، فيحصل مع تعميم الكي إذاقة لأصناف من الآلام، وسلك في التعبير عن التعميم مسلك الإطناب بالتعداد لاستحضار حالة ذلك العقاب الأليم تهويلًا

(١) الكشاف ٢/ ٤١٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٧.
(٣) أخرجه أحمد ٢٩/ ٢٩٨، ١٧٧٦٣، وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر ١/ ٢٢، ١٩.

لشأنه، فلذلك لم يقل: فتكوى بها أجسادهم فقط، وإنما أطنب[1].

وقيل: إنما تكوى هذه الأعضاء دون غيرها؛ لأن الغني إذا رأى الفقير الطالب للزكاة كان يعبس جبهته، وإذا بالغ في السؤال يعرض عنه بجنبه، وإذا بالغ يقوم من موضعه ويولي ظهره، ولم يعطه شيئًا غالبًا، أو لأن مقصود الكانز من جمع المال لما كان طلب الوجاهة بالغنى فتعلق الكي بأعلى وجهه وهو الجبهة، ولما قصد به أيضًا التنعم بالمطاعم الشهية التي ينتفخ بسببها جنباه، وبالملابس البهية التي يلقيها على ظهره تعلق الكي بالجنوب والظهور أيضًا[2].

والمقصود أن الآيتين فيهما تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين من التشبه بالأحبار والرهبان في أكل أموال الناس بالباطل وكنز المال، وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله، وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، والنهي عن الشيء أمر بضده، وكلا الأمرين مذموم.

ومن الآيات التي تدل على الوعيد لمن يبخل عن الإنفاق في سبيل الله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[آل عمران: ١٨٠].

أي: لا يظنن الذين يبخلون بما أنعم الله به عليهم تفضلًا منه من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده: أن هذا البخل خير لهم، بل هو شرٌّ لهم؛ لأن هذا المال الذي جمعوه سيكون طوقًا من نار يوضع في أعناقهم يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى هو مالك الملك، وهو الباقي بعد فناء جميع خلقه، وهو خبير بأعمالكم جميعها، وسيجازي كلًا على قدر استحقاقه.

ومدلول هذه الآية عام، فهو يشمل اليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم، كما يشمل غيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ويحسبون أن هذا البخل خير لهم، يحفظ لهم أموالهم، فلا تذهب بالإنفاق.

---

(١) انظر: تفسير روح البيان ٨/ ٣٢٩، وروح المعاني ٣/ ٩١، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/ ١٩٨، وفتح القدير ٥/ ٥٧٨، ومفردات ألفاظ القرآن ٢/ ٤٦٧، وزهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١/ ٣٢٩٤.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٨٤٢.

أما شمولها لمنع الزكاة فإن لم يكن بعموم صلة الموصول إن كان الموصول للعهد لا للجنس فبدلالة فحوى الخطاب، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ تأكيد لنفي كونه خيرًا، وجملة: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ واقعة موقع العلة لقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ و(يطوقون) يحتمل أنه مشتق من الطاقة، وهي تحمل ما فوق القدرة، أي: سيحملون ما بخلوا به، أي: يكون عليهم وزرًا يوم القيامة، والأظهر أنه مشتق من الطوق، وهو ما يلبس تحت الرقبة، فوق الصدر، أي: تجعل أموالهم أطواقًا يوم القيامة، فيعذبون بحملها، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم: (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)[١].

والعرب يقولون في أمثالهم: تقلدها -أي: الفعلة الذميمة- طوق الحمامة، وعلى كلا الاحتمالين، فالمعنى أنهم يشهرون بهذه المذمة بين أهل المحشر، ويلزمون عقاب ذلك.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تذييل لموعظة الباخلين وغيرهم بأن المال مال الله، وما من بخيل إلا سيذهب ويترك ماله، والمتصرف في ذلك كله هو الله، فهو يرث السماوات والأرض، أي: يستمر ملكه عليهما بعد زوال البشر كلهم، المتفعين ببعض ذلك، وهو يملك ما في ضمنها تبعًا

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٨٤٢.

لهما، وهو عليم بما يعمل الناس من بخل وصدقة، فالآية موعظة ووعيد ووعد؛ لأن المقصود لازم قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾[٢].

ومن الوعيد ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء: ٣٧].

ونظيرها: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الحديد: ٢٤].

وفي هذا بيان لمن لا يحبهم الله وهم أهل الكبر والفخر، بذكر صفتين قبيحتين لهم، وهما البخل الذي هو منع الواجب، والأمر بالبخل والدعوة إليه، فهم لم يكتفوا ببخلهم، فأمروا غيرهم بالبخل الذي هو منع الواجب، وعدم بذله، والعياذ بالله من هذه القبائح[٣].

فيكون قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: الذين يمتنعون عن الإنفاق والعطاء مما رزقهم الله، ويأمرون غيرهم بالبخل، أي: يجمعون بين الأمرين الذميمين، اللذين كل منهما كافٍ في الشر، البخل وهو منع الحقوق الواجبة،

(٢) تفسير روح البيان ٣/ ٣١٨.
(٣) أخرجه البخاري في المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض ٢٣٢١، ومسلم في المساقاة، باب تحريم الظلم ٤٢٢٢.

ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم، وتوليهم عنها.

واختلف العلماء في نزول الآية ومعناها، فقال أكثرهم: نزلت في اليهود، كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يبينوها للناس، وهم يجدونها مكتوبة عندهم في التوراة.

وقال السدي: هي في المنافقين، الذين قد قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ﴾ [المنافقون: ٧].

وقيل: في مشركي مكة، المتفقين على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم [١].

والصواب أن المراد بالذين يبخلون: كل من يبخل بماله أو بعمله، فكأنه تعالى يقول: والله لا يحب الذين يبخلون بما أعطاهم من فضله، بخلًا يجعلهم لا ينفقون شيئًا منه في وجوه الخير؛ لأن حبهم لأموالهم جعلهم يمسكونها، ويشحون بها شحًا شديدًا، ولا يكتفون بذلك، بل يأمرون غيرهم بالبخل والشح.

وعلى رأس هؤلاء الذين لا يحبهم الله تعالى المنافقون، فقد كانوا يبخلون بأموالهم عن إنفاق شيء منها في سبيل الله، وكانوا يتواصون بذلك فيما بينهم، فقد قال سبحانه في شأنهم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٨٦٦.

أنواع الإنفاق ومجالاته

تعددت أنواع الإنفاق ومجالاته التي تحدث عنها القرآن، وهذا ما ستتحدث عنه فيما يأتي:

أولًا: الإنفاق الواجب:

ذكر القرآن الكريم أنواعًا من الإنفاق الواجب، وبينت السنة شيئًا منه، وينحصر الإنفاق الواجب في الأنواع الآتية:

١ . الزكاة المفروضة.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، وفي الشرع: هي دفع مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، تعبدًا لله عز وجل، وسميت زكاة لأنها تزكي الإنسان وماله[١].

وهي ركن من أركان الإسلام، ومبانيه العظام، وقد قرنت بالصلاة، وأمر الله بأدائها في آيات كثيرة، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

والخطاب في قوله: ﴿خُذْ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم، ولمن جاء بعده من خلفاء الإسلام، وفي الآية إشارة إلى أن الأئمة بعده صلى الله عليه وسلم هم نوابه، وقائمين بما كان يقوم به، فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه الصلاة والسلام، وظاهر الآية للوجوب، فدل هذا النص على أن أخذها واجب.

وفي الآية دلالة على أن هذه الزكاة يتولى أخذها وتفرقتها الإمام، ومن يلي من قبله، والدليل عليه: أن الله تعالى جعل للعاملين سهمًا فيها؛ وذلك يدل على أنه لابد في أداء هذه الزكوات من عامل، والعامل هو الذي نصبه الإمام لأخذ الزكوات، فدل هذا النص على أن الإمام هو الذي يأخذ هذه الزكوات، وتأكد هذا النص بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[٢].

وقال: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ولم يقل: خذ أموالهم؛ لأن المراد بعض المال لا كله، فـ(من) للتبعيض، مما يدل على أن القدر المأخوذ بعض تلك الأموال لا كلها.

ومقدار ذلك البعض غير مذكور هاهنا بصريح اللفظ، بل المذكور هاهنا قوله: ﴿صَدَقَةً﴾ ومعلوم أنه ليس المراد منه التنكير حتى يكفي أخذ أي جزء كان وإن كان في غاية القلة، مثل الحبة الواحدة من الحنطة، أو الجزء الحقير من الذهب، بل المراد صدقة معلومة الصفة والكيفية والكمية عندهم، حتى يكون قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأخذ تلك الصدقة المعلومة، فحينئذٍ يزول الإجمال، ومعلوم أن تلك الصدقة ليست إلا الصدقات التي

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ٥/ ٢٧٦.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٣/ ٤١٢.

وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين كيفيتها[(١)].

فيكون المراد بالصدقة هنا: الزكاة المفروضة، فالصدقة تطلق على الفرض والنفل، كما هاهنا، وكما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾[التوبة: ٦٠]... الآية.

بينما الزكاة لا تطلق إلا على الفرض فقط، ومن امتنع عن أداء الزكاة أخذها الإمام كرهًا، ووضعها موضعها.

والظاهر في قوله: ﴿أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ العموم، فتجب الزكاة في جميع المال حتى في الديون، وفي مال الركاز، وفي مال الضمان.

وقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم﴾ معنى التطهير: إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب، ومعنى التزكية: المبالغة في التطهير، والمقصود أن الزكاة تزكي الإنسان في أخلاقه وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد والكرماء، وتكفر سيئاته، فهي تطهر ظاهره وباطنه، يتزكى أولًا من الشرك بالنسبة لمعاملة الله، فيعبد الله مخلصًا له الدين، لا يرائي ولا يسمع ولا يطلب جاهًا ولا رئاسة، فيما يتعبد به الله عز وجل، وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة، ويتزكي في اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، بحيث لا يبتدع في شريعته، لا بقليل ولا كثير، لا في الاعتقاد ولا في الأقوال ولا في الأفعال[(٢)]. وكون إخراج الزكاة فيها تطهيرًا لهم وتزكية لأن المال مادة الشهوات، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأخذ من ذلك ليكون أول حالهم التجرد لتنكسر قوى النفس، وتضعف أهواؤها وصفاتها، فتتزكى من الهيئات المظلمة، وتتطهر من خبث الذنوب، ورجس دواعي الشيطان[(٣)].

فتكون الحكمة في إيجاب الزكاة هو أن المال محبوب بالطبع وهو سبب لحصول القدرة على المشتهيات والمآرب، لكن الاستغراق في حبه يذهل النفس عن حب الله، وعن التأهب للآخرة، فاقتضت الحكمة الإلهية تكليف مالك المال إخراج طائفة منه كسرًا للنفس، ومنعًا من انصبابها بالكلية إليه، فإيجاب الزكاة علاج صالح لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب، وهو المراد من قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ أي: عن دنس الاستغراق في حب المال، وأيضًا إن كثرة الأموال توجب القوة والقدرة والشدة، وتزايد تلك اللذات يدعو الإنسان إلى تحصيل الأموال المتزايدة، فتصير المسألة دورية لا مقطع لها، ولا آخر، فأثبت

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ١/ ١٥٢، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ١/ ٣٨٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٧٧.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٣٦.

الشرع لها مقطعًا وآخرًا، وهو صرف طائفة من المال في طلب مرضاة الله؛ ليصرف النفس عن ذلك الطريق الظلماني الذي لا آخر له، ويفضي في الأغلب إلى الطغيان، وقساوة القلب[(١)].

فإن قيل: إن الزكاة إنما وجبت لكونها طهرة من الآثام، وصدور الآثام لا يمكن حصولها إلا من البالغ دون الصبي، فوجب أن تجب الزكاة في مال البالغ دون الصبي، فالجواب: أنه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقًا.

ومن أدلة فرض الزكاة في القرآن: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦٠].

فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ قيل: المراد بالصدقات هنا: الزكاة الواجبة؛ بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد، فيجوز صرفها في غير الأصناف الثمانية، كبناء المساجد والمدارس وغير ذلك.

ولأن (أل) في الصدقات للعهد الذكري، والمعهود هو الصدقات الواجبة، التي أشار إليها القرآن بقوله قبيل هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[التوبة: ٥٨].

التي جاءت في المنافقين الذين عابوا النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات، فإن نالهم نصيب منها رضوا وسكتوا، وإن لم يصبهم حظ منها سخطوا عليه وعابوه؛ ولهذا جاء خص مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها.

ويبدو أن لفظ الصدقات في الآية عام، بحيث يتناول كل صدقة، إلا أن الزكاة المفروضة تدخل فيه دخولًا أوليًا.

والمراد: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف...، وهذه الأصناف الثمانية ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين، ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه، وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء؛ لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية[(٢)].

فهؤلاء الثمانية هم أهلها، فإذا دفعت إلى جهة من هذه الجهات أجزأت، ووقعت

(١) فتح القدير ٢/ ٥٨٠.

(٢) تفسير الألوسي ٧/ ٣٦٨.

موقعها، وإن دفعت في غير هذه الجهات لم تجز؛ لأن هذه القسمة فريضة، فرضها الله وقدرها، والله عليم بمصالح عباده، حكيم في تدبيره وشرعه؛ ولهذا ذيل الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وكأنه لما ذكر تعالى من يعيب الرسول صلى الله عليه وسلم في تقسيم الصدقات بأنه يعطي من يشاء ويحرم من يشاء، وكانوا يسألون فوق ما يستحقون، بين تعالى مصرف الصدقات، وأنه صلى الله عليه وسلم إنما قسم على ما فرضه الله تعالى، قال ابن كثير: «لما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي صلى الله عليه وسلم، ولمزهم إياه في قسم الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها، وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين»[١].

ولفظه: (إنما) إن كانت وضعت للحصر، فالحصر مستفاد من لفظها، وإن كانت لم توضع للحصر فالحصر مستفاد من الأوصاف؛ إذ مناط الحكم بالوصف يقتضي التعليل به، والتعليل بالشيء يقتضي الاقتصار عليه.

ويستفاد الحصر بالثمانية الأصناف أيضًا من الاقتصار عليها في مقام البيان؛ إذ لا تكون صيغة القصر مستعملة للحقيقي والإضافي معًا إلا على طريقة استعمال المشترك في معنييه[٢].

وعموم قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ يتناول الكافر والمسلم، إلا أن الأخبار دلت على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى الفقراء والمساكين وغيرهم إلا إذا كانوا مسلمين، ولعل مرجع الضمير في قوله: (تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم)[٣] يشهد لذلك، بخلاف صدقة التطوع.

ومن أدلة فرض الزكاة في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: المفروضة، والأمر للوجوب، وقد تكرر هذا الأمر في عدة آيات من القرآن المكي والمدني، والمخاطب فيها قد تعدد أيضًا، فجاء للمسلمين، ولبني إسرائيل، وهذا دليل على جوب الزكاة على من كان قبلنا، ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم.

ومن يتتبع آيات القرآن الكريم يجد أن الزكاة قد قرنت بالصلاة في أكثر من موضع، وهذا دليل على كمال الاتصال بينهما؛ لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه

(١) تفسير النيسابوري ٤/ ١٧٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٥.



للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه: لأقاتلن بين من فرق بين الصلاة والزكاة[1].

ومن أدلة فرض الزكاة في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [المعارج: ٢٤].

وهذا وإن كان خبرًا في سياق المدح كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤].

إلا أنه يفهم منه الوجوب؛ لأنه سماه حقًا، فيكون المقصود به الزكاة، ولا يمنع ذلك من أن تكون السورة مكية، فقد يكون أصل مشروعية الزكاة بمكة، ثم أتى تفصيل أحكامها بالمدينة، عن طريق السنة النبوية المطهرة.

وقد قيل في المراد بالحق المعلوم هاهنا: ما أوجبوه على أنفسهم من دفع جزء من أموالهم للمحتاجين على سبيل التقرب إلى الله تعالى، وشكره على نعمه، وتسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات باسم (الحق) للإشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم، من فرط رغبتهم من مواساة إخوانهم، ومعنى كون الحق معلومًا: أنه يعلمه كل واحد منهم ويحسبونه، ويعلمه السائل والمحروم بما اعتاد منهم.

إلا أن القول الأول: وهو أن المراد بالحق الزكاة- أصح؛ لأنه وصف الحق بأنه معلوم، والمعلوم هو المقدر، وسوى الزكاة ليس بمعلوم، إنما هو قدر الحاجة، وذلك يقل ويكثر[2].

وسماه الله هنا في هذه الآية (حق) وسماه في آيات كثيرة (زكاة) ولكنه أجمل مقداره، وأجمل الأنواع التي فيها الحق، ووكلهم في ذلك إلى حرصهم على الخير، وكان هذا قبل شرع نصابها ومقاديرها، ثم شرعت الزكاة، وبينت السنة نصابها ومقاديرها.

ومجيء الصلة جملة اسمية ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ لإفادة ثبات هذه الخصلة فيهم، وتمكنها منهم؛ دفعًا لتوهم الشح في بعض الأحيان؛ لما هو معروف بين غالب الناس من معاودة الشح للنفوس.

والمراد بالسائل: هو الذي يسأل، والمحروم: الذي لا يسأل الناس، تعففًا مع احتياجه، فلا يتفطن له كثير من الناس، فيبقى كالمحروم، وأصل المحروم: الممنوع من مرغوبه...، وهذه الصفة للمؤمنين مضادة صفة الكافرين المتقدمة، في قوله: ﴿وَجَمَعَ

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٨٦٩.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٤٧١.

﴿فَأَوْعَىٰ﴾[المعارج: ١٨][1].

٢. النفقة في الجهاد.

ومن النفقات الواجبة النفقة في الجهاد، حيث أمر الله بالإنفاق في الجهاد في جميع الأوقات، وبأنواع الصدقات المتعددة، سواء كان من الزكاة المفروضة أو من غيرها، ووعد على ذلك الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[التوبة: ٤١].

فقوله: ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أمر بالجهاد، وحقيقته: بذل الجهد والطاقة، وهو قسمان، جهاد بالنفس وجهاد بالمال، أما الجهاد بالنفس فمعلوم، وهو من فروض الكفايات، إلا عند هجوم العدو فيصير متعينًا.

وأما بالمال فبزاده وراحلته إذا قدر على الجهاد بنفسه، فإن عجز عنه بنفسه فيبذل المال بدلًا عنه، فمن استطاع الجهاد بالمال والنفس وجب عليه الجهاد بهما، ومن قدر على أحدهما دون الآخر وجب عليه ما كان في قدرته منهما، إلى هذا ذهب كثير من العلماء، وقيل: هو إيجاب للقسم الأول فقط[2].

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال الشوكاني: «فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال، وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو ويدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض، أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين»[3].

٣. الإنفاق على الزوجة.

النفقة على الزوجة بالمعروف واجبة بنص القرآن، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: ٢٣٣].

أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات، وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره[4].

قال ابن رشد رحمه الله: «واتفقوا على أن من حقوق الزوجة على الزوج: النفقة والكسوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ولما ثبت من قوله عليه الصلاة والسلام: (ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[5]، ولقوله لهند:

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٥٦٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٦٧.
(٣) فتح القدير ٢/ ٥٢٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٣٤.
(٥) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ٤/ ٣٩، ٣٠٠٩.

(خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)»[1][2].

فقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: الأب، وظاهر الآية أنه لا فرق بين أن تكون الزوجة في حباله أو بائنًا منه، فإن كانت في حباله فلوجوب الإنفاق عليها سببان: الزوجية والإرضاع، وإن لم تكن في حباله فلها سبب واحد وهو الإرضاع، ولا يمتنع أن يكون للحكم الواحد سببان، كما في الزوج يكون ابن عم فيرث بالزوجية والقرابة[3].

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: أنه يرجع إلى العرف في نوع الرزق وكميته وكيفيته وكذلك الكسوة.

ومن المعلوم أن الكفاية بالمعروف تتنوع بحال الزوجة في حاجتها، ويتنوع الزمان والمكان، ويتنوع حال الزوج في يساره وإعساره، فليست كسوة القصيرة الضئيلة ككسوة الطويلة الجسيمة، ولا كسوة الشتاء ككسوة الصيف، ولا كفاية طعام الشتاء مثل طعام الصيف، ولا طعام البلاد الحارة كالباردة، ولا المعروف في بلاد التمر والشعير كالمعروف في بلاد الفاكهة والخبز، فيطعمها في كل بلد مما هو عادة أهل البلد والعرف عندهم.

وقال بعضهم: هي مقدرة بالشرع نوعًا وقدرًا، مدًا من حنطة، أو مدًا ونصفًا، أو مدين قياسًا على الإطعام الواجب في الكفارة.

والصواب المقطوع به ما عليه الأمة علمًا وعملًا قديمًا وحديثًا أن تقديرها بالعرف لا بالشرع؛ لقوله في هذه الآية: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام لهند: (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)[4] ولم يقدر لها نوعًا ولا قدرًا، ولو كان ذلك مقدرًا بشرع لبينه لها قدرًا ونوعًا، كما بين فرائض الزكوات والديات[5].

والنفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلابد لها منها؛ لأن بها إقامة المهجة[6].

وهذه النفقة تسقط إذا كانت الزوجة ناشزًا، أي: عاصية لزوجها، كخروجها بدون إذنه، وامتناعها عن إعطائه حقه، وتلزم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٩/ ٥٠٧، ومسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند ١٢/ ٧.

(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢/ ٤٤.

(٣) تفسير القرآن للعثيمين ٥/ ١١٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٠٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٩/ ٥٠٧، ومسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند ١٢/ ٧.

(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٣٣٧.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٥٣.

نفقة المطلقة طلاقًا رجعيًا خلال العدة، فإن طلقها وهي حامل فعدتها إلى وضع الحمل، فيلزمه النفقة عليها والسكنى خلال حملها، ولو طلقها بائنًا، وذلك باتفاق الفقهاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق: ٦].

وأما المطلقة قبل الدخول فلأنه لا عدة عليها فالنفقة ساقطة بلا ريب، وكذلك السكنى، والمتعة المذكورة لها في القرآن هي عوض عن المهر، والملاعنة لا نفقة لها ولا سكنى؛ لأنها إن كانت المطلقة بائنًا كانت مثلها في ذلك، وإن كانت المتوفى عنها زوجها فكذلك، ولا ريب أن فرقتها أشد من فرقة المطلقة بائنًا؛ لأن هذه يجوز نكاحها في حال من الأحوال بخلاف تلك.

والمقصود أن الآية تدل على فرضية الإنفاق للزوجة، والمقصود بالنفقة هو تأمين الحاجات الضرورية التي لابد منها للإنسان؛ كي لا يحتاج إلى الغير، والحاجات الأساسية التي لا يستغني عنها الإنسان في حياته هي: الغذاء والكساء والمسكن، فأما الغذاء ففيه قوام حياة الإنسان وبقاء بنيته الأساسية، فالغذاء يقيم بناءه، ويديم وجوده في الداخل، وأما اللباس أو الكساء ففيه حمايته من الخارج، وأما المسكن فيأوي إليه، ويرتاح فيه، ويحتمي به من عوادي الدهر، فالنفقة الواجبة على الزوج لزوجته لا تتعدى هذه الثلاثة، وما يتبعها من الخدمة، وما تتضرر بتركه.

ومن أدلة القرآن على وجوب نفقة الزوجة أيضًا: قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[النساء: ٣٤].

أي: قائمون على شؤنهن بسبب تفضيله الرجال على النساء بالحزم والعزم والقوة والفتوة وغيرها من الشمائل الشاملة، وبسبب إنفاقهم من أموالهم في نكاحهن كالمهر والنفقة، وهذا أدل على وجوب نفقات الزوجات على الأزواج.

قال ابن كثير: «أي: من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيمًا عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[البقرة: ٢٢٨]... الآية»[1].

وقال القرطبي: «قد جعل الإنفاق عليهن من شرط القوامة، فمتى ما عجز عن نفقتها لم يكن قوامًا عليها، وإذا لم يكن قوامًا عليها كان لها فسخ العقد؛ لزوال المقصود الذي شرع لأجله النكاح»[2].

وأخذ بعض العلماء وجوب نفقة الزوجة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٦٩.

على زوجها من قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[طه: ١١٧].

حيث جاء الخطاب شاملًا لآدم وحواء، ثم خص آدم بالشقاء دونها في قوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ فدل ذلك على أنه هو المكلف بالكد عليها، وتحصيل لوازم الحياة الضرورية لها، من مطعم ومشرب وملبس ومسكن.

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: «وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقيا، يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذٍ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية»[1].

٤ . النفقة على الوالدين.

ومن النفقات الواجبة نفقة الوالد (أب أو أم) الفقير الذي لا مال له ولا كسب على ولده الغني، ذكرًا كان أو أنثى، وتقدر النفقة بالكفاية وسد الحاجة، فإذا كانا غنيين أو لهما مال خاص انتفى سبب وجوب النفقة لهم.

قال ابن المنذر: «أجمع أهل العلم على وجوب نفقة الوالدين اللذين لا كسب لهما ولا مال، سواء أكان الوالدان مسلمين أو كافرين، وسواء كان الفرع ذكرًا أو أنثى»[2]؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان: ١٥].

فإن من إكرام الوالدين والإحسان إليهما أن يقدم لهما ما يحتاجان إليه من مال وغيره، وخاصةً حين يصبحان غير قادرين على العمل، وليس من الإحسان ولا من المصاحبة بالمعروف أن يموت الوالدان جوعًا والولد في سعة من العيش، ولا ينفق عليهما!

ولقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾[البقرة: ٢١٥].

أي: يسألونك عن النفقة، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنهما، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم أعظمهم حقًا عليك، وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما؛ ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٥٣.

(٢) المغني، ابن قدامة ٨/ ٢١٢.

وصلة، ولقوله صلى الله عليه وسلم لمن جاء يشكو أباه الذي يريد أن يجتاح ماله: **(أنت ومالك لأبيك)**[١].

٥. النفقة على الأبناء.

وتجب نفقة الطفل الحر الفقير على أبيه[٢] للإجماع على ذلك[٣]، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وهو أمر للأزواج يقضي بوجوب إعطاء المرأة أجرة الرضاع المستلزمة وجوب المؤنة عمومًا من رضاع وغيره[٤].

ولقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فلفظ المولود له يعم الوالد وسيد العبد، ويبين أن الولد لأبيه لا لأمه، والآية توجب رزق الرضيع على أبيه دون غيره[٥].

وقد دلت السنة على ذلك في كثير من الأحاديث، منها: ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لهند: **(خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)**[٦].

وهذا يقتضي لزوم نفقة الولد على أبيه وإلا لما كان لها الأخذ بالمعروف.

ولما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: عندي دينار؟ فقال: **(أنفقه على نفسك)**. قال: عندي آخر؟ فقال: **(أنفقه على ولدك...)** الحديث[٧].

ففي هذا الحديث أمر صلى الله عليه وسلم بالإنفاق على الولد بما فضل عن كفاية النفس، والأمر للوجوب، مما يدل على وجوب إنفاق الأب على أولاده.

وسبب وجوب هذه النفقة هو الولادة؛

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات، باب ما للرجل من مال ولده ٢/ ٧٦٩، ٢٢٩٢، وصححه الألباني في الإرواء ٨٣٨.

(٢) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/ ٤٩٦، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٦١٢، ٦/ ٧٥١، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/ ٦٢، ٦٤، والمبسوط للسرخسي ٥/ ٢٢٢، وفتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٢١٧، ٢٢٠، والقوانين الفقهية، ابن جزي ص١٤٨، ومغني المحتاج ٣/ ٤٤٨، ٤٥١، والمجموع شرح المهذب ١٧/ ١٧٢، ١٧٨، ١٨٠، والمغني، ابن قدامة ٧/ ٥٨٢، ٥٨٤، ٦٢٧، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد ٩/ ٣٩٢، ٣٩٦.

(٣) انظر: مجمع الأنهار في شرح ملتقى الأبحر ١/ ٤٩٦، وبدائع الصنائع ٤/ ٣٢، والمغني، ابن قدامة ٧/ ٥٨٣.

(٤) انظر: مغني المحتاج ٣/ ٤٤٧.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٤/ ١٠٥.

(٦) أخرجه البخاري في النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٩/ ٥٠٧، ومسلم في الأقضية، باب قضية هند ١٢/ ٧.

(٧) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب في صلة الرحم ٥/ ١١٠، والنسائي في الزكاة، باب أي الصدقة أفضل ٥/ ٧٠، وأحمد ٢/ ٢٥١، والحاكم في الزكاة، باب الإعطاء للأقرباء أعظم الأجر ١/ ٤١٥، وصححه الألباني في المشكاة ١٩٤٠.

لأن به تثبت الجزئية والبعضية، والإنفاق على المحتاج إحياء له، ويجب على الإنسان إحياء كله وجزئه، ولأنها قرابة يحرم قطعها، وإذا حرم القطع حرم كل سبب مفضٍ إليه، وترك الإنفاق من ذي الرحم المحرم مع قدرته وحاجة المنفق عليه تفضي إلى قطع الرحم فيحرم الترك.

وإذا حرم الترك وجب الفعل[1]، مما يدل على وجوب الإنفاق على الأولاد، ولأن للأب ولاية على ابنه، مما يدل على استحقاقه النفقة من أبيه[2]، ولأن ولد الإنسان بعضه، فكما يجب على الإنسان أن ينفق على نفسه، فيجب عليه أن ينفق على ولده[3].

٦.النفقة على القريب غير الأبوين والأبناء.

أما نفقة الأقارب غير الأبوين والأبناء فلا تجب النفقة على القريب لقريبه إلا من باب صلة الرحم؛ لعدم ورود دليل يخص ذلك، بل جاءت أحاديث صلة الرحم وهي عامة، والرحم المحتاج إلى نفقة أحق الأرحام بالصلة.

وقيل: بل تجب؛ لأن سبب وجوب هذه النفقة هي القرابة[4] المحرمة للقطع؛ لأنه إذا حرم قطعها حرم كل سبب مفضٍ إليه، وترك الإنفاق من ذي الرحم المحرم[5]، مع قدرته وحاجته تفضي إلى قطع الرحم، فيحرم الترك، وإذا حرم الترك وجب الفعل ضرورة[6].

وهذا هو الصواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[الإسراء: ٢٦].

فقد أمر الله سبحانه بالإحسان إلى القرابة، وإيتائه حقها، ولا ريب أن من كان يتقلب في النعم وقريبه قد أضر به الجوع أو العري فهو غير محسن إليه ولا قائم بحقه، ولما جاء عند أبي داود أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: من أبر؟ قال: **(أمك وأباك، وأختك وأخاك، ومولاك الذي يلي ذلك، حق واجب، ورحم موصولة)**[7].

---

(١) انظر: بدائع الصنائع ٤/ ٣١.
(٢) انظر: المجموع شرح المهذب ١٧/ ١٧٢.
(٣) انظر: المغني، ابن قدامة ٧/ ٥٨٣.
(٤) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/ ٤٨٤، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٥٧٢، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/ ٥٠، والمبسوط للسرخسي ٥/ ١٨٠، وفتح القدير، ابن الهمام ٤/ ١٩٣، ومغني المحتاج ٣/ ٤٢٥، وحاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب ٢/ ٣٤٥، والمغني، ابن قدامة ٧/ ٥٨٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع ٥/ ٤٦٠، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ١/ ٥٢٥.
(٥) الرحم المحرم: هو من لا يحل مناكحته على التأبيد، مثل الأخوة والأخوات وأولادهما. مجمع الأنهر ١/ ٥٠٠.
(٦) انظر: بدائع الصنائع ٤/ ١٦، ٣١.
(٧) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في بر الوالدين ٤/ ٣٣٦، ٤٥، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر ص ٣٢.

٧. النفقة على الرقيق.

ومن النفقات الواجبة أن ينفق السيد على مملوكه ذكورًا أو إناثًا بالمعروف، سواء أكان المملوك صحيحًا أم سقيمًا، أو أعمى، أو زمنًا، أو مدبرًا، أو مستولدًا، أو مستأجرًا، أو معارًا، أو قنًا، أو مشتركًا، أو مبعضًا، أو صغيرًا أو كبيرًا، بخلاف المكاتب فنفقته لا تجب على سيده؛ لاستقلاله بالكسب[١].

وسبب وجوب هذه النفقة: الملك[٢] الموجب للاختصاص بالمملوك انتفاعًا وتصرفًا؛ ليكون به صلاحه ودوامه، ومن ملك منفعة شيء لزمته مؤنته؛ إذ الخراج بالضمان؛ ولأن الرقيق لا مال له وما في يده لمولاه، فلا يجوز للرقيق أن ينفق على نفسه من مال غيره، مما يجعل الإنفاق واجبًا على سيده[٣].

وقد دل الكتاب على ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء: ٣٦].

ففي هذه الآية أمر بالإحسان على المماليك، ومطلق الأمر يحمل على الوجوب؛ لأن الإنفاق عليهم من الإحسان بهم، فكان واجبًا، غير أنه قد يرد أن الأمر ليس للوجوب حيث يكون للندب.

ويجاب على ذلك بأنه لو سلم بذلك لكان الأمر بالإحسان إليهم على وجه الندب؛ لغرض توسيع النفقة بعد وجوب أصلها؛ لأن المرء لا يترك أصل النفقة على مملوكه إشفاقًا، ومحافظة على بقاء ملكه، وقد أمر بالإنفاق عليه حتى لا يقتر النفقة عليه؛ لكونه مملوكًا في يده، فأمر الله عز وجل السادات بتوسيع النفقة على مماليكهم شكرًا لما أنعم عليهم من جعل من هو في جوهرهم وأمثالهم في الخلقة يقومون بخدمتهم[٤].

أما من السنة فقد قال صلى الله عليه وسلم: (إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس،

(١) انظر: المبسوط ٥/ ١٩٩، وبلغة السالك ١/ ٥٢٥، وحاشية الدسوقي ٢/ ٥٢٢، وحاشية العدوي ٢/ ١٢٤، ومغني المحتاج ٣/ ٤٦٠، ونهاية المحتاج ٧/ ٢٣٦، وقليوبي وعميرة ٤/ ٩٢.

(٢) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/ ٤٨٤، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٥٧٢، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/ ٥٠، والمبسوط للسرخسي ٥/ ١٨٠، وفتح القدير لابن الهمام ٤/ ١٩٣، ومغني المحتاج ٣/ ٤٢٥، والمغني لابن قدامة ٧/ ٥٨٤، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ١/ ٥٢٥.

(٣) انظر: بدائع الصنائع ٤/ ٣٩، والمغني لابن قدامة ٧/ ٥٨٥.

(٤) انظر: بدائع الصنائع ٤/ ٣٩.

ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[1].

ففي هذا الحديث أمر بالإنفاق على الرقيق، والأمر للوجوب، مما يدل على وجوب نفقة الرقيق على مالكه.

ثانيًا: الإنفاق المندوب:

ومن أنواع الإنفاق المذكورة في القرآن الكريم الإنفاق المندوب، فقد دعا الإسلام إلى البذل وحث عليه، في أسلوب يبعث في النفوس بواعث الخير، ويثير فيها معاني البر والإحسان، وجاء ما يدل على عظم الأجر والثواب لمن يعود نفسه الإنفاق في سبيل الله بشتى أنواعه وأحواله وزمانه ومكانه، بل لم تقتصر الصدقة في نظر الشرع على نوع معين من أعمال البر، وإنما القاعدة العامة: أن كل معروف صدقة.

ومن الأدلة على ذلك في القرآن: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

فهذه الآية قد اشتملت على خمسة عشر نوعًا من أنواع البر الذي يهدي إلى الحياة السعيدة في الدنيا، وإلى رضا الله تعالى في الآخرة، وقد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة، جامعة لكل خير، بر في العقيدة، وبر في العمل، وبر في الخلق، فأما بر العقيدة فقد بينته أكمل بيان في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ وأما بر العمل فقد بينته في قوله: ﴿وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وأما بر الخلق فقد بينته في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ولا شك أن إنفاق المال في تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم، ويكون مظهرًا من أفضل مظاهر العمل الصالح الذي يرضي الله تعالى .

ومعنى الآية: ليس الخير عند الله تعالى في التوجه في الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، وإنما الخير كل الخير هو إيمان من آمن بالله وصدق به معبوده وحده لا شريك له، وآمن بيوم البعث والجزاء وبالملائكة جميعًا،

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ١/ ٨٤، ومسلم في الإيمان، باب صحبة المماليك ١١/ ١٣٣، ١٣٤.

وبالكتب المنزلة كافة، وبجميع النبيين من غير تفريق، وأعطى المال تطوعًا ذوي القربى واليتامى المحتاجين الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، والمساكين الذين أرهقهم الفقر، والمسافرين المحتاجين الذين بعدوا عن أهلهم ومالهم، والسائلين الذين اضطروا إلى السؤال لشدة حاجتهم، وأنفق في تحرير الرقيق والأسرى، وأقام الصلاة، وأدى الزكاة المفروضة.

والضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يعود إلى المال، أي: أعطى المال وبذله عن طيب خاطره حال كونه محبًا له راغبًا فيه؛ لأن الإعطاء والبذل في هذه الحالة يدل على قوة الإيمان، وصفاء الوجدان، ويسمو بصاحبه إلى أعلى الدرجات، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢].

وكقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان: ٨].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أفضل الصدقة ما كان في حال الصحة؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يكون مظنة الحاجة إلى المال، فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: **(أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان)**[١].

وحث سبحانه وتعالى على إطعام الأيتام والمساكين، ويزداد ذلك فضلًا بكونه في يوم ذي مجاعة؛ لأن إخراج المال في وقت القحط أثقل على النفس، وأوجب لجزيل الأجر، قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٦].

ففي هذه الآيات بيان لفضيلة من الفضائل التي تؤدي إلى اقتحام العقبة، تتمثل في فك الرقاب، وإطعام المحتاجين، في يوم يشتد فيه جوعهم، والمسغبة: المجاعة، وهو مصدر ميمي، بمعنى السغب، يقال: سغب الرجل كفرح ونصر إذا أصابه الجوع، ووصف اليوم بذلك على سبيل المبالغة، كما في قولهم: نهاره صائم. وقيد سبحانه اليتيم بكونه ذا مقربة؛ لأنه في هذه الحالة يكون له حقان: حق القرابة وحق اليتم، ومن كان كذلك فهو أولى بالمساعدة من غيره.

تنوع الإنفاق في وجوه الخير:

الإنفاق في وجوه الخير باب واسع، وصدقات التطوع أنواع متعددة، فمنها ما يسمى بالصدقة الجارية، أو الوقف الخيري الدائم الإنتاج لصالح من وقف عليهم، ومن

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح ٢/ ١١٠، ١٤١٩، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم ١٠٣٢.

ذلك الواجب الاجتماعي كمد يد المساعدة لكل محتاج، وكإنشاء دور المعوقين، وإغاثة الملهوفين، وإشباع الجائعين، وكسوة العارين، وبناء المساجد لفقراء المسلمين، وتشييد المستشفيات لمرضاهم، وحفر الآبار لهم في أي مكان يوجد فيه من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد جاء أن على المسلم في ماله حقوقًا عظيمة غير الزكاة المفروضة.

وكما أن الإنفاق في الخير متنوع، فكذلك المستفيدين من صدقة التطوع أيضًا شرائح متنوعة، بينهم قاسم مشترك ألا وهو الحاجة والعوز والفقر، والمرض والعجز، واليتم والترمل، وكبر السن، حتى بهيمة الأنعام يمكن أن تستفيد من صدقة التطوع.

المفهوم الشامل للصدقة:

ويجدر التنبيه هنا إلى أن الإنفاق التطوعي أيضًا ليس محصورًا في المال فقط، بل قد جاء أن قضاء الحوائج صدقة وأنه عبادة، فجهد الإنسان وعمله في الخير يعد من الصدقات التطوعية، ولا شك أن المال هو الأساس في صدقة التطوع، لكن المسلم أحيانًا لا يستطيع دفع المال بسبب حاجته له أو فقره أو نحو ذلك، أو بأن يكون أخوه المسلم محتاجًا إلى شيء آخر غير المال، ففضل الله واسع، وأجره عظيم، فتقديمك الجهد والعمل والسعي بالجاه لفعل الخير يعد في أحيان كثيرة مثل دفع المال أو أفضل، وفي الحديث: (**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**)[(١)].

ومن هذا الحديث يتبين أن العبرة ومحط النظر هي الغاية لا الوسيلة التي تتخذ لتحصيلها ما دامت مشروعة، ولا غبار عليها؛ إذ الغاية هي نفع المسلم لأخيه المسلم بأي نوع من أنواع النفع المالي أو الجسدي أو المعنوي، فالشأن هو التعاون، وإسداء المعروف، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**)[(٢)].

فنفع المسلم أخاه المسلم صدقة عظيمة خاصة في ظل هذه الحياة التي يبتلى ويمتحن فيها المسلم في كل أمر من أموره؛ ولهذا فمطلوب من كل مسلم أن ينتبه لنفسه ما دام في دار المهلة، فيجتهد في كسب رضا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه ٣/ ١٠٩٠، ٢٨٢٧، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء ٨/ ٣٧، ٦٨٥٧.

ربه ليحوز على جنته، وينجو من عذابه، وذلك عن طريق المساهمة في وجوه الخير والبر، ومجالات الخير والبر واسعة وكثيرة، ومنها نفع المسلم أخاه المسلم، وقضاء حاجته خاصة إن كانت تتعلق بأكله أو شربه أو لباسه أو سكنه أو علاجه أو أي ضرورة من ضروراته.

وهكذا نجد أن الإسلام قد وسع مجال الصدقة وفتح دائرتها بحيث تشمل أعمالًا كثيرة يستطيع المسلم بالنية الصالحة أن يكسب أجورًا عظيمة، فكل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمد به جراح مجروح، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضي دين غارم، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال، أو يهدي حائرًا، أو يعلم جاهلًا، أو يؤوي غريبًا، أو يدفع شرًا عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعًا إلى ذي شيبة، فكل ذلك وغيره كثير وكثير يعد عبادة وقربة يؤجر الإنسان عليه.

كذلك نجد أن الإسلام لم يقصر الصدقات على بني الإنسان، بل يتعداه إلى غيره من المخلوقات كالطيور والحيوانات، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له) قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: (في كل كبد رطبة أجر)**[1].

ومن مجالات صدقة التطوع:

١ـ الصدقة في باب الجهاد في سبيل الله.

الإنفاق في الجهاد في سبيل الله ونصرة الدين ونشر الخير باب واسع، وقد يكون واجبًا، وقد يكون مندوبًا، وقد قال تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الصف: ١١].

فقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿وَتُجَاهِدُونَ﴾ خبر، وقيل: هو خبر بمعنى الأمر، أي: آمنوا وجاهدوا، والتعبير به للإيذان بوجوب الامتثال، كأن الإيمان والجهاد قد وقعا، فأخبر بوقوعهما، والخطاب إذا كان للمؤمنين الخلص، فالمراد تثبتون وتدومون على الإيمان، أو تجمعون بين الإيمان والجهاد، أي: بين تكميل النفس وتكميل الغير وإن كان للمؤمنين ظاهرًا، فالمراد تخلصون الإيمان[2].

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة، باب فضل سقي الماء ٢/ ٨٣٣، ٢٢٣٤، ومسلم في السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم ٢٢٤٤.

(٢) انظر: تفسير الألوسي ٢٠/ ٤٨٩.

وجاء التعبير بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ لإفادة أن ما يذكر بعد ذلك من الأشياء التي تحتاج إلى من يهدي إليها؛ لأنها أمور مرد تحديدها إلى الله تعالى، وتنكير لفظ التجارة للتهويل والتعظيم، أي: هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن، وأطلقت التجارة هنا على الإيمان والعمل الصالح؛ لأنهما يتلاقيان ويتشابهان في أن كليهما المقصود من ورائه الربح العظيم، والسعي من أجل الحصول على المنافع.

وقدم الأموال على الأنفس لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد[1]. أو لأن المقام مقام تفسير وتوضيح لمعنى التجارة الرابحة عن طريق الجهاد في سبيل الله، ومن المعلوم أن التجارة تقوم على تبادل الأموال، وهذه الأموال هي عصب الجهاد، فعن طريقها تشترى الأسلحة والمعدات التي لا غنى للمجاهدين عنها، وفى الحديث الشريف (من جهز غازيًا فقد غزا)[2].

بينما نجد في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[التوبة١١١].

قدم الأنفس على الأموال لأن الحديث هنا في معرض الاستبدال والعرض والطلب والأخذ والعطاء، فقدم سبحانه الأنفس؛ لأنها أعز ما يملكه الإنسان، وجعل في مقابلها الجنة؛ لأنها أعز ما يوهب، وأسمى ما تتطلع إلى نيله النفوس[3].

واسم الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من الإيمان والجهاد، أي: ذلكم الذي أرشدناكم إلى التمسك به من الإيمان والجهاد في سبيل الله هو خير لكم من كل شيء إن كنتم من أهل العلم والفهم.

وفي هذه الآية بيان أن مفهوم الجهاد لا يتمثل فقط في الجهاد بالسيف، وهذه من المسائل التي أخطأ فيها المترجمون الذين ترجموا معاني مفردات القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فمن الترجمة الخاطئة أن يترجم الجهاد بمعنى (القتال) فقط، ويحصر مفهوم الجهاد في القتال، وهذا مفهوم قاصر، فالجهاد أعم من القتال؛ ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **(فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن)**[4].

وهناك صور من صور الجهاد غير القتال كالجهاد بالمال والجهاد بالكلمة.

---

(١) فتح القدير ٥/ ٣١١.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير ٣/ ١٥٠٧، ١٨٩٥.

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٤١٩١.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ١/ ٦٩، ٥٠.

ومنها: حديث النبي عليه الصلاة والسلام: **(أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)**[1].

ومن هذا الباب: قوله: **(ففيهما فجاهد)**[2].

فالمجاهدة لها صور متعددة؛ فترجمة الجهاد إلى (القتال) تفسير قاصر، وترجمة قاصرة من المترجم الذي قام بها؛ ولذلك قال كثير من العلماء المعاصرين: إن التفاسير التي ترجمت وإن كان مترجموها على درجة من الخلق الحسن والصلاح، لكن لقلة علمهم بالمدلولات الشرعية أخطؤوا في كثير من الألفاظ حين ترجموها.

ولكن استدركوا على مثل هذه الترجمة القاصرة بعموم سيرة النبي وعموم سنته صلى الله عليه وسلم ؛ فقد بين أن الجهاد أنواع متعددة، فقضى هذا البيان على حصر الجهاد بالسيف فقط، فلا يظن أن الجهاد انتهى بعدم وجود المعارك.

بل مراد النبي صلى الله عليه وسلم به كل أنواع الجهاد، فإن الجهاد بالمال ماضٍ أيضًا إلى يوم القيامة، وهو أحد أقسام الجهاد، فالباب مفتوح لمن أراد أن يجاهد؛ وذلك بتخصيص جزء من ماله للتفقه في سبيل الله، فيكون مجاهدًا حينئذٍ، وهو بذلك على ثغر من الثغور، وإن كان لا يشعر به أحد من الناس.

٢. الصدقة على المدين المعسر.

ومن أبواب صدقة التطوع الصدقة على المدين المعسر، وهو من ثبت إعساره وعدم قدرته على الوفاء بشهادة من يعلم بحاله كجار أو صاحب ونحو ذلك، وتكون بإنظاره، أو مسامحته بالمال، فقد ورد في فضل إنظاره قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٨٠].

والمعنى: وإن وجد مدين معسر ممن لكم عليهم دين فأنظروه وأمهلوه إلى حين اليسار، حتى يتمكن من أداء دينه، وقوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وتصدقكم على المعسرين من المدينين بإبرائهم من الدين كلًا أو بعضًا خير لكم من إنظارهم وأكثر ثوابًا، وفي ذلك حث على الصدقة، والسماح للمدين المعسر؛ لما فيه من التعاطف والتراحم، وبر الناس بعضهم ببعض، وفي الآية وجوب إنظار المعسر إلى اليسار، وأفضل منه الإبراء.

وعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن رجلًا كان فيمن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه، فقيل له:**

---

(١) أخرجه أحمد ١٧/ ٢٢٧، ١١١٤٣، وصححه الألباني في الصحيحة: ٤٩١.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين ٤/ ٥٩، ٣٠٠٤، ومسلم في البر والصلة، باب بر الوالدين ٢٥٤٩.

هل عملت من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئًا غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم فأنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة)[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله في ظله)[2].

٣. القرض الحسن.

ومن أبواب صدقة التطوع القرض الحسن، بأن يقرض المسلم أخاه المسلم إذا علم حاجته، والقرض يعد من أبواب الخير والمعروف الذي يساهم في تفريج الكربات، وتخفيف الهموم، ويعد من أبواب صدقة التطوع؛ لأن المسلم استفاد من المال في تلك المدة التي اقترض فيها.

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من أقرض ورقًا مرتين كان كعدل صدقة مرة)[3].

بل قد يكون القرض أفضل من الصدقة؛ لأن صاحب القرض لا يأتي إلا وهو محتاج، وأما الصدقة فربما وضعت في يد غني.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٣/ ١٢٧٢، ٣٢٦٦.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ٨/ ٢٣١، ٧٧٠٤.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣٥٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٨٠.

وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٥].

وقد ذكر الله هذه الآية في كتابه مرارًا مبينًا فضل القرض وثوابه، وأنه سبحانه متكفلٌ بالأجر العظيم، والثواب الكبير لمن أقرض الله قرضًا حسنًا، وإن كان معنى القرض هاهنا عموم الصدقة لوجه الله إلا أنه يدخل فيه: ما يعطيه الإنسان من ماله لغيره على أن يقوم برده إليه.

ثالثًا: الإنفاق المذموم:

ومن أنواع الإنفاق المذكورة في القرآن الكريم الإنفاق المذموم، ومنه إنفاق الأموال في الصد عن سبيل الله، كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم، والصد عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦].

أي: إن الذين جحدوا وحدانية الله، وعصوا رسوله، ينفقون أموالهم فيعطونها أمثالهم من المشركين وأهل الضلال؛ ليصدوا عن سبيل الله، ويمنعوا المؤمنين

عن الإيمان بالله ورسوله، فينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون عاقبة نفقتهم تلك ندامة وحسرة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما يأملون من إطفاء نور الله، والصد عن سبيله، ثم يهزمهم المؤمنون آخر الأمر، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون فيعذبون فيها.

والآية وإن نزلت في أهل بدر إلا أنها -كما قال ابن كثير- عامة، وإن كان سبب نزولها خاصًا، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة؛ حيث لم تجد شيئًا؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله، وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه ومعلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي[١].

والآية واردة في مقام الإنذار لمن هذا حاله من الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فأخبر الله تعالى أنها ستعود عليهم بالحسرة، وأنهم سينفقونها لتضيع في النهاية وليغلبوا هم، وينتصر الحق في هذه الدنيا، وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم فتتم الحسرة الكبرى، حيث يجمع الله الخبيث على الخبيث فيلقي به في جهنم، وتلك غاية الخسران.

والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم، وكأنما هو كومة من الأقذار، يقذف بها في النار دون اهتمام ولا اعتبار!

فما أعظمها من حسرة! فإنفاق الأموال هدرًا، وانقلابها حسرة وغلبة من دواعي الهم والغم أن ينفق الإنسان ماله لهدف من الأهداف، ثم يكون الفشل بضياع المال دون تحقيق الغاية، ومما يزيد الأمر مرارة أن ينقلب هذا الإنفاق حسرة عليهم، ليس ذلك فحسب، بل تكون الهزيمة والغلبة عليهم أيضًا، بالإضافة إلى العذاب الأخروي، وهو الحشر إلى جهنم ليذوقوا العذاب.

فهو وعيدٌ يتلوه وعيد، أربعة تهديدات متتالية لأولئك الذين ينفقون الأموال لأجل الصد عن سبيل الله، إنها قضية قديمة حديثة، فالكفار في زماننا ومن والاهم ينفقون الأموال والثروات لأجل محاربة الإسلام والمسلمين، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، ثم إلى جهنم يحشرون، هكذا أخبر الله تعالى.

والإنفاق في الصد عن سبيل الله مستمر

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣.

في كل زمان، ومنه الإنفاق على الفتنة والفساد والكبائر كلها، وإغواء عباد الله بأنواع من الفتن، كمن يطلق قنوات فضائية غنائية وغير غنائية، فيها الفحش والتعري، أو فيها الدعوة إلى تقليد الأعداء، والسير في ركابهم، وفيها تخدير العقول، وتعطيل الطاقات، والإعجاب بالأعداء وبعاداتهم وتقاليدهم، ونزع حاجز العداوة الذي بيننا وبينهم، أو في نشر البدع والضلالات والسحر والشعوذة، فكل من أنفق هذه الأموال في هذه المنابر هو من الصادين عن سبيل الله، وكذلك من يقومون بالدعاية لها، أو الترويج لها، ببيع أو تسويق ونحوها، نسأل الله أن يكف أذاهم عن المسلمين.

ونلحظ في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن الغيب على وجه الإعجاز، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ كما وعد الله به، في مثل قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

كما أن ظاهر قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يفيد أنه لا يكون حشرهم إلا إلى جهنم؛ لأن تقديم الخبر يفيد الحصر، ومعنى: ﴿ثُمَّ﴾ في الموضعين إما التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة.

وأتى بصيغة المضارع في ﴿يُنفِقُونَ﴾ للإشارة إلى أن ذلك دأبهم، وأن الإنفاق مستمر لإعداد العدد لغزو المسلمين وصرفهم عن دينهم، فإنفاقهم حصل في الماضي ويحصل في الحال والاستقبال، وأشعرت لام التعليل بأن الإنفاق مستمر؛ لأنه منوط بعلة ملازمة لنفوسهم وهي بغض الإسلام، وصدهم الناس عنه.

و﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ جمع مضاف، يجعله من صيغ العموم، فكأنه قيل: ينفقون أموالهم كلها مبالغة، وإلا فإنهم ينفقون بعض أموالهم، والفاء في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ تفريع على العلة؛ لأنهم لما كان الإنفاق دأبهم لتلك العلة المذكورة كان مما يتفرع على ذلك تكرر هذا الإنفاق في المستقبل، أي: ستكون لهم شدائد من بأس المسلمين تضطرهم إلى تكرير الإنفاق على الجيوش لدفاع قوة المسلمين.

وضمير (ينفقونها) راجع إلى الأموال لا بقيد كونها المنفقة، بل الأموال الباقية، أو بما يكتسبونه...، وأسندت الحسرة إلى الأموال؛ لأنها سبب الحسرة بإنفاقها، ثم إن الإخبار عنها بنفس الحسرة مبالغة، مثل الإخبار بالمصادر؛ لأن الأموال سبب التحسر لا سبب الحسرة نفسها، وهذا إنذار بأنهم لا يحصلون من إنفاقهم على طائل فيما

أنفقوا لأجله؛ لأن المنفق إنما يتحسر ويندم إذا لم يحصل له المقصود من إنفاقه، ومعنى ذلك أنهم ينفقون ليغلبوا فلا يغلبون، فقد أنفقوا بعد ذلك على الجيش يوم أحد...، ثم أنفقوا على الأحزاب حين هاجموا المدينة، ثم انصرفوا بلا طائل، فكان إنفاقهم حسرة عليهم، وقوله: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ارتقاء في الإنذار بخيبتهم وخذلانهم؛ فإنهم بعد أن لم يحصلوا من إنفاقهم على طائل، توعدوا بأنهم سيغلبهم المسلمون بعد أن غلبوهم أيضًا يوم بدر، وهو إنذار لهم بغلب فتح مكة، وانقطاع دابر أمرهم، وإسناد الفعل إلى المفعول لكون فاعل الفعل معلومًا بالسياق، فإن أهل مكة ما كانوا يقاتلون غير المسلمين[(١)].

ثم قال الله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾ أي: الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا، وهو عبارة عن الجمع والضم، حتى يتراكموا، يعني: لفرط ازدحامهم، وقوله: (أولئك) إشارة إلى الفريق الخبيث، والمراد بالخبيث: نفقة الكافر على عداوة محمد، وبالطيب نفقة المؤمن في جهاد الكفار، كإنفاق أبي بكر وعثمان في نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام، فيضم تعالى تلك الأمور الخبيثة بعضها إلى بعض، فيلقيها في جهنم، ويعذبهم بها.

والمقصود أن من الإنفاق المذموم ما أنفقه الكفار يوم بدر في الصد عن دين الله، وليس هذا الذي حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجًا من الأسلوب التقليدي لأعداء هذا الدين، إنهم ينفقون أموالهم، ويبذلون جهودهم، ويستنفدون كيدهم في الصد عن سبيل الله، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين، وفي حرب العصبة المسلمة في كل أرض وفي كل حين، فالمعركة لن تكف، وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة، ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن، فالصد عن سبيل الله معركة متجددة، وعداوة باقية، وأسلوبٌ متواصًى به، عودي به الأنبياء أزمانًا، واشتكى الصالحون منه دهورًا ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[الذاريات: ٥٣].

والصد عن سبيل الله أيضًا قد يكون عامًا، وذلك بالصد عن الدين كليةً، وقد يكون الصد جزئيًا، وذلك بالصد عن بعض تشريعات الإسلام، ومحاربتها ومنعها، والتضييق على أهلها، كالحجاب والنقاب والأذان وحلقات القرآن، فمن الناس من يستغل كل إمكاناته العقلية وقدراته المالية في تزيين الباطل وتلميعه بشتى ألوان الزينة والإغراء، يريد إضلال الناس، وتجهيلهم

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٧٥٧.

وإبعادهم عن الهدى، ومن ثم فإن وجهه يتمعر غضبًا حينما يرى كلمة الحق قد أينعت وآتت أكلها، فلا يهدأ له بال، أو يطمئن له حال، حتى يفسد تلك الثمار بكل تشنج واضطراب.

وهؤلاء القوم مساكين يظنون أنهم بكلمة عوراء أو عصًا غليظة أو جحور مظلمة سوف يقضون على شجرة التوحيد، ويقطعون أغصان الفضيلة، وما دروا أن الله متم نوره، ومظهر دينه، وناصر أوليائه.

وقد أخبر الله أن هؤلاء لا يستفيدون من بذلهم أموالهم في تلك الإنفاقات إلا الحسرة والخيبة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة؛ وذلك يوجب الزجر العظيم عن ذلك الإنفاق الخبيث.

آداب الإنفاق

تحدث القرآن الكريم عن آداب الإنفاق، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أن يكون الإنفاق في سبيل الله:

حث الإسلام على الإنفاق، وأن يكون في سبيل الله، في كثير من الآيات والأحاديث؛ لأن الإنفاق في سبيل الله هو نتيجة مباشرة للإيمان بالله، وعلامة على عمق اليقين بالله، وبأنه واهب الحياة والغنى والملك والهدى، وشخصية المسلم تتميز بأنها معطاءة، وعطاؤها ليس من أجل شهرة أو رياء، بل في سبيل الله، ووفق المنهاج الذي رسمه لها الله.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥].

وقال: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤].

والمراد بـ(سبيل الله) المعنى الأعم، كما قال الحافظ ابن حجر، لا خصوص القتال، وإلا لكان الذي ينفق ماله على الفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل ونحوها دون خصوص القتال داخلًا في

دائرة الكانزين والمبشرين بالعذاب[1].

وعلى هذا فيدخل ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كل نفقة ينفقها المسلم في أوجه الخير المختلفة، بل حتى الزكاة فتدخل في ذلك، قال ابن عثيمين: «الأمر بالإنفاق في سبيل الله؛ والزكاة تدخل في هذا الإنفاق، بل هي أول ما يدخل؛ لأنها أوجب ما يجب من الإنفاق في سبيل الله، وهي أوجب من الإنفاق في الجهاد، وفي صلة الرحم، وفي بر الوالدين؛ لأنها أحد أركان الإسلام»[2].

وزعم بعض المعاصرين أن عبارة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا قرنت بالإنفاق كان معناها الجهاد جزمًا، ولا تحتمل غيره مطلقًا[3]. ويدل على ذلك أن هذه العبارة (أنفقوا في سبيل الله) تذكر كثيرًا بعد الأمر بالجهاد، فكأن المراد منه الإنفاق في الجهاد. وهو زعم غير مبني على الاستقراء التام لموارد الكلمة في الكتاب العزيز، وآيتا البقرة والتوبة المذكورتان تردان عليه.

ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤].

أي: في وجوه الخيرات الشاملة للجهاد وغيره؛ ولأنه قد أطلق في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ولم يقل: في سبيل الله، كما في سائر الآيات الأخرى.

فالظاهر: هو حمل قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ما ينفق على الفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل وصلة الرحم، وسائر وجوه الخير والبر، ولكن إذا كان سياق الآيات أو الآية في ذكر القتال وجهاد الكافرين ترجح أن يكون المراد (في سبيل الله) ما دل عليه السياق، فيحمل على إنفاق الأموال في القتال في سبيل الله.

وفي قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى الإخلاص في العمل، ويدخل في هذا القصد والتنفيذ، أن يكون القصد لله، وأن يكون التنفيذ على حسب شريعة الله؛ لأن (في) للظرفية، والسبيل بمعنى الطريق، وطريق الله: شرعه، والمعنى: أن هذا الإنفاق لا يخرج عن شريعة الله، والإنفاق الذي يكون موافقًا للشرع هو ما ذكره بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

ومعنى إنفاقهم في شرع الله: أن يكون ذلك إخلاصًا لله واتباعًا لشرعه، فمن نوى بإنفاقه غير الله فليس في سبيل الله، كرجل أنفق في الجهاد، أو أنفق في الصدقة على

---

(١) فتح الباري ٣/ ١٧٢.
(٢) تفسير القرآن للعثيمين ٥/ ٢٤٦.
(٣) انظر: النظام الاقتصادي في الإسلام لتقي الدين النبهاني ص ٢٠٨.

المساكين، لكنه أنفق ليقال: إن فلانًا جواد، أو إنه كريم، هذا ليس في سبيل الله؛ لأنه مراءٍ، لم يقصد وجه الله عز وجل، ولم يرد السبيل الذي يوصل إلى الله، ولا يهمه أن يقبل الله منه أو لا يقبل، المهم عنده أنه يقال عند الناس: إنه رجل كريم أو جواد.

وأما أن يكون على حسب شريعة الله، فإن أنفق في وجهٍ لا يرضى به الله، فليس في سبيل الله -وإن أخلص لله-، كرجل ينفق على البدع يريد بذلك وجه الله، وهذا كثير، كبناء الربط للصوفية المنحرفة، وبناء البيوت للأعياد الميلادية، وبناء القصور للمآتم، وطبع الكتب المشتملة على بدع، هذا الإنسان قد يريد بذلك وجه الله، لكنه خلاف شريعة الله، فلا يكون في سبيل الله[1].

والمقصود أن ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ له معنيان: معنى عام، يدخل ضمنه الصدقات، وإعطاء المحتاجين، وصلة الأرحام، وتقوية الضعفاء من الفقراء والمساكين، ورعاية حقوق الأهل والأولاد وغير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى، ويدخل ضمنه الحقوق الواجبة كالزكوات والأخماس، والإنفاق على الحج والعمرة وأمثالها، ويدخل ضمنه تشغيل الأموال بفتح مشاريع ليستفيد الناس من هذه المشاريع وغير ذلك.

(١) انظر: تفسير القرآن للعثيمين ٤/ ٣١٣.

والمعنى الثاني: معنى خاص، والمقصود به الجهاد في سبيل الله، ويدخل فيه نصرة دين الله، ومحاربة أعدائه، وإعلاء كلمته في الأرض؛ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

والسياق هو الذي يميز هذا المعنى الخاص من المعنى العام السابق، وهذا المعنى هو الذي يجيء بعد ذكر القتال والجهاد، مثل: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومن ذلك قوله تعالى بعد آيات القتال في سورة البقرة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فالإنفاق هنا: إنفاق في نصرة الإسلام، وإعلاء كلمته على أعدائه المحاربين له الصادين عنه.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «الإنفاق في سبيل الله بمعناه المشهور وهو الإنفاق في عتاد الجهاد لم يكن إلا بعد الهجرة، فإن سبيل الله غلب في القرآن إطلاقه على الجهاد»[2].

وقال البغوي رحمه الله تعالى: «قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أراد به الجهاد، وكل خير هو في سبيل الله، ولكن إطلاقه ينصرف إلى الجهاد»[3].

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٥٤٥.
(٣) معالم التفسير، البغوي ١/ ٢١٥.

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[الحديد: ١٠].

فالسياق يدل على أن الإنفاق هنا كالإنفاق في الآية السابقة.

وفي سورة الأنفال قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٦٠].

فالمقام يدل بوضوح على أن سبيل الله في الآية هو محاربة أعداء الله، ونصرة دين الله، كما صرح بذلك الحديث الصحيح: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[(١)].

وهذا المعنى الخاص هو الذي يعبر عنه أحيانًا بالجهاد والغزو، وتفسيره بنصرة الإسلام أولى، وإلا لكان مضمون معنى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جاهدوا في الجهاد، ولا ينبغي قصر المراد من ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على الإنفاق لأجل الجهاد فقط، وذلك لأن المراد منه مطلق سبيل الله، سواء كان في الجهاد العسكري، أو الجهاد الثقافي، أو الجهاد العمراني، أو إعانة المحتاجين، أو بناء المستشفيات والمستوصفات، أو تأسيس صندوق للقروض، أو غير ذلك؛ لأن سبيل الله طريقه، والطريق إذا أضيف إلى شيء فإنما يضاف إلى ما يوصل إليه، ولما علم أن الله لا يصل إليه الناس إلا عبر الطريق الذي رسمه وحدده، تعين أن يكون المراد من الطريق العمل الموصل إلى مرضاة الله وثوابه، فهو مجاز في اللفظ ومجاز في الإسناد.

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى في آية أخرى بلفظ: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة: ٢٦٥].

فيقصد به طلبًا لمرضاة الله تعالى، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص»[(٢)].

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة: «يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ﴾ فيصدقون بها،

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٣/ ١٠٣٤، ٢٦٥٥، ومسلم في الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا رقم ١٩٠٤.

(٢) طريق الهجرتين ١/ ٥٤٦.

ويحملون عليها في سبيل الله، ويقوون بها أهل الحاجة من الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، وفي غير ذلك من طاعات الله، وطلب مرضاته»[1].

وجاء التعبير عن هذا المعنى في آية أخرى بلفظ: (وجه الله) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

فقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ بيان لشدة إخلاصهم، ولطهارة نفوسهم، وهو مقول لقول محذوف، أي: يقدمون الطعام لهؤلاء المحتاجين، مع حبهم لهذا الطعام، ومع حاجتهم إليه، ثم يقولون لهم بلسان الحال أو المقال: إنما نطعمكم ابتغاء وجه الله تعالى، وطلبًا لثوابه ورحمته.

فيحتمل أنهم قالوا هذا الكلام بألسنتهم، أو قالوه في نفوسهم، فهو عبارة عن النية والقصد. أو هو بيان من الله تعالى عما في ضمائرهم من الإخلاص؛ لأن الله تعالى علمه منهم، فأثنى عليهم، وإن لم يقولوا شيئًا، أي: قائلين بلسان الحال أو المقال؛ لإزاحة توهم المن المبطل للصدقة، وتوقع المكافآت المنقصة للأجر، أو إنهم يقولون ذلك لهم تأنيسًا لهم، ودفعًا لانكسار النفس الحاصل عند الإطعام، أي: ما نطعمكم إلا استجابة لما أمر الله، فالمطعم لهم هو الله.

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٣٠.

وقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نطلب على طعامنا مكافأة ولا ثناءً[2].

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ فهذه هي العلة والغاية وهي خوفهم من هذا اليوم الموصوف بهذه الصفات.

والقصر المستفاد من (إنما) قصر قلب، مبني على تنزيل المطعمين منزلة من يضن أن من أطعمهم يمن عليهم، ويريد منهم الجزاء والشكر، بناء على المتعارف عندهم في الجاهلية، والمراد بالجزاء: ما هو عوض عن العطية من خدمة وإعانة، وبالشكور: ذكرهم بالمزية[3].

ثانيًا: ألا يتبع الإنفاق بالمن والأذى:

ومن آداب الإنفاق في سبيل الله ألا يتبع المنفق نفقته بالمن والأذى، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ

(٢) البحر المديد ٦/ ٤٦٩.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٦٥٦.

﴿مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ﴾ أي: لا يتبع نفقته التي أنفقها منًا أو أذى. وعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ إما لبعد ما بين المنزلتين، أو للمهلة حقيقة، ويكون فيه إشارة إلى أنهم يمنون بنفقة طال أمدها، وداموا عليها، فأحرى أن لا يمنوا بنفس الإنفاق[1]، ولأن ذكر المن والأذى وإن كان متأخرًا عن الإنفاق إلا أن هذا الذكر المتأخر يدل ظاهرًا على أنه حين أنفق ما كان إنفاقه لوجه الله، بل لأجل الترفع على الناس، وطلب الرياء والسمعة، ومتى كان الأمر كذلك كان إنفاقه غير موجب للثواب.

وفيه إشارة على أن المن والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو، وقال: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي مبطلًا لأثر الإنفاق، مانعًا من الثواب، فالمقارن أولى وأحرى[2].

وقوله: ﴿مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ المن: أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه، بحيث يقول: أنا فعلت معه كذا وكذا، إظهارًا لميزته عليه، والأذى: أن يتطاول عليه بذلك، ويقول: لولا أنا لم يكن منك شيء مثلًا. ويقعان بالقول والفعل.

ولكثرة وقوع المن من المتصدقين وعسر تحفظهم منه أفرده بالذكر، وقدم على الأذى، وإلا فالأذى يشمل المن وغيره، وإنما نص عليه لكثرته.

وقد جعل ابن القيم المن نوعين، فقال: «فالمن نوعان: أحدهما: منٌّ بقلبه، من غير أن يصرح به بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال، وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل، ومنع غيره منه، فلله المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منة لغيره.

والنوع الثاني: أن يمن عليه بلسانه، فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًا وطوقه منة في عنقه، فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا، ويعدد أياديه عنده، قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت، وقال عبد الرحمن بن زيد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلًا شيئًا، ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكف سلامك عنه، وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسديت إليكم صنيعة فلا تنسوها...، وحظر الله على عباده المن بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه؛ لأنه من العباد تكدير وتعيير، ومن الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير، وأيضًا فإنه هو

(١) تفسير ابن عرفة ١/ ٣٤٢.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٦١.

المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة، وأيضًا فالامتنان استعباد، وكسر وإذلال لمن يمن عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله...، ومن هنا -والله أعلم- بطلت صدقته بالمن، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده فلم يرض به، ولاحظ العوض من الآخذ، والمعاملة عنه، فمن عليه بما أعطاه أبطل معاوضته مع الله، ومعاملته له»[1].

ويفهم من هذه الآية أن من أتبع إنفاقه المن والأذى لم يحصل له هذا الثواب المذكور هنا، في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤].

والحكمة من أن المن والأذى مبطلان للصدقة لما فيه من جرح شعور المسكين، والشرع حريص على الحفاظ على شعور وإحساس المسكين، بحيث لا يشعر بجرح المسكنة، ولا ذلة الفاقة.

فالشرع يريد الإنفاق الطيب المحمود الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، الإنفاق الذي لا يؤذي كرامة ولا يخدش شعورًا، الإنفاق الذي ينبعث عن أريحية ونقاء، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه...، والمن عنصر كريه لئيم، وشعور خسيس واطٍ، فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب، أو رغبة في إذلال الآخذ، أو رغبة في لفت أنظار الناس، فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء، وكلها مشاعر لا تجيش في قلب طيب، ولا تخطر كذلك في قلب مؤمن، فالمن من ثم يحيل الصدقة أذى للواهب، وللآخذ سواء، أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء، ورغبة في رؤية أخيه ذليلًا له كسيرًا لديه، وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله، وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام، ومن رد فعل بالحقد والانتقام[2].

وفي قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم﴾ دلالة على أن حصول المن والأذى يخرجان الإنفاق عن أن يكون فيه أجر وثواب أصلًا من حيث يدلان على أنه إنما أنفق لكي يمن، ولم ينفق لطلب رضوان الله ولا على وجه القربة والعبادة، فلا جرم أن يبطل الأجر.

وفي الآية تحذير للمتصدق من هاتين الصفتين الذميمتين؛ لأنهما مبطلتان لثواب الصدقة، فإن قيل: ظاهر هذا اللفظ أن مجموع المن والأذى يبطلان الأجر، فيلزم

(١) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٦٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٢٨٦ بتصرف يسير.

أنه لو وجد أحدهما دون الآخر لا يبطل الأجر، أجيب: بأن الشرط يقتضي أن لا يقع هذا ولا هذا، أي: فتبطل بكل واحد منهما[1].

وقد أفرد المن بالذكر في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**) قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار: قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: (**المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**)[2].

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ شبه المنان بنفقته كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًا للظهور مثل حجر أملس لا ينبت شيئًا، ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج، فنزل المطر الشديد، فأزال ما عليه من تراب، فانكشف حقيقته، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد، لا يصلح لإنبات أي شيء عليه.

فالتشبيه في الجملة الكريمة بين الذي ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذي عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر، فيزيل التراب، وتنكشف حقيقته، ويراه الرائي عاريًا من أي شيء يستره، وكذلك المنافق المرائي في إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس، ثم لا يلبث أن ينكشف أمره؛ لأن ثوب الرياء يكشف دائمًا عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه.

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الجملة الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقته بالمن والأذى، وبين الحجر الأملس، وأن الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى، فيكون المعنى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذي عليه تراب، كان يرجى أن يكون منبتًا للزرع، فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمن والأذى يبطلان الصدقات، ويزيلان أثرها النافع، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس.

والأظهر في عود الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ على الذي ينفق ماله رئاء الناس؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن التشبيه في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ قد جاء بلفظ المفرد، وهو المناسب للذي ينفق ماله رئاء

(1) تفسير السراج المنير ١/ ٣٩١.
(2) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف ١/ ٧١، ٣٠٦.

الناس؛ لأنه مفرد مثله، بخلاف قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ فإن الضمير فيه بلفظ الجمع، فمن الأولى أن يعود الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ إلى المرائي لتوافقهما في الإفراد[1].

ثم فاضل سبحانه وتعالى بين الكلمة الطيبة والصدقة المؤذية، فأخبر أن كلمة طيبة وقولًا حسنًا يواجه به الفقير والمسكين خير من صدقة يتبعها أذى، فقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾[البقرة: ٢٦٣].

فالقول المعروف وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره، والمغفرة وهي العفو عمن أساء إليك خير من الصدقة بالأذى، فالقول المعروف إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة، ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة، والأذى له بسبب رده فيكون عفوه عنه خيرًا من أن يتصدق عليه ويؤذيه، هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: أن المغفرة من الله أي: مغفرة لكم من الله؛ بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى، وفيها قول ثالث- أي: مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المسئول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى، وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جدًا؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ، والمعنى: أن قول المعروف له، والتجاوز والعفو خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه[2].

والحكمة من ذلك: أن الكلمة الطيبة للسائل، والعفو عنه فيما صدر منه كل ذلك يؤدي إلى رفع الدرجات عند الله، وإلى تهذيب النفوس، وتأليف القلوب، وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال، أما الصدقة التي يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدي إلى ذهاب ثوابها، وإلى زيادة الآلام عند السائلين، ولا سيما الذين يحرصون على حفظ كرامتهم، وعلى صيانة ماء وجوههم، فإن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرًا في نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى؛ لأن ألم الحرمان يخففه الصبر الذي وراءه الفرج، أما آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التي من العسير التئامها وشفاؤها.

وفي الآية دليل على أن الأعمال السيئة

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٤٩١.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٦٠.

تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

فكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها؛ لئلا يضيع العمل سدى[1].

والمقصود أن لقبول الصدقة شروطًا سابقة، ومبطلات لاحقة؛ أما الشروط السابقة فالإخلاص لله والمتابعة، وأما المبطلات اللاحقة فالمن والأذى، وقد امتدح الله في الآيات السابقة الذين ينفقون في سبيله، ولا يتبعون ما أنفقوا منًا على من أعطوه لا بقول ولا بفعل، ولا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهًا، يحبط به إحسانهم، ووعدهم تعالى جزيل الثواب على ذلك، ثم بين أن ترك المن والأذى بنفسه خير من الإنفاق، وأن الواجب رد السائل ردًا جميلًا، وهو المعروف، وعفوه أن صدر منه ما يثقل عليه، وينال مغفرة الله بسبب ذلك.

ثالثًا: الإنفاق في السر أولى، إلا أن يكون قدوة لغيره:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم إنفاق السر وإنفاق العلانية، وجعل كليهما سلوكًا عامًا للمؤمنين، ومدح كلا النوعين في سياق واحد، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٣.

﴿فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢٧١].

فهذه الآيات الكريمة تفيد أن الإنفاق في كلا الحالين في السر وفي العلانية مشروع ومحمود، وأن الصدقات في كل أحوالها خيرٌ محضٌ، ما دام المنفق قد خلص من الرياء، وجانب المن والأذى، وإذا كان ثمة تفاوت فهو في حال النفس، والاحتياط للرياء، وسد مداخله.

إلا أن هناك تفصيلًا من ناحية أفضلية أيٍ منهما في أحوالٍ وظروفٍ معينة، ومنطلق العلماء في مسألة تفضيل الإنفاق سرًا على الإنفاق علانية أو العكس هو قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢٧١].

فذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، فالإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها؛ لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات، قال الحسن: «إظهار الزكاة أحسن، وإخفاء التطوع أفضل؛ لأنه أدل على أنه يراد الله عز وجل به وحده»[1]. ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفًا»[2].

قال ابن العربي: «أما صدقة الفرض فلا خلاف أن إظهارها أفضل، كصلاة الفرض، وسائر فرائض الشريعة؛ لأن المرء يحرز بها إسلامه، ويعصم ماله» ثم قال في مسألة صدقة النفل: «والتحقيق فيها: أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها، والمعطى إياها، والناس الشاهدين لها، أما المعطي فله فائدة إظهار السنة وثواب القدوة، وآفتها الرياء والمن والأذى، وأما المعطى إياها فإن السر أسلم له من احتقار الناس له، أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنى عنها، وترك التعفف، وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم، من جهة أنهم ربما طعنوا على المعطي لها بالرياء، وعلى الآخذ لها بالاستثناء؛ ولهم فيها تحريك القلوب إلى الصدقة، لكن هذا اليوم قليل»[3].

وبعض العلماء يرى أن أفضلية إخفاء الصدقة مقيدة بإيتاء الفقراء خاصةً لا في كل الصدقات؛ تماشيًا مع منطوق الآية،

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣٣٢.
(٢) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢/ ٧٧.
(٣) أحكام القرآن ١/ ٣١٥.

يقول ابن القيم: «تأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها فهو خيرٌ لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك»[1].

والمقصود أن أكثر العلماء يرون أن الأفضل في الصدقات الواجبة الإظهار، وأما في سائر الصدقات المندوبة والمستحبة فالأفضل فيها الإخفاء والإسرار، وهذا في الأحوال العادية، أما في أحوالٍ أخرى استثنائية، فيمكن النظر في المصلحة المتحققة بين إخفاء أو إسرار الصدقة الواجبة أو النافلة.

رابعًا: أن يكون المال المنفق منه من الطيب:

ومن آداب الإنفاق في سبيل الله أن يكون الإنفاق من الطيب، وقد حث القرآن الكريم على الإنفاق مما يحبه الإنسان، فقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٩٢].

فقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟﴾ أي: تدركوا، وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات، وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق، وبر قلوبكم، ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك[2].

ولم يبين في الآية المنفق وإنما أبهمه، فقال: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وسوغ هذا الإبهام هنا وجود ﴿تُنفِقُوا۟﴾ إذ الإنفاق لا يطلق على غير بذل المال...، والمال المحبوب يختلف باختلاف أحوال المتصدقين، ورغباتهم، وسعة ثرواتهم، والإنفاق منه، فيكون التصدق من النفيس والذي يحب دليل على سخاء لوجه الله تعالى، وفي ذلك تزكية للنفس، وتنقية لها مما فيها من الشح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

وفي ذلك أيضًا صلاح عظيم للأمة؛ إذ يجود أغنياؤها على فقرائها بما تطمح إليه نفوسهم من نفائس الأموال، فتشتد بذلك أواصر الأخوة، ويهنأ عيش الجميع.

و(ما) في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

---

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص ١٧٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٣٨.

للتبعيض...»، والظاهر: أن المحبة هنا هو ميل النفس، وتعلقها التعلق التام بالمنفق، فيكون إخراجه على النفس أشق وأصعب من إخراج ما لا تتعلق به النفس ذلك التعلق؛ ولذلك فسره الحسن والضحاك: بأنه محبوب المال، كقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[الإنسان: ٨].

وقد روي عن جماعة أنهم لهذه الآية تصدقوا بأحب شيء إليهم، فتصدق أبو طلحة ببيرحاء، وتصدق زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، وابن عمر بالسكر واللوز؛ لأنه كان يحبه، وأبو ذر بفحل خير إبله، وببرنس[١] على مقرور[٢]، وتلا الآية، والربيع بن خيثم بالسكر لحبه له، وأعتق عمر جارية أعجبته، وابنه عبد الله جارية كانت أعجب شيء إليه.

وقيل: معنى ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ما يكون محتاجًا إليه. وقيل: كل شيء ينفقه المسلم من ماله يطلب به وجه الله[٣].

والإنفاق من المحبوب يدخل فيه المال وغيره، كبذل الجاه في معاونة الناس، إن صحبه الإخلاص، وكبذل البدن في طاعة الله، وبذلك المهج في سبيل الله.

وإذا تأملت جميع الطاعات وجدتها إنفاقًا مما يحب الإنسان، إما من ماله، وإما من صحته، وإما من دعته وترفهه، وهذه كلها محبوبات[٤].

ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مثابًا عليه العبد، سواء كان قليلًا أو كثيرًا، محبوبًا للنفس أم لا، وكان قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

الإنفاق من الطيب:

وأمر الله تعالى بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيه وخبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[البقرة: ٢٦٧].

وهو المعبر عنه بـ(الحسن) في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة: ٢٤٥].

فقوله: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ يشمل النفقة الواجبة

---

(١) البرنس: كل ثوب رأسه منه ملتزق به، دراعة كان أو ممطرًا أو جبة. انظر: العين ٧/ ٣٤٣.

(٢) القر: البرد، يقال: يوم مقرور بارد، ورجل مقرور أصابه البرد. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٧٢٥.

(٣) تفسير البحر المحيط ٣/ ٣١٩.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٦١.

والمستحبة، أما الواجبة وهي الزكاة، فيحمل الأمر على الوجوب؛ إذ لا يصح دفع الرديء فيها، وأما التطوع فعلى سبيل الكمال.

وقوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ أي: من جيد ما كسبتم ومختاره، كذا قال الجمهور، وقال جماعة: إن معنى الطيبات هنا الحلال، ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعًا؛ لأن جيد الكسب ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، وإن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالًا كان أو حرامًا، فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية[1].

وأضاف سبحانه الكسب إليهم فقال: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ وإن كان هو الخالق لأفعالهم؛ لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه فقال: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم﴾ لأنه ليس فعلًا لهم ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين، وسلب قدرة العبد وفعله، وتأثيره عنها بالكلية[2].

وقوله: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أنفقوا من طيبات أموالكم التي اكتسبتموها، ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض من الحبوب والثمار والزروع وغيرها، وترك سبحانه ذكر كلمة الطيبات في هذه الجملة لسبق ذكرها في الجملة التي قبلها.

وخص سبحانه هذين النوعين، وهما الخارج من الأرض، والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي وغيرها، إما بحسب الواقع، فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك، فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما، وعموم وجودهما، وإما لأنهما أصول الأموال، وما عداهما فعنهما يكون، ومنهما ينشأ، فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة، وسائر ما تتعلق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم[3].

وقد أكد الله تعالى هذا الأمر بجملتين كريمتين، فقال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ فقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ أي: ولا تقصدوا

(١) فتح القدير ١/ ٤٣٦.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٧١.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٧١.

وتتعمدوا، يقال: تيممت الشيء ويممته إذا قصدته، ويقال: يممت جهة كذا إذا قصدته، ومنه الإمام؛ لأنه المقصود المعتمد، وأصل تيمموا، فحذفت إحداهما تخفيفًا.

والخبيث: هو الرديء من كل شيء، وخبث الفضة والحديد ما نفاه الكير؛ لأنه ينفي الرديء، ويطلق الخبيث على الشيء الحرام والمستقذر.

والمراد: لا تنفقوا من الأشياء التي لا فائدة فيها، أو مضرة، مثل الملابس الخلقة، أو الفواكه والمأكولات الفاسدة، وما شابه ذلك، بل مما يحبه الإنسان، والذي هو أهل لأن يعطى بيد الله، فإن غير ذلك ليس أهلًا لوضعه بيد الله، فالإنفاق بالأكل ينبغي أن يكون من النوع الذي يحبه المنفق له ولعياله، وفي الملابس من النوع الذي يحب لبسه المنفق وأهل بيته، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه -أي: المهر الصغير- حتى تكون مثل الجبل)[1].

والإغماض في اللغة -كما يقول الرازي-: غض النظر، وإطباق جفن على جفن، وأصله من الغموض، وهو الخفاء[2]، والمراد بالإغماض ها هنا: المساهلة؛ وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عنه لئلا يرى ذلك، ثم كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة في البيع وغيره إغماضًا.

والمعنى: أنفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون انفاقكم من الخبيث الرديء، والحال أنكم لا تأخذونه إن أعطي لكم هبة أو شراء أو غير ذلك، إلا أن تتساهلوا في قبوله، وتغضوا الطرف عن رداءته، إذا كان هذا شأنكم في قبول ما هو رديء، فكيف تقدمونها لغيركم؟ فإن الله ينهاكم عن ذلك؛ لأن من شأن المؤمن الصادق في إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يجب أن يفعله لنفسه، ولا يعطي من شيء إلا ما يجب أن يعطى إليه[3].

والله غني عن الخبيث الذي تقصدون إليه، فتخرجون منه صدقاتكم! بينما هو سبحانه يحمد لكم الطيب حين تخرجونه، ويجزيكم عليه جزاء الراضي الشاكر، وهو الله الرازق الوهاب، يجزيكم عليه جزاء الحمد، وهو الذي أعطاكم إياه من قبل! فأي إيحاء! وأي إغراء! وأي تربية للقلوب بهذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب ٢/ ٥١١، ١٣٤٤، ومسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٣/ ٨٥، ٢٣٩٠، واللفظ للبخاري.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢.

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٤٩٧.

الأسلوب العجيب!

والحكمة من النهي عن التصدق بالرديء والخبيث إضافة إلى ما سبق: أن الإنفاق لما كان تضميدًا لجراح الفقير، ومواساة له في محنته، فإن الخلق الرفيع يقتضي أن تكون هذه المواساة على النحو الأحسن؛ لتثمر وتؤثر أثرها الطيب في نفوس الضعفاء والمحرومين؛ ليشعر كل فرد منهم بالعطف، والمشاركة لهم في الطيب من العيش، لا للتخلص من هذا الذي قدم لهم. فشعور الفقير بأن ما دفعه إليه المحسن من النوع الرديء إنما كان للتخلص من رداءته يترك في نفسه الأثر السيئ إزاء المنفق الذي أخرج الرديء من المال.

ولما كان الكف عن الإنفاق أو التقدم بالرديء الخبيث إنما ينشأ عن دوافع السوء، وعن تزعزع اليقين فيما عند الله، وعن الخوف من الإملاق الذي لا يساور نفسًا تتصل بالله، وتعتمد عليه، وتدرك أن مرد ما عندها إليه، كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدو لهم عارية، وليعرفوا من أين تنبت النفوس؟ وما الذي يثيرها في القلوب؟ إنه الشيطان[1].

وتقوم الآيات بإجراء مقارنة بين وعدين، أحدهما صادر من الشيطان، والآخر من الله سبحانه، وكم بين الوعدين من الفرق ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨].

فهذا البخل، واختيار الرديء للصدقة من الشيطان الذي يخوفكم الفقر، ويغريكم بالبخل، ويأمركم بالمعاصي، ومخالفة الله تعالى، والله سبحانه وتعالى يعدكم على إنفاقكم غفرانًا لذنوبكم، ورزقًا واسعًا، والله واسع الفضل، عليم بالأعمال والنيات.

ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قبل الرديء الخبيث إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه؛ لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله[2].

والمقصود أن الآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يلتزموا في نفقتهم المال الطيب في كل وجه من وجوهه، بأن يكون جيدًا نفيسًا في صنفه، وحلالًا مشروعًا في أصله.

خامسًا: أن تطيب نفس المنفق بالنفقة:

ومن آداب الإنفاق أن تطيب نفس المنفق بالنفقة، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾[البقرة: ٢٦٥].

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٢.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٧١.

فمعنى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس، سخية به، لا على وجه التردد، وضعف النفس في إخراجها؛ وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان: إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم، وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين، فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتًا من أنفسهم[1].

فقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ معطوفة على ﴿ابْتِغَاءَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿مِّنْ﴾ ابتدائية؛ يعني: تثبيتًا كائنًا في أنفسهم لم يحملهم عليه أحد، ومعنى يثبتونها: يجعلونها تثبت، وتطمئن، أي: لا تتردد في الإنفاق، ولا تشك في الثواب؛ وهذا يدل على أنهم ينفقون طيبة نفوسهم بالنفقة[2].

فالإنفاق على وجه التثبيت من النفس له فضل عند الله؛ لأنه يندفع بدافع نفسي، لا بتوصية من أحد أو نصيحة، بل هم على يقين بالثواب، وتصديق بوعد الله، ويعلمون أن ما أخرجوا خير لهم مما تركوا، والإنسان الذي لا يعمل إلا كارهًا فيه خصلة من خصال المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[التوبة: ٥٤].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٤.
(٢) تفسير القرآن للعثيمين ٥/ ٢٥٨.

وجاء في تفسير ابن عبد السلام في قوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة: ٢٤٥].

«أي: طيبةً بها نفسه، أو محتسبًا لها عند الله، وسمي حسنًا لصرفه في وجوه حسنة، أو لأنه لا من فيه ولا أذى، فيضاعف القرض الحسنة بعشر، أو الثواب تفضلًا بما لا نهاية له»[3].

وقال البقاعي في ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: «أي: طيبًا خالصًا فيه، متحريًا به أفضل الوجوه، طيبة به النفس، من غير من، ولا كدر بتسويف ونحوه»[4].

وقال ابن القيم: «وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسنًا؛ وذلك يجمع أمورًا ثلاثة، أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه، الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضاة الله، الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي، فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ»[5].

وقال بعض العلماء: القرض لا يكون حسنًا حتى تجمع فيه أوصاف عشرة، وهي: أن يكون المال من الحلال، وأن يكون من أجود المال، وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه، وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها، وأن تكتم الصدقة ما أمكنك، وأن لا

(٣) تفسير ابن عبد السلام ٦/ ٣٩٩.
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٨/ ٣٦٢.
(٥) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٥٨.

تتبعها بالمن والأذى، وأن تقصد بها وجه الله، ولا ترائي بها الناس، وأن تستحقر ما تعطي، وتتصدق به، وإن كان كثيرًا، وأن يكون من أحب أموالك إليك، وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير، فهذه عشرة أوصاف، إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرضًا حسنًا[(١)].

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(إن الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ، وربما قال: يعطي ما أمر به، فيعطيه كاملًا موفرًا، طيبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين)**[(٢)].

فهذه الأوصاف شروط لحصول هذا الثواب، فينبغي أن يعتنى بها، ويحافظ عليها، وقوله: (طيبة به نفسه) بأن لا يحسد المعطى، ولا يظهر له من العبوس وتقطيب الوجه ما يكدر خاطره، ونبه على ذلك لأن أكثر الخزان غلب عليهم البخل بمال غيرهم، فهم أبخل البخلاء.

فإذا أعطى هذا الخازن وهو طيب النفس فهو أحد المتصدقين، مع أن المال الذي تصدق منه ليس ملكًا له، وإنما هو خازن فقط، فلما كان واليًا لخزانته، وأدى حقوق الناس في ولايته، طيبة نفسه بما أدى استحق ذلك التكريم لأمانته، فإذا كان هذا شأن الخازن فصاحب المال أولى، بأن يعطي العطاء من طيب نفس.

والمقصود أن من آداب الإنفاق في سبيل الله أن تكون نفس المنفق طيبة به، لا مكرهًا، ولا معتقدًا أنه غرم وضريبة، كما يظن بعض الناس أن الزكاة ضريبة، حتى إن بعض الكتاب يعبرون بقولهم: ضريبة الزكاة، والعياذ بالله.

سادسًا: أن يكون الإنفاق وسطًا، لا إسراف فيه ولا تقتير:

ومن آداب الإنفاق التوسط فيه، وقد نهى الله تعالى عن الإسراف في الإنفاق، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف: ٣١].

فقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: كلوا من المآكل الطيبة، واشربوا المشارب الحلال، ولا تسرفوا، لا في زينتكم، ولا في مأكلكم، أو مشربكم؛ لأنه سبحانه يكره المسرفين.

قال ابن كثير رحمه الله: «قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية، في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾»[(٣)]،

(١) لباب التأويل، الخازن ٦/ ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب أجر الخادم إذا تصدق بأمر صاحبه غير مفسد ٢/ ٥٢١، ١٣٧١، ومسلم في الزكاة، باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت من بيت زوجها غير مفسدة بإذنه الصريح أو العرفي ٣/ ٩٠، ٢٤١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٦.

وقال البخاري: «قال ابن عباس: كُلْ ما شئت، والبس واشرب ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف، أو مخيلة»[1].

والإسراف والسرف: تجاوز الحد الذي يقتضيه الإنفاق، بحسب حال المنفق، وحال المنفق عليه، وهذا النهي عن الإسراف نهي إرشاد وإصلاح. والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، والشره في المأكولات، الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه، والتنوع في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام[2].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما[3]. ولهذا كان من الأعمال التي لا يحبها الله، ومن الأخلاق التي يلزم الانتهاء عنها، ونفي المحبة مختلف المراتب، فيعلم أن نفي المحبة يشتد بمقدار قوة الإسراف، وهذا حكم مجمل، وهو ظاهر في التحريم.

ووجه عدم محبة الله للمسرف أن الإفراط في تناول اللذات والطيبات والإكثار من بذل المال في تحصيلها يفضي غالبًا إلى استنزاف الأموال، والشره إلى الاستكثار منها، فإذا ضاقت على المسرف أمواله تطلب تحصيل المال من وجوه فاسدة؛ ليخمد بذلك نهمته إلى اللذات، فيكون ذلك دأبه، فربما ضاق عليه ماله فشق عليه الإقلاع عن معتاده، فعاش في كرب وضيق، وربما تطلب المال من وجوه غير مشروعة، فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدنيا أو في الآخرة، ثم إن ذلك قد يعقب عياله خصاصة وضنك معيشة، وينشأ عن ذلك ملام وتوبيخ وخصومات، تفضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة[4].

فأما كثرة الإنفاق في وجوه البر فإنها لا توقع في مثل هذا؛ ولذلك قيل في الكلام الذي يصح طردًا وعكسًا: لا خير في السرف ولا سرف في الخير. وفي معنى هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم: (ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[5].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٦-٢٧].

فقوله: ﴿إِخْوَٰنَ﴾ يعني: أنهم في حكمهم؛ إذ المبذر ساعٍ في إفساد

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ٥/ ٢١٨٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٢٨٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٢٨٧.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٤٤٣.
(٥) أخرجه مسلم في الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ٥/ ١٣٠، ٤٥٧٨.

كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسول لهم أنفسهم، أو أنهم يقرنون بهم غدًا في النار، ثلاثة أقوال، والإخوان هنا جمع: أخ من غير النسب.

وندب الله تعالى إلى التوسط في الإنفاق في المباح في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

فمدح الله هنا الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وهذه هي الوسطية المرتبطة بالإنفاق الخاص والعام، فالتبذير مذموم، بل إن صاحبه يعد من إخوان الشياطين، والتقتير على النفس والأهل ومن له حق أيضًا مذموم.

هكذا وضع القرآن الكريم هذه القاعدة الذهبية للوسطية الإنفاقية، حتى لا تزل الأقدام، ولا تضيع الأموال، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

فهي قمة الوسطية، في قمة السلوك، فلماذا بعد ذلك تنفق الأموال في البهرجة الكاذبة، والمظاهر الزائفة، والحفلات الماجنة، من قبل الحكومات أو الأفراد، لو دبر الناس الإنفاق بعقلية وسطية لكان الوضع الاجتماعي والوضع الاقتصادي للأمة على أحسن حال، ولتوفر للأمة من الثروات الشيء الكثير، ولكن المشاهد من حال المسلمين اليوم هو الإنفاق الفاحش والبذخ الزائد، الذي يدل على غياب هذه الوسطية، فكانت النتيجة أن كثر الفقر والجوع والجهل.

آثار الانفاق

للإنفاق آثار جليلة في الدنيا والآخرة، نتناولها فيما يأتي:

أولًا: آثار دنيوية:

للإنفاق في سبيل الله فوائد عديدة، وآثار حميدة، يجنيها المتصدق إذا أحسن القصد، وأخلص العمل لوجه الله، ومن هذه الآثار الدنيوية:

١. تهذيب النفس وتطهيرها من الشح.

تعد عملية الإنفاق في سبيل الله درسًا تهذيبيًا أكثر من كونها مساعدة مالية؛ وذلك لما للإنفاق من دور عظيم في تهذيب النفوس، وإصلاح حال الفرد، واستقامة المجتمع، وتليين وتذليل ومعالجة لتلكم القلوب الصلدة القاسية، كما أن الجود والسخاء بإذن الله تعالى يقلب البغضاء محبة، والعداوة ودًا، وفيه مواساة للفقراء والمسكين والمعوزين عمومًا. فعندما تطهر النفس من آفاتها، وتتخلص من شهواتها، وتتحلى بالفضائل، وتتزين بالمكارم، تثمر أعظم الثمار، وتخرج لنا كل إحسان.

فالصدقة وسيلة من وسائل تطهير النفس، وتهذيب الأخلاق، فهي تزيل الخطايا، وتغسل صحيفة صاحبها من الأدناس، وتطهرها من الذنوب، وقد دل الكتاب العزيز والسنة المطهرة على أن الصدقة تطهر الإنسان وتزكي نفسه؛ ولهذا سميت الصدقة الواجبة زكاة، وهي: النماء والطهارة، وزكا الشيء: نما وتكاثر، وزكت النفس: طهرت، وقد قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

تطهرهم من البخل والشح، وحب المال، وتزكيهم بنماء أموالهم وحسناتهم، وتهذيب نفوسهم؛ وبذلك يرتفعون إلى منازل المخلصين الطيبين.

كما أن الإسلام يريد تربية النفوس على البذل والعطاء حتى تتخلق بأخلاق الله، فكلما اعتاد الإنسان البذل والعطاء ارتقى من حضيض الشح الإنساني إلى أفق الكمال الرباني، فإن من صفات الحق سبحانه إفاضة الخير والرحمة على عباده دون نفع يعود عليه، والسعي في تحصيل هذه الصفات بقدر الطاقة البشرية تخلق بأخلاق الله، قال الرازي: «أن النفس الناطقة لها قوتان نظرية وعملية، فالقوة النظرية كمالها في التعظيم لأمر الله، والقوة العملية كمالها في الشفقة على خلق الله، فأوجب الله الزكاة ليحصل لجوهر الروح هذا الكمال، وهو اتصافه بكونه محسنًا إلى الخلق، ساعيًا في إيصال الخيرات إليهم، دافعًا للآفات عنهم»[(١)].

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٦٥.

ولما كان البذل في سبيل الله برهان الصدق وعلامة الإيمان، كما قال عليه الصلاة والسلام: (والصدقة برهان)[1] كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وقد عرف بذلك من قبل رسالته؛ لأن الله هيأه لمكارم الأخلاق، فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي: (إنك تحمل الكل، وتكسب المعدوم)[2].

كما أن في البذل وإيتاء الزكاة شكرًا لنعمة الله عز وجل، وفي ذلك تهذيب للنفس، يقول الكاساني: «لأن إخراج العشر إلى الفقير من باب شكر النعمة، وإقدار العاجز، وتقويته على القيام بالفرائض، ومن باب تطهير النفس عن الذنوب وتزكيتها، وكل ذلك لازم عقلًا وشرعًا»[3]. ويقول الغزالي: «إن لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال، وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق، وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال، وإحواج غيره إليه»[4].

وقد قال عليه الصلاة والسلام: (الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر)[5].

والزكاة بكونها شكرًا لنعمة الله كانت نصف الإيمان.

والإنفاق يقي صاحبه من الشح المنهي عنه، فإذا يسر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به فقد وقي شح نفسه؛ وذلك من الفلاح، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

وإضافة (الشح) إلى النفس للإشارة إلى أن الشح من طباع النفوس، فإن النفوس شحيحة بالأشياء المحببة إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[النساء: ١٢٨].

وفي الحديث لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الصدقة، قال: (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، وأن لا تدع حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان)[6].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ١/ ١٤٠، ٥٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/ ٤، ٣، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/ ٩٧، ٤٢٢.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٤/ ٥٨.

(٤) إحياء علوم الدين ١/ ٤١٦.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٦٥.

(٦) أخرجه البخاري في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح ٢/ ١١٠، ١٤١٩، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم ١٠٣٢.

والمقصود أن الإنفاق في سبيل الله وسيلة لتهذيب النفس وتزكيتها وتطهيرها من خلق الشح والبخل، إلا أن الإنفاق لا يهذب النفس ويطهرها إلا إذا أخرجت الصدقة على وجهها الصحيح، بأن يخرجها بانشراح صدر، ومن أحل ماله وأصفاه وأطيبه، ويخرجها في أول وجوبها خوف الحوادث وشح النفس، وألا يعذب قلوب الفقراء بالانتظار، وينظر في ذلك إلى نعمة الله عليه بتوفيقه؛ لئلا يتكبر ويعجب فيورثه المن والأذى، فيحبط أجره، وأن يرى فضل المستحق عليه؛ لأنه سبب طهرته، ورفع درجته في الآخرة، وأن تكون صدقته سرًا، اكتفاء بنظر الله وعلمه، وصيانة الفقير عن اشتهار أمره، وأن يكون عند الإخراج مستصغرًا لما يعطي، متواضعًا لمن يعطي، إلى غير ذلك من الآداب التي قد سبق تفصيلها.

٢. حسن التكافل الاجتماعي.

ومن آثار الإنفاق في سبيل الله تعالى تحقيق التكافل الاجتماعي بأبهى صوره؛ حيث يتم تحقيق كفاية الفقير دون المساس بكفاية الغني.

وقد عرف أن من أعظم وسائل تقوية التكافل الاجتماعي في الإسلام البذل والإنفاق؛ لذلك حبب الإسلام إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخيةً، وأكفهم نديةً، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه في صباح أو مساء، يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤].

فهي عملية مستمرة إنفاق بالليل والنهار، في السر والعلن، في الشدة واليسر، حتى صارت نظرية الإنفاق في الإسلام من أبرز السياسات لعلاج مشكلة الفقر، ولو فكر العالم المعاصر اليوم قليلًا في حيثيات وضوابط نظرية الإنفاق لوجدها من أبرز وأنجع الحلول لمشكلة الفقر، الذي يعاني منه الملايين في أنحاء العالم، وإنه بحساب يسير لحصيلة زكاة أموال المسلمين في أرجاء المعمورة نجد أنها كافية لإغناء كل فقراء المسلمين، بل فقراء العالم أجمعين، وتحقيق كفايتهم من مأكل وملبس وتعليم ومسكن.

والإسلام وهو يدعو إلى الإنفاق في سبيل الله على الفقراء والمحتاجين يحرص أن يجعل المسلمين كتلة واحدة، يشد بعضها بعضًا، يربط بينهم رباط الإيمان والعقيدة، يعطف كبيرهم على صغيرهم، وغنيهم على فقيرهم، كل منهم يتحسس حاجة أخيه المسلم، ويفعل الأسباب لإزالة هذه الحاجة بصدر رحب، وقلب منشرح،

ينطلقون من توجهات كتابهم، بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

ومن سنة رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، بقوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[(١)].

وبقوله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)[(٢)].

فصدقة التطوع إذن تساعد على إذابة التفاوت الطبقي بين المسلمين، وتعينهم على حل مشكلة الفقر، وما ينتج عنه من مآسٍ ومشاكل، وهي أيضًا سبب من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين، ولها دور في إشاعة روح التسامح والتعاون والتآخي بينهم.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[(٣)]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه حاجة، قال: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء)[(٤)] يقول ابن حجر: «في الحديث حض على الخير وفعله، والتسبب إليه بكل وسيلة، والشفاعة إلى الكبير في كشف كربة، ومعونة ضعيف»[(٥)].

والمقصود أن من آثار الإنفاق ما يحققه من التكافل بين أفراد المجتمع المسلم؛ وذلك عن طريق ما شرعه الله من الإنفاق، ومد يد العون إلى الضعفاء والمعوزين؛ ليجد هؤلاء من يحنو عليهم، ومن ينتشلهم من براثن الفقر، ويبعد عنهم صوره المرعبة، وبذلك تتوازن القوى، ويتجه كلهم نحو بناء مجتمع مثالي في كل عصر، ومع كل جيل، ويلتحم الأفراد فيما بينهم في إطار من الود والرحمة، يشد بعضهم بعضًا.

ومن صور التكافل الاجتماعي في

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٨/ ٢٠، ٦٧٥١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا ٥/ ٢٢٤٢، ٥٦٨٠، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٨/ ٢٠، ٦٧٥٠.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٨/ ٧١، ٧٠٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٥.

(٥) فتح الباري ١٠/ ٤٥١.



الإسلام في باب الإنفاق: ما شرعه الله من وجوب نفقة الأقارب الفقراء على القريب الغني، فنفقة الزوجة على الزوج، والأبناء على الأب، ونفقة الوالدين الفقيرين على الولد القادر، ونفقة الأخ الفقير أو المحتاج على أخيه الذي يرثه، وقد وسع بعض علماء المسلمين في شأن نفقة الأقارب حتى تصل إلى ذوي الأرحام.

وهكذا من صور التكافل الاجتماعي أحكام الديات في القتل الخطأ، فإن الدية تجب لورثة القتيل، وقد يكونون صغارًا فتعينهم على مواجهة الحياة بعد فقد مورثهم، ويتشارك أقرب العصبة إلى القاتل خطأ في دفع الدية إلى ورثة المقتول، والدية هنا تمثل ضمانًا من المجتمع لورثة المقتول، فلا يضيع دم إنسان هدرًا في مجتمع مسلم.

٣. سعة الرزق.

ومن آثار الإنفاق في سبيل الله أن الصدقة تجلب الرزق، وتحفظ المال من الآفات والهلكات والمفاسد، وتحل فيه البركة، وتكون سببًا في إخلاف الله على صاحبها بما هو أنفع له، وأكثر وأطيب، دلت على ذلك النصوص الثابتة، والتجربة المحسوسة، فمن النصوص الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: ٣٩].

قال ابن عاشور في تفسيره: «وأكد ذلك الوعد بصيغة الشرط، وبجعل جملة الجواب اسمية، وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ففي هذا الوعد ثلاث مؤكدات دالة على مزيد العناية بتحقيقه...، وجملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تذييل للترغيب والوعد بزيادة أن ما يخلفه أفضل مما أنفقه المنفق»[1].

وقال السعدي: «قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك فهو تعالى يخلفه، فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق ويقدر»[2].

ومن النصوص الدالة أيضًا على أن الصدقة بوابة للرزق، ومن أسباب سعته واستمراره، وتهيؤ أسبابه، وأنها لا تزيد العبد إلا كثرة: قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧].

إذ الصدقة غاية في الشكر، وقوله عز وجل في الحديث القدسي: (**يا ابن آدم أنفق أنفق عليك**)[3].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (**ما فتح رجل باب عطية بصدقة أو صلة إلا زاده الله**

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٤٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٦٨١.
(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٢، ٧٢٩٦، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

بها كثرة)[١].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)[٢].

كما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته، يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلان -للاسم الذي سمع في السحابة-، فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه، يقول: اسق حديقة فلان -لاسمك-، فماذا تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه)[٣].

وفي رواية: (وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل)[٤].

وفي المقابل جاءت نصوص عديدة ترد على فئام من الخلق -ممن رق دينهم وساءت أفهامهم- ظنوا أن الصدقة منقصة للمال، جالبة للفقر، مسببة للضيعة، بل أبانت هذه النصوص أن الصدقة لا تنقص مال العبد، وأن شحه به هو سبب حرمان البركة، وتضييق الرزق، وإهلاك المال، وعدم نمائه، ومن هذه النصوص قوله صلى الله عليه وسلم: (ما نقصت صدقة من مال)[٥].

وفي حديث أسماء رضي الله عنها قالت: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (لا توكي فيوكى عليك... لا تحصي فيحصى الله عليك)[٦].

وأيضًا فأن التجربة المحسوسة تثبت أن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤونة، وأن رزق العبد يأتيه بقدر عطيته ونفقته، فمن أكثر أكثر له، ومن أقل أقل له، ومن أمسك أمسك عليه، وقد نص غير واحد أن ذلك مجرب محسوس، ومن شواهد ذلك قصة

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٣٣، ٣٤١٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قول الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى)، ٢/ ١١٥، ١٤٤٢، ومسلم في كتاب الكسوف، باب في المنفق والممسك ٢/ ٧٠٠، ١٠١٠.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٨/ ٢٢٢، ٧٦٦٤.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٨/ ٢٢٣، ٧٦٦٥.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع ٨/ ٢١، ٦٧٥٧.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٦.

عائشة رضي الله عنها: «أن مسكينًا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاتها: أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه! فقالت: أعطيه إياه! قالت: ففعلت، قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان -ما كان يهدي لنا- شاة وكفنها، فدعتني، فقالت: كلي من هذا، هذا خير من قرصك»[(١)].

فالقضية إذن مرتبطة بالإيمان، ومتعلقة باليقين، والأمر كما قيل: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية»[(٢)].

ومما يدل على أن الصدقة سبب لزيادة المال، وسعة الرزق: قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٥].

وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه، إما في الدنيا أو في الآخرة»[(٣)].

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[سبأ: ٣٩].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به، وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب»[(٤)].

ومما يدل على ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: **(ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)**[(٥)].

ومعلومٌ أن سعة الرزق والبركة فيه لها ارتباط وثيق بالأعمال الصالحة التي يقدمها العبد، فكلما ازداد العبد صلةً بالله عز وجل بارك الله له في رزقه، وأغناه من فضله، ومن الأعمال الصالحة الإنفاق في سبيل الله، وهو من الأعمال التي ترتبط بالرزق، فجزاؤه في الدنيا الإخلاف والبركة، وسعة الرزق، وفي الآخرة الجنة، ورضوان الله.

ومن الأعمال الصالحة التي تزيد في الرزق أيضًا صلة الرحم، وهذا من أجل الأعمال وأفضلها عند الله.

فقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل**

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٥/ ١٤٥١، ٣٦٥٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ١٤٢، ٣٢٠٧.
(٢) مسند الشهاب القضاعي ١/ ٢٣٣.
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٣٧٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٦٢.
(٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قوله تعالى: (فأما من أعطى واتقى)، ٢/ ١١٥، ١٤٤٢، ومسلم في الكسوف، باب في المنفق والممسك ٢/ ٧٠٠، ١٠١٠.

رحمه)[1].

فصلة الرحم لها علاقة بالرزق، والله عز وجل قد تكفل بأن يصل من وصلها، ويقطع من قطعها، والجميع يقصر في هذا الجانب إلا من رحم الله، خاصة مع تعقيدات الحياة المعاصرة، وكثرة الارتباطات والأعمال، ولكن لا أقل من أن يرفع المرء سماعة الهاتف، ويطمئن على ذوي رحمه.

والمقصود أن الصدقة من أهم موجبات توسيع الرزق، كما أنها تصون المال الباقي وتحفظه وتبعد عنه الكوارث وتزيده نماءً، والصدقة من الأمور المجربة في استنزال الرزق! وكأن الله عز وجل يقول: أنت دفعت لأخيك مالًا أكرمته، أنا أولى منك بالإكرام؛ لذا أوسع عليك في الرزق! وبما أن الصدقة هي عبارة عن تطهير للنفس؛ لذا فهي من مواطن استجابة الدعاء، وبإمكان الإنسان أن يطلب من الفقير الذي تصدق عليه أن يدعو له بسعة الرزق!

ولابد من التنبيه إلى أمر مهم وهو أن سعة الرزق أو ضيقه قد تعني بالدرجة الأولى ما يجعله الله تعالى من البركة فيما آتاه لعبده، وما يمتعه به من السعادة والطمأنينة به، وشواهد ذلك كثيرة من واقع الناس، فعلى المسلم أن يعلق قلبه بالله، وأن يحذر من الركون إلى الأسباب المادية، وينسى مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي تكفل برزق جميع المخلوقات.

ثانيًا: آثار أخروية:

كما أن للإنفاق في سبيل الله آثار دنيوية، فله أيضًا آثار أخروية، ومن هذه الآثار:

١ . الحصول على محبة الله ورحمته ورضاه.

فمن فوائد الصدقة وآثارها الحميدة أنها طريق للظفر بمحبة الله ورحمته ورضاه، ففي الصدقة إحسان ورحمة، وتفضل وشفقة؛ ولذا كانت من وسائل نيل محبة رب العالمين، والحصول على رحمته، والظفر برضوانه؛ لأنه سبحانه يحب المحسنين، ويرحم الرحماء، وقد دلت نصوص القرآن والسنة على ذلك، فمما يدل على أن التصدق والإنفاق في مرضاة الله من دواعي حبه عز وجل للعبد: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

فقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل للترغيب في الإحسان؛ لأن محبة الله عبده غاية ما يطلبه الناس؛ إذ محبة الله العبد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ٨/ ٥، ٢٥٥٧، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ٤/ ١٩٨٢، ٥٩٨٦.

سبب الصلاح والخير دنيا وآخرة، واللام للاستغراق العرفي، والمراد: المحسنون من المؤمنين[1].

والمحسن مشتق من فعل الحسن، وكثر استعماله فيمن ينفع غيره بنفع حسن، من حيث إن الإحسان حسن في نفسه، أو مشتق من الإحسان، ففاعل الحسن لا يوصف بكونه محسنًا إلا إذا كان فعله حسنًا وإحسانًا معًا، فالاشتقاق إنما يحصل من مجموع الأمرين. ومعنى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي: في الإنفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقته، والمقصود منه أن يكون ذلك الإنفاق وسطًا لا إسراف فيه ولا تقتير، وهذا هو الأقرب لاتصاله بما قبله، ويمكن حمل الآية على جميع وجوه الإحسان.

قال السعدي: «وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملًا، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضًا الإحسان في عبادة الله تعالى»[2].

وفي الآية إثبات المحبة لله عز وجل، وهي محبة حقيقية على ظاهرها، وليس المراد بها الثواب ولا إرادة الثواب، خلافًا للأشاعرة وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته، فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة، وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين، وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين.

فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم أن أحدًا -وهو جبل- يحب ويحب، فقال: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[3].

والإنسان يجد أن دابته تحبه وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه، وأتت إليه، وكذلك غيره من المواشي، والإنسان يجد أنه يحب نوعًا من ماله أكثر من النوع الآخر.

والصدقة أيضًا تورث جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن

(١) التحرير والتنوير ١/ ٥٤٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه ٥/ ١٠٣، ٤٠٨٣، ومسلم في الحج، باب فضل المدينة ٢/ ٩٩٣، ١٣٦٥.

﴿ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾[آل عمران: ١٥-١٧].

ففي هذه الآية ذكر الله تعالى جزاء المتقين، وهو جنات فيها من أصناف الخيرات، والنعيم المقيم، ولهم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق؛ لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها عن الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات، ولهم رضوان من الله الذي هو أكبر من كل شيء.

وذكر من صفاتهم أنهم (منفقون) أموالهم في طاعة الله، ويدخل فيه إنفاق المرء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه، وفي الزكاة والجهاد، وسائر وجوه البر.

فهؤلاء المتقون المنفقون أموالهم في سبيل الله لهم هذا الأجر العظيم، الذي جاء في الآيتين، ومنه (رضوان من الله) الذي حرمه من لم يتصف بهذه الصفات، وعطف (رضوان من الله) على ما أعد للذين اتقوا عند الله؛ لأن رضوانه أعظم من ذلك النعيم المادي؛ لأن رضوان الله تقريب روحاني.

قال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[التوبة: ٧٢].

وأظهر اسم الجلالة في قوله: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: ورضوان منه، أي: من ربهم؛ لما في اسم الجلالة من الإيماء إلى عظمة ذلك الرضوان.

والتنوين في (رضوانٌ) للتفخيم، أي رضوان وأي رضوان لا يقادر قدره كائن من الله عز وجل، فهو أكبر من كل متاع، فهو رضوان من الله، رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما، ويرجح رضوان بكل ما في لفظه من نداوة، وبكل ما في ظله من حنان.

فرضوان الله ومحبته والتفاته وعطفه كل هذه غاية يتوخاها الإنسان، بل يبذل للحصول عليها كل غالٍ ونفيس، وما أسعد الإنسان وهو يرى نفسه محبوبًا لله سبحانه، راضيًا عنه، على أن في الإخبار بالرضا والمحبة في الآيتين السابقتين فرقًا ظاهرًا وواضحًا، فإن المحبة أمر أعمق من مجرد الرضا، فمحبة الله لها معنى عظيم له تأثيره الخاص في النفس.

ومن النصوص الدالة على أن الصدقة دافعة لغضب الله وسخطه، جالبة لرضوانه ورحمته: ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الصدقة لتطفئ غضب

الرب، وتدفع ميتة السوء)[1]. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي تضمن قصة الأبرص والأقرع والأعمى، وفيه قول الملك للأعمى لما بذل المال محتسبًا الثواب من الله، وأمسكه صاحباه شحًا به وبخلًا: (أمسك مالك، فإنما ابتليتم؛ فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك)[2].

كما أتت أحاديث عديدة تبين أن الله يحب المتصدقين، وذوي البر والإحسان، وصانعي المعروف، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس)[3].

كما جاءت أحاديث تبين أن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء بخلقه، المشفقين على عباده -وهي صفة المتصدق- ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء)[4]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل)[5].

فيا طامعًا في محبة الله ورضوانه، ويا راجيًا رحمته وإحسانه: عليك بالصدقة، فإنها نعم الوسيلة لتحقيق غايتك، والوصول إلى بغيتك.

فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يحض على الإنفاق في تجهيز جيش العسرة، فجاء بتسعمائة بعير برواحلها ومراكبها ونفقاتها وسلاحها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم)[6].

فقد حل عليه رضوان الله الأكبر الذي لا سخط بعده.

٢ . مغفرة الذنوب.

وجعل الله الصدقة سببًا لغفران المعاصي، وإذهاب السيئات، والتجاوز عن الهفوات، دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[هود: ١١٤].

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة ٣/ ٤٣، ٦٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤/ ١٧١، ٣٤٦٤.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ١٣٩، ٦٠٢٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٦.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الرحمة ٤/ ٤٤٠، ٤٩٤٣، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ٤/ ٣٢٣، ١٩٢٤، وأحمد ١١/ ٣٣، ٦٤٩٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٢٢.

(٥) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ٤/ ١٨٠٩، ٢٣١٩.

(٦) أخرجه أحمد ٣٤/ ٢٣١، ٢٠٦٣٠، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح ٣/ ١٧١٣، ٦٠٧٣.

وهذا نص عام يشمل كل حسنة، وفعل خير، والصدقة من أعظم الحسنات والخيرات، فهي داخلة فيه بالأولوية.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٣٥].

وقوله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فهاتان الآيتان أفادتا أن من أولى وأجل ما تنال به مغفرة الله للخطايا، وتجاوزه عن الذنوب الإنفاق في مرضاته سبحانه .

ومما يدل على أن الصدقة تمحو الذنوب وترفع الدرجات: قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

يقول السعدي رحمه الله: «أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة، وتزكيهم أي: تنميهم وتزيد في أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم»[١].

وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: يخوفكم الفقر؛ لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله...، ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أي: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء و﴿وَفَضْلًا﴾ أي: في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر»[٢].

ومن النصوص الدالة على ذلك: ما أخرجه البخاري في باب: الصدقة تكفر الخطيئة من حديث حذيفة رضي الله عنه، وفيه: **(فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والمعروف)**[٣].

٣. الحشر تحت ظل الصدقة.

ومن فوائد الإنفاق الأخروية: أن الناس إذا حشروا يوم القيامة واشتد الكرب فإن المتصدقين يتفيئون في ظل صدقاتهم، وقد ثبت ذلك في أحاديث كثيرة، ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: **(كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة حتى يفصل بين الناس)**

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٥٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٠٠
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة تكفر الخطيئة ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٨.

أو قال: (حتى يحكم بين الناس) قال يزيد -راوي الحديث-: وكان أبو الخير لا يخطئه يومٌ إلا تصدق فيه بشيء، ولو كعكة أو بصلة أو كذا[1].

وقال في الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[2].

وقوله: (في ظل صدقته) ظاهره العموم، فيشمل صدقته الواجبة والنافلة، والمراد: يوم القيامة، حين تدنو الشمس من الرؤوس، ويبلغ الكرب في الناس مبلغه.

والمقصود أن أعمالهم تظلهم أو تضحيهم، فإضافة الظل إلى الأعمال إضافة سبب؛ فالأعمال الصالحة أصحابها في ظلها، وكل ذلك في ظل العرش.

وليس المراد بها ظله من حر الشمس فقط، بل تمنعه من جميع المكاره، وتستره من النار إذا واجهته، وتوصله إلى جميع المحاب، من قولهم: فلان في ظل فلان، وتمسك به من فضل الغني الشاكر على الفقير الصابر، ولو لم يكن في فضل الصدقة إلا أنها لما تفاخرت الأعمال كان لها الفضل عليهن لكفى[3].

والمقصود أنه مما جاء في الترغيب بالصدقة أن صاحبها يكون في ظلها يوم القيامة، ويمكن أن نقول: الصدقة تجسمت، أو تجسم ثوابها، وتحول إلى مظلة تظل صاحبها، حتى يقضى بين الخلائق، ولا يناله ما ينال عامة الناس، من حرارة الشمس التي تدنو منهم فيعرقون، والأولى ترك التعمق في البحث في مدلول قوله: (في ظل صدقته) وتفويض ذلك إلى ما يعلمه المولى سبحانه، ويكفينا أن نقول: إن هذا أعظم موعظة، وأعظم مرغب في أن يكون الإنسان من المنفقين في سبيل الله.

٤ . دخول جنات النعيم.

ومن فوائد الصدقة، وآثارها الحميدة أنها سبب في دخول الجنة، وأصل ذلك بيان الرب سبحانه أن الجنة هي دار المحسنين والمحسنات من عباده وإمائه، فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[المرسلات: ٤٣-٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[الزمر: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة: ٨٥].

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٤٧، وابن حبان ٣٣١٠، والحاكم ١/ ٤١٦، وصححه الألباني في التعليق الرغيب ٢/ ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ١٠٣١.

(٣) فيض القدير ٢/ ٤٥٩.

إلى غير ذلك من الآيات والإحسان هنا بمعناه العام، يدخل فيه الإحسان بالمال والجاه وغيره.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[الرعد: ٢٢-٢٣].

فذكر الله تعالى هاهنا الذين صبروا على مشاق الطاعة وترك المخالفة، أو على ما تكرهه النفوس ويخالفه الهوى، فعلوا ذلك ابتغاء وجه ربهم، وطلبًا لرضاه، لا فخرًا ورياء، وأقاموا الصلاة المفروضة، بحيث حافظوا على شروطها وأركانها، وأنفقوا مما رزقناهم من الأموال فرضًا ونفلًا، سرًا وعلانيةً، ويدرءون بالحسنة السيئة، أي: يدفعون الخصلة السيئة بالخصلة الحسنة، فيجازون الإساءة بالإحسان.

ثم ذكر جزاءهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: عاقبة دار الدنيا، وما يؤل إليه أهلها، وهي: الجنة التي فسرها بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مخلدين فيها، والعدن: الإقامة، وقيل: هي بطنان الجنة: أي: مداخلها[(١)].

ومما يدل على أن من آثار الصدقة دخول الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الحديد: ١٨].

فالأجر الكريم هنا: هو الجنة.

قال السعدي في تفسير: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ «أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية والنفقات المرضية ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخرًا لهم عند ربهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة مما لا تعلمه النفوس»[(٢)].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٣-٤].

فقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كرامات وعلو منزلة، أو درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط من ذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أعده لهم في الجنة لا ينقطع مدده، ولا ينتهي أمده، بمحض الفضل والكرم.

ومما يدل على أن الإنفاق في سبيل الله من أسباب دخول الجنة: قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

(١) البحر المديد ٣/ ١٦٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٨٤٠.



﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فقد دلت هذه الآية على أن الأنفاق في سبيل الله وكظم الغيظ والعفو عن الناس من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثًا على ذلك.

ومن ذلك قوله: تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٩٩].

ففي قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: في جملة عباده الصالحين[١]، أو: في جنته[٢]. ويحتمل الأمران معًا، كما عبر الطبري بقوله: «سيدخلهم الله فيمن رحمه، فأدخله برحمته الجنة»[٣]. والمقصود أنه وعدٌ من الله لهم بإحاطة الرحمة بهم، أو سيدخلهم في جنته التي هي محل رحمته وكرامته، والسين لتحقيق وقوعه.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[الصف: ١٠-١٢].

ففي هذه الآيات وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، ومن هذه الأعمال الجليلة التي يكون بها المتاجرة مع الله تعالى: الإنفاق في سبيل الله، في الجهاد وغيره.

وبين الثمن بقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والعدن في لغة العرب: الإقامة، فمعنى جنات عدن: جنات إقامة في النعيم، لا يرحلون عنها ولا يتحولون، وبين في آيات كثيرة أنهم مقيمون في الجنة على الدوام.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة الموصوفة بما ذكر من الأوصاف الجليلة هو الفوز الذي لا فوز بعده.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٤٩.
(٢) معالم التفسير، البغوي ٤/ ٨٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ج١٤/ ص٤٣٤.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١].

ففي هذه الآية أخبر الله أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم، والثمن الجنة، والمقابل بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله.

ولا يتوقف أثر الصدقة على هذا فحسب، بل الأمر أعظم جدًا من ذلك؛ إذ يبادر خزنة كل باب من أبواب الجنة لدعوة المتصدق كل يريده أن يدخل من قبله، وللجنة باب يقال له: باب الصدقة، يدخل منه المتصدقون؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير -إلى أن قال- ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة)[(١)]، وقد أبان العيني أن المراد بالصدقة هنا النافلة؛ لأن الزكاة الواجبة لابد منها لجميع من وجبت عليه من المسلمين، ومن ترك شيئًا منها فيخاف عليه أن ينادى من أبواب جهنم[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الزكاة، المال، المن

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب الريان للصائمين ٢/ ٦٧١، ١٧٩٨، ومسلم في الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر ٣/ ٩١، ٢٤١٨.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج١٦/ ص٢٥٠.







عناصر الموضوع

مفهوم الأنهار

أولًا: المعنى اللغوي .

(نهر) النون والهاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على تفتح شيءٍ أو فتحه. وأنهرت الدم: فتحته وأرسلته، وأسلته، وسمي النهر لأنه ينهر الأرض، أي: يشقها. والمنهرة: فضاءٌ يكون بين بيوت القوم يلقون فيها كناستهم. وجمع النهر أنهارٌ ونهرٌ ونهورٌ، والنهر محركةً: السعة ومجرى الماء، واستنهر النهر: أخذ لمجراه موضعًا مكينًا، وأنهر الماء: جرى. ونهرٌ نهرٌ: كثير الماء[(١)] .

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو مسطح مائي ينساب على اليابسة في مجرى طويل، وتبدأ معظم الأنهار من أعالي الجبال أو التلال، وقد يكون منبع النهر مثلجة، أو نهرًا جليديًا ينصهر، أو ينبوعًا، أو بحيرة تفيض مياهها. ويتلقى النهر أثناء جريانه في مجراه المزيد من المياه من الجداول، والأنهار الأخرى، ومياه الأمطار. ويقع مصب النهر في نهايته، حيث تصب مياهه في نهر أكبر، أو في بحيرة، أو في أحد المحيطات[(٢)] .

فالأنهار: هي المجاري المائية التي تتدفق فيها المياه العذبة طوال السنة أو لعدة شهور[(٣)] .

وقيل: النهر: الخليج الكبير. والجدول: النهر الصغير، وأنهار الجنة ليست إلا المياه؛ لأنها تجري من غير أخدود[(٤)] .

والنهر: الماء الجاري المتسع، ثم أطلق على الأخدود مجازًا، فيقال: جرى النهر، وجف النهر، والأصل: جرى ماء النهر، وجف ماء النهر[(٥)] .

إذن فالأنهار هي: المجاري المائية الواسعة التي تتدفق فيها المياه العذبة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة نهر، ٥/ ٣٦٢.

(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٢٥/ ٥٣٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي ١/ ٨٨٩، ط مؤسسة الرسالة، ط الأولى، سنة ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

(٤) انظر: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للكفوي ١/ ٩١٠ .

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي ١/ ٣٣١.



الأنهار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نهر) في القرآن (١٢٣) مرة، يخص موضوعنا منها (٥٤) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٣	﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ٣٣﴾ [الكهف: ٣٣]
الجمع	٥١	﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ٢٥﴾ [البقرة: ٢٥]

واستعملت (الأنهار) في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الماء العذب الغزير الجاري، ومجرى الماء العذب[2].

(١) المعجم المفهرس، عبدالله جلغوم، ص١٣٤٧-١٣٤٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٥٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليم:

اليمُ لغة:

الياء والميم: كلمةٌ تدل على قصد الشيء وتعمده وقصده، واليم: البحر[(١)].

اليم اصطلاحًا:

بحر؛ متسع من الأرض أصغر من المحيط مغمور بالماء الملح أو العذب[(٢)].

ففي قصة أم موسى، يقول الحق: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

وكان المقصود باليم هناك: النيل، لكن المقصود به هنا في سورة الأعراف هو البحر. ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٦][(٣)].

الصلة بين النهر واليم:

اليم في كلام العرب مرادف البحر، والبحر في كلامهم يطلق على الماء العظيم المستبحر، فالنهر العظيم يسمى بحرًا، قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]. فإن اليم من الأنهار[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٥٢.

(٢) انظر: المحكم، ابن سيده، ١٠/ ٥٧٩.

(٣) المصدر السابق.

وذكر الطبري في تفسيره أن «اليم» هو نهر النيل ١٦/ ٥٧، وكذا قال القرطبي ١١/ ١٩٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٥٨.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٠/ ٧٤.



٢ البحر:

البحر لغة:

الماء الكثير، ملحًا كان أو عذبًا، وهو خلاف البر، سمي بذلك لعمقه واتساعه، قد غلب على الملح حتى قل في العذب، وجمعه أبحرٌ وبحورٌ وبحارٌ. وماءٌ بحرٌ: ملحٌ، قل أو كثر[(١)].

قال ابن فارس:(والأنهار كلها بحارٌ)[(٢)].

البحر اصطلاحًا:

مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفيه من كان في وسطه، وهو مأخوذ من الاتساع[(٣)].

وأصل البحر: كل مكان واسع جامع للماء الكثير، هذا هو الأصل، وسموا كل متوسع في شيء بحرًا.

وقال بعضهم: البحر يقال في الأصل للماء الملح دون العذب[(٤)].

الصلة بين النهر والبحر واليم:

النهر والبحر يلتقيان في المعنى، فكل منهما: مجرى للماء الفائض، أو: الماء الجاري المتسع، ولذا يقول ابن منظور: وقد أجمع أهل اللغة أن اليم هو البحر. وجاء في الكتاب العزيز: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].قال أهل التفسير: هو نيل مصر، حماها الله تعالى[(٥)].

وقد يكون البحر للمجرى المتسع للماء المالح، والنهر للمجرى المتسع للماء العذب.

قال الراغب:« يقال في الأصل للماء الملح دون العذب، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ٤/ ٤١، مادة بحر.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة بحر، ١/ ٢٠١.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ١/ ٧١.

(٤) الموسوعة القرآنية، ٨/ ٤٢، لإبراهيم الأبياري.

(٥) لسان العرب، ٤/ ٤٢، مادة بحر.

(٦) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ١/ ٣٦.

٣ البر:

البر لغة:

والبر، بالفتح: خلاف البحر. والبرية من الأرضيين، بفتح الباء: خلاف الريفية. والبرية: الصحراء نسبت إلى البر، ويقال: أفصح العرب أبرهم. معناه: أبعدهم في البر والبدو دارًا. وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ﴾ [الروم: ٤١]؛ قال الزجاج: معناه: ظهر الجدب في البر والقحط في البحر، أي: في مدن البحر التي على الأنهار[(١)].

والبر: الصادق. وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].والبر من صفات الله تعالى وتقدس: العطوف الرحيم اللطيف الكريم[(٢)].

البر اصطلاحًا:

البر: خلاف البحر، وهو التراب واليابس[(٣)].

الصلة بين النهر والبر:

إذا كان النهر بمعنى: مجرى الماء الفائض، أو: الخليج الكبير، أو: الماء الجاري المتسع، والبحر: مستقر الماء الواسع، وكما ذكرنا في البر أنه خلاف البحر، فيمكننا القول أيضًا: أن البر خلاف النهر، فالنهر والبر بينهما تضاد.

(١) لسان العرب، ٤/ ٥٢، مادة برر، وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة بحر، ١/ ١٧٩ .
(٢) لسان العرب ٤/ ٥٢، مادة برر.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٤، الكليات، أبو البقاء الكفوي، ١/ ٢٢٥.

الجنان وجريان الأنهار من تحتها

حينما نستعرض آيات القرآن الكريم نجد أن ورود الأنهار مرتبطة بالجنات في خمسة وثلاثين موضعًا[١].

وقد ورد لفظ الأنهار مقترنًا بلفظ (من تحتهم) في أربعة مواضع من القرآن الكريم[٢]، وما عدا هذه المواضع الأربعة فهو مقترن بلفظ (من تحتها)، وموضع وحيد في سورة التوبة ورد بدون جر وهو في قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

خلافًا لابن كثير، الذي يقرؤها بالجر[٣].

ومن المتعارف عليه أن أول حاجات الإنسان الضرورية المكان والمسكن الذي يعيشه ويسكنه، وأحسن المكان المشتمل على النباتات والأشجار، وألطفه وأكمله ما كان تحت قصوره الأنهار بكثرة.

ولهذا ورد في جزاء المؤمنين. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

ثم إن أشد الحاجات الأكل والشرب اللذين يشير إليهما الجنة والنهر، ثم إن أكمل الرزق هو أن يكون مألوفًا ومأنوسًا، وألذ الفاكهة أن تكون متجددة، وإن أصفى اللذة هو أن يكون المقتطف معلومًا وقريبًا، وإن ألذها أن يعرف أنها ثمرة عمله.

فلهذا قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥][٤].

إذن فالعلة في اقتران الجنات بجريان الأنهار من تحتها هي زيادة النعيم واكتماله الذي أعده الله لأهل هذه الجنات.

قال الشيخ سعيد النورسي: أما ﴿تَجْرِى﴾ فاعلم أن أحسن الرياض ما فيها ماء، ثم

(١) هي: البقرة: ٢٥،٢٦٦، وآل عمران: ١٥،١٣٦، ١٩٥،١٩٨، والنساء١٣، ٥٧، ١٢٢، والمائدة ١٢، ٨٥، ١١٩، والتوبة ٧٢، ٨٩، ١٠٠، والرعد٣٥، وإبراهيم٢٣، والنحل٣١، والكهف٣١، وطه٧٦، والحج١٤، ٢٣، والفرقان١٠، والعنكبوت٥٨، ومحمد١٢، والفتح١٧،٥، والحديد١٢، والمجادلة ٢٢، والصف١٢، والتغابن٩، والطلاق١١، والتحريم٨، والبروج١١، والبينة٨.

(٢) الأنعام٦، والأعراف٤٣، ويونس٩، والكهف٣١.

(٣) النشر في القراءات العشر،٢/ ٢٨٠ لشمس الدين محمد بن يوسف أبو الخير ابن الجزري، ت: ٨٣٣ هـ، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، وهي قراءة متواترة، انظر: تخريج قراءات فتح القدير، لإيهاب فكري، ص ١٥٧، ط: المكتبة الإسلامية بالقاهرة وانظر: المبسوط في القراءات العشر، ١/ ٢٢٨، لأحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، ت: ٣٨١هـ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط: ١٩٨١ م.

(٤) من خواطر الشعراوي ١/ ٢٠٧.

أحسنها ما يسيل ماؤها، ثم أحسنها ما استمر السيلان، فبلفظ ﴿تَجْرِي﴾ أشار إلى تصوير دوام الجريان، وأما ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ فاعلم أن أحسن الماء الجاري في الخضروات أن ينبع صافيًا من تلك الروضة، ويمر متخرخرًا تحت قصورها، ويسيل متنشرًا بين أشجارها فأشار بـ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إلى هذه الثلاثة، وأما ﴿الْأَنْهَارُ﴾ فاعلم أن أحسن الماء الجاري في الجنان أن يكون كثيرًا، ثم أحسنه أن تتلاحق الأمثال من جداوله، فإن بتناظر الأمثال يتزايد الحسن على قيمة الأجزاء، ثم أحسنه أن يكون الماء عذبًا فراتًا لذيذًا، كما قال ﴿مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ فبلفظ (نهر) وجمعه وتعريفه أشار إلى هذه[1].

والجريان لا يكون للأنهار وإنما للماء؛ لأن الأنهار هي ما يشق في الأرض ليجري فيه الماء، فهو من إطلاق اسم المحل وإرادة الحال، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾ [العلق: ١٧].

وإن الناظر إلى الماء وهو يجري منسابًا في الأرض لايرى النهر؛ ولكن يرى الماء، فكأن النهر اختفى في الماء ولا يرى غير الماء.

وإن هذه الجنات فيها بهجة للناظرين، فهي متعة للأنظار، وبهجة للنفوس بذاتها، وفيها ثمرات شهية من كل شيء[2].

قال الراغب: إن قيل: لم قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].وقد علم أن الماء في البساتين إذا كان جاريًا على وجه الأرض أحسن منها إذا كان جاريًا تحتها؟ قيل: عنى أنهارًا جارية تحت الأشجار، لا تحت الأرض، وقد روي عن مسروق ما يدل على ذلك، وهو أن كل أنهار الجنة تجري في غير أخاديد[3].

على أن هناك آية تقول: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فما الفرق بين الاثنين؟

يقول الشعراوي في خواطره: آية تجري تحتها الأنهار، أي: أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها، أما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ فكأن الأنهار تنبع تحتها، حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذي يأتي من بعيد يقطع عنه أو يجف، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين، أن نعيم الجنة باق وخالد، ومادام هناك ماء فهناك

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ١/ ١٩٣ لبديع الزمان سعيد النورسي ت: ١٣٧٩هـ ،تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط: شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط: الثالثة، ٢٠٠٢م.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ١/ ١٧١، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، أبو زهرة ت: ١٣٩٤هـ ط: دار الفكر العربي

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٢٣ لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت: ٥٠٢هـ، ط: أولى: ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

خضرة ومنظر جميل، ولابد أن يكون هناك ثمر[1] وكأنه يرجع علة اقتران الجنة بجريان الأنهار إلى بث الطمأنينة من الله لأهل هذه الجنات.

وقال رشيد رضا: ويحتمل أن من في قوله ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أن يكون صلة معناه: تجري تحتها الأنهار، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، فيقال: هذا النهر منبعه من أين؟ يقال: من عين كذا من تحت جبل كذا.

ولو دققنا في هذه الآية آية سورة التوبة لوجدنا أنها الآية الوحيدة التي حددت الأصناف الذين يدخلون الجنة، أما باقي الآيات إنما هي على العموم، فالحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار، والجنات جمع جنة، وهي جمع؛ لأنها كثيرة ومتنوعة، وهناك درجات في كل جنة أكثر من الدنيا، واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء: ٢١][2].

من تحتها أي: من تحت أشجارها، الأنهار أي: ماء الأنهار، فنسب الجري إلى الأنهار توسعًا، وإنما يجرى الماء وحده، فحذف اختصارًا[3].

(١) خواطر الشعراوي ١/ ٢٠٧.
(٢) تفسير المنار، ١١/ ١٣.
(٣) الموسوعة القرآنية، للأبياري٩/ ٦٥.

وقال السعدي: في آية سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [يونس: ٩].

﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ولهذا قال: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون[4].

إذن فقد ورد لفظ الأنهار مرتبطًا بالجنات في خمسة وثلاثين موضعًا، والحكمة في

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٥٨.

اقتران الجنة بجريان الأنهار من تحتها هي: زيادة النعيم الذي أعده الله لأهل هذه الجنات واكتماله لهم، وبث الطمأنينة لهم من الله عز وجل.

الأنهار نعمة إلهية

أولًا: تسخير الأنهار:

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق السموات والأرض وما فيهن، وهو الذي أنزل من السماء، هذا الماء الذي تتدفق به الأنهار، وتتفجر منه العيون، وتحيا عليه الزروع، وما يخرج منها من ثمر وحب، وهو سبحانه الذي سخر الفلك، وأجراها مع الماء، وسخر الأنهار لتحمل الفلك على ظهرها، وسخر الشمس والقمر تسخيرًا منتظمًا، لا يتخلف أبدًا، وسخر الليل والنهار، على هذا النظام البديع المحكم[1].

ويتعهد الله تعالى بفضله ورحمته لعباده بين الفينة والأخرى، فيذكرهم بما أنعم عليهم من نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، ليحملهم على الشكر والطاعة، وينبههم على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر، لتقوم الحجة عليهم من وجهين. وهذا كله دليل قاطع على وجود الله ووحدانيته، وسلطانه وتصرفه في الكون والأنفس، مما يوجب على العباد الإيمان بربهم، والثقة بوعده، وشكر إحسانه ونعمه[2].

قال الله تعالى معددًا آلاءه ومذكرًا

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٠٠.



بقدرته: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

قال الرازي: «يختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، وذكر هاهنا عشرة أنواع من الدلائل. أولها: خلق السموات. وثانيها: خلق الأرض،... إلى أن قال: وخامسها: قوله: وسخر لكم الأنهار»(١).

التسخير: تذليل الشيء وجعلك إياه منقادًا فكأنك إذا سخرت منه جعلته كالمنقاد لك(٢).

وقد ورد تسخير الأنهار صريحًا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

والمراد بالتسخير هنا: التذليل، والإخضاع، والانقياد، وذلك بإخضاع هذه المخلوقات لسنن وقوانين تحكمها، وتضبط موقفها بين المخلوقات، بحيث يمكن الإنسان إخضاع هذه المخلوقات والانتفاع بها، إذا هو عرف القوانين الكونية المسكة بها(٣).

وسخر لكم الأنهار فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم، وقيل: تسخير هذه الأشياء تعليم كيفية اتخاذها(٤).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: ذللها لكم حيث تشربون منها وتسقون زروعكم وجناتكم ودوابكم، وتشقون منها جداول تسيرونها وفق إرادتكم(٥).

وسخر الأنهار تشق الأرض من قطرٍ إلى قطرٍ رزقًا للعباد من شربٍ وسقيٍ، وغير ذلك من أنواع المنافع(٦).

وتسخير الأنهار: خلقها على كيفيةٍ تقتضي انتقال الماء من مكانٍ إلى مكانٍ وقراره في بعض المنخفضات فيستقي منه من تمر عليه وينزل على ضفافه حيث تستقر مياهه، وخلق بعضها مستمرة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها(٧).

ومن المفسرين من يجعل من معاني

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٩٦.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٥٥.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، لعبدالكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠٠.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٤٩٩.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٣٩.
(٧) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٣/ ٢٣٦.

التسخير: التفجير.

قال الرازي: «واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات، لا جرم ذكر تعالى إنعامه على الخلق بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء منها إلى مواضع الزرع والنبات، وأيضًا ماء البحر لا يصلح للشرب، والصالح لهذا المهم هو مياه الأنهار»(١).

وقال ابن عطية: «وأما تسخير الأنهار فتفجرها في كل بلد، وانقيادها للسقي وسائر المنافع»(٢).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾، أي: فجر لكم ينابيع الماء الجاري في الأنهار، ويسر توزيعها وتفرعها لسقي أكبر مساحة من الأرض والشجر والزرع(٣).

وهو الذي سخر لكم الأنهار، وشقها في بطون الأودية وجعل منها حياة الأقاليم والأقطار. ألا ترى إلى نهر النيل والفرات وغيرهما؟!(٤).

ومن باب التسخير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ١٩/ ٩٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٣٩.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٢٠٠.
(٤) التفسير الواضح، لمحمد حجازي ٢/ ٢٦٣.

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه،... يسيرون من قطرٍ إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك(٥).

ويتضح لنا مما سبق من كلام المفسرين: أن تسخير الأنهار يدور حول: التذليل، والإخضاع، والانقياد، وخلقها على كيفيةٍ معينة تقتضي انتقال الماء من مكانٍ إلى مكانٍ، وقراره في بعض الأماكن، وتفجيرها وتيسير توزيعها.

ثانيًا: تفجير الأنهار

التفجر: التفتح بالسعة والكثرة. وقرأ مالك بن دينار (ينفجر) بالنون(٦).

وقد ورد الحديث عن تفجير الأنهار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٨٣.
(٦) الكشاف ١/ ١٥٥، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ثالثة، ١٤٠٧ هـ، البحر المحيط ١/ ٤٢٨، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت: ٧٤٥هـ، تحقيق: صدقي محمد جميل، نشر: دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٢٠ هـ.

﴿الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ٩١].

والثالث: في قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣].

ويدور كلام المفسرين عن تفجير الأنهار الوارد في تلك الآيات حول المعاني الآتية: الشق والسيلان، التفتح والإجراء.

ففي آية سورة البقرة قال أبو حيان: «والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة، والانفجار دونه، والمعنى: إن من الحجارة ما فيه خروقٌ واسعةٌ يندفق منها الماء الكثير الغمر؛ إذ ليس المعنى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ للحجر الذي يتفجر منه الماء، إنما المعنى للأحجار التي يتفجر منها الأنهار.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الحجر الذي يتفجر منه الأنهار، هو الحجر الذي ضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا»[1].

وإن من الحجارة للذي يتفجر منه الأنهار، يعني: من الحجارة ما يسيل منه أنهار من ماء[2].

فكأنه قيل: وإن من القاسية قلوبهم من يراجع، فبعض يتفجر منه الأنهار، ومعناه: حكمة بالغة كأنهار متفجرة، وبعض يتحصل منه نوع من العلوم يجري مجرى الماء... ، ونبه بفحوى في الكلام أن هؤلاء المذمومين لم يحصل منهم شيء من ذلك فهم أحجار صلدة، وإنما قال: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ﴾، ولم يقل من اعتبار بلفظ الحجارة[3].

وسبب التفجير للأنهار إنما هو خشية الله عز وجل، قال مجاهد: كل حجر ينفجر منه الماء، وينشق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، فمن خشية الله[4].

أما عن آية سورة الإسراء فجاء في تفسيرها: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ أي: تفتحها وتجريها خلالها أي: وسط تلك الجنة[5].

فتجرى الأنهار وسط تلك الجنة جريانًا قويًا دائمًا للانتفاع بها في ري تلك الجنة وغيرها[6]. ، تشقيقًا.[7].

والمعنى: هب أنك لا تفجر الأنهار

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ٤٢٨.

(٢) الوسيط، للواحدي ١/ ١٥٩.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٣٣.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٨٠.

(٥) انظر: الوسيط، للواحدي ٣/ ١٢٧، وزاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٣.

(٦) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٨٠٣.

(٧) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٦٢.

لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنةٌ من نخيلٍ وعنبٍ ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ أي: تجريها بقوةٍ ﴿خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾ أي: وسطها تفجيرًا كثيرًا[1].

تفجر أنهارًا تسقي جنةً واحدةً تكون تلك الجنة وأنهارها لك[2].

وذكر المفعول المطلق بقوله: (تفجيرًا) للدلالة على التكثير؛ لأن تفجر قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، وهو المناسب لقوله: ﴿خِلَٰلَهَا﴾، لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعبٍ عديدةٍ[3].

وفي آية سورة الكهف قال بعضهم:

﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ أجرينا وشققنا وسطهما[4].

﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[5].

﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا[6].

والرازي يرى أنه نهر لكنه كالأنهار في امتداده فيقول: أي: كان النهر يجري في داخل تلك الجنتين، والتشديد على المبالغة؛لأن النهر يمتد فيكون كأنهار، و﴿خِلَٰلَهُمَا﴾ أي: وسطهما وبينهما[7].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٠٦.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٨
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٩
(٤) التفسير الواضح ٢/ ٤١٦
(٥) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٣
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٤٦٣

الأنهار من جند الله

نعم الله سبحانه على عباده لا تعد ولا تحصى، ومن نعمه عليهم أن شق لهم البحار والأنهار بقدرته وحكمته؛ لكي يستطيعوا اصطياد كائناتها البحرية من الأسماك ليأكلوها طرية، وسخر الله سبحانه تلك البحار؛ لكي يتزينوا بحليتها، فيستخرجوا منها الحلي، مثل اللؤلؤ والمرجان والأصداف لاستعمالها في الزينة، وليس ذلك فحسب؛ وإنما فيها منافع أخرى يبتغيها عباده، كتنقلهم للتجارة والأمتعة والارتحال عن طريقها إلى الأقطار والبلدان الأخرى.

إذن فالأنهار بهذه الطريقة تعد من جند الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥].

وقوله: ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ أي: جعل فيها أنهارًا تجري من مكانٍ إلى مكانٍ آخر رزقًا للعباد، ينبع في موضعٍ وهو رزقٌ لأهل موضعٍ آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرةٌ في الأرض يمنةً ويسرةً، وجنوبًا وشمالًا، وشرقًا وغربًا، ما بين صغارٍ وكبارٍ، وأوديةٌ تجري حينًا وتنقطع في وقتٍ، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر[(١)].

و﴿وَأَنْهَارًا﴾ وجعل فيها أنهارا، النيل، والفرات، ودجلة، وسيحان، وجيحان[(٢)].

ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، فلهذا السبب أتبع ذكرها بتفجير الأنهار[(٣)].

وفي الأرض نعم كثيرة، أهمها ثلاث:

وهي تثبيت الأرض بالجبال الراسيات، كيلا تضطرب الأرض وتتحرك بأهلها، وإجراء الأنهار على وجه الأرض لتيسير الانتفاع بها، ففيها حياة الإنسان والحيوان والنبات[(٤)].

هو الذي ألقى في الأرض رواسى من الجبال الشامخات؛ لئلا تميد بكم الأرض وتضطرب عند دورانها وتحركها، وجعل لكم فيها أنهارًا كنهر النيل والفرات والمسيسبى وغيرها وجعلها سبلًا وطرقًا لربط أجزاء الأرض ولنقل التجارة والمصالح، وجعلها علامات وحدودًا، وفي الأرض علامات أخرى وحدود من أنهار وجبال وآكام[(٥)].

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٣.
(٢) الوسيط، للواحدي ٣/ ٥٨.
(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٦/ ٥١٤.
(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
(٥) التفسير الواضح، لمحمد حجازي ٢/ ٣٠٢.

﴿بِكُمْ﴾ أي: ومن نعم الله الكثيرة عليكم أنه جعل في الأرض جبالًا شامخات ثابتات تحفظ اتزانها في دورانها حتى لا تضطرب في حركتها. ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: وجعل في الأرض أنهارًا عذبة تجرى مياهها من منابعها إلى مصابها، لتهيئ الري للإنسان والحيوان والنبات[1].

كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وتضطرب[2]، أي: نصب فيها جبالًا ثوابت أن تميد أي: لئلا تميد، وقال الزجاج: كراهة ﴿أَن تَمِيدَ﴾[3].

ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارًا، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهارًا على وجه الأرض، وأنهارًا في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها[4].

ونعمة الأنهار عظيمةٌ، فإن منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم[5].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

قال ابن كثير: وجعل خلالها أنهارًا أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهارٍ كبارٍ وصغارٍ وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه[6].

وجعل خلالها وفي أوساطها أنهارًا جارية ينتفع كل بها كل قاطنيها في شؤن حياتهم[7].

وسبق أن ذكرنا الصلة بين النهر واليم، وقلنا: إن لفظ النهر واليم بينهما ترادف إلى حد كبير، وقد أطلق القرآن الكريم اليم على النهر في آيتين كريمتين، الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

وذكر الطبري في تفسيره أن «اليم» هو نهر النيل[8].

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٥٩٩.
(٢) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١٠/ ١٩٢.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٥٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٧.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٤/ ١٢٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٨٣
(٧) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٧/ ١٧٠٠
(٨) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٧.
وقال البغوي: «واليم البحر وأراد هاهنا: النيل». معالم التنزيل ٣/ ٥٢٣.
وكذا قال القرطبي ١١/ ١٩٤، وابن الجوزي في

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾: وألهمنا. ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ اليم: البحر. والمقصود به هنا: النيل، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره[1].

أي: فإذا خفت عليه من القتل بسبب سماع أحد من الجيران صوته، فألقيه في بحر النيل، ولكن لا تخافي عليه حينئذ من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض جواسيس فرعون الذين يبحثون عن الولدان، وغير ذلك من المخاوف، ولا تحزني لفراقه.

وهكذا طمأنها الحق تعالى عن مخاوفها وهواجسها الجديدة بعد إلقائه في البحر، بإلقاء الأمان والسكينة في قلبها؛ لأن عناية الله ورعايته تحوط بأنبيائه ورسله منذ بدء الحمل وفي عهد الطفولة.

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدت فيه مهدًا، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وألقته في النيل، فذهب مع الماء واحتمله على سطحه، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري وذهبن به إلى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، فلما كشفت عنه، أوقع الله محبته في قلبها، فآثرت الإبقاء عليه، ولم تزل تكلم فرعون حتى تركه لها.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص:٧]

أي: إنا سنرده عليك لتكوني أنت المرضعة له، وسنجعله نبيًا مرسلًا إلى أهل مصر والشام.

وقد جمعت هذه الآية الواحدة بين أمرين ونهيين، وخبرين وبشارتين والأمران: هما أرضعيه وألقيه، والنهيان: هما ولا تخافي ولا تحزني، والخبران: هما إنا رادوه إليك، وجاعلوه، والبشارتان: في ضمن الخبرين، وهما الرد والجعل من المرسلين[2].

وهكذا وضح جليًا أن اليم جند من جنود الله في حفظ موسى عليه السلام من الغرق بأمر الله وفي غرق عدو الله وعدوه، وهو هو نهر النيل، قال صاحب المنار:

وأما الغرق في النيل فيفهم من قول القرآن مثلًا في سورة طه: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

ثم قوله في آخر هذه القصة: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨﴾ [طه: ٧٨].

فالمتبادر من ذلك أن فرعون غرق في

زاد المسير ٣/ ١٥٨.

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٧/ ١٧٣٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٦٣.

نفس اليم الذي ألقي فيه موسى وهو النيل، وإن كان أكثر المفسرين يرى أنه أغرق في البحر الأحمر.

قال الطاهر ابن عاشور: وقد أغرق فرعون وجنده في البحر الأحمر حين لحق بني إسرائيل يريد صدهم عن الخروج من أرض مصر[(١)].

ومثل ذلك أيضًا ما جاء في سورة القصص، وهو قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

ثم قوله فيها بعد مما يدل على أن اليم جند من جنود الله سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص٤٠].

أي: أغرقناهم في البحر في صبيحةٍ واحدةٍ[(٢)]، كنايةٌ عن إدخالهم في البحر حتى غرقوا، شبهوا بحصياتٍ. قذفها الرامي من يده[(٣)].

ومن الآيات التي أطلق القرآن الكريم فيها اليم على النهر، ووضح فيها جليًا أنه من جنود الله سبحانه قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ومما يدل على أن النهر من جنود الله سبحانه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: ٧٨].

أي: تبعهم فرعون ومعه جنوده، فغشيهم من البحر ما غشيهم مما هو معروف ومشهور، فغرقوا جميعًا. وتكرار غشيهم للتعظيم والتهويل[(٤)]. أي: فعلاهم وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل المروع الذي يعجز البيان عن وصفه، حيث انطبق عليهم الماء فأغرقهم فهلكوا جميعًا، ونجى الله فرعون وأبقاه ببدنه خاليًا من الروح في اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق[(٥)].

من خلال الآيات السابقة يتضح جليًا أن اليم جند من جنود الله سبحانه وتعالى سواء أكان المقصود به النهر أو البحر، لكن الثابت من المعاجم اللغوية أن اليم مرادف للنهر.

وليس بلازم أن يكون الجندي لهلاك العدو دائمًا، وإنما كثيرًا ما يكون الجندي لنفع المسلمين، فالأنهار كانت جند خير ونفع لبعض عباده، وجند وبال وهلاك على بعضهم، وهذا ما ستتناوله تفصيلًا في مطالب المبحث التالي الذي يتحدث عن منافع الأنهار من خلال آيات القرآن الكريم بصورة توضيحية.

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٧٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢١٤.
(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٨/ ٣٠٧.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٢٥٥.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٦/ ١٠٥٠.

من منافع الأنهار

المنافع: ما فيه الخير والصالح والفائدة، وكل ما ينتفع به، جنى من عمله منفعة كبرى[(١)].

وعلى ذلك تتعدد منافع الأنهار على الإنسان، وتتمثل هذه المنافع في شرب مائها، الذي جعل الله فيه حياة الإنسان، ومنها تسقى الزروع والثمار، ويعبرها الإنسان ركوبًا للجهاد في سبيل الله وطلبًا للرزق، ويتمتع الإنسان بجريان مائها، ويصطاد من أسماكها وكائناتها لحمًا طريًا يتخذه طعامًا شهيًا، وتفصيل الحديث عن تلك المنافع في المطالب الآتية:

أولًا: شرب مائها:

الماء يعد أعظم نعمة من الله تعالى، وماء النهر من أعظم منافعه شرب مائه، والآيات في ذلك كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

أي: أصل كل الأحياء[(٢)].

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾، أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾، أي فلا بأس عليه.

قال ابن عباسٍ: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو[(٣)].

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها[(٤)].

ونعمة الأنهار عظيمةٌ، فإن منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم[(٥)].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الحجر: ٢٢] أي:

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار وآخرون ٣/ ٢٢٥٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٥٠٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ٤٢٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٢٢.

فأنزلنا من السحاب مطرًا، ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: يمكنكم أن تشربوا منه، وأسقينا به زرعكم ومواشيكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٠].

﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: لستم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله ينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أبقاه لكم في طول السنة، لشرب الناس والزروع والثمار والحيوان، فالتخزين يكون في السحاب وفي جوف الأرض[1].

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: وخلقنا من الماء كل حيوان سواء النازل من السماء والنابع من الأرض. ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء، لا يحيا دونه، سواء النبات وغيره، فالماء سبب لحياته[2].

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢٥
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٤٣

وفي إطار الانتفاع بماء البحر يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

ذكر سبحانه نوعًا آخر من بديع صنعه، وعجيب قدرته فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فالمراد بالبحرين: العذب والمالح، فالعذب الفرات الحلو، والأجاج المر، والمراد ب ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته[3].

ثانيًا: سقيا الزروع والثمار:

كما أن من منافع الأنهار شرب مائها، وانتفاع الإنسان غاية النفع في ذلك، فإن ما تحتاجه الزروع والثمار من ماء فيه منفعة كبيرة قد لا تقل أهمية عن نفع الإنسان بماء النهر في شرابه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء، إما من السماء أو من السيح،

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣ .

وهو ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: ٨].

أي: يبسًا لا تنبت شيئًا، وليس المراد من قوله ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود وإن مثل بها كثيرٌ من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادةٌ قطعًا من هذه الآية، فإنها في نفسها أرضٌ رخوةٌ غليظةٌ تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طينٌ أحمر، فيغشى أرض مصر وهي أرضٌ سبخةٌ مرملةٌ محتاجةٌ إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضًا، لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنةٍ على ماءٍ جديدٍ ممطورٍ في غير بلادهم، وطينٍ جديدٍ من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداءً[١].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها[٢].

وجعله سببا للإنبات، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]

أي: أن الله هو الذي أنزل بقدرته وتصريفه وحكمته من السحاب ماء بقدر، مباركًا، ورزقًا للعباد، وإحياء وإغاثة للخلائق، رحمة من الله بخلقه، فأخرجنا بسبب هذا المطر أصناف النبات المختلف في شكله وخواصه وآثاره، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وفي آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥﴾ [الأنعام: ٩٥].

ثم ذكر تعالى آية من آيات التكوين في النبات وهي إنزال الماء من السماء وأخرجنا بالمطر زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر، لهذا قال تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾. أي: يركب بعضه بعضًا كالسنابل ونحوها[٣].

فالله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض وما فيهن، وهو الذي أنزل من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٣٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ٤٢٦.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ٣٠٨.

السماء هذا الماء الذي تتدفق به الأنهار، وتتفجر منه العيون، وتحيا عليه الزروع، وما يخرج منها من ثمر وحب[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ أي: فجر لكم ينابيع الماء الجاري في الأنهار، ويسر توزيعها وتفرعها لسقي أكبر مساحة من الأرض والشجر والزرع[2].

وقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وهذا المثل مضروب لمن عمل عملًا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالًا تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتًا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته[3].

وقال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣].

جعل الله لأحدهما جنتين، أي: بستانين من أعناب، محاطين بنخيل، وفي وسطهما الزروع والأشجار المثمرة.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمارها، ولم تنقص منه شيئًا في كل عام.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[4].

وقال تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ٩١].

تفجر أنهارًا تسقي جنةً واحدةً تكون تلك الجنة وأنهارها لك[5].

ثالثًا: ركوبه للتنقل والجهاد:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

يمتن الله على عباده بتذليل البحر لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وتسخيره لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٠٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٤.
(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٥/ ٢٠٨.

بجؤجئها وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك، إرثًا عن أبيهم نوحٍ عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرنًا بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، يسيرون من قطرٍ إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك[1].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها. ومخر السفينة: شقها الماء بصدرها[2].

ومن نعم الله تعالى أيضًا تذليله البحر للناس، وتيسيره للركوب فيه، وعبور الفلك السفن فيه جيئة وإيابا، وطلب فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، مما يوجب شكر نعمه وإحسانه على الناس بما يسره لهم في البحار[3].

يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾ [فاطر: ١٢].

﴿فِيهِ﴾ أي: في كل. ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشق الماء بجريها[4].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كل واحدٍ من البحرين.

وقال النحاس: الضمير يعود إلى الماء المالح خاصةً، ولولا ذلك لقال: فيهما مواخر يقال: مخرت السفينة تمخر: إذا شقت الماء. فالمعنى: وترى السفن في البحرين شواق للماء بعضها مقبلةٌ، وبعضها مدبرةٌ بريحٍ واحدةٍ[5].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها: وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال مجاهدٌ: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام.

وقوله جل وعلا: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة من قطرٍ إلى قطرٍ وإقليمٍ إلى إقليم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، تذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيءٌ منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته[6].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٨٤.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
(٤) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١١/ ٢١.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٧٨.

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وهو سبحانه الذي سخر الفلك، وأجراها مع الماء، وسخر الأنهار لتحمل الفلك على ظهرها[١].

﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: ولتطلبوا بها منافع أخرى من فضل الله غير ما تقدم، كالتجارة ونقل الحاصلات والبضائع من مرفإ إلى مرفإ ومن قطر إلى قطر، وغير ذلك كالارتحال بها لطلب العلم حيث يوجد العلم والعلماء[٢].

هو وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة. ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالًا وحسنًا إلى حسنكم، ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: تمخر في البحر العجاج الهائل بمقدمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم[٣].

ومن تسخير البحر: خلقه على هيئةٍ يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين. وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريٌّ[٤].

رابعًا: الانتفاع بجريان مائه:

من المنافع التي تحدثت عنها بعض آيات الأنهار: السرور بمنظر الماء الجاري للنهر، هذا السرور الذي يبعث البهجة في النفس، والراحة النفسية، والتفكر في ملكوت الله وعظمته وامتنانه على عباده.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

قيل: المعنى في ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾: أي: بأمر سكانها واختيارهم، فعبر بتحتها عن قهرهم لها وجريانها على حكمهم، كما قيل في قوله تعالى حكايةً عن فرعون: وهذه الأنهار تجري من تحتي، أي: بأمري وقهري... وقد روي عن مسروقٍ: أن أنهار الجنة تجري في غير أخاديد، وأنها تجري على سطح أرض الجنة منبسطةً.

وإذا صح هذا النقل، فهو أبلغ في النزهة، وأحلى في المنظر، وأبهج للنفس. فإن الماء الجاري ينبسط على وجه الأرض جوهره فيحسن اندفاعه وتكسره، وأحسن البساتين

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.

(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٥٩٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٧.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٤/ ١١٩.

ما كانت أشجاره ملتفةً وظله ضافيًا وماؤه صافيًا منسابًا على وجه أرضه، لا سيما الجنة، حصباؤها الدر والياقوت واللؤلؤ، فتتكسر تلك المياه على ذلك الحصى، ويجلو صفاء الماء بهجة تلك الجواهر، وتسمع لذلك الماء المتكسر على تلك اليواقيت واللآلئ له خريرًا (١).

أي: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من تحت أشجارها، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها (٢).

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ۝٥٠﴾ [الرحمن: ٥٠].

وأورد أبو حيان قول ابن عباسٍ: هما عينان مثل الدنيا أضعافًا مضاعفةً، وقال: تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنة.

وقال الحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل.

وقال ابن عطية: إحداهما من ماءٍ، والأخرى من خمرٍ. وقيل: تجريان في الأعالي والأسافل من جبلٍ من مسكٍ (٣).

ومما يزيدها بهجة ورواء أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ [الكهف: ٣٣].

فجر الله سبحانه خلال الجنتين -أي: بين الجنتين- نهرًا عذبًا، فكان هذا النهر متعة للناظرين، وسببًا أدى إلى وصول الماء الدائم والمستمر إلى هاتين الجنتين، فكان هذا أيضًا من الأسباب التي جعلت هاتين الجنتين تؤتي أكلها كاملة (٤).

وقال الله تعالى: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢﴾ [الغاشية: ١٢].

أي: في تلك الجنة عين عظيمة لا ينقطع ماؤها عن الجريان، أو عيون كثيرة،... ووصف ماء العيون بالجريان للإشارة إلى أنه بارد صافٍ؛ لأن ماء العيون إذا كان جاريًا يكون في العادة باردًا صافيًا مع ما في منظر الماءِ الجاري من مسرة وارتياح (٥).

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ١٨٢-١٨٣.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٦٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان ١٠/ ٦٨، وأنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٧٤.
(٤) انظر: مقرر التفسير الموضوعي ٢، ص٢٤٢.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ١٠/ ١٨٨٩.

أكل صيده وطعامه واستخراج حليته

لما كانت هذه الشريعة خاتمة الشرائع السماوية، كان لابد أن تكون مميزة بخصائص ومميزات تجعلها قابلة للثبات والاستمرار ومواكبة لحياة الإنسان مهما كان، وفي أي عصر كان، وفي أي مكان كان.

ومن أهم المميزات التي تميزت بها شريعتنا الغراء: رفع الحرج عن المكلفين والتيسير عليهم، من أجل هذا كانت عناية الشريعة، تلك العناية البالغة ببيان الحلال والحرام، من طعام الإنسان وشرابه، ليقيم وجهه على ما أحل الله له من طيبات. وليعرض عما حرم عليه من خبائث.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٩٦].

ففى هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين حكم الصيد، وما لهم منه، وما عليهم فيه.

فعن أبي هريرة: (أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[١].

والبحر يشمل الأنهار والأودية؛ لأن جميعها يسمى بحرًا في لسان العرب. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ الآية. وليس العذب إلا الأنهار كدجلة والفرات. وصيد البحر: كل دواب الماء التي تصاد فيه، فيكون إخراجها منه سبب موتها قريبًا أو بعيدًا. فأما ما يعيش في البر وفي الماء فليس من صيد البحر كالضفدع والسلحفاة، ولا خلاف في هذا[٢].

وفي هذا يتضح أن الله تعالى أباح لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب، وكانت وجوه الحلال كثيرة، وبين لهم ما حرم عليهم لكونه أقل، حتى إن الصحابة كانوا عندما يتشككون في أمرٍ يذهبون إلى رسول الله ويسألونه.

فعن جابرٍ بن عبد الله قال: «غزونا جيش الخبط[٣] وأميرنا أبو عبيدة، فجعنا جوعًا شديدًا، فألقى البحر حوتًا ميتًا لم نر مثله، يقال له: العنبر، فأكلنا منه نصف شهرٍ، فأخذ أبو عبيدة عظمًا من عظامه فمر الراكب

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٤٩رقم ٨٧٣٥.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٧/ ٥٢.

(٣) الخبط: ورق الشجر يضرب بالعصا فيسقط، وسميت هذه الغزوة بذلك لشدتها على الصحابة حتى أنهم أكلوا الخبط انظر معالم السنن لشرح أبي داوود، ٤/ ٢٥٢.

تحته، قال: فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (كلوا رزقًا أخرجه الله عز وجل لكم، أطعمونا إن كان معكم، فأتاه بعضهم بشيءٍ فأكله)[1].

قال أبو بكر الصديق: صيد البحر ما تصطاده أيدينا وطعامه ما لاثه البحر[2].

فلا يخفى ما لإطابة المطعم بتحري ما أحل الله وترك ما حرم الله من أثر بالغ على قلب الإنسان وسلوكه، وأن الأكل من الطيبات له آثار حميدة على النفوس والأبدان؛ لأن الطيبات تؤثر الخير والنفع للأبدان والعقول والأخلاق، والخبائث تؤثر شرًا وضررًا في الأبدان والعقول والأخلاق، وكل ما ينفع فهو طيب وكل ما يضر فهو خبيث.

وإن هذه الطيبات التي أحلها الله لهي من ضمن الأشياء التي سخرها سبحانه وتعالى لنا في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَمِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل[3].

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)﴾ [النحل: ١٤].

هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة. ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالا وحسنا إلى حسنكم[4].

ومن تسخير البحر: خلقه على هيئةٍ يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين. وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريٌّ[5].

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾ [فاطر: ١٢].

إن من آيات الله عز وجل أن سخر لنا البحر لنأكل منه لحمًا طريًا، ومن نعم الله جل في علاه أن ذلل البحر لنا حتى استطعنا

(١) الحديث أخرجه البخاري، ٥/ ١٦٧، رقم ٤٣٦٢.
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، ٣/ ١٩٧.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٤٣٧.
(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٤/ ١١٩.

أن نصطاد منه الأسماك وغيرها مما يؤكل من هذه اللحوم الطرية، كذلك ذلّله لنا لنغوص فيه فنجمع اللؤلؤ والمرجان وما يتخذ زينة. سمي السمك لحمًا؛ لأنه حيوان من جملة الحيوانات، وكونه بحريًا لا ينفي كونه لحمًا، ووصف بالطري؛ لأن لحم السمك أطرى من لحم حيوانات البر.

يمتن الله على عباده بتذليل البحر لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حليةً يلبسونها[1].

امتن الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيدٍ وجواهر؛ لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته،... ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ المراد به: السمك، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعةٍ[2].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: لؤلؤًا ومرجانًا كما في قوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢] [3].

وقد ذكر بعض المفسرين أن «وصفه بالطراوة؛ لأن الفساد يسارع إليه»، ولكن هذا القول مما لا يناسب مقام الامتنان بنعم الله؛لأن المعنى يكون حينئذ: وسخر لكم البحر لتأكلوا لحم السمك الذي يسارع إليه الفساد فتأكلونه طريًا لئلا يفسد، وهذا لا يناسب مقام الامتنان، وإنما الذي يناسب مقام الامتنان هو وصف لحم السمك بالطراوة الذي هو عنوان للذة لحوم السمك، جاء التعبير ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا﴾ وليس « تخرجوا»؛ لأن الاستخراج يدل على الطلب، فالذي يغوص في البحر يطلب اللؤلؤ والمرجان، فهو يستخرجهما، أي: يطلبهما[4].

ووجه الأكل إلى لحمه مباشرة وفيه إشارة إلى أنه لا يزكى، بل يؤكل ميتًا، ولذا روى في الأثر (أحل لنا ميتتان حلالان: السمك والجراد)[5].

وعبر سبحانه وتعالى أيضًا بقوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾، ولم يقل سمكًا؛ لأن في البحر ما ليس بسمك، حيوانات تشبه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٨٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٨٣.

(٣) المصدر السباق ٣/ ١٨٤.
(٤) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، لسامي القدومي ١/ ٢٩.
(٥) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال ٢/ ١١٠٢، رقم ٣٣١٤، وأحمد ٢/ ٩٧، رقم ٥٧٢٣.

حيوانات البحر، والظاهر أنها حلال وفيها ضخم يكفي الألوف، كالحيوان البحري المسمى الترسة، وكالحوت وفرس البحر، وغير ذلك، وكلها لحم طري، وقد وصف القرآن اللحم الذي يؤخذ من البحر بأنه لحم طري؛ لأنه فعلًا طري، وعظمه قليل، ولا يتخلل أجزاء جسمه، بل هو في موضع معين والذي يتخلل جسمه شيء صغير يسميه العامة « سفا ».

ويقول الزمخشري في وصفه بأنه طري للإشارة إلى أنه سريع العفن، وأنه ضار إذا تعفن، وفي ذلك نظر، فإنه إذا وضع الملح عليه لم يكن ضارًا في تعفنه، وهو المتفسخ منه، وقد أنكره أطباء عصرنا وزماننا ثم أباحوه، بل استحسنوه، وقرروا أن فيه سرًا طبيًا، وإن لم يعرفوه، وحرم التفسخ الحنفية؛ لأنه ضار، وقد علمت ما فيه.

و (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ هي لام الغاية، أي: ذلله وسخره لتأكلوا منه لحما بعد صيده، وإنضاجه، وفيه مواد غذائية كبيرة، مملوءة بالقشور، وغيرها.

وإذا كان ذلك الطعام فيه منفعة مرئية طيبة، فالبحر وعاء للجواهر المختلفة، ولذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي ما يسمونه بالأحجار الكريمة من لآلئ، وزمرد، وغيرهما مما يتحلى به النساء وبعض المرفهين من الرجال، وإن لم يتشبهوا بالنساء[1].

فالأنهار تقدم للإنسان أيضًا فوائد كثيرة، وخاصة مع سكان المناطق التي يعيشون على ضفافها، فهي تفيض لهم بالخير، وتخرج من جوفها الأسماك والأعشاب والخيرات، وقد أثبت العلم الغذائي ما في ثمار البحر عمومًا، والسمك خصوصًا، من فوائد جمة. وينصح الأطباء بتناول وجبة سمك ولو مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع؛ لما فيها من غذاء ضروري للأجسام.

ومن نعم الله تعالى أيضًا تذليله البحر للناس، وتيسيره للركوب فيه، وإباحته الأسماك المختلفة المستخرجة منه، واستخراج الحلي واللآلئ منه للبس والزينة، والاستفادة من المرجان، وعبور الفلك (السفن) فيه جيئة وإيابًا، وطلب فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، مما يوجب شكر نعمه وإحسانه على الناس بما يسره لهم في البحار[2].

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، لمحمد أبي زهرة ٨/ ٤١٤٤.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
وانظر في هذا المعنى كلام البيضاوي في: أنوار التنزيل ٣/ ٢٢٢.

أنهار الجنة

جمع الله عز وجل الأنهار التي أعدها لعباده المتقين في الجنة في آية واحدة من آيات القرآن الكريم، ومن حكمته سبحانه أن جعل هذه الآية في سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بين الفرق في مرجعهما ومآلهما، فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

و﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾: صفة الجنة العجيبة الشأن، وقوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾، في حكم الصلة، كالتكرير لها. ألا ترى إلى سر قوله: التي فيها أنهارٌ؟ ويجوز أن تكون خبر مبتدإٍ محذوفٍ هي: فيها أنهارٌ[2].

﴿أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية نوعين من الجزاء لكل من الفريقين: جزاء مادي وجزاء معنوي، أما نوعا جزاء المؤمنين فهما المشروب والمطعوم، والمغفرة والرضوان، وأما نوعا جزاء الكافرين فهما المشروب الحار، والخلود في النار...ومعنى الآية: إن نعت الجنة أو وصفها العجيب الشأن، التي وعد الله بها عباده المتقين، الذين اتقوا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ هو ما تسمعون. ثم ابتدأ بمشروب أهل الجنة فيها أنهار جارية، من ماء غير متغير الطعم والريح واللون لطول المكث، بل إنه ماء عذب فرات، متدفق نقي غير مصحوب برواسب أو طحالب، من شربه لا يظمأ أبدًا، وقد ابتدأ بالماء؛ لأنه أعم نفعًا للناس من بقية المشروبات[3].

ونقل ابن كثير قول قتادة والضحاك وعطاء الخراساني: غير متنٍ، والعرب تقول: أسن الماء إذ تغير ريحه[4].

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ وفيها أنهار من حليب لم يحمض كما تتغير ألبان الدنيا، وهو في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وثنى باللبن، لأنه ضروري للناس كلهم، وهو غذاء كامل ومطعوم شهي[5].

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ والخمر: عصير العنب الذي يترك حتى يصيبه التخمر

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤١.
(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان ٩/ ٤٦٦، والتفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٠.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٩.
(٥) المصدر السابق.
وانظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٣.

وهو الحموضة مثل خمير العجين. ولذةٍ وصفٌ وليس باسم، وهو تأنيث اللذ، أي: اللذيذ، واللذاذة: انفعالٌ نفسانيٌ فيه مسرةٌ، وهي ضد الألم وأكثر حصوله من الطعوم والأشربة والملامس البدنية، فوصف خمرٍ هنا بأنها لذةٍ، معناه: يجد شاربها لذاذةً في طعمها، أي: بخلاف خمر الدنيا فإنها حريقة الطعم فلولا ترقب ما تفعله في الشارب من نشوةٍ وطربٍ لما شربها لحموضة طعمها[1].

أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر، الدنيا، حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧][2].

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: تلذذ خالص ليس معه ذهاب عقل ولا سكر ولا صداع، بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب، و﴿لَّذَّةٍ﴾: تأنيث لذ، أي: لذيذ[3].

وفيها أنهار من خمر لذيذة الطعم، طيبة الشرب، ليست كريهة الطعم والرائحة أو مرة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧]. ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩].

أي: ليس فيها ضرر ولا مادة مسكرة تزيل العقل، ولا يصيب شاربها صداع، ولا يذهب عقله، وإنما هي لذيذة للشاربين: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٤٦].

وذكرت في المرتبة الثالثة؛ لأنها ليست ضرورية، وإنما فيها متعة ذوقية، فهي لذيذة الطعم، طيبة الشرب، لا يكرهها الشاربون، وتناولها للذة بعد حصول الري والمطعوم[4].

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل المصفى: الذي خلص مما يخالط العسل من بقايا الشمع وبقايا أعضاء النحل التي قد تموت فيه[5].

أي: من عسل ليس فيه عكرٌ ولا كدرٌ كعسل أهل الدنيا[6].

وفيها أنهار من عسل في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، لم يخالطه شيء من الشمع والقذى والعكر والكدر.

وذكر في المرتبة الرابعة؛ لأنه ليس ضروريًا وإنما جمع بين مختلف الطعوم والإحساسات الذوقية المرغوبة، ولا شك أن الحلو أطيب الطعوم، والعسل أرقاها، وفيه فوائد كثيرة للجسد: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

فيه الشفاء في الدنيا بعد المشروب

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٩.
(٣) تفسير الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٢٢.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٣.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٧.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٨.

والمطعوم، وفيه الخير في الآخرة.

وفي ذكر هذه الأجناس الأربعة، إطناب بتكرار لفظ أنهارٌ، وتشويق لنعيم الجنة، وجمع بين الضرورة (الماء) والحاجة (اللبن) والمتعة (الخمر غير المسكرة) والعلاج النافع (العسل)[1].

وقد يكون ذكر هذه الأربعة جمعًا بين ما تشتهيه كل الأذواق من الناس، ليكتمل لأهل الجنة كل شراب يشتهى.

ويورد ابن كثير حديث الإمام أحمد بسنده عن حكيم بن معاوية عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد**)[2].

وفي الصحيح أشار النبي صلى الله عليه وسلم مرغبا أمته في العمل على طلب الجنة وأنهارها فقال: (**إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن**)[3].

والمعنى العام للآية: مثل الجنة الموعودة للمؤمنين، وشأنها العجيب ما يتلى عليكم من جلائل النعم، في هذه الجنة أنهار من الماء النقي المتجدد الذي لم يداخله كدر، ولم يلحقه تغير في لون أو طعم لطول مكثه، وأنهار من لبن لم تطرأ عليه حموضة ولم يستكره له طعم، كما يحدث في ألبان الدنيا، وأنهار من خمر لذيذ الطعم مستساغ المذاق، ليس فيها كراهية ريح، ولا غائلة سكر، ولا يجد شاربها إلا اللذة والمتعة، وأنهار من عسل خالص صرف مصفى من الشمع، ومن جميع الشوائب وفضلات النحل، وفيها غير هذا من كل الثمرات، وأصناف المطعومات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكل ذلك من الوفرة والكثرة بحيث لا يخاف منه حرمان، ولا إقلال ولهم قبل هذا مغفرة واسعة من ربهم تمحو ذنوبهم، وترفع درجاتهم[4].

من أنهار الدنيا في الجنة:

وإذا كان بعض المفسرين يرى أن أنهار الجنة هذه، التي ذكرت في الآية الكريمة، وصفت على سبيل التشبيه، فبعضهم يرى أن أنهار الماء حقيقة، وأنهار اللبن والعسل والخمر على طريقة التشبيه البليغ أو المماثلة.

قال أبو حيان الأندلسي: «ويظهر أن

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٦/ ١٠١-١٠٣.

(٢) مسند أحمد بن حنبل،٥/ ٥، وأخرجه الترمذي، في كتاب صفة الجنة، باب ٢٧، عن محمد بن بشارٍ، وقال: حسنٌ صحيحٌ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ٤، والترمذي في صفة الجنة، باب ٤، وأحمد في مسنده، ٢/ ٣٣٥.

(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٩/ ٩٥٨.

القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه. فههنا كذا، فكأنه يتصور عند ذلك اتباعًا على هذه الصورة، وذلك هو مثل الجنة»[(١)].

وقال ابن عاشور: «فأما إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقةٌ، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من لبنٍ وخمرٍ وعسلٍ فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي: مماثلةٌ للأنهار، فيجوز أن تكون المماثلة تامةً في أنها كالأنهار مستبحرةٌ في أخاديد من أرض الجنة، فإن أحوال الآخرة خارقةٌ للعادة المعروفة في الدنيا، فإن مرأى أنهارٍ من هذه الأصناف مرأى مبهجٌ. ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار. وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه، فكيف الكثير منها، فكيف إذا كان منها أنهارٌ في الجنة»[(٢)].

أقول: ومع ذلك فإن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم دلنا بوضوح على أنه في الدنيا أنهار من أنهار الجنة.

فقد ذكر البغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة)[(٣)].

كما أورد القرطبي قول كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر[(٤)].

وهذا الكلام أقصد قول كعب الذي أورده القرطبي له علاقة بالحديث الصحيح قبله، وإن كان آخره وهو خروج هذه الأنهار من نهر الكوثر لم أعثر له على أثر، والله أعلم.

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٩/ ٤٦٦، والتفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٠.
(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٥.
(٣) أخرجه مسلم في الجنة، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة، رقم ٢٨٣٩ ٤ / ٢٦٨٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٧.

الأنهار في المثل القرآني

المثل في الأدب: قول محكي سائر، يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله، أي: يشبه مضربه بمورده.

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن. وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات. كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

أي: قصتها وصفتها التي يتعجب منها[١].

وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمورٌ كثيرةٌ، منها: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملةً على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

قال تعالى ممتنًا على عباده بضرب الأمثال لما تضمنته من فوائد: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال أيضًا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣][٢].

وذكر الله المثلين: المائي والناري -في سورة الرعد للحق والباطل. فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ [الرعد: ١٧].

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبدًا وغثاء، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهكذا يضرب الله الحق والباطل[٣].

وهذا المثل مضروب لمن عمل عملًا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالًا تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتًا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية

(١) مباحث في علوم القرآن، للقطان ص٢٩١.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ١/ ٤٨٧.

(٣) مباحث في علوم القرآن، للقطان ص٢٩٤.

التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته[1].

ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كل عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار، فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملًا لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباء منثورًا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل، لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة، التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا، فلهذا أمر تعالى بالتفكر وحث عليه[2].

ومن الأمثال التي لها صلة بالأنهار في القرآن قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقى تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ دائم أيضًا، ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!![3].

كذلك من الأمثال التي لها صلة بالأنهار قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣].

وتصوير المثل كما حكى القرآن:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١٤.

(٢) المصدر السابق ص١١٤.

(٣) المصدر السابق ص٤١٩.

واضرب أيها الرسول مثلًا لهؤلاء المشركين بالله الذين طلبوا منك طرد المؤمنين من مجلسك، ذلك المثل هو حال رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي:بستانين من أعناب، محاطين بنخيل، وفي وسطهما الزروع والأشجار المثمرة. ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمارها، ولم تنقص منه شيئًا في كل عام. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[1].

ويورد ابن الجوزي في مورد المثل رواية عطاء عن ابن عباس، قوله: هما ابنا ملك كان في بني إسرائيل، توفي وتركهما، فاتخذ أحدهما الجنان والقصور، وكان الآخر زاهدًا في الدنيا، فكان إذا عمل أخوه شيئًا من زينة الدنيا، أخذ مثل ذلك فقدمه لآخرته، حتى نفد ماله، فضربهما الله عز وجل مثلًا للمؤمن والكافر الذي أبطرته النعمة[2].

إذن فقد وردت الأنهار في المثل القرآني في أكثر من موضع، للمقابلة بين الحق والباطل في المثل المائي والناري، وللتذكير والوعظ في النهر الذي فجره الله وسط الجنتين، وللتشويق إلى أنهار الجنة، وللاعتبار والتقرير والثبات على الإيمان، وغير ذلك.

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨٣.

الأنهار والابتلاء

الابتلاء وسيلة تمييز الصفوف وتمحيص القلوب؛ جعله سنة ماضية، فحمل الأمانة لا يصلح له كل الناس، بل يحتاج إلى قوم مختارين، وهم الصفوة الذين يعدون لهذا الأمر إعدادًا خاصًا ليحسنوا القيام به.

ومن النتائج المترتبة على سنة الابتلاء لاحقًا: سنة التمحيص، فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة، فيصقل معدنه من أثرها، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة، فينكص على عقبيه؛ ولهذا جعل الله التمحيص معبرًا لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس.

قال تعالى ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد أدرك أهل العلم والبصيرة هذه الحقيقة؛ فعندما سئل الإمام الشافعي رحمه الله: أيما أفضل للرجل: أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى.

أولًا: ابتلاء الله لجنود طالوت بالنهر:

من حوادث الابتلاء المتعلقة بالأنهار:



ما ذكره القرآن الكريم من ابتلاء الله عز وجل بني إسرائيل بالنهر وعدم الشرب منه، والقصة بدأت عندما طلبوا من نبيهم القتال، وأن يبعث لهم ملكًا يقاتلون معه؛ لرفع الظلم الواقع عليهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وهذه القصة حدثت بعد وفاة موسى عليه السلام، والنبي الذي سألوه أن يبعث لهم ملكًا هو شمويل بن بال بن علقمة، ويعرف بابن العجوز، ويقال فيه: شمعون. قاله السدي، وإنما قيل: ابن العجوز؛ لأن أمه كانت عجوزًا، فسألت الله الولد، وقد كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها، ويقال له أيضًا: شمعون.

قال وهب بن منبه: لما قال الملأ من بني إسرائيل لشمويل بن بال ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث إليهم ملكًا ويدله عليه، فقال الله تعالى له: انظر إلى القرن الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذي في القرن، فهو ملك بني إسرائيل فادهن رأسه منه وملكه عليهم.

وكان طالوت دباغًا فخرج في ابتغاء دابة أضلها، فقصد شمويل عسى أن يدعو له في أمر الدابة أو يجد عنده فرجًا، فنش الدهن على ما زعموا، قال: فقام إليه شمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى بتقديمه.

ثم قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وكان طالوت من سبط بنيامين، ولم يكن من سبط النبوة، ولا من سبط الملك، وكانت النبوة في بني لاوي، والملك في سبط يهوذا، فلذلك أنكروا، وقالوا: ا أنى يكون له الملك علينا ؟أي: كيف يملكنا ونحن أحق بالملك منه؟!، جروا على طريقتهم في التعنت مع الأنبياء، والانحراف عن أمر الله تعالى، وتعجبوا كيف يكون له الملك، وهم من سبط الملوك ، هو ليس كذلك، هم أغنياء وهو فقير؟، فتركوا السبب الأقوى وهو قدر الله تعالى وقضاؤه السابق، فالأمر أمره والعبد عبده، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم، والدين ما شرع، وليس للعبد إلا أن يستسلم ويقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فنبيهم قد صرح لهم وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فساروا على درب إبليس عندما اعترض على الأمر

المباشر بالسجود لآدم، وكان أول من قاس قياسًا فاسدًا في مواجهة النص، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ قد تصور القوم أن الملك حكر عليهم، وأن التقديم والتأخير تبعًا للغنى والفقر، وصادموا الوحي بذلك، وهم أهل تعنت؛ فقد صنعوا ذلك من قبل مع نبي الله موسى عليه السلام عندما أمرهم بذبح بقرة، فأكثروا وشددوا؛ فشدد الله عليهم.

قال ابن عباسٍ: كان طالوت يومئذٍ أعلم رجلٍ في بني إسرائيل وأجمله وأتمه، وزيادة الجسم مما يهيب العدو[1].

قال تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩].

لما كان بنو إسرائيل من قبل كارهين لملك طالوت عليهم، ثم أذعنوا من بعد، وكان إذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء، أراد الله أن يبتلي هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصي والراضي والساخط، فيختار المطيع الذي يرجى بلاؤه في القتال، وثباته في معامع النزال، وينفي من يظهر عصيانه، ويخشى في الوغى خذلانه، فإن طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر، وأحوج القواد إلى اختبار الجيش من ولي على قوم وهم له كارهون، أو كان فيهم من يكرهه، فإذا وجد في الجيش من ليس متحدًا معه يخشى أن يوضعوا خلاله يبغونه الفتنة ويسمونه بالفشل.

فأخبر طالوت جنوده بأن سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله، فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحدين معه في أمر القتال. إلا أن يكون ما يشربه قليلًا وهو غرفة تؤخذ باليد، فإن هذا مما يتسامح فيه ولا يراه مانعًا من الاتحاد به والاعتصام بحبله، ومن لم يطعمه، أي: يذقه بالمرة فإنه منه، وهو الذي يركن إليه ويوثق به تمام الثقة، فالابتلاء سيكون على ثلاث مراتب:

الأولى: مرتبة من يشرب فيروى لا يبالي بالأمر، وحكمه أن يتبرأ منه.

الثانية: ومرتبة من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه وهو مقبول في الجملة.

الثالثة: مرتبة من لا يذوقه ألبتة، وهو الولي النصير الذي يوثق باتحاده، ويعول على جهاده.

قال تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٤٦.

﴿مِّنْهُمْ﴾ ذلك أن القوم كانوا قد فسد بأسهم وتزلزل إيمانهم، واعتادوا العصيان فسهل عليهم عصيانهم، وشق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم، ولم يبق فيهم من أهل الصدق في الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

والعدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم، كما يعلم من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ [١].

فلما خرج طالوت بالجنود من بيت المقدس، لقتال أعدائهم، قال لهم: إن الله مختبركم وممتحن مقدار صدقكم -في لقاء عدوكم، واستجابتكم لأوامر قائدكم- ﴿بِنَهَرٍ﴾ يعترض طريقكم: أطلب منكم عدم الشرب منه، ليظهر منكم المطيع والعاصي، فإن طاعة القائد شرط أساسي للنصر، فمن غلبته شهوته وشرب من مائه، فليس من أتباعي؛ لأنه إذا عصاني اليوم، فهو أحرى أن يعصي أمري وقت اشتداد الحرب، فتحدث الهزيمة. ومن لم يذق ماءه استجابة لهذا الأمر وصبر، فإنه مني، ضالع معي في لقاء العدو، والرغبة في الانتصار عليه.

ثم استثنى من القسم الأول وهو: من شرب من النهر فقال: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ يبل بها ريقه في هذه الفلاة وشدة العطش، فلا بأس عليه في ذلك.

قالوا - في حكمة الأمر بالاكتفاء بالغرفة-: إنه اختبار لطاعتهم كما تقدم، كما أن فيه سلامة الجندي، فإن الإسراف في الشرب-عند مناجزة العدو-يضر ضررًا بليغًا.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: فلم يمتثلوا ما أمرهم به طالوت، بل شربوا منه أكثر مما أمرهم به، إلا قليلًا منهم، نفذوا أمره فاغترف كل واحد منهم لنفسه غرفة واحدة[٢].

وهؤلاء الذين يظنون أنهم ملاقو الله في الآخرة هم الذين آمنوا وجاوزوا النهر مع طالوت، قال ضعافهم: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، وقال أقوياؤهم: كم من فئة قليلة إلخ... ثم اشتد بعضهم بعزيمة بعض، وكان من أمر انتصارهم ما يأتي في الآية التي بعد هذه، والعبارة لا تدل على أن الذين شربوا من النهر لم يجاوزوه، وإنما خص بالذكر الذين لم يشربوا؛ لأنهم لم يتخلفوا عن طالوت لأجل الشرب، فهم الذين جاوزوه معه مقترنين وهم الذين يعتدهم منه، ويتبرأ من المتخلفين العاصين.

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٢/ ٣٨٦.

(٢) التفسير الوسيط، لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١/ ٤٢٣.

كما علم من قوله في الابتلاء[1].

والظاهر أن الملك لما علم أنه سائرٌ بهم إلى عدوٍ كثير العدد، وقوي العهد أراد أن يختبر قوة يقينهم في نصرة الدين، ومخاطرتهم بأنفسهم وتحملهم المتاعب وعزيمة معاكستهم نفوسهم، فقال لهم: إنكم ستمرون على نهرٍ، وهو نهر الأردن، فلا تشربوا منه فمن شرب منه فليس مني، ورخص لهم في غرفةٍ يغترفها الواحد بيده يبل بها ريقه، وهذا غاية ما يختبر به طاعة الجيش، فإن السير في الحرب يعطش الجيش، فإذا وردوا الماء توافرت دواعيهم إلى الشرب منه عطشًا وشهوةً، ويحتمل أنه أراد إبقاء نشاطهم؛ لأن المحارب إذا شرب ماءً كثيرًا بعد التعب، انحلت عراه ومال إلى الراحة، وأثقله الماء[2].

امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ فهو عاص ولا يتبعنا؛ لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه[3].

ومن بديع إيجاز القرآن: أن يحذف الشيء ويأتي في السياق بما يدل عليه، كما وصف الذين لم يشربوا بالإيمان مرة وباعتقاد لقاء الله تعالى مرة أخرى، فأعلمنا أن هذا الإيمان والاعتقاد هما سبب طاعة القائد وترك الشرب، وسبب الشجاعة والإقدام على لقاء العدو الذي يفوقهم عددًا[4].

إذن فقد جعل الله الأنهار سببًا للابتلاء، فابتلى بني إسرائيل بالنهر وعدم الشرب منه، اختبارًا لطاعتهم وثباتهم وهو أعلم.

ثانيًا: ابتلاء الله لفرعون بجريان الأنهار من تحت قصوره:

الابتلاء سنة ربانية جارية إلى يوم القيامة، وهي سنة ثابتة من سنن الدعوات، وعلامة من علامات الصدق، والسير في الاتجاه الصحيح نحو تحقيق الأهداف، وكيف لا؟! والتاريخ يؤيد هذه الحقيقة، والقرآن يؤكدها ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ٣١﴾ [محمد: ٣١].

ولقد خلق الله الإنسان في هذه الحياة ليختبره ويبتليه، وجعل حياته في هذه الدنيا حياة كد وكدح وكبد، فقال سبحانه موضحًا

(١) تفسير المنار، لمحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ٢/ ٣٨٧.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢/ ٤٩٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٠٨.

(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٢/ ٣٨٧.

هذه المعاني: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ١-٢].

ومن مظاهر سنة الابتلاء: ابتلاء الله لفرعون بجريان الأنهار من تحت قصوره، وقد تحدثت بعض آيات القرآن الكريم عن هذا النوع من الابتلاءات، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف: ٥١].

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها أليس لي ملك مصر ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء[1].

﴿مِن تَحْتِيٓ﴾ أي: من تحت قصري. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أعميتم عن مشاهدة ذلك.[2] ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ قيل: لما رأى تلك الآيات، وهي الآيات التسع التي ذكرها في سورة الإسراء وغيرها، استجاب الله بعد تكذيبه بها دعاء موسى، وهو المشار إليه قبل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ [الزخرف: ٥٠].

خاف ميل القوم إلى موسى، فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم أو أمر مناديًا ينادي بقوله: يا قوم أليس لي ملك مصر؟ لا ينازعني فيه أحدٌ ولا يخالفني مخالفٌ ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ أي: من تحت قصري، والمراد: أنهار النيل.

وقال قتادة: المعنى: تجري بين يدي.

وقال الحسن: تجري بأمري، أي: تجري تحت أمري[3].

لما رأى الملأ من قوم فرعون الآيات تترى عليهم، وسخط ربك حالًا بهم: قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩]، قيل: هو خطاب تعظيم عندهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من النبوة لئن كشفت عنا العذاب الذي نزل بنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل، وإننا لمهتدون إلى الصواب، وإلى الحق الذي تدعو إليه، فلما كشفنا عنهم العذاب، فاجأوا الكشف عنهم بأنهم ينكثون العهود وينقضون المواثيق.

هذا ما كان من أمر القوم وخاصة الملأ منهم، أما فرعون ملك مصر فها هي ذي أعماله: ونادى فرعون في قومه بأن جمعهم في مكان واحد كالسوق مثلًا، أو جمع أشرافهم وهم بلغوا عنه فكأنه نادى فيهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢١٢.
(٢) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، ١١/ ١٥٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٤٠.

جميعا، فماذا قال؟ قال: يا قوم أليس لي ملك مصر؟ استفهام المراد منه التقرير، أي: قروا بما تعرفونه من أني ملك مصر.

وهذه الأنهار -فروع نهر النيل- تجرى من تحتي، وتسير بأمري، وأنا صاحب التصرف في كل ما ينتج عن جريها من مزروعات وغيرها. وعلى أنها كانت تجرى من تحت قصره، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تلك الحقائق؟ بل تبصرون أني أنا خير من هذا الذي هو فقير وضعيف[1].

ومن المعلوم أن التاريخ تحكمه سنن الله الكونية، ومن لم يفقه هذه السنن لا يفقه التاريخ، إذن فالتاريخ ليس أحداثًا تتعاقب، بقدر ما هو أسباب تنتج عنها نتائج بإذن ربها، حينئذ ندرك طرفًا من مقصود الآيات التي تتحدث عن هلاك فرعون وجنوده غرقًا، بعد أن شق الله سبحانه وتعالى البحر لموسى ومن معه من المؤمنين، فبين الله سبحانه وتعالى وقيعتهم المأساوية حيث أغرقوا جميعًا فتركوا ديارهم، وما تزخر به من أسباب الرفاهية والسعادة.

قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٦]

وكان إغراقهم انتقامًا من الله لذاته لأنهم جحدوا انفراد الله بالإلهية، أو جحدوا إلاهيته أصلًا، وانتقامًا أيضًا لبني إسرائيل؛ لأن فرعون وقومه ظلموا بني إسرائيل وأذلوهم واستعبدوهم باطلًا.

والإغراق: الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر الملقى فلا يترك له تنفسًا، وهو بيانٌ للانتقام وتفصيلٌ لمجمله، فيكون المعنى: فأردنا الانتقام منهم فأغرقناهم، واليم: البحر والنهر العظيم، والمراد به هنا بحر القلزم، المسمى في التوراة بحر سوف، وهو البحر الأحمر. وقد أطلق (اليم) على نهر النيل في قوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

فالتعريف في قوله: اليم هنا تعريف العهد الذهني عند علماء المعاني المعروف بتعريف الجنس عند النحاة؛ إذ ليس في العبرة اهتمامٌ ببحرٍ مخصوصٍ ولكن بفردٍ من هذا النوع[2].

ومن هنا بعدما اقتحم فرعون بفرسه الطريق الذي شقه الله لموسى في البحر، ولما خرج موسى بقومه إلى الشاطىء الشرقي أطبق الله البحر على فرعون وجنوده فكانوا من المغرقين، لقد ذهب كل هذا مع غمضة عين، وهو الآن كالريشة

(١) التفسير الواضح، ٣/ ٣٩٩، لمحمد محمود حجازي، نشر: دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٣ هـ.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٩/ ٧٥.

في بحر متلاطم، لقد خلع من فكرة عظمة الملك وترفع السلطان، ونسي كل العز الذي رآه بهذه اللحظات الحالكة، كأنه لم يعش بين الرياشي وفاخر الأثاث، والإحاطة بالأتباع والجنود لحظة واحدة، إنه رهين الحالة القاتلة رهين الغرق، ضعف ما بعده ضعف، فعاد سريعًا إلى ما خبأته الذاكرة من دعوة موسى وأنها الحق، لكنه كان قد عاند وكابر، والآن حصحص الحق، وينبغي أن تظهر الحقيقة وألا تضيع في خضم العناد فصرخ بأعلى صوته ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

الآن أيها الطاغية..أيها الفرعون.. ولو قلتها قبل ذلك لكان لك شأن آخر، ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩١].

الآن وبعد سنين طويلة من الصد والجدال، والتكبر والغطرسة والتقتيل والصلب تعلنها، وقد اعترفت بالضعف الإنساني، وأنه لا حول لك ولا قوة، وأن الله جلت قدرته هو القوي الخالق هو المعبود بحق، ثم كان الفصل من الله ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس: ٩٢].

وطفت جثة فرعون فوق الماء، وجرفتها الأمواج نحو الساحل، ورأى المستضعفون جثة فرعون وهو ذليل صاغر، هذا في الدنيا، وفي الآخرة النار والعذاب الأليم ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ [هود: ٩٨].

فهو الزعيم عليهم حين كان ملكًا، وسيكون زعيمهم يرد بهم النار يوم القيامة، فتعسًا لهذا الزعيم وتعسًا لأتباعه المضلين.. وهكذا مصير أتباع كل زعيم ضال[(١)].

الواقع أن أي نوعٍ من العقوبة فيه آيةٌ على القدرة، وفيه تنكيلٌ بمن وقع بهم، ولكن تخصيص كل أمةٍ بما وقع عليها يثير تساؤلًا، ولعل مما يشير إليه القرآن إشارةً خفيفةً هو الآتي.

أما فرعون، فقد كان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

فلما كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها، أي: في جنسها[(٢)].

وفي هذا يتبين لنا أن الله ابتلى فرعون بابتلاءات عدة، والتي كان منها جريان الأنهار من تحت قصوره، لكنه لم ينجح في كل هذه الابتلاءات، وقدر الله أن يكون بلاؤه بالوسيلة التي كان يتكبر بها ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

(١) قصص القرآن الكريم في سيرة سيد المرسلين، لمحمد منير الجنباز ص١٧٧.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٥٩.

﴿٥١﴾ [الزخرف: ٥١].

ثالثًا: ابتلاء الله للأمم الهالكة بالأنهار:

إن سنة الله لا تحابي أحدًا، وليس لفردٍ ولا لمجتمعٍ حصانةٌ ذاتيةٌ، وحين تقصر أمةٌ في توقي أسباب المصائب العامة، فإن عليها أن تتقبل نتيجة التقصير، والسعيد من اتعظ بغيره، والغافل من غفل عن نفسه حتى وعظ به غيره، وليست أمةٌ بمنأى عن العذاب إذا عقدت أسبابه، ولا في مأمنٍ من العقاب إن سلكت سبيله وفتحت للذنب أبوابه، ولذلك أكثر الله تعالى من وعظ هذه الأمة بمصارع الأمم الغابرة، وحذر الآمنين من مكره الذين لا يقدرون الله حق قدره، ولا يقفون عند نهيه وأمره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

ومن مظاهر الابتلاء التي لها صلة بالأنهار في القرآن الكريم: ابتلاء الله للأمم الهالكة بهذه الأنهار.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦].

قال الشوكاني: القرن يطلق على أهل كل عصرٍ، سموا بذلك لاقترانهم، أي: ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة في عصرٍ بعد عصرٍ لتكذيبهم أنبياءهم. وقيل: القرن مدةٌ من الزمان. وهي ستون عامًا أو سبعون أو ثمانون أو مائةٌ على اختلاف الأقوال،... مكن له في الأرض: جعل له مكانًا فيها، ومكنه في الأرض: أثبته فيها،... أي: مكناهم تمكينًا لم نمكنه لكم، والمعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا وطول الأعمار وقوة الأبدان وقد أهلكناهم جميعًا. فإهلاككم -وأنتم دونهم- بالأولى.

قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يريد المطر الكثير، والمدرار: صيغة مبالغةٍ تدل على الكثرة، وجريان الأنهار من تحتهم معناه: من تحت أشجارهم ومنازلهم، أي: أن الله وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض فكفروها، فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم، أي: من بعد إهلاكهم قرنًا آخرين فصاروا بدلًا من الهالكين، وفي هذا بيانٌ لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء[1].

قال تعالى واعظًا للمشركين المعاندين ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١١٦.

الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم، من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوةً، وأكثر جمعًا وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض، وعمارةً لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض والسعة والجنود، ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: شيئًا بعد شيءٍ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجًا وإملاءً لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بخطاياهم، وسيئاتهم التي اجترحوها[1].

﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي:من تحت أمكنتهم، والمراد أنهم: أصحاب البساتين والقصور والمتنزهات[2].

قال القرطبي: والمعنى: وسعنا عليهم النعم فكفروها. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بكفرهم فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم. ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: أوجدنا، فليحذر هؤلاء من الإهلاك أيضًا[3].

أي: وسخرنا لهم الأنهار وهي مجاري المياه الفائضة وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها تجري دائمًا من تحت مساكنهم التي يبنونها على ضفافه، أو في الجنات والحدائق التي تتفجر خلالها، فيتمتعون بالنظر إلى جمالها، وبسائر ضروب الانتفاع من أمواهها.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: فكان عاقبة أمرهم لما كفروا بتلك النعم وكذبوا الرسل أن أهلكنا كل قرنٍ منهم بسبب ذنوبهم التي كانوا يقترفونها. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أوجدنا من بعد الهالكين من كلٍ منهم قرنًا آخرين يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكر نعم الله عليهم فيها[4].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب:

فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل : والتفكر في البينات.

والمرتبة الثانية: كونهم مكذبين بها، وهذه المرتبة أزيد مما قبلها؛ لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبًا به، بل يكون غافلًا عنه غير متعرض له فإذا صار مكذبًا به فقد زاد على الأعراض.

والمرتبة الثالثة: ونهم مستهزئين بها؛ لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢١٥.
(٢) غرائب القرآن، للنيسابوري ٣/ ٥١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٢.
(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٧/ ٢٥٧.

الثلاثة على هذا الترتيب[١].

وقد وصف الله أولئك المهلكين بسبب اجتراحهم للسيئات بصفات ثلاث لم تتوفر للمشركين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم.

وصفهم أولًا بأنهم كانوا أوسع سلطانًا، وأكثر عمرانًا، وأعظم استقرارًا، كما يفيده قوله تعالى ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾.

قال صاحب الكشاف: «والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا قوم عاد وثمود وغيرهم من البسطة فى الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا»[٢].

ووصفهم -ثانيًا- بأنهم كانوا أرغد عيشًا، وأسعد حالًا، وأهنأ بالًا، يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ أي: أنزلنا عليهم المطر النافع بغزارة وكثرة، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها.

ووصفهم -ثالثًا- بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التى يسيرون مجاريها كما يشاءون، فيبنون مساكنهم على ضفافها. ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها الجميلة، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾ أي: صيرنا الأنهار تجري من تحت مساكنهم.

ولكن ماذا كانت عاقبة هؤلاء المنعمين بتلك النعم الوفيرة التي لم تتيسر لأهل مكة؛ كانت عاقبتهم -كما أخبر القرآن عنهم- ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: فكفروا بنعمة الله وجحدوا فأهلكناهم بسبب ذلك؛ إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم[٣].

إنها حقيقة ينساها البشر -إلا من عصم الله- وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف؛ ويمضون على غير سنة الله؛ ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويدًا رويدًا، وهم ينزلقون ولا يشعرون، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله، ثم تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال -بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام، ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضًا، ويدمر بعضهم بعضًا، ويؤذي بعضهم بعضًا، ولا يعود بعضهم يأمن بعضًا؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلط الله عليهم عبادًا له -طائعين أو

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٢/ ١٣٠.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٨.
(٣) التفسير الوسيط، لمحمد سيد طنطاوي ٥/ ٣٩.

عصاة-يخضدون شوكتهم، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السنة، السعيد من وعى أنها السنة، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه، والشقي من غفل عن هذه الحقيقة، وظن أنه أوتيها بعلمه، أو أوتيها بحيلته، أو أوتيها جزافًا بلا تدبير![1]

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٠١٠.

لمسات إعجازية في الأنهار

المقصود باللمسات الإعجازية في الأنهار: ما يدركه ويتوصل إليه العلماء المتخصصون من حقائق خاصة بالأنهار، وقد ألمح القرآن الكريم إليها سابقًا.

اللمسة الأولى:

في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣ ﴾ [الفرقان: ٥٣].

قال الإمام الطبري: « يقول تعالى ذكره: والله الذي خلط البحرين، فأمرج أحدهما في الآخر، وأفاضه فيه. وأصل المرج الخلط، ثم يقال للتخلية: مرج؛ لأن الرجل إذا خلى الشيء حتى اختلط بغيره، فكأنه قد مرجه.

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في معنى قوله، دون القول الذي قاله من قال: معناه: إنه جعل بينهما حاجزًا من الأرض أو من اليبس؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر في أول الآية أنه مرج البحرين، والمرج: هو الخلط في كلام العرب على ما بينت قبل، فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين، والملح الأجاج أرضًا أو يبسًا لم يكن هناك مرج للبحرين، وقد أخبر جل ثناؤه أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملح الأجاج عن إفساد هذا

العذب الفرات، مع اختلاط كل واحد منهما بصاحبه. فأما إذا كان كل واحد منهما في حيز عن حيز صاحبه، فليس هناك مرج، ولا هناك من الأعجوبة ما ينبه عليه أهل الجهل به من الناس، ويذكرون به، وإن كان كل ما ابتدعه ربنا عجيبًا، وفيه أعظم العبر والمواعظ والحجج البوالغ[1].

أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان البحر العذب وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض والبحر الملح وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر فتذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا[2].

هذا عذبٌ فراتٌ بالغ العذوبة، وهذا ملحٌ أجاجٌ بالغ الملوحة والمرارة، وجعل بينهما برزخًا حائلًا، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي:وسترًا مستورًا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر[3].

الحقيقة العلمية التي لها صلة بالآية:

بعد مسح لعدد كبير من مناطق اللقاء بين الأنهار والبحار، اكتشف الباحثون أن منطقة المصب بيئة متميزة، في صفاتها الطبيعية والإحيائية عن النهر وعن البحر، رغم تداخل المياه وتحركها بينهما، بحسب مد البحر وجزره، وفيضان النهر وجفافه، وكأن حاجزًا يفصل بيئة المصب عن بيئة النهر وبيئة البحر، ويحافظ على هذه المنطقة بخصائصها المميزة، رغم عوامل المزج، كالمد والجزر وحالات الفيضان والانحسار التي تعتبر من أقوى عوامل المزج.

وبتصنيف البيئات الثلاث، باعتبار الكائنات الحية التي تعيش فيها تعتبر منطقة المصب حجر على معظم الكائنات الحية التي تعيش فيها، لأن هذه الكائنات لا تستطيع أن تعيش إلا في منطقة المصب ذات الخصائص المميزة، وهي في نفس الوقت منطقة محجورة على معظم الكائنات التي تعيش في البحر والنهر؛ لأن هذه الكائنات تموت إذا دخلتها بسبب اختلاف خصائصها.

وجه الإعجاز في الآية الكريمة:

كل تجمع مائي يمكن أن يسمى بحرًا، والبحر العذب الفرات أو شديد العذوبة هو النهر، والبحر الملح الأجاج أو شديد الملوحة هو المحيط أو البحر المالح، وبهذا خرج ماء المصب؛ لأنه مزيج بين الملوحة والعذوبة فلا ينطبق عليه وصف عذب فرات ولا ملح أجاج، وبهذه الأوصاف تحددت حدود الكتل المائية الثلاث: ماء النهر، وماء البحر، وبينهما ماء منطقة المصب التي

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري ١٩/ ٢٨١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٥.
(٣) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١٠/ ٤٢١.

وصفت في الآية الكريمة بكونها برزخًا أو حاجزًا يمنع طغيان صفة ملوحة البحر على النهر أو عذوبة النهر على البحر، وميزت بيئة المصب بأنها حجر على ما فيها من كائنات حية محجورة على ما يعيش خارجها في النهر أو البحر، وهذا يعني تمايز البيئات الثلاث في الصفات الطبيعية وفي الكائنات الحية. ويشهد التطور التاريخي في سير علم البحار بعدم وجود معلومات دقيقة عن البحار قبل ١٤٠٠ عام، ومع ذلك وصف القرآن الكريم بدقة منطقة مصبات الأنهار، فبين أنها بيئة متميزة في خصائصها الطبيعية والإحيائية عن بيئة النهر وبيئة البحر وكشف أنه رغم تداخل المياه وتحركها الدائم في اتجاه البحر تظل تلك الخصائص ثابتة، فمن أين تلك المعرفة في القرآن بلا تقنية وأدوات علمية إن لم يكن من عند الذي أحاط بكل شيء علمًا[١].

اللمسة الثانية:

في قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

جاء في تفسير هذه الآية: أي: قارةً ساكنةً ثابتةً، لا تميد ولا تتحرك بأهلها، ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا، ثابتةً لا تتزلزل ولا تتحرك.

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهارٍ كبارٍ وصغارٍ وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالًا شامخةً ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بهم.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾

أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقضاء كل منها على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها: أن تكون عذبةً زلالًا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها.

والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء

---

(١) مقال علمي بعنوان: مصبات الأنهار، على الشبكة العنكبوتية للإنترنت، موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط: http://www.eajaz.org/index.php/Scientific Miracles/Earth and Marine Sciences/٢٠٠، Estuaries

بريحها[1].

وقال الزحيلي: جعل الأرض مستقرًا للإنسان وغيره، لا تميد ولا تتحرك بأهلها، وجعل فيها الأنهار العذبة الطيبة لسقاية الإنسان والحيوان والنبات، وجعل فيها جبالًا ثوابت شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم، وجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بذاك، لتبقى الغاية من التفرقة بينهما متحققة، فإن الماء العذب الزلال لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار، والماء المالح في البحار؛ ليكون مصدرًا للأمطار، وليبقى الهواء فوقه نقيًا صافيًا لا يفسد بالرائحة الكريهة التي تحدث عادة في تجمعات المياه العذبة[2].

يحدث أحيانًا أن ينشأ النهر في أرض ممهدة، قبل تكون سلسلة الجبال بعدة ملايين من السنين، وبعد أن تنتصب الجبال يستمر النهر في تحد غريب، في تعميق مجراه قاطعًا السلسلة الجبلية، وتشير الآية القرآنية إلى تلك الحالة إشارة معجزة:

تأمل الترتيب البديع؛ من قرار الأرض، إلى خلق الأنهار، إلى نشأة الجبال الرواسي، ثم تكوين الحاجز بين البحرين[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٨٣.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٠/ ١٢.

(٣) مقال بعنوان: الأنهار في القرآن، لحسني حمدان، على الشبكة العنكبوتية للإنترنت، موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط: http: //www.eajaz.org /index.php /Scientific، Miracles / Earth، and، Marine، Sciences /٢٠٠، Estuaries

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الزكاة، المال، المن





عناصر الموضوع

المجلد السادس

مفهوم اهل الكتاب

أولًا: المعنى اللغوي: .

الأهل لغة: أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه، وأهل المذهب: من يدين به، وأهل الإسلام: من يدين به، وأهل الأمر: ولاته، وأهل البيت: سكانه، وأهل الرجل: زوجه وأخص الناس به، وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم: أزواجه وبناته وصهره [(١)].

الكتاب لغة: كتبه كتبًا وكتابًا، أي: خطه، وهو ما يكتب فيه، والدواة والتوراة والصحيفة والفرض والحكم والقدر [(٢)].

ويراد به أيضًا: الكتب السماوية، وحيثما ذكر في القرآن الكريم التركيب الإضافي ﴿أَهْلِ الْكِتَٰبِ﴾ فإنما أريد بالكتاب: التوراة والإنجيل، وكذلك إذا ذكر التركيب الإسنادي ﴿أُوتُوا الْكِتَٰبَ﴾ أو ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ [(٣)].

وأهل الكتاب: «من يجتمعون حوله، والمراد: اليهود والنصارى» [(٤)].

ومن هذه المعاني اللغوية يفهم منه معانٍ أخرى حسب ما يراد به المضاف إليه كما تقدم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أهل الكتاب اصطلاحًا: هم اليهود والنصارى، ومن دان دينهم بفرقهم المختلفة، ومن عدا هؤلاء من الكفار فليس من أهل الكتاب؛ بدليل قول الله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦] [(٥)].

قال الشهرستاني: «الخارجون عن الملة الحنيفية والشريعة الإسلامية، ممن يقول بشريعة وأحكام وحدود وأعلام، وهم قد انقسموا إلى من له كتاب محقق، مثل التوراة والإنجيل، وعن هذا يخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب، وإلى من له شبهة كتاب، مثل: المجوس» [(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ١١/ ٢٨، القاموس المحيط، للفيروزآبادي ١/ ٩٦٣، مقاييس اللغة، لابن فارس، ١/ ١٥٠.
(٢) القاموس المحيط، ١/ ١٢٨.
(٣) انظر: المفردات ١/ ٧٠١، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، ص٩٤٩-٩٥٠.
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٩٧.
(٥) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٢٩.
(٦) الملل والنحل، ص٢٤٧.



أهل الكتاب في الاستعمال القرآني

ورد لفظ (أهل الكتاب) كمركب إضافي تكرر في الاستعمال القرآني (٣١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
أهل الكتاب	٣١	﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]

وجاء مركب (أهل الكتاب) في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: اليهود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

الثاني: النصارى، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

الثالث: اليهود والنصارى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٠١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليهود:

اليهود لغة:

هو مشتقٌ من هاد يهود بمعنى تاب، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهي على لسان موسى عليه السلام والسبعين الذين اختارهم من خيار قومه للقاء ربه، والاعتذار عما فعله سفهاء قومهم من عبادة العجل، ومعنى قوله: ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ «أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك»[١].

قال ابن فارس: «سموا به (أي: باليهود) لأنهم تابوا عن عبادة العجل... وفي التوبة هوادة حال وسلامة»[٢]، وقال الراغب: «قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم: ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، وكان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أن النصارى في الأصل من قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[الصف: ١٤]. ثم صار لازما لهم بعد نسخ شريعتهم. ويقال: هاد فلان: إذا تحرى طريقة اليهود في الدين»[٣].

اليهود اصطلاحًا:

اليهود لقب عرف به بني إسرائيل[٤].

ولفظة اليهود لم تستعمل في التوراة إلا بعد عهد موسى عليه السلام، في سفر الملوك الثاني، ويوافق ذلك القرآن الكريم في تسميته لمن عاصر موسى من قومه ببني إسرائيل أو قوم موسى، ولم ترد التسمية باليهود -والتي جاءت في ثمانية مواضع من القرآن الكريم- إلا في مراحل متأخرة عن عهد موسى عليه السلام[٥].

وقد جاءت في جميع ورودها في معرض الذم وبيان انحرافات القوم والرد عليهم[٦]،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٨١.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٨.
(٣) المفردات، الأصفهاني ص ٨٤٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٣٢، موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، قدح ص ٢٥٦، ٢٥٧.
(٥) انظر: دراسات في الأديان، الشنطي ص٢٩.
(٦) انظر: الشخصية اليهودية من خلال القرآن، الخالدي ص٤٢.

كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وكقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

وكأن في تلك التسمية إشارة إلى بدء انحرافهم، وما حدث لهم بعد وفاة سليمان عليه السلام، من الفساد وانتشار السحر وغير ذلك.

الصلة بين أهل الكتاب واليهود:

أهل الكتاب أعم من اليهود؛ فاليهود إحدى الطائفتين التي أنزل عليها كتاب، وهم: اليهود والنصارى.

٢ بنو إسرائيل:

بنو إسرائيل لغة:

إسرائيل: لقب نبي الله يعقوب عليه السلام، «لإشعاره بالمدح بالمعنى المنقول منه، إذ معناه صفوة الله أو عبد الله بالعبرانية»[(١)].

بنو إسرائيل اصطلاحًا:

إسرائيل اصطلاحًا: لقب أطلق على يعقوب بن إسحاق عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وبنو إسرائيل: ذرية يعقوب عليه السلام وكانوا اثني عشر سبطًا، قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١][(٢)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في كلمة إسرائيل: معناه: (عبدالله)، لأن إسرا بمعنى: عبد، وإيل: اسم الله، أي: أنه مركب من كلمتين: إسرا، وإيل، كما يقولون: بيت إيل[(٣)].

قال الكفوي: «قال بعضهم: لم يخاطب اليهود في القرآن إلا بـ (يا بني إسرائيل) دون (يا بني يعقوب) لنكتة هي لأنهم خوطبوا بعبادة الله، وذكروا بدين أسلافهم موعظة لهم وتنبيهًا من غفلتهم فسموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله»[(٤)].

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي ٣٨/ ٢٧٥.
(٢) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد ص ٥١، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٩١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٥٠.
(٤) الكليات، الكفوي ص ١١٥.

الصلة بين أهل الكتاب وبني إسرائيل:

أهل الكتاب أعم من بني إسرائيل، فبنو إسرائيل يخاطب به اليهود غالبًا، وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى.

٣ النصارى:

النصارى لغة:

مفردها نصراني، يقال: نصرته على عدوه ونصرته منه نصرًا: أعنته وقويته، والفاعل ناصر ونصير وجمعه أنصار، والنصرة بالضم اسم منه، وتناصر القوم مناصرة: نصر بعضهم بعضًا، وانتصرت من زيد انتقمت منه، واستنصرته طلبت نصرته، ونصارى: هم من يتبع دين المسيح، فيقال: رجلٌ نصراني، ثم أطلق النصراني على كل من تعبد بهذا الدين، وربما قيل: نصران ونصرانة، ونصرى وناصرة، ونصورية: قرية بالشام، والنصارى منسوبون إليها، والتنصر: الدخول في النصرانية، ونصره: جعله نصرانيًا[(١)].

قال الراغب الاصفهاني رحمه الله: «والنصارى قيل: سموا بذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

وقيل: سموا بذلك انتسابًا إلى قرية يقال لها: نصرانة، فيقال: نصرانيٌّ، وجمعه نصارى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١٣]»[(٢)].

النصارى اصطلاحًا:

لا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي، فالمقصود بالنصارى اصطلاحًا: هم أمة المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته عليه الصلاة والسلام[(٣)].

الصلة بين أهل الكتاب والنصارى:

أهل الكتاب أعم من النصارى؛ فالنصارى إحدى الطائفتين التي أنزل عليها كتاب، وهم: اليهود والنصارى.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢١١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٠٧، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ٢٢٢١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة ٢/ ٩٢٥.
(٢) المفردات، الرغب الأصفهاني ١/ ٨٠٩.
(٣) انظر: الملل والنحل، الشهرستاني ١/ ٢٦٦.



كثرة حديث القرآن عن أهل الكتاب

من أهم الموضوعات التي ركز القرآن الكريم على بيانها وكشفها كشفًا تفصيليًا موضوع أهل الكتاب وما يتصل به، لما في ذلك من حكم عظيمة ومصالح كبيرة، ولما لهذا الموضوع من أثر بالغ على الواقع.

لقد أولى القرآن الكريم هذا الموضوع عنايته، وأكثر من الحديث عن أهل الكتاب وذكر أنبيائهم، وكتبهم وما أدخلوه عليها من التحريف والتبديل، وما نسوه أو كتموه منها - وخصوصًا ما يتعلق بالبشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم -، كما ذكر ما انتهى إليه حالهم بعد تطاول الزمان عليهم من قسوة القلوب، والضلال، والكفر، والبعد عما أنزله الله من الشرع، حتى نسبوا لله تعالى الولد، والفقر، وغير ذلك مما حكاه القرآن الكريم عنهم من أقوالهم القبيحة.

لقد ذكر القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام - نبي بني إسرائيل-، وهو الذي أنزلت عليه التوراة، في مواضع كثيرة، حتى إنها أكثر القصص ورودًا فيه، وذكر قصة مولده، ورضاعته، وشبابه، وقصته مع فرعون والسامري عليهما لعنة الله، ومع الخضر عليه السلام، وذكر قصة قارون ذلك الكافر المغرور بماله، وهو من قوم موسى عليه السلام، وذكر مناجاة موسى عليه السلام لربه، وطلبه الرؤيا منه، وغير ذلك من تفاصيل حياته.

كما ذكر القرآن الكريم قصة عيسى عليه السلام - نبي بني إسرائيل -، وهو الذي أنزل عليه الإنجيل، وتحدث عن ميلاده ومعجزاته، ودعوته لقومه، في عدة مواضع من آياته.

كما سمى القرآن الكريم بعض سوره بأسماء لها صلة واضحة بأهل الكتاب، كسورة البقرة، إشارة إلى بقرة بني إسرائيل التي أمروا بذبحها، وسورة آل عمران وهو اسم تلك العائلة الكريمة التي خرجت منها مريم ابنت عمران أم عيسى عليهم السلام، وسورة المائدة نسبة إلى المائدة التي طلب بنو إسرائيل، إنزالها من السماء، وسألوا عن قدرة الله على ذلك، وسورة يوسف عليه السلام وهو من أنبياء بني إسرائيل، وسورة بني إسرائيل وهي سورة الإسراء، وسورة مريم أم المسيح عيسى عليه السلام، وغير ذلك.

كما ذكر القرآن الكريم كثيرًا من أحوال أهل الكتاب، وتحدث عن انحرافاتهم ودعاويهم الباطلة ورد عليها وفندها، وحذر من عداوتهم للمسلمين ونقمتهم عليهم، كما تكلم عن اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وغزوات النبي معهم، كغزوة بني النضير والتي ذكرت في سورة

الحشر، وبالجملة فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦].

ولقد ذكر القرآن الكريم كل ذلك وغيره مما له صلة بموضوع أهل الكتاب لحكم عظيمة، منها: استمالة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام، والإيمان بالقرآن الكريم، وأنه مصدق لما معهم من الكتاب، وأنها جميعًا جاءت من رب واحد، هو رب السموات والأرض، المحيط علمه بكل شيء، ونلحظ هذه الحكمة واضحة في تسمية بعض السور القرآنية بتلك الأسماء التي لها رمزية عند أهل الكتاب، كما ذكرنا.

واهتمام القرآن الكريم بدعوة أهل الكتاب يعود إلى كونه كتاب هداية لجميع الثقلين بالمقام الأول، ولأن في هداية أهل الكتاب للإسلام هداية لغيرهم من أهل الشرك الذين سيقتدون بهم، ويقولون: ما دام أهل الكتاب وما عندهم من العلم والبينات اتبعوا هذا النبي صلى الله عليه وسلم، إذا فإنه على الحق، والعكس بالعكس، ولذلك قال الراغب الأصفهاني في قوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١].

«أي: لا تكونوا ممن يقتدى بكم في الكفر.»[1]

وقد استشهد القرآن الكريم على صحة النبوة المحمدية والوحي القرآني بمن آمن من أهل الكتاب، وأخبروا بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، والبشارة به، وكونه موافقًا للوصف الوارد له في كتبهم، وما له من علامات ودلائل، وأسلوب الاستشهاد بهم يلهم أن شهادتهم في جانب النبي صلى الله عليه وسلم هي المنتظرة، قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

[2]، قال ابن كثير: «أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه، أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من صالح أهل الكتاب الذين يمسكون بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه، ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه، ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عز وجل، شكرًا على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلًا إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾

(١) المفردات، الأصفهاني ص ١٠٠.

(٢) انظر: التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ١/ ٤٧٠.

أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾، أي: خضوعًا لله عز وجل وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، أي: إيمانًا وتسليمًا كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود»[(١)]

إن حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب وبيان انحرافاتهم فيه تحصين للمسلمين، من الانخداع بما هم عليه من الباطل، وما يثيرونه من شبهات على المسلمين بغرض تشكيكهم في دينهم، فبين القرآن الكريم أنه كتاب من عند الله مصدق لما قبله من الكتب، ومهيمن عليها، وأنه لا تفريق بين رسل الله وكتبه في الإيمان بهما، وبهذا الإيمان الكامل تتضح الصورة في ذهن المسلم، دون تشويش أو اشتباه.

كما أن في بيان القرآن الكريم لأخطاء الأمم السابقة - خاصة أهل الكتاب منهم - تحذيرًا لهذه الأمة المحمدية من الوقوع فيها، وسلوك مسلكها، فالله تعالى ذكر قصص بني إسرائيل وتجاربهم وما فيها من خير أو انحراف - وهو الغالب - كنموذج للأمة الكتابية، حتى تتعلم هذه الأمة من ذلك ولا تقع في أخطائهم، ولا تصل إلى ما وصلت إليه حالهم من الضلال، ويقرأ المسلمون كل يوم قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

سبع عشرة مرة في صلواتهم المفروضة، يسألون الله تعالى أن يهديهم الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو طريق الإسلام، وطريق المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود ونحوهم ممن عرف الحق وترك العمل به، وغير طريق الضالين الذين يعملون بلا علم، فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة، يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون[(٢)].

فأراد الله تعالى أن يكون هذا الدعاء من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢٧، ١٢٨.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/ ٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.

سورة الفاتحة يردده المسلمون في يومهم كل هذه المرات، ليستعيذوا به تعالى من سلوك سبل الأمم السالفة في الانحراف عن دينه تعالى، وتضييع كتبه والتفريط فيها.

ومع أن الله تعالى قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله، مما سبق في علمه، روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا: يا رسول الله، اليهود، والنصارى؟ قال: فمن)[(١)].

قال النووي: «السنن بفتح السين والنون وهو الطريق، والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وقع ما أخبربه»[(٢)].

وفي هذا الحديث دلالة على ما لأهل الكتاب من الدور الكبير والبارز في صد المسلمين عن دينهم، وفتنتهم، ولذلك كثر حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب، لما له من أثر بالغ على الواقع، فقد استحوذ الحسد والبغي على قلوبهم، وناصبوا أمة محمد العداء، فهم ألد أعداء هذه الأمة، وما أكثر تخطيطهم وكيدهم لهذا الدين وأتباعه؟!، وذلك منذ بزغ فجر الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

وهي في أهل الكتاب، قال أبو السعود: «أي: يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التي من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨-٩].

وهي أيضًا في أهل الكتاب كما يشهد لذلك سياق الآيات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح٣٤٥٦، ٤/ ١٦٩، ومسلم في صحيحه. كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ح٢٦٦٩، ٤/ ٢٠٥٤.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٦/ ٢١٩- ٢٢٠.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٦١.

حكمة النداء بأهل الكتاب

إن القرآن الكريم له أسلوبه الحكيم في مخاطبة الناس ودعوتهم، وقد قال تعالى فيه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن ذلك أنه خاطب المؤمنين بنداء الإيمان (يا أيها الذين آمنوا)، ليستحث فيهم عنصر الإيمان وقوته، وليذكرهم بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم، حين دخلوا في هذا الدين، أي: يا من صدقتم بي وبكلامي، كما ضرب القرآن الكريم من خلال عرضه للقصص المختلفة أمثلة عدة في استخدام هذا الأسلوب الحكيم.

وقد استخدم القرآن الكريم في مخاطبة اليهود والنصارى عدة أساليب، مثل: (يا أهل الكتاب)، و (يا بني إسرائيل)، و (الذين أوتوا الكتاب) وكل هذه الأساليب لها هدفها في التأثير على المخاطب واستنهاض الهمم، وهز المشاعر.

وقد جاء الخطاب بـــ (يا أهل الكتاب) لليهود والنصارى، تذكيرًا لهم بتلك النعمة العظيمة التي أنعم الله تعالى بها عليهم، من إنزاله تلك الكتب ذات المكانة السامية، -وما فيها من الأحكام والتشريع- عليهم، فيا أهل الكتاب، أي: يا من نلتم ذلك الشرف في نزول تلك الكتب عليكم، فهي على أنبيائكم نزلت، ولكم شرعت.

وهذا التذكير لهم بذلك يتضمن أيضًا التوبيخ اللاذع لهم على تقصيرهم وأفعالهم القبيحة، فخطابهم بصفة المدح (يا أهل الكتاب) مع إقامتهم على الباطل وما لا يليق، فيه أعظم تبكيت، وأعظم تأنيب، وأعظم تقريع لهم.

ونلحظ هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾ [آل عمران: ٧٠].

فصدر تعالى الآية بالنداء على أهل الكتاب ثم بالاستفهام توبيخًا لهم على كفرهم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من آيات الله، وتعجيبًا من شأنهم، وإنكارًا عليهم، فقد كان حريًا بهم، وهم أهل كتاب، وأهل علم، أن يسارعوا إلى الإيمان قبل غيرهم[(١)]، وذلك لما عندهم من الأمور الشاهدات على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة خبره، وما عندهم من المعرفة بأمور الدين عمومًا، من الإيمان بالله وكتبه ورسله، والإيمان بالبعث في الآخرة، لا أن يكفروا بآيات الله، قال الطبري: «وإنما هذا من الله عز وجل، توبيخٌ لأهل الكتابين

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ١٣٩.

على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوته، وهم يجدونه في كتبهم، مع شهادتهم أن ما في كتبهم حقٌّ، وأنه من عند الله»[1].

وفي الآية أيضًا وتصديرها بالنداء لأهل الكتاب تذكير لهم، أي: أنتم أهل كتاب، وأهل إيمان لا كفر، فلم تكفرون، فالقرآن الكريم في خطابه للآخرين يستحضر فيهم الطاقات الكامنة، ويوظفها للاستجابة وتنفيذ الأمر المطلوب تنفيذه.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: ١٥].

قال ابن باديس: «أرسل الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، لجميع الأمم؛ فكانت رسالته عامة، وكانت دعوته عامة مثلها، وجاءت آيات القرآن بالدعوة العامة في مقامات، وبالدعوة الخاصة لبعض من شملتهم الدعوة العامة في مقامات أخرى. ولما أرسل الله محمدًا- صلى الله عليه وآله وسلم- كان الخلق قسمين: أهل كتاب- وهم اليهود والنصارى، وغيرهم. وكان أشرف القسمين أهل الكتاب؛ بما عندهم من النصيب من الكتاب الذي أوتوه على نسيانهم لحظ منه، وتحريفهم لما حرفوا. وكانوا أولى القسمين باتباع محمد صلى الله عليه وسلم بما عرفوا قبله من الكتب والأنبياء. فلهذا وذاك كانت توجه إليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ إلى آخر الآيتين.

وفي ندائهم بـ ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تشريف وتعظيم لهم بإضافتهم للكتاب، وبعث لهم على قبول ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه جاء بكتاب وهم أهل الكتاب، واحتجاج عليهم بأن الإيمان بالكتاب الذي عندهم يقتضي الإيمان بالكتاب الذي جاء به لأنه من جنسه»[2].

«هذا هو أدب الإسلام في دعوة غير أهله، ليعلمنا كيف ينبغي أن نختار عند الدعوة لأحد أحسن ما يدعى به، وكيف نتقي ما يناسب ما نريد دعوته إليه، فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته إليك، ويفتح لك سمعه وقلبه، ودعاؤه بما يكره يكون أول حائل يبعد بينك وبينه»[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٠٢.

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٢٧، ٣٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ٣٢٨.

موقف أهل الكتاب من الرسول

الإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء هو قضية محورية في دعوة أهل الكتاب إلى الحق، ورد انحرافاتهم، لأنهم إذا آمنوا به وبرسالته فإنهم سيكفرون بكل ما هو باطل مما وضعه لهم أحبارهم ورهبانهم، أو سطروه لهم في كتبهم من الضلال والكذب.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

وبذلك تنحل جميع عقد الباطل عند أهل الكتاب من أصولها، إذا آمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ناسخ بما جاء به من الوحي لكل شريعة قبله، وأنه يبين لأهل الكتاب كثيرًا مما كانوا يختلفون فيه.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

ولذلك ركز القرآن الكريم في دعوته لأهل الكتاب على هذه القضية، وبين موقف أهل الكتاب منها، ورد على المكذبين لها.

وسنبين في المطالب الآتية دعوة القرآن الكريم للإيمان بالرسل عامة، وبمحمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص، وموقف أهل الكتاب من هذه الدعوة، والذي يتمثل في ثلاث طوائف:

لقد أوضح القرآن الكريم قضية الإيمان بالرسل عليهم السلام عمومًا، وأنها ركن من أركان الإيمان، لا يصح إلا بها.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فبين تعالى بقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ حقيقة إيمانية واضحة في أنه لا فرق بين أحد من الأنبياء في الإيمان بهم، فالإيمان بموسى لا يناقض الإيمان بعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام والعكس، فجميعهم رسل من عند الله تعالى، أوحى إليهم شرعه وأمره، وهم صادقون معصومون

ومبرؤون من كل عيب ونقص، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

كما بين القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام دعوا أقوامهم لذلك، وغرسوا هذه المبادئ فيهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

فعيسى عليه السلام، كالأنبياء يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، وقد بشر بظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من بعده، وأعلم أهل الكتاب بذلك، ولكنهم لمَا ﴿جَآءَهُم﴾ محمد صلى الله عليه وسلم كما بشر به عيسى، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقًا، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: عاندوا الحق وكذبوا به، وهذا أمر عجيب منهم.[1]

وقد احتج القرآن الكريم على أهل الكتاب في تركهم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بهذه الحقيقة الواضحة من كونه صلى الله عليه وسلم معلومًا عندهم، اسمه ووصفه وعلامته.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

فقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حجة على أهل الكتاب، أي: أن هذا النبي جاء مصدقًا لما في كتبكم وما أخبركم به رسلكم من وصفه وعلاماته[2].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فلِمَ تكفرون به؟

والعجيب أنهم كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: يستنصرون بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه: حسدًا منهم وظلمًا.[3]

كما دعا القرآن الكريم أهل الكتاب إلى الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم دعوة صريحة واضحة في قوله تعالى:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٩٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢٥، ٣٢٦.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: ١٩].

أي: «يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾»[1]، أي: «على انقطاع من الأنبياء، يقال: فتر الشيء يفتر فتورًا إذا سكنت حدته وصار أقل مما كان عليه»[2].

وذلك بعد مدة متطاولة بينه وبين عيسى عليه السلام، قيل: بلغت ستمائة سنة، تغيرت فيها الأديان، وكثرت عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه شديدة، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، وإن الطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلًا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى، حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فهدى الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾، أي: لئلا تحتجوا وتقولوا: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير، يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[3].

فالآية حض لأهل الكتاب على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي جاءهم بعد هذا الانقطاع وما فيه من الاشتياق والحنو لوحي السماء، وبعثة الأنبياء.

وقد اختلف موقف أهل الكتاب من هذه الدعوة للإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، كما بينه القرآن الكريم إلى ثلاث طوائف:

أولًا: طائفة آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته:

وهي الطائفة الأولى، قال تعالى: ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

فبين تعالى أن أهل الكتاب ليسوا متساوين في القبح والضلال، بل منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون، كما قال في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١١/ ٣٣٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٠، ٧٢.

الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم ذكر تعالى بعض صفات هذه الطائفة، ومدحها وأثنى عليها، فذكر لهم ثماني صفات كل منها منقبة ومفخرة يستحق فاعلها الثواب عليها، وهي أنهم ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، أي: مستقيمة على الحق متبعة له[١]، وهم الذين أسلموا منهم، كعبد الله بن سلام وغيره، وفيهم نزلت الآيات[٢].

ثم وصف تعالى صلاتهم وتهجدهم، وعبر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح[٣].

ثم أتبع ذلك بأربع صفات، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانًا صحيحًا يوجب لهم إيمانهم بكل كتاب أنزله الله تعالى، وبكل رسول أرسله، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات[٤].

قال البيضاوي: «وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون عن الخيرات»[٥].

ثم عقب تعالى على ما ذكره من صفاتهم، بالإخبار عنهم بالصلاح، وأنهم يثابون بأعمالهم خير الثواب، ولن يكفروا أي: ينقصوا أو يضيع من أعمالهم شيئًا، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

هكذا يصف تعالى هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب، وفي ذلك استمالة لأهل الكتاب للدخول في الإسلام وتحفيز لهم على ذلك.

وقال تعالى في وصف حال هذه الطائفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٥﴾ [المائدة: ٨٣-٨٥].

فبين تعالى انقيادهم للحق وشدة انفعالهم له، حتى إنهم إذا سمعوا آيات الله

---

(١) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٣٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٢٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٠٥.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٣.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٤.

تتلى عليهم، فاضت أعينهم بالبكاء.

قال الطبري: «وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه»[(١)].

وذلك ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ «أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به»[(٢)].

قال ابن كثير: «وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص٥٢-٥٥].

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق»[(٣)]، جنات عظيمة خالدين فيها أبدًا، «فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم»[(٤)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] دلالة واضحة على أن هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب تؤمن بـ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾، وهذا هو الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض، وهو الإيمان الحقيقي الذي يورث الخشوع لله تعالى، والخضوع له، ولذلك فإن أهله لا يشترون بآيات الله ثمنًا بخسًا أبدًا[(٥)].

ثانيًا: طائفة كفرت برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه:

وهي الطائفة الثانية من أهل الكتاب، فهم من كفروا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومبعثه، مع علمهم بنعوته الشريفة

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٨.
(٤) الجواب الصحيح، ابن تيمية ٣/ ١٠٨.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٢.

وصحة رسالته من كتابهم.

قال تعالى في الوعيد لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: ٦].

فأخبر تعالى عن مآل كفرة أهل الكتاب، -الذين كفروا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وجحدوا نبوته-، والمشركين جميعهم في نار جهنم خالدين فيها أبدًا، لا يحولون عنها ولا يزولون، وأنهم شر الخليقة التي برأها الله تعالى وذرأها[١]، و(من) في الآية بيانية[٢]، أي: أن الكفار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، نوعان: **الأول:** أهل كتاب وهم اليهود والنصارى، **والثاني:** المشركون، وكلاهما يتناوله العقاب المذكور، وإنما قدم أهل الكتاب على المشركين وإن كان المشركون أعظم الفريقين كفرًا، لأن أهل الكتاب كفرهم واقع منهم مع علمهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ووجود البشارة بها في كتبهم، قال ابن عاشور: «وإنما قدم أهل الكتاب على المشركين هنا مع أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب؛ لأن لأهل الكتاب السبق في هذا المقام فهم الذين بثوا بين المشركين شبهة انطباق البينة الموصوفة بينهم، فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما هو أتقن من ترهات المشركين، إذ كان المشركون أميين لا يعلمون شيئًا من أحوال الرسل والشرائع، فلما صدمتهم الدعوة المحمدية فزعوا إلى اليهود ليتلقوا منهم ما يردون به تلك الدعوة وخاصة بعد ما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة»[٣].

فهم من هذه الحيثية أعظم جرمًا، وهذه الحيثية هي التي يدور الحديث عنها في السورة، ويتوافق ذلك مع اسم السورة (البينة)، وجيء باسم الإشارة (أولئك) «إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة، وما فيه من معنى البعد لبعد منزلتهم في الشر، أي: أولئك البعداء المذكورون ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾»[٤].

فهذه الطائفة التي كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم، هذا هو حكمها من العذاب والخسار -كما بينه تعالى-، وهو «حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال، مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، بهذه الرسالة الأخيرة، وبهذا الرسول الأخير، لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح، المقطوعة الاتصال بمنهج الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٨٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٧٥.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٨٦.

الثابت القويم»[1]، ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد بين الله تعالى وضوح كفر هذه الطائفة من أهل الكتاب وأكده في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

قال البيضاوي: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا، أي: ببعض أنبياء الله ورسله وكتبه دون البعض الآخر، ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره أو صفة لمصدر الكافرين بمعنى: هم الذين كفروا كفرًا حقًا أي يقينًا محققًا»[2].

وقال تعالى في نهي هذه الطائفة عن كفرها وأفعالها القبيحة: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١].

ومعلوم أن اليهود والنصارى ليسوا هم أول كافر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كفرت قريش والعرب أول ما كفروا في بداية دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، وإنما قال تعالى: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ تعريضًا بأهل الكتاب، أي: إن اللائق بهم وبمنزلتهم لكونهم أهل كتاب أن يكونوا أول المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم، لما عندهم من العلم بصدقه والبشارة به.

قال ابن عاشور: «والمقصود من النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ توبيخهم على تأخرهم في اتباع دعوة الإسلام»[3].

وقال الراغب: «أي: لا تكونوا ممن يقتدى بكم في الكفر.»[4]

ثالثًا: طائفة كتمت صفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

وهي الطائفة الثالثة من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

فأخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم[5]، ويعلمون نعوته وصفاته، والتي من جملتها أنه عليه السلام يصلي إلى القبلتين[6]، كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٥٢.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٠.
(٤) المفردات، الأصفهاني ص ١٠٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٧٦.

صحة الشيء بذلك، أو يعرفونه كما يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس لا يشك أحد ولا يتمارى في معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم، ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

قال الألوسي في قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾: «أي: نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وما وجدتموه في كتبكم من نعته والبشارة به ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق»[2].

وقد بين الله تعالى أنه أخذ العهد على علماء أهل الكتاب أن يبينوا للناس ما في كتبهم التي أنزلها تعالى عليهم من البينات والمعاني والأحكام والأخبار وكل ما يحتاجون إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فالآية توبيخ من الله تعالى لهم في نبذهم، أي: طرحهم - غير مبالين - الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم، «وهو العهد الثقيل المؤكد»[3] لبيان ما في كتبهم من الحق، ومنه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان أمره وصفته[4].

فهم قد كتموا ذلك، واشتروا بذلك الكتمان ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهو ما يحصل لهم من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم[5].

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنهم اشتروا عقاب الله تعالى وغضبه، وكان اللائق بهم أن يكونوا في أول من يؤمن بهذا النبي، وينصره ويذود عنه، لما في كتبهم من البشارة به وتوكيد دعوته، فالعقل قاض بأن يظاهروه، ودينهم حاكم بأن يؤيدوه، ومن العجب أن يطرحوا حكم العقل والنقل وراءهم ظهريًا[6].

وهذا الفريق من أهل الكتاب ممن كتم الحق مع علمه اليقيني به، ومع أن الله تعالى أخذ الميثاق منهم على تبيينه، توعدهم الله تعالى بشر عقاب جزاءً وفاقًا على كفرهم واتباعهم أهواءهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٢.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢/ ١٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٥٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٠.
(٦) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١٥٦.

﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

فتوعدهم الله تعالى باللعنة منه، ومن جميع من يتأتى منه اللعن، من الملائكة ومؤمني الثقلين، وفي ذلك بيان لدوام اللعن واستمراره[١]، وعظم جرم هؤلاء الكاتمين وفعلهم، حيث استحقوا كل ذلك اللعن، أي: الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد من رحمته.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

يعني: اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وذلك لأنه غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أي: لا يثني عليهم ولا يمدحهم بل يعذبهم عذابًا أليمًا[٢].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٣-٤٨٤.

موقف أهل الكتاب من المسلمين

بين القرآن الكريم موقف أهل الكتاب من المسلمين في آيات كثيرة، وكشف عن نواياهم ومخططاتهم وتدابيرهم، وذلك كله ليكون المسلمون على بينة من أمرهم، فيحذرونهم ويحتاطون لهم إن كانوا من أعدائهم، ويسالمونهم ويقاربونهم إن كانوا من أصدقائهم ومحبيهم، ولما كان لأهل الكتاب الدور الرئيس الأكبر في معاداة الإسلام وأهله كما تشهد بذلك وقائع التاريخ إلى يومنا هذا، فقد كشف القرآن الكريم عن تلك العداوة وأسبابها وصورها، لما لها من خطر داهم على المسلمين، وذلك من طريقة القرآن في هدايته لكل خير، والتحذير من كل شر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

ولقد بين القرآن الكريم أن موقف أهل الكتاب من المسلمين لا ينحصر في موقف واحد من عداوتهم لهم، بل إن من أهل الكتاب فريقًا لا يحمل في نفسه تلك العداوة والبغض لهم، ولا يستكبر عن قبول الحق واتباعه والإذعان به، وهذا الفريق قادته تلك الصفات الحسنة إلى الإيمان بالله تعالى ورسله جميعًا، والدخول في الإسلام.

قال تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

فبين تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، وأقسم له على موقفين لأهل الكتاب من المؤمنين:

أحدهما: موقف العداوة في قمتها حتى فاقت كل العداوات، فأصحابها هم أشد الناس عداوة وأصلبها للمؤمنين.

والثاني: هو موقف المودة والمحبة، وأصحابها هم أقرب الناس مودة للمؤمنين.

أولًا: موقف العداء من المسلمين:

وهو موقف أهل الكتاب عامة واليهود خاصة، ويشاركهم في هذا الموقف المشركون من غير أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾.

وهي حقيقة يقررها الله تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم وأمته، وتوجيه لهم في كون اليهود أعدى أعدائهم، ويلفت تعالى أنظارهم إلى هذه الحقيقة في كون أولئك اليهود مع أنهم أهل كتاب إلا أنهم

يتقدمون المشركين في هذه العداوة[1]، كما أقسم تعالى على هذه الحقيقة لتوكيدها، والمقصود من هذا القسم للنبي صلى الله عليه وسلم هو تسليته فيما يقع له منهم من التكذيب والأذى بأنهم أعدى أعداء المؤمنين، قال الفخر الرازي: «واللام في قوله ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم، والتقدير: قسما إنك تجد اليهود والمشركين أشد الناس عداوة مع المؤمنين، وقد شرحت لك أن هذا التمرد والمعصية عادة قديمة لهم، ففرغ خاطرك عنهم ولا تبال بمكرهم وكيدهم»[2].

وعداوة أهل الشرك للمؤمنين واضحة في أسبابها، لا تحتاج إلى تعليل، أما اليهود فالوضع مقلوب بالنسبة لهم «إذ كانوا - وهم أهل كتاب - أولى الناس بأن يناصروا أهل الكتاب ويوادوهم، لا أن يكونوا في الجبهة الأولى من الجبهات المعادية للمؤمنين؛ إذ يتقدمون في هذا الموقف اللئيم أهل الكفر والشرك، فيكونون قادة الحملة الموجهة لحرب الله والمؤمنين بالله!»[3].

وكشف القرآن الكريم عن سبب صدور هذه العداوة منهم، وهو نفسيتهم المريضة، التي غلبت الحسد والأهواء على أوامر الله واتباع رسله وكتبه والإيمان بهما، فقد حسد اليهود النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يأت منهم، وجاء من العرب، ولذلك تركوا الإيمان به، وقالوا: نؤمن بما نزل علينا نحن أمة اليهود فقط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١].

وقد رد عليهم تعالى دعواهم بالإيمان بكتبهم واحترامها وإجلالها، بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وهذا تكذيب لهم وتوبيخ، أي: لم تقتلون -إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه، وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم؟[4].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٤-٥٥].

قال ابن كثير: «يعني بذلك: حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٦٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٢/ ٤١٣.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٤/ ٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٥٠.

بني إسرائيل»[(١)].

ثم رد تعالى عليهم، فقال: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: أن إيتاء النبوة والفضل لمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعًا ولا غريبًا على كرم الله، فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده المؤمنين.[(٢)]

«إن الحسد- وليس غيره - هو الذي أغرى أهل الكتاب - وخاصة اليهود - بهذا الموقف الضال الآثم، من رسالة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكتمانهم الحق عن علم بأنه رسول الله، وأنه الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل...

وفى نار الحسد التي تأججت في صدور اليهود، ذابت كل معالم الحق الذي كان معهم من أمر النبي، فكفروا به، واتخذوا طريق الضلال مركبًا إلى عذاب الجحيم»[(٣)].

وقد ذكر القرآن الكريم قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وهم آباء أسباط بني إسرائيل، وفيها أنهم حسدوه وكادوا له بإلقائه في البئر ليخلوا لهم وجه أبيهم، وأن عاقبة حسدهم في نهاية الأمر كانت في مصلحة يوسف وخيرًا له، وأنه صار بسبب ذلك عزيزًا لمصر، وكأن في ذلك تنبيهًا لليهود الذين يحسدون النبي صلى الله عليه وسلم أن عاقبة حسدهم وكيدهم هي خير للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته.

«وفى قوله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ إشارة إلى أن هذا الحكم الذي فضح الله به اليهود، ليس حكمًا معلقًا على أي شرط، بحيث يقع إذا وقع هذا الشرط، أو هو حكم خفي لا تظهر آثاره للعيان، وإنما هو حكم مطلق، واقع دائمًا، ظاهر لا خفاء فيه، ولهذا جاء التعبير عنه بلفظ (تجد) بمعنى ترى، وتبصر، وتتحقق، ثم جاء هذا اللفظ مؤكدًا بالقسم، وبنون التوكيد (لتجدن)، فهو أمر واقع، مؤكد الوقوع، لا احتمال فيه لشك أو ريب. هذه هي وجهة اليهود في الحياة، وهذا هو حكم الله عليهم»[(٤)].

وهذا الحكم الإلهي عليهم تشهد له وقائع التاريخ بوضوح لا خفاء فيه، - وإن كنا لسنا بصدد التفصيل التاريخي في الحديث عن عداوتهم - فاليهود سبب معظم الفتن التي حدثت في العالم الإسلامي، وقد حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم بشتى الوسائل الممكنة، حاولوا بها سحره وسمه وقتله مرات عديدة، إلا أن الله حفظ نبيه صلى الله عليه وسلم ونجاه، ولا يزال أذى اليهود للمسلمين إلى يومنا هذا مشاهد ومعلوم، وما يحدث منهم في فلسطين والقدس وغزة مكشوف معلوم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٢.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٧٢٦.

(٤) المصدر السابق ٤/ ٤.

ولعداء أهل الكتاب للمسلمين صور متعددة، ومن هذه الصور:

١. سعيهم في إضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقد نزلت في جماعة من زعماء اليهود وأحبارهم تآمروا لفتنة المسلمين وتشكيكهم في دينهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوةً ونكفر به عشيةً، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم! فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١].

إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣][1].

فالآية في كشف وفضح اليهود وبيان كيدهم ومكرهم للمسلمين، حيث دبروا للتظاهر بالدخول في الإسلام، ثم الخروج منه بعد ذلك، بغية صد الناس والمسلمين عنه، وهذا المخطط الخبيث منهم مبني «على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هذا هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤن النبي صلى الله عليه وسلم عندما دعاه إلى الإسلام: «هل يرجع عنه من دخل في دينه؟ فقال أبو سفيان: لا»[2].

«وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على باطنه وخوافيه؛ إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب»[3].

---

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٠٤، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، ياسين ١/ ٤٢٥.

(٢) قصة أبي سفيان مع هرقل أخرجها البخاري في صحيحه، أن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أخبره أبو سفيان بن حرب: « أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشأم في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء»، وذكر قصة طويلة، وفيها أن هرقل جعل يسأل أبا سفيان عن أشياء تتعلق بنوة النبي صلى الله عليه وسلم. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟، ح٧، ١/ ٨، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، ح١٧٧٣، ٣/ ١٣٩٣.

(٣) تفسير المنار، رضا ٣/ ٢٧٤، ٢٧٥.

قال ابن كثير: «هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾»[1].

٢. كراهة نزول الخير على المسلمين:

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقبل البدء في تفسير الآية وبيان ما دلت عليه من صور عداوة أهل الكتاب، نشير إلى ملحوظة اقتران المشركين بأهل الكتاب في الآية، وفي قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

وكأن الله تعالى يريد أن يذكر أهل الكتاب بمشابهتهم للمشركين في عداوتهم لأهل الإيمان، الذين صدقوا بأنبياء الله وكتبه، حتى أنهم يشاركونهم في صورة هذه العداوة وهي إضمار الحقد والكراهية للمؤمنين، وفي ذلك ما فيه من التوبيخ لهم والتعنيف.

وبالعودة إلى تفسير الآية، قال السعدي: «أخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حسدًا منهم، وبغضًا لكم أن يختصكم بفضله فإنه ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ومن فضله عليكم، إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة»[2].

فالآية تكشف ما تكنه صدور أهل الكتاب للمسلمين من الشر والعداء، وما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل؛ ليحذر المسلمون أعداءهم، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه[3]، وتصور بلاغة النص القرآني في هذه الآية عظم هذا العداء في نفوس القوم، فـــ (من) في قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ للاستغراق[4]، أي: من أي شيء مما يسمى خيرًا، فأهل الكتاب لا يودون أن ينال أهل الإيمان أي خير أبدًا، ولا يرضيهم ذلك.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٠١.

(٤) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٣/ ٦٣٦.

وفي ختمه تعالى الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تلميح يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، فليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد، وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها - ويقودها - اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين.»[1].

وفي مضمون هذه الآية دلالة على أن أسباب العداوة والصراع بين أهل الكتاب والمسلمين في أصلها دينية.

هكذا يكشف القرآن الكريم عن مشاعر أهل الكتاب الذين كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونواياهم الخبيثة تجاه المسلمين، إنها مشاعر الكراهية والحسد وتمني الشر، كما تحدث القرآن الكريم عن هذه المشاعر في آيات أخرى، قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٦٩].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم»[2]، إنهم يتمنون أن يضل المسلمون، ولكن هيهات أن يكون ذلك لهم، فمن خالطت بشاشة الإيمان قلبه لا يتركه أبدًا، ومن أبصر النور لا يعود إلى الظلام، أما أولئك من أهل الكتاب فإنهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأنهم بسعيهم في إضلال المسلمين يزدادون ضلالًا وعذابًا[3]، وينشغلون بذلك الإضلال عن النظر في طرق الهداية، ودلائل الحق[4].

«لقد اتخذوا الضلال مركبًا، والزور طريقًا، والجدل سلاحًا، في تلك المعركة التي اشتبكوا فيها مع الإسلام والمسلمين، إنهم قد خسروا أنفسهم من أول الطريق، إذ كانوا على ضلال وفي ضلال، فإن كسبوا المعركة واستطاعوا أن يضلوا غيرهم، فحسبهم من الغنيمة أنهم خسروا معها أنفسهم مرتين، مرة قبل المعركة ومرة بعدها!»[5]، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ومع كون هذا حالهم فإنهم لا يفطنون له، ولا يشعرون أنهم يضرون أنفسهم ويهلكونها قبل كل شيء.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٩.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٤.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٣/ ١٨٤.
(٥) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٤٩١.

٣. تمني كثير منهم ردة المسلمين عن دينهم:

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

فأخبر تعالى أن كثيرًا من أهل الكتاب يتمنى ردة المسلمين، وأن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد، وأنهم ما صدر منهم ذلك إلا بعد معرفتهم الحق[(١)].

قال ابن كثير في تفسير الآية: «يحذر تعالى عباده المؤمنين من سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح»[(٢)].

٤. تولي الكافرين ومظاهرتهم على المسلمين:

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

قال صاحب المنار: «أي: ترى أيها الرسول، كثيرًا من بني إسرائيل يتولون الذين كفروا، من مشركي قومك، ويحرضونهم على قتالك، وأنت تؤمن بالله، وبما أنزل على أنبيائهم، وتشهد لهم بالرسالة، وأولئك المشركون لا يوحدون الله تعالى ولا يؤمنون بكتبه، ولا برسله مثلك، فكيف يتولونهم، ويحالفونهم عليك، لولا اتباع أهوائهم، وسخط الله عليهم؟

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا ذم مؤكد بالقسم لعمل اليهود الذي قدمته لهم أنفسهم؛ ليلقوا الله تعالى به في الآخرة، وما هو إلا العمل القبيح الذي أوجب سخط الله عليهم...

﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ فهو محيط بهم، لا يجدون عنه مصرفًا...

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب يؤمنون بالله والنبي محمد صلى الله عليه وسلم أو النبي

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي ١/ ٢٤٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٨٢ بتصرف يسير جدًا.

الذي يدعون اتباعه، وهو موسى صلى الله عليه وسلم، وما أنزل إليه من الهدى والفرقان، لما اتخذوا أولئك الكافرين من عبدة الأصنام أولياء لهم وأنصارًا؛... فهذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها علة إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله وكتابه والتعاون على حرب الرسول وإبطال دعوته، والتنكيل بمن آمن به»[(١)].

ثانيًا: موقف المودة من المؤمنين:

وأما الموقف الثاني من بعض أهل الكتاب: فهو موقف المودة والمحبة، وهو موقف بعض النصارى الذين بقوا على شيء من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام لهم، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مصدقًا لما معهم من الحق آمنوا به.

قال تعالى:﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

عن قتادة قال: «أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعةٍ من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام، يؤمنون به وينتهون إليه. فلما بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، صدقوا به وآمنوا به، وعرفوا الذي جاء به أنه الحق، فأثنى عليهم ما تسمعون»[(٢)]، وعليه فالمراد في الآية: الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب، ولا شك أن المؤمنين من أهل الكتاب من النصارى أكثر من اليهود، فإن المؤمنين من اليهود قليل، وذلك لما في اليهود من أدواء الحسد والكذب وكثرة المراء والجدال في الحق، أما النصارى ففيهم رأفة ورحمة ومنهم قسيسون ورهبان، قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم؛ إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

وفي كتابهم: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر). وليس القتال مشروعًا في ملتهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا

(١) تفسير المنار، رضا ٦/ ٤٠٧ بتصرف يسير.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠١، تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٤.

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون، وهم خطباؤهم وعلماؤهم... والرهبان: جمع راهب، وهو العابد. مشتق من الرهبة، وهي الخوف»[1]، «والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين»[2].

وخصت الآية النصارى بالذكر لكثرة المؤمنين منهم، وقد وجد الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة - رضي الله تعالى عنهم - من النجاشي ملك الحبشة - وكان نصرانيًا قبل أن يسلم - المعاملة الحسنة والإيواء الحسن، ولما مات النجاشي، قال النبي صلى الله عليه وسلم عنه -كما في رواية جابر رضي الله عنه عنه-: (مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة)[3]، وهو بخلاف ما وجد النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه من اليهود في المدينة من التآمر والكيد لدعوته، ومن محاولات الاغتيال لشخصه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه.

وقد ذكر تعالى لهم صفة الخشوع والبكاء عند سماع القرآن، وهذا الانفعال والتأثر كثيرًا ما يذكره تعالى عنهم وعن أمثالهم من مؤمني أهل الكتاب، كما في قوله تعالى:: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهو مما يدل على ظهور هذه الصفة منهم، وفي تخصيص هذه الصفة بالذكر مع صفة التواضع ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تعريض بغيرهم من أهل الكتاب الذين لا يحرك فيهم كلام الله ساكنًا، ولا يتأثر لهم قلب، ولا تدمع لهم عين.

وإذا كانت الآية قد صرحت بأن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى، فليس المراد من الآية عموم النصارى، وذلك لأن من النصارى من يشاركون اليهود في عداوتهم للمؤمنين، وإن كان اليهود أشد منهم عداوة، وقد بين تعالى عداوة اليهود والنصارى معًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، ح٣٨٧٧، ٥/ ٥١.

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

قال ابن كثير: «ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾»[1].

والواقع التاريخي شاهد على هذه العداوة بلا ريب أو شك، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم في غزو الروم - وهم نصارى - في مؤتة من أرض الشام، كما غزاهم بنفسه في تبوك، ومعارك المسلمين مع الصليبيين في مشهورة معلومة.

انحرافات أهل الكتاب

لقد بات معلومًا لكل باحث ومنصف ما وصل إليه الحال بأهل الكتاب من الانحراف الكبير في الدين، ومن الانتكاس العظيم للفطرة، لقد انحرف أهل الكتاب في أصول الدين قبل فروعه، ولقد انحرف علماؤهم قبل عامتهم، انحرف أهل الكتاب في أصل الدين وهو التوحيد الخالص، فنسبوا لله الولد، وقالوا: ثالث ثلاثة، وقالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وانحرف علماء أهل الكتاب فغيروا وبدلوا في كتبهم ودينهم، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وداهنوا ملوك الأرض على حساب دينهم وعقيدتهم.

ولقد بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب جملة وتفصيلًا، وبين أخطاءهم وضلالاتهم، ورد عليها، وصححها، وذلك ليرجع أهل الكتاب عن غيهم وضلالهم، ويعلموا الحق في تلك الأمور، ولا يغتروا هم بما هم عليه مما ظاهره التدين بدين أو بالانتساب للأنبياء عليهم السلام، ولذلك نجد من أسلوب القرآن الكريم في رده على أهل الكتاب أنه يبين باستمرار براءة جميع الأنبياء مما هم عليه من الباطل، ومما ينسبونه إليهم منه.

كما أن في تبيين القرآن الكريم انحرافات أهل الكتاب وأسبابها ونتائجها: تحذيرًا لهذه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٢.

الأمة المحمدية من الوقوع فيها، ومن سلوك سبيل أهل الكتاب في الانحراف والخروج عن دين الله تعالى، نسأل الله العافية.

وستتحدث عن بعض هذه الانحرافات:

أولًا: نسبة الولد لله سبحانه والتطاول على الذات الإلهية.

بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في أصل الدين وهو التوحيد، ورد عليهم ذلك في عدة مواضع منه، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾ [المائدة: ٦٤]. وغير ذلك من الآيات وهي كثيرة.

وبالنظرة الإجمالية في هذه الآيات نلحظ ما يلي:

بينت الآيات الكريمة انحراف أهل الكتاب في أصل التوحيد واختلافهم في ذلك، فمنهم: من يعتقد أن الله هو المسيح ابن مريم، ومنهم من يقول: هو ابن الله،

ومنهم: من يقول: هو ثالث ثلاثة، أي: الله وعيسى وأمه[1]، أو الله وعيسى وروح القدس، وهو قول المتأخرين منهم، ومنهم: نصارى هذا الزمان.

قال صاحب المنار: «وأما النصارى المتأخرون فالذي نعرفه منهم وعنهم أنهم يقولون بالثلاثة الأقانيم، وبأن كل واحد منها عين الآخر، فالأب عين الابن، وعين روح القدس، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الأب وروح القدس أيضًا»[2].

ومنهم: من يتخذ المسيح وأمه إلهين من دون الله، وكل هذه الأقوال كفر بالله تعالى، وجهل بدينه وشرعه، وعدم تفريق بين الخالق والمخلوق، والرب والمربوب، وهي من جنس أقوال الوثنيين من عبدة الأصنام والبشر والحجر، ومأخوذة عنهم[3].

بدأ تعالى الآية الأولى من سورة المائدة بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وهو إعلان واضح بكفر النصارى فيما قالوه من أقوال قبيحة ضالة، وتنبيه لهم على خطورة الأمر، وأن القائلين هذا القول يخرجون به من الدين من أوسع أبوابه، وإن ادعوا أنهم أهل كتاب، أي: يا من تقولون هذا القول قد كفرتم، وأكد تعالى هذا الإعلان بلام القسم في ﴿لَقَدْ﴾، وبـ (قد) التوكيدية، «أي: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبًا وزورًا: إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم»[4].

بين القرآن الكريم في رده على أهل الكتاب، أن المسيح عيسى عليه السلام بريء من عبادتهم له، ومن أقوالهم، وما نسبوه إليه، وأنه كغيره من الرسل إنما أمر بعبادة الله تعالى، وبالتوحيد وبين أنه لا يدخل أحد الجنة ابتداءً إلا به، ونهاهم عن الشرك وبين أنه الذي يلقي بصاحبه في النار.

تخلل رد القرآن الكريم على أهل الكتاب أمرهم بالتوبة مما هم عليه من الباطل، وتحذيرهم من الاستمرار عليه.

قال تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣-٧٤].

واللام في ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ للقسم[5]، «وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام؛ لأن المراد أن هذا العذاب الأليم يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرة.

كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٨٢، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ١٥١.

(٢) تفسير المنار، رضا ٦/ ٤٠١.

(٣) انظر: تفسير المنار، رضا ٦/ ٧٣.

(٤) الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٣٧.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٨٣.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]»[1].

والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ للاستفهام التعجبي الإنكاري[2].

وفي الآية حث منه تعالى لهم على التوبة من أقوالهم الباطلة، وصدر تعالى دعوتهم إلى ذلك بالعرض الذي هو غاية في اللطف واللين.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء[3].

قال ابن كثير: «وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه»[4].

بين القرآن الكريم بعد رده على أهل الكتاب باطلهم، حقيقة المسيح وأمه، والحق في ذلك، وأن المسيح رسول من عند الله، وأمه مريم من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء[5].

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٤٠.
(٢) انظر: إعراب القرآن وبيانه، درويش ٢/ ٥٣٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٨.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٩.

بين القرآن الكريم بعض الأدلة الحسية الواضحة في رده على أهل الكتاب، مثل كون عيسى وأمه -اللذين يدعي النصارى ألوهيتهما- كانا يأكلان الطعام، أي: أنهما عبدان، يجوعان ويحتاجان إلى الطعام والشراب، ويخضعان للضرورات التي تصاحب عملية أكل الطعام. ولو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد، ومن كان هذا شأنه، فكيف يكون إلهًا مع الله؟[6]

بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب بتطاولهم على الذات الإلهية، حيث نسبوا له صفات النقص كالبخل والفقر وغير ذلك.

بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في توحيد العبادة والطاعة، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: اتخذ اليهود أحبارهم وهم العلماء منهم، واتخذ النصارى رهبانهم وهم عبادهم أربابًا غير الله، أي: بما أعطوهم من حق التشريع فيهم، وأطاعوهم فيه، أي:جعلوهم مشرعين من غير الله، يحللون لهم ويحرمون عليهم ما لم يشرعه الله

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٩، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ١١٥١.

تعالى[1]، «وكانوا أيضًا يغلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة»[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾.

أي: أن الله وحده هو الذي من حقه التحليل والتحريم[3].

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب. فقال: (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن)، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه)[4].

وهكذا يبين القرآن الكريم انحراف النصارى في هذا الباب العظيم من أبواب الدين وأصوله، مما أدى بالنصارى إلى الخروج من دائرة الإيمان والدخول في الكفر، كما حكم به تعالى عليهم.

ثانيًا: الكفر بآيات الله وتحريفها وكتمانها:

من الانحرافات الدينية الخطيرة التي وقع بها أهل الكتاب: الكفر بآيات الله، وتحريفهم لكتبهم التي أنزلها الله لهم وتبديلها، وترك الإيمان ببعضها، ولا شك أن الكتب المنزلة على أهل الكتاب هي وعاء دينهم وبيانه، وأن تضييعها وتحريفها هو تضييع للدين نفسه، بما جاء به من حق وعدل وعقائد وأحكام ومواعظ وقصص، وتلك مصيبة عظمى حلت بأهل الكتاب، ولقد رحم الله هذه الأمة، وخفف عنها، وتكرم عليها حين قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وقد بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في الإيمان بكتبهم وتحريفها بصوره المختلفة في مواضع كثيرة من آياته، منها:

قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٣١، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٢٤٥، تفسير المنار، رضا ١٠/ ٣١٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٥.

(٤) سنن الترمذي، كتاب أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة التوبة، ح٣٠٩٥، ٥/ ٢٧٨، وحسنه الألباني في كتابه صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٤٧.

﴿ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

وبالنظرة الإجمالية في هذه الآيات نلحظ ما يلي:

بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في ركن من أركان الإيمان، وهو الإيمان بكتب الله تعالى التي أنزلها لعباده وتصديقها واحترامها وإجلالها، والعمل بمقتضاها وتحكيمها، وأهل الكتاب إنما يؤمنون ببعض - لا بكل - ما جاءت به هذه الكتب مما يوافق هواهم، ويكفرون بغيره مما خالفه، وهم أيضًا لم يحترموا هذه الكتب، بل نبذوها وراء ظهورهم، وحرفوها ومدوا أيديهم إليها بالتحريف، وفي ذكر القرآن الكريم هذا الانحراف من أهل الكتاب توبيخ لهم، وتشنيع، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في إعراضهم عن الإيمان بما جاء به، بأن هذا هو حالهم مع كتب الله المنزلة، حتى مع كتابهم هم أنفسهم، كفروا به، وحرفوه، كما نلحظ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

قال السعدي: «هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم لا تقتضي الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء»(١).

وقال الشعراوي: «﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦.

معصية مركبة، سمعوا كلام الله وعقلوه وعرفوا العقوبة على المعصية، ثم بعد ذلك حرفوه»[1].

بين القرآن الكريم صور تحريف أهل الكتاب لكتبهم، فهم أولًا نسوا بعضًا من كتبهم، والذي لم ينسوه منها حرفوا فيه لفظًا ومعنى، وكتموا منه صفة النبي صلى الله عليه وسلم ونعته، وزادوا عليه.

قال الشعراوي: « ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤].

والذي لم ينسوه من المنهج، ماذا فعلوا به؟: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

لقد كتموا البينات التي أنزلها الله في الكتاب، فالكتم عملية اختيارية، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه، لكنهم يتحملون ذنبًا من جهة أخرى؛ إذ لو كان المنهج على بالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه، والذي لم ينسوه كتموا بعضه، والذي لم يكتموه لووا به ألسنتهم وحرفوه.

وهل اقتصروا على ذلك؟ لا. بل جاءوا بشيء من عندهم وقالوا: هو من عند الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]»[2].

فتحريف أهل الكتاب كتبهم على أربع صور: النسيان، والكتم، والتحريف، ودس أشياء على أنها من عند الله، وهي ليست من عند الله.

بين القرآن الكريم بعض أسباب هذا الانحراف عند أهل الكتاب، فاتباع أهل الكتاب لأهوائهم جعلهم يؤمنون بما يوافق هواهم مما جاء في كتبهم دون ما يخالفه، وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم وخوفهم على رياستهم جعلهم يكتمون البشارة به، وضعف الوازع الديني لديهم جعلهم ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].

فباعوا دينهم بدنياهم، وقوله تعالى في الآية ﴿قَلِيلًا﴾ أي: لا يعبأ به، فإن ذلك المال وإن جل في نفسه فهو قليل في مقابلة ما استوجبوه بسببه من العذاب الأليم الخالد[3]، ونقض الميثاق من أهل الكتاب سبب لهم قسوة في القلب عقوبة لهم على ذلك ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، والقلب القاسي لا تؤثر فيه موعظة، ولا يخاف من عقوبة ما يقدم عليه من الإثم، ولذلك أقدموا على التحريف وغيره من

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٤٠٦.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٩٣٤.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٢٠.

الانحرافات.

ثالثًا: الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل.

العلماء هم صمام الأمان للخلق عند غياب الأنبياء، يرجع الناس إليهم ويستفتونهم ويستشيرونهم، وهم من يدفعون عن الخلق شبهات المضلين، وتشكيكات الشياطين، فإذا فسدوا كان لهم أثر سيئ على عوام الناس.

وقد بين القرآن الكريم أن كثيرًا من علماء أهل الكتاب يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

فكشف تعالى حال كثير من الأحبار والرهبان وفضحهم، وحذر المؤمنين منهم، ووصفهم بأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله، وقد جاء هذا البيان والتحذير في الآية في سياق الكلام على أهل الكتاب في السورة، وأنهم حرفوا دينهم، وقالوا: المسيح ابن الله، وأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله، وهو ما بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق، وأن الله لا يريد إطفاءه، بل يريد إتمامه، وقد فعل، فناسب أن يبين مع هذا شيئًا من سيرة جمهور هؤلاء الرؤساء الدينيين العملية؛ ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، والأسباب التي تحملهم على محاولة إطفاء نور الله تعالى، وأن أكثرهم يعبدون أهواءهم وشهواتهم.[(١)]

وقد وصفهم الله تعالى بأكلهم أموال الناس بالباطل، وذلك لأنهم كانوا يأخذون الرشا في تخفيف الأحكام والمسامحة في الشرائع. وأنهم كانوا يدعون عند العوام منهم:أنه لا سبيل لأحد إلى الفوز بمرضاة الله تعالى إلا بخدمتهم وطاعتهم، وبذل الأموال في طلب مرضاتهم.

إنه الطريق الباطل الذي كان أهل الكتاب يأكلون به أموال الناس، وهو طريق أكثر الجهال والمزورين، في كل زمان، إلى أخذ أموال العوام والحمقى من الخلق.[(٢)]

قال ابن كثير: «كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعًا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله»[(٣)].

ثم وصفهم تعالى بأنهم يصدون عن سبيل الله، وذلك لأنهم كانوا يبالغون في

(١) انظر: تفسير المنار، رضا ١٠/ ٣٤٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٦/ ٣٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٨.

المنع عن متابعة النبي صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه المكر والخداع، ويبالغون في إلقاء الشبهات، وفي منع الخلق من قبول دينه الحق والاتباع لمنهجه الصحيح.[1]

وفي هذه الآيات درس للمؤمنين ألا يثقوا بهؤلاء وما يلبسونه من طقوس، ومسوح، يلقون بها بين الناس المهابة منهم والثقة، فبين الله تعالى أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، وفي الآيات أيضًا تحذير لهذه الأمة وعلمائها من أن يسلكوا سبيل هؤلاء وما هم عليه من الباطل[2]، قال الحافظ ابن كثير: «والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، كما قال سفيان الثوري: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى.... وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها»[3].

وقد بين الله تعالى شدة حرص بعض أهل الكتاب على فتنة المسلمين وصدهم عن دينهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصدع بالإنكار على أهل الكتاب لصدهم عن دين الله من آمن به، وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمخاطبتهم بعنوان أهلية الكتاب في الآية لتوبيخهم وتشديد التشنيع عليهم، فإن ذلك العنوان يستدعي منهم الإيمان بما هو مصدق لما معهم، ويستدعي ترغيب الناس فيه، فصدهم عنه في أقصى مراتب القباحة، ولكون صدهم في بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام.[4]

رابعًا: تلبيس الحق بالباطل.

من انحرافات أهل الكتاب المنهجية: تلبيسهم الحق بالباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

واللبس لغة: الخلط والإدخال[5]، أي: «هو إدخال شيء في شيء، فنحن عندما نرتدي ملابسنا، إنما ندخل أجسامنا في الملابس، وبهذا يختلف منظر اللابس والملبوس»[6].

ومعنى الآية: أن أهل الكتاب يخلطون الحق وهو ما أنزله الله عليهم في كتابه،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٦/ ٣٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٢٨٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٨.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٦٣.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٠٢.
(٦) تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٣٧.

بالباطل وهو ما أدخله فيه أحبارهم ورهبانهم من الأكاذيب والتأويلات الباطلة، حتى ارتفعت الثقة بجميعه[١]، وصدر تعالى الآية بالنداء بـ (يا أهل الكتاب) زيادة في توبيخهم، والاستفهام في (لِمَ) إنكاري لإنكار ما وقع منهم[٢]، أي: كان يجب عليكم وأنتم أهل كتاب تعلمون منزلة ما أنزله الله تعالى لكم، وفضله عليكم، أن تحافظوا على هذه الكتب وتصونوها، لا أن تخلطوا الباطل بها، فتفسدوها وتفقدوا الثقة بجميعها.

إن أهل الكتاب لبسوا باطلهم ثوب الحق، بإدراجه في كتبهم، وادعاء كونه من عند الله، وهو انحراف واضح في دين الله عز وجل.

خامسًا: الغلو في الدين.

«يمثل الغلو ظاهرة انحراف خطيرة في تاريخ الأديان السماوية؛ إذ يعد من أكبر أسباب الانحراف بالدين عن الصراط المستقيم. ويبدأ هذا الانحراف يسيرًا ثم يتعاظم على مر الأيام حتى يصبح كأنه الأصل، وها هي النصرانية! كيف كانت على عهد المسيح عليه السلام عقيدة خالصة من شوائب الشرك، ودينًا قويمًا، ثم أصابها الغلو فانحرف بها عن التوحيد الخالص إلى الشرك المحض، ومن دين سماوي إلى دين وضعي ممزوج بوثنيات الهند وترهات اليونان وأباطيل اليهود»[٣].

لقد غلا النصارى في دينهم غلوًا عظيمًا أفسد عليهم دينهم، وخسروا بذلك آخرتهم، فغلوا في المسيح عليه السلام وتعظيمه، حتى عبدوه من دون الله تعالى، وغلوا في صالحيهم وعبادهم، واتخذوهم أربابًا من دون الله، يدعونهم ويستغيثون بهم، ويشرعون لهم، وغلوا في العبادة وابتدعوا الرهبانية فيها.

ولقد بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في غلوهم في دينهم، فجاءت مادة الغلو في القرآن الكريم في موضعين، كلاهما في سياق الحديث عن أهل الكتاب، وهما:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٠٥، تفسير المنار، رضا ٣/ ٢٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٧٩.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٢٧٠.
(٣) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، عثمان ص١٤٧.

﴿ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة: ٧٧].

كما بين القرآن الكريم نوعًا من غلو أهل الكتاب في العبادة، وابتداعهم الرهبانية، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾ [الحديد: ٢٧].

وبالنظرة الإجمالية في هذه الآيات نلحظ ما يلي:

بين القرآن الكريم غلو أهل الكتاب في دينهم، ودعاهم إلى تركه، والعودة إلى الحق ونهج الوسطية والاعتدال في الاعتقاد.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ أي: «لا تغلوا في دينكم فتتجاوزوا الحدود التي حدها الله لكم، فإن الزيادة في الدين كالنقص منه، كلاهما مخرج له عن وضعه»[1].

ولذا قال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن الإسلام، فالإسلام هو سواء السبيل؛ أي: وسطه الذي لا غلو فيه، ولا تفريط[2].

فالنصارى غلوا في عيسى عليه السلام وأمه حتى جعلوهما إلهين من دون الله، واليهود كفروا بعيسى عليه السلام ورموا أمه بالفاحشة، فاليهود والنصارى في المسيح وأمه على طرفي نقيض، أما أهل الإسلام فإنهم يقولون في عيسى عليه السلام: أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، فيؤمنون به رسولًا له منهم الاحترام والتعظيم، ولكن لا يصل ذلك بهم إلى تأليهه وعبادته، وأما أمه مريم العذراء البتول، فهي الصديقة الطاهرة العفيفة.

قال سبحانه في حقها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران: ٤٢].

نهى القرآن الكريم أهل الكتاب عن الغلو، وتقليد آبائهم وأسلافهم فيه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾، أي: ممن اتبعهم في بدعهم وضلالهم، ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: ضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم عن حقيقة الدين وجوهره، وكونه

(١) تفسير المنار، رضا ٦/ ٦٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ٦/ ٤٠٥.

وسطًا بين أطراف مذمومة؛ كالتوحيد بين الشرك والتعطيل، واتباع الوحي بين الابتداع والتقليد، والسخاء بين البخل والتقتير.[1]

«الرهبانية في النصرانية بدعة، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، وكانت نيتهم فيها صالحة، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾، ذلك بأن الأصل فيها تأثير مواعظ المسيح عليه السلام في الزهد، والإعراض عن لذات الدنيا، ثم صار أكثر منتحليها من الجاهلين والكسالى فكانت عبادتهم صورية أعقبتهم رياء وعجبًا وغرورا بأنفسهم، وتعظيمًا من العامة لهم، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

ولما صارت النصرانية ذات تقاليد منظمة في القرن الرابع وضع رؤساؤهم نظمًا وقوانين للرهبانية ولمعيشتهم في الأديار. وصار لها عندهم فرق كثيرة يشكوا بعض أحرارهم من مفاسدهم فيها[2]، وهو يشبه حال بعض المتصوفة من هذه الأمة الذين ولجوا من باب الغلو في العبادة والترهبن فيها إلى البدع والشركيات والوساوس والخيالات، وإلى حال مشابهة لحال أولئك النصارى.

وفي بيان القرآن الكريم غلو أهل الكتاب في دينهم، وما جلب عليهم ذلك من الدخول في الكفر والانحراف، تحذير لهذه الأمة من الغلو وتعليم لها بخطره.

---

(١) انظر: تفسير المنار، رضا ٦/ ٤٠٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٣١٧.

دعاوى أهل الكتاب الباطلة

ذكر القرآن الكريم بعض دعاوى أهل الكتاب الباطلة، وفندها، ورد عليها، وذلك من أجل عدول أهل الكتاب عن هذه الدعاوى الباطلة، وهدايتهم إلى الحق، وحماية للمسلمين من التأثر بها.

أولًا: دعوى أن الهدى في اتباع ملتهم.

من دعاوى أهل الكتاب الباطلة والتي ذكرها القرآن الكريم عنهم وردها عليهم: دعواهم أن الهدى في اتباع ملتهم.

قال تعالى:: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٨].

فذكر تعالى دعوى كلا الفريقين من أهل الكتاب: اليهود والنصارى في أن الهداية في اتباع منهجه، فاليهود قالوا: إن الهدى في اتباع اليهودية، والنصارى قالوا: بل هو في اتباع النصرانية، وكلاهما يزعم أن دينه هو الدين الحق الذي شرعه الله لعباده[1].

ثم أمر تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم، ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: بل نقتدي ونتبع طريقة إبراهيم ومنهجه. والملة هي الدين، والحنيف تعني: المستقيم، أو المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، ووصف به إبراهيم عليه السلام لميله عما كان عليه أهل زمانه من الضلال والعمى إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه، وهو دين الإسلام لله تعالى وأمره والانقياد له، وهي الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك[2].

وهي الملة الحق التي من آمن بها اهتدى وأفلح، ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، ومن رغب عنها فقد ظلم نفسه وامتهنها، كما قال تعالى:: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٠١، التفسير البسيط، الواحدي ٣/ ٣٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٦٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٧٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٨، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٠٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٣٧، الوسيط، طنطاوي ١/ ٢٨١.

﴿١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

أي: قد ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد، منذ حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلًا، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء. فأي سفه أعظم من ترك مسلك إبراهيم عليه السلام وملته واتباع طرق الضلالة والغي؟ ثم ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي الإسلام، وأنه وصى بها بنيه بالالتزام بها، ثم وصى يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بنيه بذلك أيضًا، وهكذا، فالحنيفية هي ملة الأنبياء جميعًا، كلهم كانوا على التوحيد لله تعالى، والإسلام له والانقياد لأمره[1]، وهو أحسن دين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

وهو الدين الذي لا يقبل الله تعالى من أحد دينا غيره، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن ملة إبراهيم: الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله، دون تفريق بين أحد منهم، وتصديقهم، وما أنزل عليهم، وما أوتوه من المعجزات والآيات، فهذا هو الدين الحق الهادي إلى الصراط المستقيم، لا غيره من الأديان والملل، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

إن اليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم عليه السلام؛ لأنهم خالفوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله ما لم ينزل به سلطانًا، لذا قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، و(بل) حرف إضراب، أي: لا نتبع ملتكم، بل نتبع ملة إبراهيم عليه السلام، أما أنتم فخالفتموها[2]، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهو تعريض بأهل الكتاب الذين يدعون اتباع إبراهيم مع إقامتهم على الشرك[3]، روي عن قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، قال: «رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم - يعني: الإسلام - حنيفًا؛ كذلك بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بملة إبراهيم»[4].

فأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يرد على أهل الكتاب دعواهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٥.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٤/ ١٥٦.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٩٤، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٠٧.

(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٩.

في أن الهدى في اتباع ملتهم، بأنه ليس كذلك، وإنما الهدى في اتباع ملة إبراهيم عليه السلام ودينه، وهو التوحيد، والإسلام لله تعالى، وهو الدين الحق، ودين جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، فجميعهم كانوا مسلمين موحدين، ولا يقبل الله تعالى من أحد غير هذا الدين، فهو أولى بالاتباع من غيره.

وبعد أن بين الله تعالى الملة الحق الهادية إلى الصراط المستقيم، دعا اليهود والنصارى إلى اتباعها، وبين حكمهم إن لم يتبعوها، فقال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾، أي: أمرهم محصور في العداوة والمشاقة، وكل ما يوسع مسافة الخلاف بينكم وبينهم، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: فسيكفيك الله إيذاءهم وسيئ مكرهم ويؤيد دعوتك وينصرك عليهم نصرًا مؤزرًا[1].

ثم قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾، «أي: صبغنا الله، والمراد بها: دينه الذي فطر الناس عليه، لظهور أثره على صاحبه كالصبغ في الثوب»[2]، أي: صبغنا بما ذكر من ملة إبراهيم صبغة الله وفطرته فطرنا عليها، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾، فملة إبراهيم أحق بالاتباع من غيرها؛ لأنها دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**، ثم تلى أبو هريرة رضي الله عنه قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الروم: ٣٠])[3].

ثانيًا: دعوى نفي دخول غيرهم الجنة.

ومن دعاوى أهل الكتاب الباطلة: دعواهم نفي دخول الجنة على غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) انظر: تفسير المنار، رضا ١/ ٣٩٩، تفسير المراغي ١/ ٢٢٦.

(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم ١٣٥٩، ٢/ ٩٥، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم ٢٦٥٨، ٤/ ٢٠٤٧.

﴿يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، أي: ائتوا بشيء أنزله الله عليكم في ذلك، وهكذا كل من ادعى دعوى، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوى[(١)].

ثم قال تعالى ردًا عليهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، و(بلى) كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق، فهي مبطلة لقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، أي: بلى، إنه يدخلها من لم يكن هودًا أو نصارى؛ لأن رحمة الله ليست مقصورة على شعب دون شعب، وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، أي: بإسلام الوجه لله، وهو التوجه إليه وحده وتخصيصه بالعبادة دون سواه، وعبر عنه بإسلام الوجه؛ لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: في العمل، وتلك سنة القرآن تقرن الإيمان بعمل الصالحات في آيات كثيرة، فهما مجتمعان سببا الفلاح ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤][(٢)].

فرد القرآن الكريم على أهل الكتاب دعواهم الباطلة نفي دخول الجنة على غيرهم، وبين أن ذلك مجرد أماني لا حقيقة لها واقعا، ولا دليل عليها شرعًا، وأن دخول الجنة والفوز بها ليس مشروطًا فيه أن يكون صاحبه يهوديًا أو نصرانيًا، وإنما مناط ذلك هو تحقق الإيمان الصحيح، والعمل الصالح.

ثالثًا: دعوى أنهم أبناء الله وأحباؤه.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢.

(٢) انظر: تفسير المنار، رضا ١/ ٣٥١.

ادعى أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

وهذه الدعوى منهم ما هي إلا حلقة من سلسلة طويلة في مثل هذه الدعاوى المشابهة الباطلة، والتي تتمحور حول كونهم شعب الله المختار، وصفوته من خلقه، وأنه لا يدخل الجنة غيرهم، وأن الهدى محصور في اتباع ملتهم، وغير ذلك مما حكاه القرآن الكريم عنهم، وملئت به توراتهم المحرفة من الأماني الكاذبة التي يغرون بها أنفسهم، ويتعالون على الخلق ويحتقرونهم، جاء في سفر التثنية من التوراة المحرفة: «أنتم أولاد للرب إلهكم... لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض»[١].

وهنا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾.

وقد اختلف المفسرون في البنوة المرادة في الآية، والتي حكى الله تعالى عن أهل الكتاب ادعاؤها:

فقيل: هي البنوة التي زعمها اليهود لعزير إذ قالوا: عزير ابن الله، والتي زعمها النصارى للمسيح عليه السلام، إذ قالوا: المسيح ابن الله، ثم زعموا أن عزيزًا والمسيح كانا منهم، فصار ذلك كأنهم قالوا :نحن أبناء الله.

ألا ترى أن أقارب الملك إذا فاخروا إنسانًا آخر فقد يقولون: نحن ملوك الدنيا، ونحن سلاطين العالم، وغرضهم منه كونهم مختصين بذلك الشخص الذي هو الملك والسلطان، فكذا هاهنا، أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا.

وقيل: المراد بالبنوة: بنوة مزية الاتصال بالله أكثر من اتصال غيرهم به، فالبنوة بنوة الاتصال والمحبة، وتخصيصهم بمزيد الشفقة والعناية.

ويكون عطف ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ من قبيل عطف التفسير المشير إلى معنى البنوة، وعليه فهي بنوة مجازية[٢].

على أنه قد وردت تسمية ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ في كتب أهل الكتاب المحرفة، كما تقدم نقله عن التوراة، قال ابن كثير: «فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا:

(١) سفر التثنية ١٤/ ١، نقلاً عن: موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، قدح ص ٢٧٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٨، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٠٩٩.

هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام... ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك: معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه»[1]

وقد رد تعالى عليهم دعواهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، أي: إن كانت لكم خصوصية عند الله من بين خلقه وفضيلة عليهم، فلماذا يجري عليكم سنته فيهم من عقاب المسيء منكم، وتسليط العقوبة عليه، -ويعفو عن كثير-[2]، وقد عاقب بعضكم -وهم المعتدون في السبت- بالمسخ إلى قردة وخنازير، كما سلط عليكم بذنوبكم أعداءكم يسومونكم سوء العذاب، ويستبيحون معابدكم، ويقتلون علماؤكم، وفي الآخرة أيضا يعذبكم الله تعالى على خطاياكم، وهو باعترافكم أنفسكم.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾ [البقرة: ٨٠].

ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: إنما أنتم من جنس خلقه تعالى من غير مزية لكم عليهم، يغفر لمن يشاء منهم، وهم الذين آمنوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات، ويعذب من يشاء منهم، وهم الذين كفروا بالله ورسله، ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: جميع ذلك من ملكه، وتحت تصرفه، ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، وهو إشارة إلى الجزاء الأخروي، وأنه واقع على أهل الكتاب كغيرهم من البشر، يجازى كل بعمله، من أحسن فله الحسنى، ومن أساء فله السوءى.[3]

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧﴾ [الجمعة: ٦-٧].

فكذبهم الله تعالى في دعواهم أنهم أولياء له من دون الناس، ودلل على ذلك بكراهيتهم الموت ولقائه.

قال ابن القيم: «وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي صلى الله عليه وسلم وهي أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبرًا جزمًا، أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمونه لوجدوا طريقًا إلى الرد عليه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٩.
(٢) انظر: تفسير المنار، رضا ٦/ ٢٦٢.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢١.

بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمنى الموت معرفتهم بما لهم عند الله تعالى من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤].

أي: «فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم، لا منازع لكم فيه ولا مزاحم، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين؛ إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها»[2]، وقد أخبر الله تعالى في آية أخرى عن حرصهم على الحياة حرصًا شديدًا، وأن ذلك لا ينفعهم في رد العذاب عنهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

رابعًا: دعوى أن إبراهيم عليه السلام وبنيه كانوا هودا أو نصارى.

من دعاوى أهل الكتاب الباطلة والتي ذكرها القرآن الكريم عنهم وردها عليهم، دعواهم أن إبراهيم عليه السلام وبنيه كانوا هودًا أو نصارى، قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

زعموا لجهلهم بتاريخ شرائعهم أن إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهودية أو على النصرانية فأكذبهم الله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، وأكد كذبهم في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧].

إن الأمة إذا انغمست في الجهالة وصارت عقائدها غرورًا، ومن دون تدبر، اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل، واجتمعت في عقائدها المتناقضات[3].

وهذا القول الكذب من أهل الكتاب لما يعلمون من إمامة إبراهيم عليه السلام في الدين، وثناء الله عليه في كتبهم، ولذا نسبوا أنفسهم إليه، وحاجوا المسلمين في ذلك، وحتى مشركي العرب كانوا ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم، ويدعون اتباعه كما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة، أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة،

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية ٤/ ١٥٠.
(٢) تفسير المنار، رضا ١/ ٣٢١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٤٧.

فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قاتلهم الله، لقد علموا: ما استقسما بها قط)، ثم دخل البيت، فكبر في نواحي البيت، وخرج ولم يصل فيه)[1].

ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «قد أخبرنا الله بذلك، أفأنتم أعلم أم الله؟، بل إن الله قد أخبركم أنتم بذلك في أسفاركم فلا تكتموا الحق المدون في أسفاركم هذه، ومن أظلم ممن كتم حقيقة يعلمها من كتابه وسيجازيكم الله على ما تلجون فيه من باطل، فليس الله بغافل عما تعملون»[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨].

فذكر تعالى محاجة ومجادلة أهل الكتاب في إبراهيم عليه السلام، وزعمهم أنه كان على ملتهم، ثم رد عليهم بعدة ردود فيها:

- التنديد بأهل الكتاب لمحاجتهم في إبراهيم مع أن التوراة والإنجيل إنما أنزلا من بعده، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، «أي: كيف تدعون، أيها اليهود، أنه كان يهوديًا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيًا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر. ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾»[3].
- التنديد بأهل الكتاب لمحاجتهم في شيء ليس عندهم علم به.
- نفي كون إبراهيم يهوديًا أو نصرانيًا، والتقرير بأنه كان مسلمًا حنيفًا غير مشرك، وفي ذلك رد على اليهود والنصارى الذين يدعون اتباع ملة إبراهيم عليه السلام وهي التوحيد - وهم مقيمون على الشرك.
- بيان أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح؟، رقم ٤٢٨٨، ٥/ ١٤٨.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٣٠.

وانظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٤٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٧.

على ملته، ومنهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به؛ لأنهم أيضًا عليها[1].

خامسًا: دعوى نفي الحق عمن سواهم.

من دعاوى أهل الكتاب الباطلة والتي ردها القرآن الكريم عليهم: دعواهم نفي الحق عمن سواهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١٣].

«والمراد من القول: التصريح بالكلام الدال، فهم قد قالوا هذا بالصراحة حين جاء وفد نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم أعيان دينهم من النصارى، فلما بلغ مقدمهم اليهود، أتوهم وهم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فناظروهم في الدين وجادلوهم حتى تسابوا، فكفر اليهود بعيسى وبالإنجيل وقالوا للنصارى: ما أنتم على شيء، فكفر وفد نجران بموسى وبالتوراة، وقالوا لليهود: لستم على شيء. وقولهم ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي، والشيء الموجود هنا مبالغة، أي: ليسوا على أمر يعتد به... فالمراد هنا: ليست على شيء من الحق، وذلك كناية عن عدم صحة ما بين أيديهم من الكتاب الشرعي، فكل فريق من الفريقين رمى الآخر بأن ما عنده من الكتاب لا حظ فيه من الخير، كما دل عليه قوله بعده: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فإن قوله: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ جملة حالية جيء بها لمزيد التعجب من شأنهم أن يقولوا ذلك.

وكل فريق منهم يتلون الكتاب، وكل كتاب يتلونه مشتمل على الحق لو اتبعه أهله حق اتباعه»[2].

وقال أبو حيان في دلالة قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: «وهذا نعي عليهم في مقالتهم تلك؛ إذ الكتاب ناطق بخلاف ما يقولونه، شاهدة توراتهم ببشارة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وصحة نبوتهما. وإنجيلهم شاهد بصحة نبوة موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، إذ كتب الله يصدق بعضها بعضًا. وفي هذا تنبيه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في أن من كان عالمًا بالقرآن، يكون واقفا عنده، عاملًا بما فيه، قائلًا بما تضمنه، لا أن يخالف قوله ما هو شاهد على مخالفته منه، فيكون في ذلك كاليهود والنصارى»[3].

ثم قال تعالى زيادة في توبيخهم على مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ

(١) انظر: التفسير الحديث، دروزة ٧/ ١٦٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٧٦-٦٧٥.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥٦٥.

قولهم﴾، أي: أن حال هؤلاء في مقالتهم تلك شابهت حال أولئك الجهلة من مشركي العرب، والذين لم ينزل عليهم كتاب يعلمهم ويهديهم، قال أبو حيان: «الذين لا يعلمون: هم مشركو العرب في قول الجمهور»[1]، قالوا: لكل أهل دين ليسوا على شيء، وهو توبيخ عظيم من الله تعالى لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم.[2]

ثم قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وهو تعقيب من الله تعالى على ذلك الخلاف بين أهل الكتاب، يقرر أن الله سبحانه وتعالى سوف يحكم يوم القيامة فيما يختلف فيه الفريقان فيؤيد الحق وأصحابه ويخذل الباطل وأصحابه.[3]

(١) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥٦٥.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٧٩.

(٣) انظر: التفسير الحديث، دروزة ٦/ ٢٢٢.

معاملة أهل الكتاب

بين القرآن الكريم عدة قواعد وضوابط في التعامل مع أهل الكتاب، ذلك لأنه كتاب تشريع شامل لكل مناحي الحياة، بين فيه كيفية تعامل المسلمين مع بعضهم البعض، وتعامل المسلمين مع غيرهم سواء كانوا من أهل كتاب أو من غيرهم من الكافرين.

وتبرز في هذه الضوابط والأحكام جميعًا ربانية القرآن الكريم، وعدالة تشريعاته وعظمتها، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد فرق القرآن الكريم في التعامل بين أهل الكتاب وغيرهم من الأمم الكافرة، وأعطى كل واحد منهم منزلته التي يستحقها، فهم وإن كانوا جميعًا كفارًا ضلالًا، إلا أنه تبقى لأهل الكتاب رتبة على غيرهم من الكفار، فهم أهل الكتاب، يؤمنون بالله تعالى، وبعض كتبه - على ما دخلها من تحريف - ورسله، وإن كان إيمانهم إيمانًا فاسدًا ناقصًا لا ينفعهم في الآخرة شيئًا، لكنهم يفترقون به عن المشركين وعبدة الأوثان وأهل الإلحاد، ولذا كان من العدل أن يفرق بينهم في بعض الأحكام في الدنيا، كإباحة نكاح نسائهم، وأكل ذبائحهم، وغير ذلك.[4]

(٤) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٩٤١.

وسنبين الضوابط الشرعية التي قررها القرآن الكريم في التعامل مع أهل الكتاب فيما يأتي:

أولًا: دعوتهم للإسلام ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

إن الإسلام هو دين الله تعالى الذي شرعه لعباده وارتضاه لهم، ولا يقبل من أحد منهم دينًا غيره، ولا ينجو أحد منهم إلا به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩].

أي: إن أصل دين أهل الكتاب الذي جاءت به رسلهم هو الإسلام، وإنما بدلوه عن حقيقته بغيًا منهم بينهم[١]، فضلوا وانحرفوا عن دين الله تعالى.

ولقد دعا القرآن الكريم أهل الكتاب في آيات كثيرة وبأساليب شتى، من ذلك الدعوة الصريحة لهم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وفند عقائدهم وردها، وبين أنها تخالف أصول دياناتهم الصحيحة التي جاء بها موسى وعيسى - عليهما السلام -، وغير ذلك من الأساليب المنهجية الحكيمة التي سلكها في دعوتهم.

كما نهى القرآن الكريم نهيًا صريحًا عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالطريقة التي هي أحسن، أي: «بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه»[٢]، وبالحكمة، لكون ذلك أنفع وأنجع في دعوتهم، وأقرب إلى استجابتهم، قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومن بلاغة الآية: أن الله تعالى بدأها بالنهي عن جدال أهل الكتاب ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ولم يقل: وجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وهذا أوكد في النهي، وأبلغ في الأمر بمراعاة الأدب في النقاش والحوار والمناظرة، أي: فلا تجادلوهم إلا بالتي هي أحسن.

(١) انظر: تفسير المراغي ٣/ ١٢٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٢.

ثانيًا: عدم إكراههم على ترك دينهم.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالإسلام لا يجبر أهل الكتاب على ترك دينهم وعقيدتهم، أو على اعتناق الإسلام بالتهديد والتخويف، بل يترك لهم الخيار مفتوحًا في اختيار الإسلام أو البقاء على دينهم، فإن اختاروا البقاء على دينهم، أقرهم الإسلام عليه في مقابل أن يخضعوا لحكمه العام، والذي يكفل الحقوق لهم ولغيرهم.

قال سيد قطب: «﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته، وفكره، ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه... ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشري لمسة توقظه، وتشوقه إلى الهدى، وتهديه إلى الطريق، وتبين حقيقة الإيمان التي أعلن أنها أصبحت واضحة وهو يقول: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾.

فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه. والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به»[(١)].

ولا يخفى على كل من له معرفة أو اطلاع بتاريخ الأمم والشعوب، غياب هذا المبدأ العظيم عن واقع كثير منها، فمحاكم التفتيش، وممارسة أبشع أساليب القسوة والوحشية على المخالفين في العقيدة، - بل في الرأي - شاهدة على ذلك، أما المسلمون فعاش بينهم اليهود والنصارى وغيرهم من الملل لمئات السنين في أمن وراحة وطمأنينة على النفس والمال والأهل، إلى أن دخل كثير منهم الإسلام عن كامل اقتناع وإرادة لما رأوه من عدالة الإسلام وأخلاق المسلمين.

ولعل الوصول إلى هذه النتيجة هي الحكمة من الإبقاء على هؤلاء المخالفين في العقيدة في ديار الإسلام، وهو أن يروا الإسلام بأعينهم عن قرب، ويعلموا عظمته وأنه دين الله تعالى دون غيره، ويروا المسلمين وهم يلتزمون بدينهم في أداء صلواتهم في الجمع والجماعات، ويجتنبون المحرمات، بخلاف ما عليه غيرهم من أهل الأديان الأخرى من البعد عن دينهم والتفريط فيه.

ثالثًا: الإنصاف للأمناء منهم.

قال تعالى: ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٩١، ٢٩٢.

﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

ففرق تعالى بين أهل الأمانة من أهل الكتاب وأهل الخيانة منهم[(١)]، فقال في أهل الأمانة: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، وقوله (بقنطار)، «أي بمال كثير»[(٢)]، وهو يدل على مبالغتهم في أداء الأمانة، كما لم يذكر تعالى القيام عليهم كما ذكره في الصنف الثاني: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، أي: أنه يؤدي الأمانة وإن كانت عظيمة دون إلحاح عليه.

قال الفخر لرازي: «المراد من ذكر القنطار والدينار هاهنا: العدد الكثير والعدد القليل، يعني: أن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو اؤتمن على الشيء القليل، فإنه يجوز فيه الخيانة»[(٣)].

رابعًا: النهي عن موالاتهم.

من أصول العقيدة الإسلامية التي قررها القرآن الكريم: الولاء والبراء، الولاء لأهل التوحيد والإسلام بالحب لهم والإخلاص والنصرة، والبراء من أهل الشرك والكفر، بالبغض لهم والمعاداة، وذلك من ملة إبراهيم عليه السلام والذين معه، الذين أمرنا بالاقتداء بهم؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤][(٤)].

وقد نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى نهيًا صريحا في كتابه العزيز، فقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وذلك لأن اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر هم أعداء لله تعالى، غضب الله تعالى عليهم، ولعنهم، وأنزل في كتابه آيات في الوعيد لهم، فكيف يحب - المسلم ويود أمثال هؤلاء، وهو - أي: المسلم يحب الله ورسوله، وهؤلاء حادوا الله ورسوله، وكفروا به، وخالفوا أمره، ولذلك ينبغي أن نبغضهم.

قال ابن جرير الطبري: «إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًا من دون الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥١٩.
(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٨/ ٢٦٣.
(٤) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، الفوزان ص ٣٠٧.

ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان»[(١)].

وقال ابن حزم: «صح أن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، إنما هو على ظاهره: بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين»[(٢)].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي تربي المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، وتقطع ما في نفوس بعضهم من ود وولاء لهؤلاء الأعداء، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط[(٣)].

وهذا النهي عن موالاة أهل الكتاب في القرآن الكريم لا يتناقض أبدًا مع ما ورد فيه أيضًا من السماحة في معاملتهم والبر بهم.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع جديد في الأرض،... وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب، بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة. إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم. وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له[(٤)].

خامسًا: إباحة الأكل من ذبائحهم، ونكاح نسائهم.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٨.
(٢) المحلى بالآثار، ابن حزم ١٢/ ٣٣.
(٣) انظر: الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، القحطاني ص ٢٠٣.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٠٩، ٩١٠.

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة: ٥].

فقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: ذبائحهم، أباح الله لأهل الإسلام الأكل منها، لأنهم - أي: أهل الكتاب - يذكرون اسم الله عليها، وهم متعبدون بذلك، ودل مفهوم المخالفة في الآية على أنه لا يحل طعام غيرهم من أهل الأديان، لأنهم لا يذكرون اسم الله تعالى على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة، وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم. وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي أحل لكم الزواج من الحرائر والعفائف من أهل الكتاب، إذا أديتم لهن مهورهن قاصدين الزواج[(٢)]، ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي: متزوجين ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، غير معلنين بالزنى بهن ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي عشيقات تسرون بالزنى بهن[(٣)].

«وإنما أباح الإسلام الزواج منهن - أي: من الكتابيات - ليزيل الحواجز بين أهل الكتاب وبين الإسلام. فإن في الزواج المعاشرة والمخالطة وتقارب الأسر بعضها ببعض، فتتاح الفرص لدراسة الإسلام، ومعرفة حقائقه ومبادئه ومثله. فهو أسلوب من أساليب التقريب العملي بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب، ودعاية للهدى ودين الحق»[(٤)].

سادسًا: إخضاعهم لحكم الإسلام.

أي: حكم الإسلام العام والذي يكفل لأهل الكتاب حقوقهم، مع تركهم وما يدينون به، فإذا خضع أهل الكتاب واستسلموا لحكم الدولة الإسلامية ودانوا لها بالولاء، ودفعوا لها الجزية، فإنهم يعطون منها عهدًا، هو عهد الذمة.

والمراد بعهد الذمة: «أن يقر الحاكم أو نائبه بعض أهل الكتاب - أو غيرهم - من الكفار على كفرهم بشرطين: الشرط الأول: أن يلتزموا أحكام الإسلام في الجملة.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠.
(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ١٤٥.
(٣) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ١٣٦، صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٠٣.
(٤) فقه السنة، سيد سابق ٢/ ١٠٢.

والشرط الثاني: أن يبذلوا الجزية... وإذا تم عقد الذمة ترتب عليه حرمة قتالهم، والحفاظ على أموالهم، وصيانة أعراضهم، وكفالة حرياتهم، والكف عن أذاهم»[1].

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى المؤمنين بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دينه حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس، وهو إعطاء الجزية، وفي هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمي المعاهد ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين، إن طبيعة العلاقة الحتمية بين منهج الله والمناهج الجاهلية الأخرى هي عدم إمكان التعايش إلا في ظل أوضاع خاصة وشروط خاصة[2]، وذلك ليظل الإسلام في جهة علو عن غيره من الأديان والمذاهب الباطلة. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

والجزية تعود بالخير على أهل الكتاب؛ لأن فيها عصمة لدمائهم، وإبقاء لهم على دينهم. وأيضًا، فإنهم سيعيشون في مجتمع إيماني؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم في أنفسهم وأهلهم وفي أموالهم وفي كل شيء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون في المجتمع الإسلامي ينتفعون أيضًا بالخدمات التي يؤديها الإسلام لهم، ولذلك يجب عليهم أن يؤدوا شيئًا من مالهم نظير تلك الخدمات[3].

سابعًا: السماحة في التعامل معهم والبر بهم والإقساط إليهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

أي: أنه جائز لكم أيها المؤمنون، وليس فيه حرج عليكم، ولا يدخل ذلك في الموالاة التي نهيتم عنها: أن تبروا من لم يقاتلكم، وتصلوهم، وتكافؤوهم بالمعروف، وتقسطوا إليهم، أي: تعدلوا إليهم وتنصفوهم[4]، قال ابن عاشور: «والبر: حسن المعاملة والإكرام»[5]، والبر أيضًا: اسم جامع لكل خير، وقد ورد في

---

(١) فقه السنة، سيد سابق ٢/ ٦٦٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٢٠.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٥٠٢٩.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٥٣.

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وقد اختلف المفسرون في المعني به في الآية، والصحيح كما رجحه ابن جرير الطبري وغيره: أن الآية عامة في جميع أصناف الملل والأديان، لأن الله عز وجل عم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، فالآية عامة في اليهود والنصارى وغيرهم، وذلك أيضًا بالشروط التي ذكرتها الآية. وهي: أنهم لم يقاتلونا من أجل ديننا، ولم يخرجونا من ديارنا بمضايقتنا وإلجائنا إلى الهجرة، وأن لا يعاونوا عدوًا بأي معونة ولو بالمشورة والرأي فضلًا عن الكراع والسلاح[1].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وهو ترغيب للمؤمنين في العدل والإنصاف حتى مع الكفار[2]، وهو من عظمة الإسلام في التفريق بين المعتدي وغيره في التعامل.

وهذا المعنى الذي دلت عليه الآية «لا يدخل في نطاق النهي عن موالاة الكافرين؛ إذ إن النهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهي عن الرضى بما هم فيه من كفر، إذ إن مناصرة الكافرين على المسلمين فيها ضرر بالغ بالكيان الإسلامي، وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة، كما أن الرضى بالكفر كفر يحظره الإسلام ويمنعه. أما الموالاة بمعنى المسالمة، والمعاشرة الجميلة، والمعاملة بالحسنى، وتبادل المصالح، والتعاون على البر والتقوى، فهذا مما دعا إليه الإسلام»[3].

مـوضـوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، عيسى عليه السلام، موسى عليه السلام، النصارى، اليهود

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٣، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٢٠٧، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري ٥/ ٣٢٧.

(٢) انظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري ٥/ ٣٢٧.

(٣) فقه السنة، سيد سابق ٢/ ٦٠٣- ٦٠٤.





عناصر الموضوع

المجلد السادس

مفهوم الاهلاك

أولًا: المعنى اللغوي:

الهاء واللام والكاف: يدل على كسرٍ وسقوط. منه الهلاك: السقوط، ولذلك يقال للميت هلك[(١)]، وهلك يهلك هلكًا وهلكًا وهلاكًا: مات. ورجلٌ هالكٌ. وهلك الشيء: يهلك هلاكًا وهلوكًا ومهلكًا ومهلكًا ومهلكًا وتهلكةً، والاسم الهلك، بالضم؛ وأهلكه غيره واستهلكه. وفي التنزيل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[الكهف: ٥٩].واستهلك المال: أنفقه وأنفده.وأهلك المال: باعه. والمهلكة والمهلكة: المفازة؛ لأنه يهلك فيها كثيرًا. والهلكون: الأرض الجدبة. والهلك والهلكات: السنون؛ لأنها مهلكةٌ. والهلاك: الجهد المهلك. والهلك: جيفة الشيء الهالك. والتهلكة: الهلاك. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. والمهتلك: الذي ليس له همٌّ إلا أن يتضيفه الناس. والهلاك: الصعاليك، وقيل: الهلاك المتجعون الذين قد ضلوا الطريق [(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه البركتي فقال: «الهلاك أعم من الفناء وهو خروج الشيء عن الانتفاع المقصود به سواء بقي. أو لم يبق أصلًا بأن يصير معدومًا بذاته أو بأجزائه وهو الفناء، ويطلق أيضًا على الموت»[(٣)]

وفي التوقيف: «الهلك: تداعي الشيء إلى أن يبطل ويفنى» [(٤)]

وعرف ابن عاشور الإهلاك بأنه: الاستئصال والأخذ والإبادة [(٥)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ٦١.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٥٠٣، تاج العروس، المرتضي الزبيدي ٢٧/ ٣٩٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ٣١٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٩١.

(٣) انظر: قواعد الفقه، البركتي ١/ ٥٥٢.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ١/ ٣٣٤.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣١، ٩/ ٢٠.



الإهلاك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هلك) في القرآن الكريم (٦٥) مرة، يخص موضوع الإهلاك منها (٥٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٧	﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ [الحجر: ٤]
الفعل المضارع	١٤	﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾[المرسلات: ١٦]
اسم الفاعل	٦	﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۝١٣١﴾[الأنعام: ١٣١]
اسم المفعول	١	﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ۝٤٨﴾[المؤمنون: ٤٨]

وجاء الإهلاك في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الموت، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾[الإسراء: ٥٨]. أي: مميتوها.

الثاني: الفساد، مثل قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾[البلد: ٦]. أفسدت مالًا كثيرًا.

الثالث: العذاب، مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾[الكهف: ٥٩]. أي: عذبناهم.

(١) ١ انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٣٧، ٧٣٨.
(٢) ٢ انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٨٦، ٨٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٦٣٩، ٦٤٠، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٥٤، ٤٥٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العذاب:

العذاب لغة:

العين والذال والباء أصل صحيح، وأصل العذاب الضرب[1]، والعذاب: النكال والعقوبة.

ومنه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٧٦][2].

العذاب اصطلاحًا:

كل مؤلم للنفس إذا كان جزاء على سوء[3].

الصلة بين الإهلاك والعذاب:

أن العذاب من المعاني المقاربة للإهلاك فكلاهما قد يستعمل في العقاب والنكال وكل ما شق على النفس[4]، كما أن العذاب وسيلة من وسائل الإهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾[طه: ١٣٤].

فدل على أن له سبحانه الإهلاك في الدنيا والاستئصال بالعذاب[5]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[الحاقة: ٥].

يعني: صيحة العذاب[6]. و﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[الذاريات: ٤٤].

هي العذاب الذي فيه هلاك[7].

ويمكن القول بأن كل إهلاك فيه عذاب وليس في كل عذاب إهلاك.

قال الكفوي: «كل عذاب في القرآن فهو التعذيب إلا: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]. فإن المراد: الضرب»[8].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٥٩.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٥.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٢٣٩، وانظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٩.
(٤) يراجع: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٥٨٩.
(٥) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ١٧٤.
(٦) مختار الصحاح، الرازي، ١/ ١٨١.
(٧) درج الدرر، الجرجاني ١/ ١٧٤.
(٨) الكليات، للكفوي، ١/ ٥٩٧.



٢ الموت:

الموت لغة:

الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء. والموت: ضد الحياة. يقال: مات يموت فهو ميتٌ وميتٌ. والميت: هو الذي فارق الحياة[(١)].

الموت اصطلاحًا:

مفارقة الروح للجسد[(٢)].

الصلة بين الإهلاك والموت:

أن الإهلاك والموت بينهما مقاربة فقد يستعمل أحدهما مكان الآخر في مواضع. فيقال هلك فلانٌ: بمعنى مات ومنه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[الانفال: ٤٢]-﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾[النمل: ٤٩]. وأهلك الله الظالمين: جعلهم يهلكون أو يموتون، أبادهم ولم يترك لهم أثرًا، ومنه: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤][(٣)]. كما نجد أن من أسماء الموت: الهلاك[(٤)].

٣ الاستئصال:

الاستئصال لغة:

القطع من الأصل. واستأصلته قلعته بأصوله، ومنه قيل: استأصل الله تعالى الكفار أي: أهلكهم جميعًا، واستأصل الله شأفته، أي: قطع أصله أو أذهب أثره[(٥)].

الاستئصال اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي.

الصلة بين الإهلاك والاستئصال:

أن بينهما مقاربة؛ حيث إن الإهلاك والاستئصال قد يدلان على دلالة واحدة وهي الاقتلاع من الأصل. جاء في المصباح: «استأصلته: قلعته بأصوله، ومنه قيل: استأصل الله

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨٣. الصحاح، الجوهري ١/ ٢٦٦.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ٣٩/ ٢٤٨.
(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٣/ ٢٣٥٨.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ٣٩/ ٢٤٨.
(٥) المصباح المنير، الحموي ١/ ١٦. حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٥٢.

تعالى الكفار أي: أهلكهم جميعًا »[1]. كما يستعمل الاستئصال مع الإهلاك ليبين أن هذا الإهلاك إنما هو فناءٌ تام، فيقال: « سأهلكه الإهلاك المستأصل »[2].

٤ التدمير:

التدمير لغة:

من دمر. والدمار: استئصال الهلاك.

قال تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾[الفرقان: ٣٦][3].

التدمير اصطلاحًا:

الإهلاك.

قال تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[النمل: ٥١][4].

الصلة بين الإهلاك والتدمير:

واضحة جلية وخاصة إذا قصد من الإهلاك الإبادة والاستئصال؛ لذلك استعمل القرآن الكريم المعنيين عند ذكر إهلاك الأمم الكافرة، قال تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦].

قال تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾[النمل: ٥١]﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأحقاف: ٢٥]: أي: تهلك وتحطم[5]. وقال تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد: ١٠] أي: أهلك واستأصل[6].

٥ القصم:

القصم لغة:

من قصم، القصم: دق الشيء. وقصمه يقصمه قصمًا: أهلكه[7].

وقال الزجاج في قوله تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الانبياء: ١١]: ومعنى قصمنا: أهلكنا وأذهبنا »[8]

---

(١) المصباح المنير، الحموي ١/ ١٦.
(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٥٣٦.
(٣) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ٨/ ٣٩.
(٤) شمس العلوم، نشوان بن سعيد الحميرى، ٤/ ٢١٦٦.
(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٧٦٧.
(٦) المصدر السابق، ١/ ٧٦٧.بتصرف.
(٧) لسان العرب، ابن فارس، ١٢/ ٤٨٥. بتصرف.
(٨) معاني القرآن وإعرابه الزجاج ٣/ ٣٨٦.

القصم اصطلاحًا:

كسر الشيء حتى يتبين[1].

الصلة بين الاهلاك والقصم:

أن القصم قد يكون صفة من صفات الإهلاك؛ لأن في الإهلاك كسرًا مع الإبانة، وفيه الدق الشديد وفيه الإذهاب، ورأينا أنه قد يستعمل القصم بمعنى الإهلاك.

٦ الأخذ:

الأخذ لغة:

الهمزة والخاء والذال أصل واحد[2]، وهو: حوز الشيء. وفي الأصل بمعنى القهر والغلبة، واشتهر في الإهلاك والاستصال[3]، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢].

وقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣][4] وأخذه بذنبه: عاقبه، وفي التنزيل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾[الحج: ٤٨][5] وأخذ الله الظالم: أهلكه[6].

الأخذ اصطلاحًا:

هو الإهلاك والاستصال[7].

الصلة بين الإهلاك والأخذ:

من خلال التأمل في المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظين نجد أنهما قد يتواردان على معنى واحد، مثل: الهلاك، والاستصال، و العذاب، والعقوبة، و الموت، والقتل. كما أن القرآن الكريم استعمل اللفظين للتعبير عن عقوبة القرى والأمم وإهلاكهما.

(١) شمس العلوم ٨/ ٥٥٢٠.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٨.
(٣) تاج العروس، المرتضي الزبيدي، ٩/ ٣٦٣ بتصرف.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٥) المحكم، بن سيده، ٥/ ٢٣٢ بتصرف، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢.
(٦) إكمال الأعلام بتثليث الكلام، ابن مالك الاندلسي ١/ ٣٨بتصرف، المصباح المنير، الشهاب الفيومي، ١/ ٦.
(٧) تاج العروس، المرتضي الزبيدي ٩/ ٣٦٣ بتصرف.

ذكر (كم) التكثيرية مع الاهلاك

مما يلفت انتباهنا ونحن نستقرئ آيات الكتاب المبين التي تحدثت عن الإهلاك أن هناك عشرة مواضع[1] اقترنت فيها «كم» التكثيريه مع الإهلاك، وسنحاول في السطور الآتية استلهام الحكمة من وراء ذلك.

أولًا: بيان أن (كم) في هذه الآيات أفادت التكثير:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾[يس: ٣١].

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، يفيد التكثير[2].

وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص٣].

(كم) هي الخبرية الدالة على التكثير[3].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦].

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد، وهي بمعنى كثير[4].

وقس على ذلك المواضع العشر تجد أن كم فيها أفادت التكثير.

ثانيًا: بيان الحكمة من هذا التكثير:

أولًا: الاعتبار بكثرة الإهلاك وكثرة المهلكين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[الانعام: ٦].

والاعتبار هنا لأنهم: أمروا باستقراء الديار وتأمل الآثار، وفيها كثرة[5] فقال ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يعتبروا[6].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

والمعنى: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم، ألم يروا ذلك فيعتبروا[7].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [طه: ١٢٨].

أي: أفلم يبين لهم كثرة إهلاكنا القرون قبلهم فيعتبروا[8].

ثانيًا: الاعتبار بكثرة فنون العذاب والحوادث الخارقة في إهلاك الامم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[الانعام: ٦].

---

(١) يراجع: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ٧٣٧.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٧٥.
(٣) فتح البيان، القنوجي ١٢/ ١١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٠٦.
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي ١٩/ ١١٨٦٢.
(٥) غرائب التفسير وعجائب التأويل، أبو القاسم برهان الدين الكرماني ١/ ٣٥٣.
(٦) تأويلات أهل السنة ٤/ ٢٢.
(٧) انظر: تفسير ابن عرفة، ٣/ ٣٤٥، فتح البيان، القنوجي ١١/ ٢٨٨.
(٨) التفسير الوسيط، للواحدي ٣/ ٢٢٦.

ونلحظ من كلام المفسرين أن كم هنا-التكثيريه- تفيد كثرة وسائل الإهلاك. فهنا استفهام إنكاري عن عدم رؤية القرون الكثيرة الذين أهلكتهم حوادث خارقة للعادة تدل على أنها مسلطة عليهم من الله عقابًا لهم [(١)].

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٢٦].

أي: كثيرًا أهلكنا بفنون العذاب قبل هؤلاء القريش، من أمم عاتية كعاد،وثمود وأمثالهم، هم أحسن منهم أمتعة ومنظرًا [(٢)].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا: أن الحكمة من ذكر كم التكثيرية مع الإهلاك هو الاعتبار بكثرة الإهلاك وكثرة المهلكين سواء في عدد القرى المهلكة أو عدد أهل تلك القرى، وكذلك الاعتبار بكثرة وسائل الإهلاك المستخدمة في إهلاك الأمم كالصيحة والحجارة من السماء والصاعقة وغيرها.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٧/ ١٣٦

(٢) انظر: مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، محمد بن عمر نووي الجاوي ٢/ ١٧

ذكر القرى مع الإهلاك وليس الأمم

لقد آثر القرآن الكريم ذكر (القرى) مع (الإهلاك) عن ذكر(الأمم)، وذلك في خمسة عشر موضعًا [(٣)].

ولفظ (القرية) في القرآن له دلالة غير المستعملة في عرفنا المعاصر. وتذكر المعاجم أن (قرى) يدل على جمع واجتماع، من ذلك «القرية»، سميت قرية لاجتماع الناس فيها [(٤)].

وعليه فالقرى في القرآن يقصد بها: «المنازل لجماعات من الناس ذوات البيوت المبنية، ويستعمل لفظ القرية مجازًا ليدل على سكانها» [(٥)].

ومن الحكم التي من أجلها ذكر القرى مع الإهلاك وليس الأمم:

١. أن العبرة مع ذكر القرى أظهر وذلك لبقاء آثارها وأطلالها وأخبارها أمام المارين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[القصص: ٥٩].

(٣) يراجع: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ٧٣٧ .

(٤) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ٧٨.

(٥) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٥٢ انظر: المفردات، للراغب، ص ٦٦٩ بتصرف.

يقول ابن عاشور: «والقرى: ... وخصت بالذكر؛ لأن العبرة بها أظهر لأنها إذا أهلكت بقيت آثارها وأطلالها ولم ينقطع خبرها من الأجيال الآتية»[1].

ويؤكد ذلك المعنى الأستاذ سيد قطب فيقول: «وحين تجول العين والقلب في مصارع القرون، وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب، عندئذ يدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها. وعندئذ يعي معنى الإنذار، والعبرة أمامه معروضة للأنظار»[2].

والقرآن الكريم يظهر هذا المعنى صراحة في كثير من آياته:

فيقول الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

أي: تمرون في ذهابكم ومجيئكم إلى الشام للتجارة على قراهم وآثارهم ومنازلهم المهلكة[3].

٢. أن في ذكر القرى مع الإهلاك دون الأمم إشارة إلى شدة الإهلاك والمبالغة في الاستئصال.

ففي التحرير والتنوير: «وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار، بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثرًا في القرى»[4].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

يقول ابن عاشور: «وكنَى عن إهلاك الأقوام بإهلاك قراهم مبالغة في استئصالهم؛ لأنه إذا أهلكت القرية لم يبق أحد من أهلها»[5].

٣. أن في ذكر القرى مع الإهلاك وليس الأمم إشارة إلى شدة غضب الله تعالى على أهلها الأولين.

حيث تجاوز غضبه الساكنين إلى نفس المساكن.

ويدل على ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص ٥٨].

وهو كناية عن حرمان تلك المساكن من الساكن. وتلك الكناية إشارة إلى شدة غضب الله تعالى على أهلها الأولين، بحيث تجاوز

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٥٢
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٦
(٣) المصدر السابق ١٩/ ١٠٣، ١٠٤
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٥٣، وانظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٤٢.
(٥) المصدر السابق ٢٦/ ٥٤ بتصرف.

غضبه الساكنين إلى نفس المساكن، فعاقبها بالحرمان من الساكن؛ لأن بهجة المساكن سكانها [1]. وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر، قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين)، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي» [2].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٥١.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٠٩٢ كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر.

سنة الله عز وجل في الإهلاك

أولًا: الإهلاك بأمر الله:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾[الأنعام: ١٣١-١٣٣].

في الآيات بيان أن الإهلاك لا يكون الا بأمر الله تعالى وحده، فقد نسب إهلاك القرى إلى الرب فبين سبحانه بأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، كما أنه سبحانه علق مشيئة الإذهاب والإهلاك بأمره فقال: إن يشأ يذهبكم ثم يميتكم ويهلككم [3].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦].

يقول ابن عاشور: «فكان وإذا أردنا أن نهلك قرية شريطة لحصول الإهلاك، أي: ذلك بمشيئة الله ولا مكره له، كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ١٩٢، الموسوعة القرآنية ٩/ ٤٦٥.

وقوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]»[١].

وهذا يعلمك أن من هلك فإنما هلك بإرادته وبأمره[٢].

ويقول صاحب الظلال: «فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة هلكت، فإن إرادة الله وأمره قد جعلت للحياة البشرية نواميس وسننًا لا تتبدل»[٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

أي: ولو كان المسيح إلهًا لقدر على دفع أمر الله إذا أتى بإهلاكه وإهلاك غيره[٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فهو التسليم المطلق بأن الإهلاك بأمر الله[٥].

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

أي: ولكل أمة أجلٌ ينزل بالذين كفروا فيها العذاب بأمر الله وحده[٦].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠].

أي: أمرنا بعذابهم وإهلاكهم[٧].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[هود: ٥٨].

أي: ولما جاء أمرنا بهلاك عاد[٨].

و﴿أمرنا﴾: عذابنا الذي أمرنا به، أو الإذن بالعذاب والأمر به[٩].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦] أي: فلما جاء أمرنا بإهلاكهم. والتقدير: يوم إذ جاء أمرنا[١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢].

أي: جاء أمرنا إلي الملائكة بالعذاب والإهلاك[١١].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ١٥/ ٥٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٣٢.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٧، ٢٢١٨ بتصرف.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٧٠ بتصرف.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٧.
(٦) تفسير الشعراوي ١٠/ ٥٩٧٨ بتصرف.
(٧) التفسير البسيط ١١/ ٤١٤.
(٨) التفسير البسيط ١١/ ٤٥١.
(٩) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢١٢.
(١٠) انظر: تفسير الجلالين ص ٢٩٤، التحرير والتنوير ١٢/ ١١٤.
(١١) انظر: التفسير البسيط ١١/ ٥١٠.



وبالجملة: يتبين لنا أن الإهلاك بأمر الله وحده من خلال: ذكر القرآن الكريم ذلك صراحة: باستخدام لفظ ﴿أَمْرُنَا﴾ في آيات الإهلاك والأخذ والعذاب، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾[الحجر: ٦٦].

كذلك إسناد أمر الإهلاك وفعله إلى الله وحده في آيات منها:

قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَا﴾[الأنعام: ٦].

وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾[الأعراف: ٤].

وقوله تعالى: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾[إبراهيم: ١٣].

فالإهلاك كله بأمر الله وحده ومشيئته، والتعبير بنون العظمة بيان لعظمة الأخذ والآخذ.

ثانيًا: لا إهلاك إلا بعد إقامة الحجة بإرسال الرسل:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص ٥٩].

أي: ما كان الله ليهلك القرى الكافرة حتى يبعث في أعظمها رسولًا ينذرهم بالعذاب حجة عليهم[(١)][(٢)].

والمعنى: ما صح وما استقام، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار، بل كانت سنته عز وجل التي لا تتخلف ودستوره الذي لا يتغير ألا يهلكها حتى يبعث في أصلها وحاضرتها التي ترتجع تلك القرى إليها رسولًا، وإنما أهلكهم بعد إلزامهم الحجة بإرسال الرسول كيلا يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾[طه: ١٣٤]. وتحقيقًا لوعده الذي لا يتخلف: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥].[(٣)]

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

أي: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلا تنبههم على حجج الله عليهم[(٤)].

فيبين سبحانه أن من سننه في إهلاك الأمم أنه لا إهلاك إلا بعد إقامة الحجة بإرسال الرسل[(٥)].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ

(١) التفسير البسيط ١٧/ ٤٣٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٥٩٠.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٧٩٣، ١٧٩٤ بتصرف.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٢/ ١٢٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤١ بتصرف.

﴿مِن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤].

أي: إنما أرسلناك قطعًا لعذرهم وإلزامًا للحجة عليهم[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩] أي: وما أهلكنا من قرية إلا ولها رسلًا ينذرونهم بالعذاب أنه نازل بهم، وإنذارنا ذكرى[2].

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩].

قال الواحدي: « وكلًا ضربنا له الأمثال أي: الأشباه في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾[القصص ٤٧].

فبين سبحانه أن حكمة إرسال الرسل هي قطع حجة البشر عن خالقهم[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فذكر سبحانه أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله ولا يأخذهم قبل إقامة الحجة عليهم[5].

ثالثًا: الإهلاك له أجل مقدر:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ يعني ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم العذاب فأهلكناهم به، [6] وجعلنا لإهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه[7].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤-٥].

أي: لها أجل مؤقت ومدة معروفة، لا نهلكهم حتى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك[8]، وفيه بيان أن هلاك الأمم الكافرة وفق أجل معلوم له لا تتجاوزه، فإنما هي سنة الله تمضي في طريقها المعلوم[9].

---

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٨٠، الكشف والبيان ٧/ ٢٥٣.

(٢) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ١٣٦.تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٢٨١ الكشف والبيان ٧/ ١٨١.

(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠٠.

(٤) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢/ ٢٨٠ بتصرف.

(٥) فتح البيان ٧/ ٣٦٧.

(٦) جامع البيان، الطبري١٨/ ٥٣.

(٧) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٣٠. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨.

(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٥، الكشف والبيان ٥/ ٣٣١، التحرير والتنوير ١٤/ ١٤.

(٩) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٦٦، في ظلال القرآن ٤/ ٢١٢٦ بتصرف. التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٥٢١

قال تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

أي: لكل أمة تهلك موعدًا وأجلًا[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

أي: موعد عقابهم الصبح.

قال عامة المفسرين: لما قالوا للوط: إن موعدهم الصبح، قال: أريد أعجل من ذلك، بل لساعة يا جبريل، فقال له: أليس الصبح بقريب[٢].

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[الحجر: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود: ٦٥].

يعني: تمتعوا ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب[٣].

رابعًا: لا يقبل الإيمان حين وقوع الإهلاك:

قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص ٣].

أي: نادوا ربهم بالاستغاثة حين لم ينفعهم ذلك[٤]. فليس الوقت وقت فرار من العقاب، ولا وقت هرب ونجاة من العذاب[٥].

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩٠-٩١].

معناه: الآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها أو: الآن آمنت[٦]. والاستفهام للتوبيخ على تأخره وإيمانه حيث لا ينفع[٧].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

[غافر: ٨٤-٨٥].

فأخبر أن إيمانهم لا ينفعهم عند معاينتهم العذاب؛[٨] وأن سنت الله التي قد خلت في عباده، ألا يقبل الإيمان عند رؤية بأس الله ومعاينة عذابه[٩].

/٥ ٥٢٢، تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٦٤٥.

(١) تأويلات أهل السنة ٧/ ١٨٩.

(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢٣٠، ٢٣١ بتصرف.

(٣) انظر: التفسير البسيط ١١/ ٥٠٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٣٠.

(٤) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٥١٨.

(٥) انظر: تفسير ابن جزي ٢/ ٢٠١، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٧٧.

(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٤٧٥.

(٧) انظر: التفسير البسيط ١١/ ٣٠٣.

(٨) انظر: نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي التونسي ٢/ ٢٢٥.

(٩) انظر: تأويلات أهل السنة ٦/ ٥١، ٨/ ٥٩٠.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف: ٥٥].

أي: إنهم لا يؤمنون إلا عند معاينتهم بأس الله، والإيمان في ذلك الوقت لا يقبل ولا ينفعهم[١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠ - ٥١].

يخبر عنهم أنهم إذا نزل بهم العذاب يؤمنون، ولا ينفعهم الإيمان في ذلك الوقت[٢].

وقال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]أي: إنهم يحسون بظلمهم بعد أن فات وقت الإيمان[٣].

مسألة مهمة تابعة لهذا المطلب: وهي هل استثنى الله تعالى قوم سيدنا يونس عليه السلام من هذه السنه الكونية فقبل الإيمان منهم حين وقوع الإهلاك؟

وذلك في قوله تعالي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٨].

للمفسريين فيها ثلاثة أقوال:

الأول: أن الله عرف الصدق منهم فرفع العذاب عنهم ولم يقبله من غيرهم، أي: أنهم استثناء من سنة الله[٤].

الثاني: أنهم آمنوا قبل وقوع العذاب وأن سنة الله لم تتعطل[٥].

الثالث: توقفوا فقالوا: إنه لا يدرى هل آمنوا قبل معاينة العذاب أم بعده، ثم وجهوا كلا الرأيين[٦].

وأكتفي هنا باختصار قول الإمام ابن تيمية في هذه المسألة، وهو ما أراه الصواب - والله أعلم- حيث قال: « إنهم رأوا دليل

---

(١) المصدر السابق ٩/ ٥٧، تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧٧٢ بتصرف، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٨٧.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة ٧/ ١١٣.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٦٩٥.
(٤) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٧٨٦ بتصرف.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٢٥٠، جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٠٥، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٨، تفسير السمرقندي ٢/ ١٣٣، الكشف والبيان٥/ ١٥١، درج الدرر في تفسير الآي والسور ٣/ ٩٥٨.
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٥١، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٨٦، التفسير البسيط ١١/ ٣٢٢، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٧١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٣٠٣.

العذاب؛ لأن التوبة بعد معاينته لا تقبل، ولا فرق في ذلك بين أمةٍ وأمة، بل هذا حكم عام. وهم ليسوا مخصوصين بقبول التوبة، بل كل من تاب كما تابوا قبل الله توبته. وهو الصواب؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥].

فأخبر سبحانه أن هذه سنته، وسنته لن تجد لها تبديلًا ولن تجد لها تحويلًا »[١].

خامسًا: عدم رجوع المهلكين للدنيا للاستدراك:

قال تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

أي: حرام على قرية مهلكة رجوعهم إلى الدنيا[٢]، أو: فحرام عليهم الرجوع الى الدنيا للتوبة.وهو من التحريم بمعنى المنع كونًا وقدرًا[٣] والمعنى: وممتنع على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا بعد إهلاكهم[٤].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[يس: ٣٢].

أي: لا يعودون إلى الدنيا أبدًا[٥]، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم من قولهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[الأنعام: ٢٩].

وهم القائلون بالدور من الدهرية وغيرهم[٦].

وقال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥٠].

يعني: يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا إذا ماتوا[٧].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ومعلوم أن هذا في كل كافر ومشرك ينادي عند موته وهلاكه، ويسأل ربه الرجوع والعود إلى الدنيا ليؤمن[٨]، إلا أن البرزخ

---

(١) انظر: التفسير البسيط للواحدي ١١/ ٣١٩، حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل، البيضاوي ٧/ ٢٨٦، جامع البيان في تفسير القرآن، الإيجي ٢/ ١٥٧.

(٢) للتوسع: انظر: جامع المسائل، ابن تيمية، المجموعة الثامنة ص ٣٦٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٤٠ بتصرف، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٦٠.

(٤) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٣٠٦.

(٥) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٦/ ١١٥٥، جامع البيان، الطبري١٨/ ٥٢٥.

(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٥٧٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٨٥.

(٧) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٣٦٢.

(٨) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٩٠،

حاجز بين الميت ورجوعه للدنيا[1].

سادسًا: لا يهلك الله القرى وأهلها مصلحون:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]

وهذه السنة الكونية في الإهلاك تتأتى على أوجه عند المفسرين:

الأول: ما كان ربك ليهلكهم بذنب وأهلها موحدون[2]، مؤمنون[3].

الثاني: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا، فإن الله يعفو عنهم[4].

الثالث: أي: أنه لا يهلكها بظلمٍ قليلٍ من أهلها، إذا كان الجمهور الأكبر منهم مصلحين[5].

الرابع: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك إذا تعاطوا الإنصاف فيما بينهم، ولم يظلم بعضهم بعضًا.[6]

فلا يهلكهم إذا تناصفوا وإن كانوا مشركين[7]، وهذا الوجه لمن فسر ﴿بِظُلْمٍ﴾ في الآية بأنه الشرك[8]. ولهذا يقال في الأثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم[9].

الخامس: أي: لو كانوا مصلحين لما نزل بهم العذاب، لكنهم لم يصلحوا فنزل بهم العذاب.[10]، أي: يهلكها بذنوب أهلها وفجورهم وطغيانهم[11]، والمعنى: أنه ما كان ربك ليهلك القرى ظالمًا لها، وأهلها مصلحون يعدلون فيما بينهم، ولا يشركون بالله ولا يكون منهم ظلم[12] وهم مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين[13]، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله وتماديهم في غيهم، وتكذيبهم رسلهم، وركوبهم السيئات[14].

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٩.

(١) انظر: تأويلات أهل السنة ٨/ ٥٩٨.
وانظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٤١٥.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٦٧.

(٣) انظر: درج الدرر ٣/ ٩٨٧.

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٠٨، تفسير الجلالين ص ٣٠٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٢.

(٦) انظر: درج الدرر ٣/ ٩٨٧، تفسير المنار ١٢/ ١٥٩.

(٧) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٦٧.

(٨) انظر: زاد المسير ٢/ ٤٠٨.

(٩) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧٧٣.

(١٠) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤١٠ بتصرف.

(١١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٥٨٧

(١٢) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٢٧٨.

(١٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧٧٣.

(١٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٦٧.

ومن خلال ماسبق من عرض الأوجه الخمسه يمكننا أن نجمع بينها فنقول:

ما كان من شأنه ولا من سنته سبحانه، وما صح ولا استقام عقلًا أن يهلك الله أهل هذه القرى بظلم وهم مصلحون، يتعاطون الحق فيما بينهم ويؤمنون بخالقهم، وفيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهم مقيمون على الطاعة مستمسكون بها مصلحون في أعمالهم وسياستهم [(١)]، ثم إن شرط أن توصف الأمم بأنهم مصلحون هو القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدل عليه أن الآية التي سبقت هذه الآيه الكريمة التي نحن بصددها هي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦] أي: قد كان منهم أولو بقية، لكنهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض، فأهلكوا جميعًا إلا قليلًا ممن أنجينا منهم، وهؤلاء القليل قد نهوا عن الفساد في الأرض، فنجوا [(٢)].

سابعًا: الإهلاك يقع فجأة:

قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾[الأعراف: ٤].

﴿بَيَاتًا﴾: أي: وقت بيات، أو إيقاعًا مفاجئًا [(٣)].

وخص هذان الوقتان؛ لأنهما وقتا الغفلة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع [(٤)].

والمعنى: وكثير من القرى أراد الله إهلاك أهلها، فجاءهم عذابه ليلًا وهم نائمون، أو نهارًا وهم مستريحون وقت القيلولة غافلون عن مجي العذاب [(٥)].

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

أي: أجهلوا سنة الله في خلقه فأمنوا استدراجه إياهم وأخذه لهم فجأةً من حيث لا يحتسبون؟ [(٦)]. وكما قال تعالى في بني النضير ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢].

وقال تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥].

قال مجاهد: (قبلًا): فجأة [(٧)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٣٠.
(٢) انظر: تفسير المنار ٢/ ١١، ٢٠٩/ ٢٢٢.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة ٦/ ١٩٦، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢٦٦.
(٤) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ١/ ٢٢٩.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٥٥ .
(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٣٧٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٩٩.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٧٨.

أسباب الإهلاك

أولًا: الكفر وتكذيب الرسل:

أولًا: ما أخبر به تعالى من أن الكفر سببٌ من أسباب الإهلاك.

١. ما جاء في القرآن مجملًا لبيان أن علة الإهلاك هي الكفر.

قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩].

فجعل الله تعالى علة الإهلاك بالغرق هنا هي الكفر، فقال تعالى: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾[1]، أي بسبب كفركم[2].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي: مثل ما دمرت به القرون الأولى بسبب كفرهم[3].

٢. ما جاء تعقيبًا على إهلاك عاد.

قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ [هود: ٦٠].

فهذا تنبيه للكفار أن عادًا كفروا ربهم، فأهلكهم الله، فاحذروا كيلا يصيبكم بكفركم ما أصابهم بكفرهم[4].

٣. ما جاء تعقيبًا على إهلاك ثمود.

قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨].

أي: هلاكًا لثمود بسبب كفرهم بربهم[5].

٤. ما جاء تعقيبًا على إهلاك سبأ.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

أي: عاقبناهم بكفرهم[6].

قال الحسن: «مثلًا بمثلٍ»[7].

ثانيًا: ما أخبر به تعالى من أن تكذيب الرسل سببٌ من أسباب الإهلاك.

١. ما جاء في القرآن مجملًا لبيان أن علة الإهلاك هي تكذيب الرسل.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۝ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص ١٢ -١٥].

فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل[8].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا

---

(١) تفسير مجاهد ص ٤٤٨.

(٢) التفسير البسيط ١٣/ ٤٠١، الوجيز للواحدي ص ٦٤١.

(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٧٨٣.

(٤) جامع البيان، الطبري٢٢/ ١٦٣.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٥٧.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٨١، تأويلات أهل السنة ٦/ ١٥٢.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٨.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٨٨ بتصرف. وانظر جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٥٨.

﴿وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

أي: ولكن كذبوا الرسل فعاقبناهم، فبسبب هذا التكذيب أخذناهم[1].

٢. ما نص عليه القران الكريم من أن تكذيب الرسل كان سببًا في هلاك أممهم.

أ- سيدنا نوح عليه السلام: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ [الأعراف: ٦٤]وفي قوله ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ إعلام بعلة الغرق وهو التكذيب[2].

ب- سيدنا هود عليه السلام: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[الشعراء: ١٣٩].

أي: فأهلكنا عادًا بتكذيبهم رسولنا، وإن في إهلاكنا عادًا لعبرة وموعظة[3].

جـ-سيدنا شعيب عليه السلام: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء: ١٨٩].

أي: فلما أقاموا على تكذيب نبيهم شعيب أخذهم عذاب الظلة[4].

د- سيدنا موسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨].

المعنى: فكذب فرعون وملؤه موسى وهارون، فكانوا ممن أهلكهم الله كما أهلك من قبلهم بتكذيبهم[5].

٣. ما جاء في القرآن الكريم يشير إلى أن الكفر وتكذيب الرسل كانا سببا الإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ – ٤٤].

ولقد كان الكفر وعدم الايمان تابعين للتكذيب؛ لأن الله لم يهلك قومًا بأول التكذيب، ولكن أمهلهم فإذا علم منهم أنهم لا يؤمنون أهلكهم[6].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[الرعد: ٣٢].

والمعنى: ولقد استهزأ الكفار السابقون، برسل بعثناهم من قبلك إليهم، فأمهلت أولئك المستهزئين، ثم أخذتهم بعقابي[7].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٨. وانظر: جامع البيان، الطبري٢١/ ١٦٠.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٢٩٠٨، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٧٧ بتصرف.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٨٥.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٦٢٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ١٩/ ٣٦، فتح البيان ٩/ ١٢٣.
(٦) تأويلات أهل السنة ٧/ ٤٢٧ بتصرف.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٤٤٥- ٤٤٦.

ثانيًا: الفسق والذنوب والمعاصي:

أولًا: الفسق:

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أي: لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة[1].

قال الزجاج: «وما في الرجاء لرحمة الله شيء أقوى من هذه الآية»[2].

ثانيًا: الذنوب والمعاصي:

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١].

أي: جازاهم بذنوبهم، وعاقبهم عليها[3].

وفيه إشعار بأن صريح المؤاخذة مناط بالذنوب[4].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. وذكر بعض الذنوب لأن مجازاتهم ببعض الذنوب كافية في إهلاكهم وتدميرهم[5].

وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أي: أهلكهم الله بسبب ذنوبهم[6].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

أي: فأطبق الله عليهم العذاب، أو أهلكهم جميعًا بسبب ذنبهم[7]، وحقًّا لقد كان ذلك لذلك[8].

ويجمل ما سبق صاحب الظلال فيقول: «إن هذا النص في القرآن: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ وما يماثله، إنما يقرر سنة وحقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم وأن هذه سنة ماضية تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب وحين تقوم حياتها على الذنوب»[9].

ثالثًا: الظلم والإفساد:

أولًا: تقرير القرآن الكريم لحقيقة أن الظلم من أسباب الإهلاك.

قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٢٢.

(١) فتح البيان ١٣/ ٤٣.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤٦.

(٢) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٤/ ٤٤٨، معالم التفسير، البغوي٧/ ٢٧٣، الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٢٢.

(٣) أوضح التفاسير ١/ ٥٩.

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٢٦٠، تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي ص ٥٢٢.

(٥) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٦٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٧٤.

(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٤٣٩، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٢٠٢.

(٧) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٩٢٨، ١٩٢٩ بتصرف.

(٨) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٧٢.

(٩) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٣٨ بتصرف.

نبه على سبب الاستئصال بذكر الوصف الذي هو الظلم[(١)].

ويقال: هذا تعليم ليحمدوه سبحانه على إهلاك الظالمين[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧].

وفي ذكر الظلم تنبيه على علة الإهلاك.

والمعنى: هل يهلك إلا أنتم لظلمكم؟[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

الرجز: العذاب وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ الباء سببية، أي: بسبب كونهم ظالمين[(٤)].

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

قال الرازي: «والمراد منه: أن الله تعالى إنما أهلكهم بسبب ظلمهم، وأقول في هذا المقام: اللهم أهلك الظالمين وطهر وجه الأرض منهم»[(٥)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣]. أي: أن الهلاك كان عند ظلمهم وبسببه[(٦)].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وجملة ﴿وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ في موضع الحال، وفائدة هذه الحال الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم[(٧)].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

أي: لنهلكن من تناهى في الظلم من المشركين[(٨)].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: ٥٩].

أي: وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا.

أي: عند ظلمهم[(٩)].

كما أخبر الله تعالى بأن إهلاك قوم سيدنا

(١) انظر: البحر المحيط ٤/ ٥١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٢٧.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٤٤٨.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٥١٧.
(٤) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٢٧٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٩٦.
(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٥٢٩، فتح البيان ٦/ ٢٧.
(٧) التفسير الوسيط لطنطاوي ٧/ ٢٧٢.
(٨) انظر: تفسير المراغي ١٣/ ١٣٨.
(٩) انظر: جامع البيان، الطبري١٨/ ٥٣، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٥٥٣.

نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام كان بسبب ظلمهم، كما سيتبين لنا ذلك من الآيات التالية:

١. قوم سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ – ٥٢].

أي: وأهلك كفار قوم نوح؛ لأنهم كانوا أشد منهما ظلمًا للحق ولأنفسهم[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك[(٢)].

٢. قوم سيدنا هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

فيه بيان بأن إهلاكهم كان بسبب ظلمهم[(٣)].

٣. قوم سيدنا صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

حكم عليهم بأنهم أخذتهم الصيحة بسبب ظلمهم[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٤٩-٥٢].

أي: خربة بما ظلموا[(٥)].

وفيه إشارة إلى أن للظلم أثرا في خراب بلادهم[(٦)].

٤. قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك أي: إهلاكنا لهم بهذا السبب[(٧)].

٥. قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤ – ٩٥].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٩/ ١١٦٤.
(٢) فتح البيان ٦/ ١٨٩.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٠٧٥، روح البيان، إسماعيل حقي الإستانبولي ٦/ ٨٤
(٤) نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي التونسي ٢/ ٢٣٨.
(٥) تأويلات أهل السنة ٨/ ١٢٣.
(٦) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٨٦.
(٧) انظر: فتح البيان ١٠/ ١٨٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٥١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٣٨، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٣٣، التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٤٢، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ٧/ ٤٢٨.

وأظهر في موضع الإضمار لبيان أن ما أنزل بهم من العذاب سببه الظلم[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨ – ٧٩].

المعنى: وما كان أصحاب الأيكة إلا ظالمين، والانتقام هنا معناه: إنزال العقوبة مماثلة لما ارتكبوه[2].

٦. قوم سيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص ٤٠].

﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنهم يعذبون بظلمهم[3].

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وهي نار أخذتهم بسبب ظلمهم[4].

ثانيًا: إخبار القرآن الكريم بأن الإفساد من أسباب الإهلاك.

١. الإفساد كان من أسباب إهلاك قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال الله تعالى على لسان سيدنا شعيب يحذر قومه بعد أن نهاهم عن الإفساد: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ليعرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الهلاك والخزي والنكال[5].

٢. الإفساد كان من أسباب إهلاك قوم عاد وثمود وفرعون.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ – ١٤].

والمعنى: فأنزل بهم ربك عذابه، ونقمته، بما أفسدوا في البلاد، وطغوا فيها[6].

٣. الإفساد كان من أسباب إهلاك قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال الله تعالى على لسان سيدنا لوط بعد أن نصح قومه فلم يستجيبوا النصحه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

أي: بإنزال عذابك عليهم بسبب إفسادهم، فانتصر الله له بإهلاكهم[7].

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧٤٥.

(٢) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية ٦/ ٣٩١٩، جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٢٣، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨/ ٤١٠٤.

(٣) تأويلات أهل السنة ٨/ ١٧٠.

(٤) أوضح التفاسير ١/ ١١٩.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥ بتصرف. التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٦٨.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ط هجر ٢٤/ ٣٧٣.

(٧) انظر: فتح البيان ١٠/ ١٨٧، التيسير في

٤. الإفساد كان من أسباب إهلاك قوم سيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

والمعنى: إن جميع الأمم الماضية كانت عاقبة إفسادها أن أهلكهم الله[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

قال السعدي: «أسوأ عاقبة دمرهم الله وغرقهم في البحر وأخزاهم»[2].

٥. الإفساد كان من أسباب إهلاك أفراد كفرعون وقارون.

قال تعالى لفرعون مبينًا له أن سبب هلاكه الفساد: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وقال لقارون: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٧٧].

يعني: أنه يعاقبهم[3].

رابعًا: الصد عن سبيل الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]

صدهم عن سبيل الله كان بكتمان نعت محمد ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾أي: هلكوا، والضلال: الهلاك[4].

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

المراد بالنهي: صدهم وتنفيرهم الناس عن الإسلام[5].

وبين سبحانه أنهم ما يهلكون بصدهم عن سبيل الله، إلا أنفسهم لا غيرها[6].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وصدف بمعنى صد، فهو حكم بالعقوبة الرادعة، لأولئك الذين كذبوا بآيات الله وصدوا عنها[7].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

أحاديث التفسير ٦/ ٩٢.

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٦٥، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٢

(٣) فتح البيان ١٠/ ١٥٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٥٠٤.

(٥) انظر: درج الدرر ٢/ ٧٠٩.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٠٨، تفسير القاسمي ٤/ ٣٣٧.

(٧) انظر: التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٣٥٢، تفسير الإيجي ١/ ٥٩٥.

[الأعراف: ٨٦].

وهذه الآية تحذير من سيدنا شعيب لقومه من عاقبة صدهم عن سبيل الله [١].

الي أن جاء ما هددهم به عقوبة على صدهم، فقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾[الأعراف: ٩١].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [هود: ١٩ - ٢٠]. أي: هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لم يكونوا ناجين من عذاب الله في الدنيا [٢].

ومن صور الصد عن سبيل الله التي كانت من أسباب الإهلاك، محاولة الصادين إخراج رسلهم عليهم السلام والذين آمنوا معهم من أرضهم أو توعدهم بذلك.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢ - ٨٣].

وقال تعالى ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٦ - ٧٧].

أي: لو أخرجوك لاستأصلناهم كسنتنا فيمن قبلهم [٣].

خامسًا: الإسراف وبطر النعمة:

١ . الإسراف.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩].

وأهلكنا الذين أسرفوا بعذاب الاستئصال [٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨١].

أي: بل إنكم قوم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، لذلك جاء العقاب الإلهي فدخل فيه الكبير والصغير [٥].

وقال تعالى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ

---

(١) جامع البيان، الطبري١٢/ ٥٥٩

(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ١٧٨

(٣) انظر: التفسير البسيط ١٣/ ٤٢٤.

(٤) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٣٨٩، وانظر: التفسير الحديث ٥/ ٢٥٦، الهداية الى بلوغ النهاية ٧/ ٤٧٣٣.

(٥) انظر: التفسير المنير الزحيلي ٨/ ٢٨٣، التيسير في أحاديث التفسير ٤/ ٤٥١.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣ - ٣٤].

ووضع الظاهر موضع ضميرهم في قوله ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ذمًا لهم بالإسراف وإشارة إلى علة الحكم[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

أي: قال صالح لقومه: لا تطيعوا أمر من ظهر لكم منه الإسراف فتهلكوا...إلى أن قال سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨] أي: فأهلكوا[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

ثم جاءهم عاقبة إسرافهم بقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾، أي: فأهلكناهم[(٣)].

٢. بطر النعمة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

أي: فرحوا بما أعطوا من الصحة بدل المرض، ومن الغنى بدل الفقر، فرحوا بهذا فرح أشرٍ وبطرٍ، أهلكهم الله[(٤)].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

أي: أبطرتهم النعمة وأطغتهم الكثرة فأهلكناهم[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

أي: جحد أهل هذه القرية نعم الله عليهم فعاقبهم الله[(٦)].

والأنعم جمع نعمة، وهو جمع قلة، وذلك أنه قصد التنبيه على أن كفران النعم القليلة أوجب العذاب، فكفران الكثيرة أولى بإيجابه[(٧)].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٩/ ١١٠٠، وانظر: تفسير المراغي ٢٧/ ٤.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة ٨/ ٧٨- ٧٩.

(٣) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، الشيخ علوان ٢/ ٢٠١، صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨- ٩.

(٤) انظر: العذب النمير ١/ ٢٥٨، فتح البيان ٤/ ١٤١- ١٤٢، معالم التفسير، البغوي ٢/ ١٢٤.

(٥) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٢٩٠٥.

(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٦٨٨، وانظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨/ ٤٢٨٤.

(٧) انظر: البحر المحيط ٦/ ٦٠٣.

﴿بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص ٥٨].

وأشار هنا إلى سبب الإهلاك بقوله: ﴿بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وقع منها البطر في زمان عيشها الرخي الواسع، فلما بطروا معيشتهم أهلكناهم[1].

وقال تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

أي: إنهم سئموا الراحة وبطروا النعمة، وكرهوا ما كانوا فيه من الخصب والسعة، فأرسل الله عليهم سيل العرم، ومزقهم كل ممزق[2].

وقال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

أي: أهلك الله جنتيه، وهذا جزاء المتبطر المغرور وتلك عاقبة البطر والكبر[3].

وقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ – ٢٠].

أي: أهلك الله جنتهم بسبب بطر النعمة والاغترار بالقوة[4].

وسائل الإهلاك

أولًا: المعجزات الخارقة:

١ . الصيحة.

أهلك الله تعالى بها أربعة من الأمم.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [العنكبوت: ٤٠] يريد: عادًا وثمود ومدين[5]، وأصحاب القرية.

❁ قوم سيدنا صالح عليه السلام.

قال الله تعالى في نهاية قصتهم: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

أي: أن ثمود قوم نبي الله صالح أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم[6].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

❁ قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال الله تعالى تعقيبًا على إهلاك قوم لوط عليه السلام: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]. أي: أهلكوا بالصيحة[7].

❁ قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ

---

(١) نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٣٢٧.
(٢) انظر: التفسير البسيط ١٨/ ٣٥١، جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٨٩، في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٠٢.
(٣) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٧٠، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٨٧١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٨١.
(٥) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ٥٢٥ بتصرف، وانظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨٥٨ بتصرف.
(٦) التفسير البسيط ١١/ ٤٦٤ بتصرف.
(٧) تأويلات أهل السنة ٦/ ٤٥٣.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

أي: أهلكوا بصيحة جبريل[١].

* أصحاب القرية.

قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

أي: إن كانت إلا صيحة واحدة من جبريل فإذا هم موتى مثل النار إذا طفئت لا يسمع لها صوت[٢].

٢. الحجارة من السماء.

أهلك الله تعالى بها قومين: قوم سيدنا لوط عليه السلام، وأصحاب الفيل.

* قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

أي: منضود بعضه فوق بعض في السماء[٣].

وقال تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يريد: قوم لوط أهلكناهم بالريح العاصفة التي تحمل الحصباء، وهي صغار الحصى[٤].

* أصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤].

أي: فجاءت الطير ورمتهم بالأحجار[٥].

٣. عذاب الظلة.

وهو عذاب من السماء كان من جملة ما أهلك الله به قوم سيدنا شعيب، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] والظلة: سحابة أظلتهم، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من حر ذلك اليوم ثم أطبقت عليهم[٦].

ثانيًا: الآيات الكونية:

١. الصاعقة.

هي صوت فيه نار لا تأتي على شيء إلا أحرقته[٧].

وأهلك الله تعالى بها قوم صالح عليه السلام، وقوم هود عليه السلام، ومن شرط رؤية الله جهرة حتى يؤمن من قوم موسى عليه السلام.

* قوم سيدنا صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ

(١) تأويلات أهل السنة ٦/ ١٧٧.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٥٧٧.
(٣) التفسير البسيط ١١/ ٥١٥.
(٤) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ٥٢٥ بتصرف، وانظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨٥٨ بتصرف.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٢٨٥.
(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه الزجاج ٤/ ٩٨.
(٧) انظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر ١/ ١١٦.

﴿الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

أي: فأخذتهم واستأصلتهم الصاعقة[١].

وقال تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

والطاغية: هي الصاعقة نزلت عليهم فأهلكتهم[٢].

❁ قوم سيدنا هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]

أي: صاعقة تصعقهم وتهلكهم كصاعقة عاد قوم هود، وثمود قوم صالح[٣].

❁ مَنْ شرط رؤية الله جهرة حتى يؤمن من قوم سيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة: ٥٥].

وهي نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعًا[٤].

٢. الرجفة (الزلزلة).

الرجفة: الزلزلة الشديدة، والهزة العظيمة[٥].

❁ قوم سيدنا ثمود عليه السلام.

قال تعالى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والرجفة هي الزلزلة، ولا منافاة بين تسميتها صيحةً وتسميتها رجفةً؛ لأن المَلَك يصيح بهم من فوقهم، فإذا صاح بهم رجفت بهم الأرض وارتعدت، ففارقت أرواحهم أبدانهم[٦].

❁ قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

أي: فاستحقوا الإهلاك فأخذتهم الرجفة وهي الزلزلة الشديدة المهلكة[٧].

❁ السبعون من قوم سيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي: فلما أخذتهم الزلزلة الشديدة، وقيل: إنهم زلزلوا حتى ماتوا يومًا وليلة[٨].

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٦٩٣.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ١١٦.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٦٨٨ بتصرف.
(٤) التفسير البسيط ٢/ ٥٤١.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه الزجاج ٢/ ٣٥١، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ١٩٣.
(٦) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٥١٩.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٩.
(٨) انظر: فتح البيان ٥/ ٣٠.

٣. الغرق.

وقد أهلك الله تعالى به أمتين: أمة سيدنا نوح عليه السلام، وأهلك فرعون وقومه.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]. يريد: قوم نوح وفرعون[(١)].

وتفصيل ذلك:

- قوم سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

أي: غرقوا ولم يبق منهم ديار[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢٠].

- فرعون وقومه.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

فأغرقنا فرعون ومن معه من الجنود، فلم نبق منهم أحدًا[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص ٤٠].

أي: فألقيناهم جميعهم في البحر، فغرقناهم فيه[(٤)].

٤. الريح.

أهلك الله بها عادًا، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

والصرصر: التي لها صوت شديد، أو ذات برد شديد[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

و﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، هي التي لا تلقح شجرًا ولا تثير سحابًا، وهي عذاب على من أرسلت عليه[(٦)].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

٥. الخسف.

أهلك الله به قارون.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ٥٢٥ بتصرف.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧١١.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٨١٥، تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٥٥٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ط هجر ١٨/ ٢٥٦.
(٥) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية ٤/ ٢٤٢٤، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٣٥.
(٦) انظر:، تفسير مجاهد ٢/ ٦٢، تفسير مقاتل١٢٧، جامع البيان ٢٧/ ٤، فتح القدير ٨/ ٩٠، التفسير البسيط ٢٠/ ٤٥٥.

فغارت به، وغيبته في جوفها[1].

وقال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص ٨١].

٦. قَلْبُ الديار.

أهلك الله بها قوم لوط فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

أي: قلبناها فصار أعلاها إلى أسفل وأسفلها إلى أعلى[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣].

وهي قرى قوم لوط التي قلبها الله عليهم[3].

٧. المسخ لليهود قردة وخنازير.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

أي: فعوقبوا بمسخهم قردة في خلقهم أذلاء بعيدين عن الإنسانية صورة[4]. وهي كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

٨. الحسبان من السماء.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

«وأحيط بثمره» أي: أهلك جنته وماله وأصول نخله وشجره[5].

نتيجة لما أصاب الجنة من عذاب السماء الذي جعلها صعيدًا زلقًا[6].

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها، أو عذابٌ من السماء يرميها به من برد أو صاعقة أو نار[7].

والشاهد أن هذا العذاب نزل من السماء وهو وسيلة من وسائل الإهلاك، لهذا اكتفيت بتسميته حسبانًا كما سماه القرآن الكريم.

٩. الطائف من السماء.

قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القلم:١٩-٢٠].

أي: أحاط بهذه الجنة نارًا نزلت من

---

(١) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ٥٢٥ بتصرف، وانظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨٥٨ بتصرف.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢٣١.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٧٣٠.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٥٣٧.

(٥) انظر: التفسير البسيط ١٤/ ١٢.

(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٨٧٦.

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤، انظر: روح البيان ٥/ ٢٤٧٢٤٨.

السماء فأحرقتها[(١)].

ثالثًا: الأمراض والسلب:

١. الأمراض.

❁ **الأوجاع والأسقام عامة.**

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأعراف: ٩٤].

أي: أخذناهم بالأمراض والأوجاع والأسقام[(٢)].

❁ **الطاعون.**

قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٥٩].

فالرجز: العذاب، وقيل: إن هذا العذاب طاعونٌ أنزله الله عليهم[(٣)].

ويقوي ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الطاعون عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الطاعون رجسٌ أرسل على طائفةٍ من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه؛ وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا؛ فرارًا منه، قال أبو النضر: لا يخرجكم إلا فرارًا منه)**[(٤)].

❁ **الأمراض الفتاكة المهلكة.**

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: ترى آكل مال اليتيم؛ وقد انتابته الأمراض الفتاكة المهلكة، وذهب المفسرون إلى أن المراد بالنار التي يأكلونها: نار الآخرة. والقول الذي ذهبنا إليه أولى لما نشاهده، ولقوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: في الآخرة[(٥)].

٢. القحط والمجاعة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]. والسنين القحط والجدوبة[(٦)].

قال عليه السلام: **(اللهم سنين كسني يوسف)**[(٧)].

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) المصدر السابق ١٠/ ١١٥ بتصرف.
(٢) التفسير البسيط ٨/ ١٣٥، ١٣٦ بتصرف.
(٣) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ١١٨.
(٤) أخرجه البخاري، رقم ٣٢٣٨ كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار.
(٥) أوضح التفاسير ١/ ٩٢.
(٦) انظر: التفسير البسيط ٩/ ٢٩٦، ٢٩٨.
(٧) أخرجه البخاري، رقم ١٠٠٦، كتاب الاستسقاء، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة[1].

وقال تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[الدخان: ١٠].

أكثر المفسرون على أن هذا الدخان كان حين دعا النبي صلى الله عليه وسلم على قومه بمكة لما كذبوه فقال: (اللهم سنين كسني يوسف) فارتفع القطر، وأجدبت الأرض فأصابت قريشًا شدة المجاعة حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف، فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء دخان[2].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

أي: القحط وقلة الأمطار [3].

٣. الفقر وشدة البؤس.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: ٤٢].

والمعنى: أرسلنا رسلًا فخالفوهم فأخذناهم﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي: الفقر وشدة البؤس[4].

٤. الهلاك بقوة العدو والحروب.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أي: أنكم إن لم تنفقوا في سبيل الله هلكتم، أي: عصيتم الله فهلكتم، وجائز أن يكون هلكتم: بتقوي عدوكم عليكم.والمعنى: لا تتركوا الجهاد فتهلكوا، فسمى ترك الجهاد تهلكة؛ لأنه يؤدي إلى الهلاك في الدنيا بقوة العدو وفي الآخرة بالعصيان[5].

٥. الإهلاك ببلاء.

مثل: الفيضان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾[الأعراف: ١٣٣].

ووقع الإهلاك لقوم فرعون بهذه الوسائل فأصاب الإهلاك زرعهم وحرثهم ونسلهم وأجسامهم[6].

ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

والمعنى: كمثل الريح التي تكون باردة يتوقع منها الناس الخير لزرعهم، فتهلكه وتجعله حطامًا، وتصيبه بالآفات الوبائية[7].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٨٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٣٠٠.

(٢) انظر: التفسير البسيط ٢٠/ ٩٨.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة ٨/ ٢٨٣.

(٤) انظر: التفسير البسيط ٨/ ١٣٥، ١٣٦ بتصرف.

(٥) المصدر السابق ٣/ ٦٣٤، ٦٣٥ بتصرف.

(٦) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٢٩٣٥، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ١/ ٣١٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٣٠.

(٧) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣/ ١٣٧٥،

وقد يرد في الذهن بعض الأسئلة، منها:

لماذا ذكر القرآن أن إهلاك قوم شعيب عليه السلام كان تارة بالرجفة، وتارةً بالصيحة، وتارةً بالظلة؟

ولماذا يسميهم مرة أصحاب مدين، ومرة أخرى أصحاب الأيكة؟

والجواب: جمهور المفسرين على أن كل ذلك وقع لقوم شعيبٍ، وأن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، والاسم مختلفٌ فيهما، والمسمى واحدٌ.

قالوا: لما أراد الله أن يهلكهم صاح بهم الملك؛ ولذا قيل: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: آية ٩٤].

فلما صاح الملك اهتزت الأرض بهم هزًا عنيفًا، ورجفت بهم رجفةً قويةً، فصار هو معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١].

ثم إن الله أضرم عليهم الظلة نارًا فاحترقوا، فاجتمعت لهم الصيحة من أعلى، والرجفة من أسفل، وأحرقهم الله، واجتمع لهم ذلك كله [١].

لماذا ذكر القرآن الكريم إهلاك قوم ثمود في موضع بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وفي موضع: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وفي موضع: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] ؟

والجواب: لا تناقض في ذلك؛ لأن الرجفة مترتبة على الصيحة؛ لأنه لما صيح بهم رجفت قلوبهم فماتوا، فجاز أن يسند الإهلاك إلى كل واحدة منهما [٢].

لِمَ لا يجوز أن يقال: إن العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان بسبب كفرهم، بل كان بسبب الأحداث والظواهر الطبيعية؟

والجواب: ما الظواهر الطبيعية التي أوجبت نجاة بني إسرائيل من البحر وأغرقت فرعون وقومه في ساعة واحدة، وما الظواهر الطبيعية التي أوجبت الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم على القبط دون بني إسرائيل وهم معهم في بلد واحد، وما الظواهر الطبيعية التي نجت لوطًا ومن معه وأهلكت قومه وهم قريب منهم، وما الظواهر الطبيعية التي أوجبت حمل الطير الأبابيل حجارة من سجيل ورمت بها أصحاب الفيل دون غيرهم، وكل ذلك ثابت بالتواتر لا يمكن إنكاره [٣].

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٦٠٩، ٦١٠. بتصرف.

(٢) انظر: روح البيان ٣/ ١٩٣.

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٧٧.

حكم الإهلاك

لا تنفك الحكمة عن أفعال الله عز وجل وأقضيته، وأحكامه.

ومن ذلك الإهلاك، فلا تخلو حالةٌ من حالات الإهلاك التي قدرها الله تعالى من حِكَم.

ومن تلك الحِكَم:

أولًا: بيان قدرة الله تعالى:

من حكم الإهلاك أنها تبين قدرة الله تعالى من وجوه:

١. أن الله تعالي قادرٌ على إهلاك العالم بأسره وإعادته إن شاء.

قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أي: أن الذي أهلك من قبلهم وأنشأ بعدهم قرنًا آخرين قادر على أن يهلك العالم بأسره، وقادر على الإعادة بعد الإهلاك[(١)].

٢. أن الله تعالى قادر على الإهلاك في أي زمان ومكان وبأي وسيلة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي: تقدر على إهلاكي[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

أي: إن في ذلك الذي أنزله الله بعاد لبرهانًا على قدرة الله[(٣)].

٣. أن الله تعالى قادر على إهلاك العالم بأسره وإنشاء غيره متى أراد.

قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٦ - ١٧].

أي: إن الله تعالى قادر على أن يذهبهم وأن يفنيهم، فالإفناء أسهل من الإنشاء، فمن قدر على الإفناء قادر على الإنشاء الثاني[(٤)].

وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾[الأنعام: ١٣٣].

والمعنى: إن يشأ الله يذهبكم بإهلاككم وإفنائكم ويأت بناس آخرين غيركم[(٥)].

٤. أن الله تعالى قادر على الإهلاك فجأة بسوط عذابه تأديبًا للغافلين.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ

(١) انظر: التفسير البسيط ٨/ ٢٢.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة ٥/ ٤٩.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٦١٠.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨/ ٤٠١٣.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٤٨٣.

﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

والمعنى: أنه قادر على أن يؤدبهم بسوط عذابه فجأة، فهو « العذاب التأديبي » من الله[1].

٥. القدرة على إهلاك الكافرين واختيار نجاة المؤمنين من العذاب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥].

وفيه فائدتان: إحداهما: بيان القدرة والاختيار أي قدرة الله تعالى على إهلاك الكافرين واختياره سبحانه نجاة المؤمنين، فيصيب الهلاك الفاجر وينجوا منه البار[2].

٦. أن الله قادر على الإهلاك فلا يعجزه شيء، فلا يعجزه سبحانه قوة أو شدة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

أي: أنهم ظنوا أنهم قادرون على دفع ما نزل بهم من العذاب، فرد الله عليهم بأن الله أشد منهم قدرة[3].

وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

أي: لم يعجزنا أحد منهم[4].

ولا يعجزه كثرة المال ولا قوة الآلات والأنصار، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

أي: لا ينبغي أن يغرهم هذا الذي يتبجحون به ويتطاولون[5].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص ٧٨] أي: أن الله تعالى قد أهلك من هو أشد منه قوة في الآلات، وجمعًا للأعوان والأنصار والأموال[6].

والآيات التي تدل على قدرة الله على الإهلاك -مهما كانت الأمم المهلكة أشد قوة أو بطشًا أو تمكنًا في الأرض- كثيرة منها، قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٣٧].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [ق: ٣٦].

أي: إن كنا أهلكنا الذين هم أقوى منكم بأضعافٍ فعليكم أن تحذروا بطشنا[7].

---

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير ٢/ ١٣٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٨١.
(٣) انظر: فتح البيان ١٢/ ٢٣٦.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٣٦٢.
(٥) انظر: أيسر التفاسير للجزائري ٣/ ٣٢٧.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨١٠.
(٧) العذب النمير ٥/ ٦٢٧بتصرف، وانظر: جامع

ثانيًا: إظهار العدل الإلهي بين العباد.

ومن حكم الإهلاك أنها تبرز العدل الإلهي بين عباده تعالى، ومن صور ذلك العدل:

١. أن الله تعالى لم يهلك أحدًا ظلمًا.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

أي: أهلكهم بالجزاء العدل الذي يستحقونه[١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

يقول ابن عاشور: «وجملة لم يكن ربك مهلك القرى بظلم هو شأن عظيم من شؤون الله تعالى، وهو شأن عدله، فبين بهذه الآية أن هذا هو العدل»[٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص ٥٩].

وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم، حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم[٣].

٢. أن الله تعالى لم يترك حجة لمعتذر عند إهلاكه.

فالعدل الإلهي اقتضى ألا يكون هلاك وعقاب في الدنيا إلا بعد بيان الحجة وإقامة البرهان[٤].

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥].

فالله تعالى لا يأخذ ظلمًا، ولذا القرى التي دمرها لم تكن عندهم دعوى يعتذرون بها[٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨ - ٢٠٩].

البيان، الطبري ٢٠/ ٥٥٢.

(١) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ١/ ٤٢٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٨.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٠٢.

(٤) انظر: انظر: التفسير الوسيط الزحيلي ٢/ ١٢٧٦.

(٥) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٤٩.

يقول ابن كثير: «ثم قال الله تعالى مخبرًا عن عدله في خلقه: أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم»[1].

٣. أن الله تعالى يعاقب العاصي، فيهلكه، ويثيب الطائع فينجيه.

فالعدل الإلهي بين العباد يقتضي التفاوت بين الأمم، فيهلك الله الظالمين، وينعم على الطائعين[2].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦ – ٦٧].

فقد اقتضى العدل الإلهي ورحمة الله إنجاء صالح عليه السلام ومن آمن معه، وإهلاك قبيلة ثمود[3].

ولهذا قال سيدنا هود عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

أي: على الحق والعدل، فهذا تمثيل لعدله واستقامة تدبيره لخلقه، وجزائه لهم بالثواب والعقاب[4].

ثالثًا: الاعتبار بمصير المهلكين:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

قال الحسن: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعتبروا من كثرة إهلاكنا القرون قبلهم[5].

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

أي: ما قصه الله سبحانه من أخبار الأمم السالفة، هو مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبروا[6].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [طه: ١٢٨].

والمعنى: ألم يعتبروا[7].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ٦].

أي: أنهم قد مضت من قبلهم عقوبات الأمم السابقة، فما لهؤلاء لم يعتبروا بتلك الأمم؟[8].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٥.
(٢) التفسير المنير الزحيلي ٧/ ١٢٨.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٠٣.
(٤) انظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن ٢/ ٦٦٧، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢١١.
(٥) تأويلات أهل السنة ٤/ ٢٢.
(٦) انظر: فتح البيان ٦/ ٢٤٢.
(٧) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٨٠٨ بتصرف.
(٨) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٤١١.

أي: فهل من يتذكر ويتعظ، ويعتبر به[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩].

أي: ألم ينظروا ويتفكروا ألم يعتبروا[2].

وليس أدل على أن الإعتبار بمصير المهلكين من جملة حكم الإهلاك: من أن الله تعالى قد ذيل الحكاية عن هلاك الأمم بالتوجيه إلى النظر والإعتبار.

يقول الطاهر بن عاشور عقب إهلاك قوم لوط عليه السلام: «والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[الأعراف: ٨٤].

يجوز أن يكون لغير معين، بل لكل من يتأتى منه الاعتبار، كما هو شأن إيراد التذييل بالاعتبار عقب الموعظة، لأن المقصود بالخطاب كل من قصد بالموعظة»[3].

ومن نماذج إيراد التذييل بالموعظة والاعتبار عقب إهلاك الأمم ما يلي:

* **بعد إهلاك قوم سيدنا نوح عليه السلام.**

قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٥].

أي: أبقينا خبرها أمرًا داعيًا للعظة والاعتبار[4].

* **بعد إهلاك قوم سيدنا هود عليه السلام.**

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

أي: إن في إهلاكنا عادًا لعبرة وموعظة[5].

* **بعد إهلاك قوم سيدنا لوط عليه السلام.**

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[الأعراف: ٨٤].

قال ابن عاشور: «فالأمر للإرشاد والاعتبار»[6].

* **بعد إهلاك قوم سيدنا شعيب عليه السلام.**

قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩].

ومعنى ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أي: طريق بين واضح، وإن عليهم أن يعتبروا كلما مروا بطريقهم[7].

* **بعد إهلاك فرعون وجنوده.**

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٠٣].

أي: فإن فيه معتبرًا للمعتبرين[8].

ولقد أجمل الله تعالى ذلك كله

---

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٤٥٨، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٩/ ١١٩٤.
(٢) تأويلات أهل السنة ٦/ ٢٩٨ بتصرف.
(٣) التحرير والتنوير ٨، ب/ ٢٣٨ بتصرف.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٩/ ١١٧٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ٣٧٩.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ٨، ب/ ٢٣٨.
(٧) المصدر السابق ٨/ ٤١٠٣ .
(٨) فتح البيان ١٠/ ١٩.

فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

قالوا: والله بين أنه ما قص علينا قصصهم إلا لنعتبر بها[1].

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

أي: تلك القرى المهلكة نذكر لك يا محمد من أخبارها ما فيه عبرة لمن أرسلك الله إليهم[2].

رابعًا: تسلية الرسل وورثتهم.

أولًا: معنى التسلية هنا: تأتي على معنيين:

الأول: كشف الهم وإزالة الكرب[3].

الثاني: تطييب النفس وإذهاب ما بها من سأم وضيق[4].

وكلا المعنيين تحققًا للرسل عليهم السلام ولورثتهم بإهلاك مكذبيهم.

ثانيًا: ما جاء في التنزيل يبين أن إهلاك المكذبين كان فيه تسلية للرسل وورثتهم.

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٤٨٣.

(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٧٩ بتصرف.

(٣) انظر: الصحاح ٦/ ٢٣٨١، مختار الصحاح ص ١٥٣، تاج العروس ٣٨/ ٢٩٩.

(٤) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١١٠٢.

١. ما كان تسلية للرسل عليهم السلام.

- ما كان تسلية لسيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

يقول الله تعالى ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن فإني مهلكهم ومنقذك، وهذا تسلية من الله عز وجل لنوح عن قومه بما أعلمه من حالهم[5].

- ما كان تسلية لسيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

بعد أن عاقب الله بني إسرائيل بالتيه قال لموسى عليه السلام: فلا تحزن، وسمي قومه ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ ليكون أبلغ في تسليته[6].

- ما كان تسلية لسيدنا محمد صلي الله عليه وسلم.

سلاه الله تعالى بإهلاك السابقين حين ناله الأذى والتكذيب من قومه.

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٤ -

(٥) التفسير البسيط ١١/ ٤٠٩.

(٦) انظر: درج الدرر ٢/ ٦٦٤.

[٤٥].

وفي ذلك تسلية وتسرية للنبي صلى الله عليه وسلم في عناد قومه له[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

هذه الآية تسليةٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وتهوينٌ عليه[٢].

وسلاه الله تعالى بإهلاك السابقين حين أصر قومه على الكفر واستهزؤا به صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢]. والكلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ووعيد للمشركين بالإهلاك[٣].

وسلاه الله تعالى بإهلاك السابقين حين هم قومه بإخراجه من مكة.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم إذ قص عليه في إثر ما ذكر من هم قومه بإخراجه - قصة فرعون- وما هم به من استفزاز موسى وبني إسرائيل من أرض مصر، حتى أهلكه الله تعالى وأورثهم الأرض من بعدهم[٤].

٢. ما كان تسلية للمؤمنين رضي الله عنهم أتباع الانبياء عليهم السلام وورثتهم.

أمر الله تعالى المؤمنين بالنظر في عاقبة المفسدين وما حل بهم من الإهلاك لتسلي عن أذاهم.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

أمر المؤمنين بالنظر في عاقبة المفسدين؛ لأن من توسم حلول الهلاك على عدوه، يكون له بعض التسلي في ذلك[٥].

❁ **كما أن في إهلاك ابن نوح عليه السلام تسلية للصالحين إذا فسد أبناهم.**

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦].

قال الإمام القرطبي: «في هذه الآية تسليةٌ للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين»[٦].

❁ **وقد سلى سيدنا موسى عليه السلام بني إسرائيل وطيب قلوبهم بانتظار إهلاك فرعون.**

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٩٩٦ بتصرف.
(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ١٨١.
(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ١٤٨ بتصرف.
(٤) التفسير البسيط ١٣/ ٤٩٩ بتصرف.
(٥) تأويلات أهل السنة ٤/ ٥١٦ بتصرف.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٧.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أي: أنه أمرهم بذلك تسلية لهم من وعيد فرعون[١]، لذلك قال الله تعالى بعدها: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩].

أي: قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل تسلية لهم وتطييبًا لقلوبهم، وبعثًا للأمل في نفوسهم: عسى ربكم أن يدمر عدوكم الذي أذاقكم العذاب ألوانًا بالقتل والعسف[٢].

❁ **وسلى سيدنا شعيب عليه السلام قلوب المؤمنين معه بتوعد الكافرين بالإهلاك.**

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[الأعراف: ٨٧].

والمقصود منه تسلية قلوب المؤمنين بأخبارهم بأن الله حاكم منزه عن الجور فلا بد وأن يخص المؤمن بالنجاة والكافر بأنواع العقوبات[٣].

❁ **وسلى الله تعالى المؤمنين بالسير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين التي كانت الإهلاك.**

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

قال القرطبي: «هذا تسليةٌ من الله تعالى للمؤمنين»[٤]، وعاقبتهم كانت الإهلاك.

❁ **وسلي الله تعالى المؤمنين بأن الكافرين مصيرهم في الدنيا العقاب والهلاك وفي الأخرة النار.**

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

بين الله عداوة الكفار للأنبياء وأتباعهم، وكان ذلك أمرًا غائظًا محزنًا موجعًا، ختم ذلك ببيان حقوق كلمة العذاب وهي النار في الأخري كما أنه مستحق الأخذ والهلاك في الدنيا، تسلية للمؤمنين[٥].

❁ **وسلى الله تعالى كل مظلوم بإهلاك ظالمه.**

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٤٩.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٩٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥ بتصرف.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢١٦.
(٥) نظم الدرر، البقاعي ١٧/ ١١ بتصرف.

قال القشيري: «في الآية تسلية للمظلومين إذا استبطأوا هلاك الظالمين»[1].

خامسًا: تطهير الأرض من المجرمين.

١. لخطورة الإجرام على الأرض فقد أكد القرآن الكريم أن الله تعالى قد أهلك أممًا بسبب إجرامها؛ تطهيرًا للأرض منهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

أي: مثل ذلك الجزاء وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم[2].

وقال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ – ١٨].

أي: أن الله قد أهلك من أهلك لكونهم مجرمين، فهذا الحكم عام في جميع المجرمين[3].

٢. إهلاك المجرمين فيه تطهير للأرض من شرهم، وهو نعمة من النعم.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ – ٥٥].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: أن هذه المصارع آلاء لله وأفضالًا؛ لأنه تعالى أهلك الشر[4]، وطهر الأرض منه المجرمين.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ – ٢٧].

يقول صاحب الظلال: «فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الذي انتهى إليه قومه. وأحيانًا لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين»[5].

٣. إهلاك المجرمين فيه تطهير للأرض من ضررهم، وهو نعمة تستحق الحمد.

قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فإراحة المسلمين من الظلمة الذين ليس

---

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٤١.
(٢) فتح البيان ٦/ ٢٧.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٧٢٩.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٨ بتصرف.
(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٧١٧.

فيهم إلا الضرر، من غير أن يكون هنالك نفعٌ، نعمةٌ من نعم الله، علم الله خلقه أن يحمدوه عليها[1].

٤. إهلاك المجرمين فيه تطهير للأرض منهم؛ لأن عدمهم أصبح خيرًا من وجودهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣٠ - ٣١].

يقول الرازي: «واعلم أن نبيًا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

يعني: المصلحة إما فيهم حالًا أو بسببهم مآلًا ولا مصلحة فيهم[2].

٥. إهلاك المجرمين فيه تطهيرٌ للأرض عن نجاسة الكفر.

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[الذاريات: ٤١].

الريح العقيم التي أهلكتهم، وفي ذلك تطهير الأرض من نجاسة الكفر[3].

٦. إهلاك المجرمين فيه تطهير للأرض من وسخ الشرك والإضلال.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

فأمره بالحمد على نجاة أتباعه إشارة إلى أنه نعمة عليه، وفي هذه الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو عدوًا من حيث كونها مصيبة له، بل لما تضمنه من السلامة من ضرره أو تطهير الأرض من وسخ شركه وإضلاله، ولذا قال: نجانا دون أهلكهم[4].

٧. إهلاك المجرمين وتطهير الأرض منهم هو العدل والحق الذي قامت عليه السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨٤ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٣ - ٨٥].

قال المراغي: «فكان من العدل تطهير الأرض منهم، دفعًا لشرورهم وإصلاحًا لمن يأتي بعدهم»[5].

سادسًا: استخلاف المصلحين:

أولًا: الآيات القرآنية الدالة على أن الله تعالى يستخلف المصلحين بعد

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٢٦١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٥٠ بتصرف.
(٣) تأويلات أهل السنة ٩/ ٣٨٩ بتصرف.
(٤) انظر: حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل، البيضاوي ٦/ ٣٢٨.
(٥) انظر: تفسير المراغي ١٤/ ٤٢.

الإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣ – ١٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم أي: ذلك الأمر والوعد محقق ثابت[١].

وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أي: أن الأمم إذا هلكت بسبب فسادها، جاء جيل يصلح أمرها، ويزيل أسباب الفساد، ويجدد المتخرب، وهو الجيل الذي ينشئه الله على آثار المفسدين[٢].

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٣ – ١٠٤].

أي: بعد أن خرجوا من البحر ناجين، وغرق فرعون وجيشه، قلنا لهم بلسان الحال من بعده ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٣ – ١٤] أي: استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر[٤].

ثانيًا: الرسل عليهم السلام يؤكدون لقومهم أن الله يستخلف المصلحين بعد الإهلاك.

- سيدنا هود عليه السلام يذكر قومه باستخلافهم من بعد قوم نوح ويحذرهم أن يستخلفوا.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧].

- سيدنا صالح عليه السلام يذكر قومه فضل ربهم بأن استخلفهم من بعد عاد عند صلاحهم.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

- سيدنا موسى عليه السلام يبشر المؤمنين من قومه بالاستخلاف من

(١) انظر: روح البيان ٤/ ٤٠٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٤٣٩.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٤٤٧١.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٢٧.

بعد فرعون.

قال تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وذلك يدل على أن المستخلفين في الأرض لم يستخلفوا فيها لأجل الإنعام بها عليهم، بل كل ذلك للابتلاء والامتحان، فيطيعون الله فيما استخلفهم فيه أو يعصونه[(١)].

ثالثًا: من سنن الله تعالى نصر الأنبياء والصالحين واستخلافهم بعد الإهلاك.

قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

فقد أهلك الله الكثير من أعداء رسله بأنواع العذاب، كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم[(٢)]. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

فالآيات دالة على أن الله تعالى أعلى كلمة جميع عباده المرسلين، وأهلك أعداءهم[(٣)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] أي: أننا ننصر رسلنا وأتباعهم الذين يؤمنون بهم، في الحياة الدنيا وننتقم لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وفيه إشارة إلى من استخلفهم الله من عباده المؤمنين الصالحين، بعد أن أهلك القوم الظالمين[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وعبر بقوله ﴿يَرِثُهَا﴾ للإشارة إلى أن الصالحين يخلفون من كانوا عليها من فاسدين ظالمين عتاة[(٦)].

---

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ١٠٢.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ١٣٤٢.
(٣) درج الدرر ٤/ ١٤٧٣.
(٤) انظر: فتح البيان ١٢/ ١٩٩، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٦٥٠.
(٥) التفسير القرآني للقرآن ٩/ ١٣١٥.
(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٩٢٧.

نماذج من القرى المهلكة في القرآن

قص القرآن الكريم نماذج من القرى المهلكة، ثم عقب بعدها بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

والمقصود: الإشارة إلى السابق من قصة نوح وقومه، وعاد وهود، وثمود وصالح، ومدين وشعيب، وطغيان فرعون[١].

وقد أجمل الله تعالى تلك القرى المهلكة فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤]

أولًا: ديار قوم نوح عليه السلام:

ذكر الله قصتهم في سور: الأعراف ويونس وهودٍ والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت، وأنزل فيهم سورةً كاملةً. كما ذكرهم في آيات متفرقة في سور غيرها[٢].

ولقد أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى التوحيد، فلم يزدهم ذلك من دعائه إياهم إلى الله إلا فرارًا وتكذيبًا[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

فدعا نوحٌ ربه على قومه[٤].

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

فأرسل الله تعالى من السماء ماء كما يسيل من أفواه القرب، وانفتحت الأرض بعيون الماء، حتى اجتمع الماءان، ماء السماء وماء الأرض، على ما قدر الله تعالى من هلاك قوم نوح ونجاته ومن معه من المؤمنين[٥].

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ ١٢].

وأهلكهم الله بالإغراق بالطوفان[٦].

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وبعد إهلاك القوم عاد كل شيء بأمر الله تعالي كما كان، قال تعالي: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]. وأنجى الله نوحًا من الغرق، وأنجى معه جماعة المؤمنين الذين

---

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٧٤٨.
وانظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٥٨.
(٢) انظر: قصص الأنبياء،ابن كثير ١/ ٧٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٧٠.
(٤) المصدر السابق ٢٢/ ١٢١.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٩.
(٦) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٤٧٠.

صحبوه في السفينة[1].

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

وقوم سيدنا نوح عليه السلام وديارهم هي أول الديار المهلكة في تاريخ البشرية، والقرون التي كانت بين آدم عليه السلام ونوح كانت كلها على الإسلام، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧][2].

وديار قوم نوح من القرى التي أهلكها الله تعالى، فاندثرت ولم يبق منها باقية، استجابة لدعوة سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦][3].

ولذلك فالراجح أن الطوفان عم الأرض كلها ودمر كل الديار[4].

ثانيًا: عاد قوم سيدنا هود عليه السلام:

ذكر الله تعالى قصة عاد في سور من القرآن، منها: سورة الأعراف وهودٍ والمؤمنون والشعراء وحم السجدة والأحقاف والذاريات والنجم والحاقة كما ذكرهم في آيات متفرقة في سور غيرها.

وكانت قبيلة عاد عربًا يسكنون الأحقاف

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وقد أشار القرآن إلى أن مساكنهم كانت معلومة عند العرب وقت نزول القرآن، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩][5].

ووصف القرآن الكريم عمران هذه القرية، بأنها كانت ذات أبنية طويلة مرتفعة، وأنهم كانوا يبنون بكل مكان مرتفع برجًا من الابراج يجلسون فيه، ومباني عظيمة هائلة من القصور المشيدة[6]، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩].

وقد بين سبحانه كيف نزل بهم العذاب، فعبر عن أمر الله بعذابهم بصيحة أرجفت أرضهم وديارهم، وجاءتهم بريح صرصر

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨٣٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٦٢ بتصرف.
(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي ٧/ ٢٧٠ بتصرف.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ٥٧.
(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٢١.
(٦) انظر: التفسير البسيط ٢٣/ ٥٠٣، أوضح التفاسير ١/ ٤٥١.

عاتية[1]، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

والمعنى: فأهلكهم الله بريحٍ شديدة الصوت[2].

وقرى عاد ما زالت بقاياها في الأحقاف قائمة تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران، وعبرة لمن يعتبر[3].

ثالثًا: ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام:

ذكر الله تعالى قصتهم وما كان منهم وقصة هلاكهم في سورة الأعراف وهودٍ والحجر وسبحان والشعراء والنمل والسجدة واقتربت و الشمس. وثمود وهم قبيلة مشهورة، كانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك.وقد مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهبٌ إلى تبوك بمن معه من المسلمين[4].

وكانوا بعد قوم عادٍ، وقد أعطيت ثمود مهارة في البناء والعمران ورغدًا في العيش.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

وكانوا يعبدون الأصنام. فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو: صالح عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده. فآمنت به طائفةٌ منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجةً عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

أي: فقتلوا الناقة، فأطبق الله عليهم العذاب واستأصلهم به[5].

ووصف التنزيل الحكيم هلاكهم وهلاك قريتهم فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والمراد بها: أنهم أصبحوا موتى هامدين

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٠٧٤.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٥٥٣.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٢٧ تصرف.
(٤) انظر: قصص الانبياء، ابن كثير ١/ ١٤٥.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٩٢٩.

لا يتحركون[١].

وأهلكهم الله تعالى وبقيت ديارهم عبرة للمعتبرين، وبقايا ثمود في الحجر.

رابعًا: المؤتفكات قرى قوم سيدنا لوط عليه السلام:

نزل سيدنا لوط بمدينة سدوم، وكانت لها أرض ومعتملات وقرًى مضافةٌ إليها،قيل:خمس قري. ولها أهلٌ من أفجر الناس وأكفرهم، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكرٍ فعلوه[٢].

ودعاهم لوطٌ إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، فأحل الله بهم من البأس الذى لايرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثلةً في العالمين، وعبرةً يتعظ بها[٣].

وحكى القرآن قصتهم وما كان منهم في سورة الأعراف وهودٍ والحجر والشعراء والنمل والعنكبوت والصافات والذاريات والقمر، وكذلك ذكر الله لوطًا وقومه في مواضع أخر من القرآن.

ووصف القرآن الكريم إهلاك قرى قوم لوط فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

وكان هلاكهم بأشد ألوان العذاب.

فأرسل الله عز وجل عليهم صيحة عظيمة، وافقت قلب قراهم، ثم أنزل عليهم حجارة من سجيل[٤].

وترك الله آثار قراهم عبرة فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦][٥].

وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧]: أي: على منازلهم، وترون آثار نقمتنا وتعذيبنا.

خامسًا: مدين قوم سيدنا شعيب عليه السلام:

كان أهل مدين عربًا يسكنون «مدين»، وهي قريبة من أطراف الشام، ومن بحيرة قوم لوطٍ، وكانوا بعدهم بمدةٍ قريبة.

قال تعالي: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٩].

وقد ذكر الله تعالي قصتهم وما كان منهم في سورة الأعراف وهودٍ والحجر والشعراء والعنكبوت.وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة،

---

(١) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ١/ ٣٠٨.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٢٨٩٢.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير١/ ٢٥٤.

(٤) انظر: التفسير البسيط ١١/ ٥١٠.

(٥) انظر: موسوعة الصحيح المسبور، حكمت بشير ٣/ ١٦٥.

وهي شجرةٌ.وكانوا من أسوإ الناس معاملةً ؛ يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما. فبعث الله فيهم رجلًا منهم، وهو رسول الله شعيبٌ عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد[1].

وعند هلاكهم اجتمع عليهم أصناف من العذاب فأصابهم عذاب يوم الظلة» وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة، فزهقت الأرواح، وخمدت الأجساد[2].

سادسًا: أصحاب السبت:

هم قوم من بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

واختلف المفسرون في اسم هذه القرية والمشهور عندهم أنها قرية «أيلة»، وقد سكنها اليهود على ساحل البحر ابتلاهم بإتيان الحيتان آمنةً يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم مخافة الاصطياد، فاعتدوا في سبتهم حرصًا وشرهًا، فمسخهم الله قردةً خاسئين[3].

ووصف الله تعالى إهلاكهم فقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥ – ١٦٦].

أي: عوقبوا بمسخهم قردة[4].

قال قتادة: مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعدما كانوا رجالًا ونساء، وبقوا ثلاثة أيام ينظر الناس إليهم ثم هلكوا جميعًا[5].

سابعًا: قرى ذكر الله تعالى إهلاكها دون تعيين لهم ولا تسمية لنبيهم:

١. إهلاك الله تعالى لأصحاب الرس.

اختلفت الروايات عن السلف في تحديد من هم أصحاب الرس[6].

والثابت أن أصحاب الرس من القرى التي أخبر الله تعالي عن هلاكها في القرآن الكريم وذلك في موضعين:

قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٢٧٥و٢٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٩.

(٣) انظر: درج الدرر ١/ ١٩٤.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٥٣٧.

(٥) انظر: فتح البيان ٥/ ٦١، ٦٢، معالم التفسير، البغوي ٢/ ٢٤٣، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٦٣.

(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٢٨١.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ [ق: ١٢].

والشاهد أن الله تعالى قد أهلك أصحاب الرس إهلاكًا ماحقًا[١].

٢. إهلاك الله تعالى لأصحاب القرية.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣].

ذهب عدد من المفسرين إلى أن القرية هنا هي«انطاكية» غير أن الامام ابن كثير أثبت أنها قرية غير أنطاكية موافقًا عددًا من السلف[٢]، وما يعنينا هنا: أنها قرية أهلكها الله بالصيحة لما كذبت الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إليهم، وقتلوا الرجل الذي جاء يسعي إليهم ناصحًا أمينًا.

قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩]. فأخذ جبريل بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون، مثل النار إذا أطفأت، فبادوا ولم يبق منهم باقية[٣].

٣. إهلاك الله تعالى لقوم تبع.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤].

وتبع هو أحد ملوك اليمن، كان يملك اليمن، والشحر، وحضرموت. ويقال لكل من ملك اليمن: «تبع»، وقد كان «قوم تبع» في غاية من الرخاء والنعمة، والقوة والمنعة؛ فأهلكهم الله تعالى بفسقهم وكفرهم[٤].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا:

- أن من القرى المهلكة ما لا تزال أطلالها قائمة، ومنها ما حل بها الخراب والدمار فلم يبق منها أثر.
- وأن الله قص علينا بعض قصص القرى المهلكة، وليس كلها.
- وأن الهالكون من أهل تلك القرى يختلفون في الكثرة والقلة، فقوم نوح كانوا سكان الارض كلهم، وكانت عاد وثمود والمؤتفكات ومدين قبائل القرى كثيرة، والمخالفون في الدخول إلى القرية كانوا طائفة من بني إسرائيل، وأصحاب السبت كانوا فرقة من أهل قرية انقسمت إلى ثلاث أمم.
- أن القرآن سمى بعض القرى المهلكة، ولم يسم أخرى، لأن القصد الاعتبار والاتعاظ من هلاكها.

موضوعات ذات صلة:

الإكراه، الحرام، الحلال، الضر

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٥١٦ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٣٦١ بتصرف.
(٣) انظر: التفسير البسيط ١٨/ ٤٧٣.
(٤) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٦٠٩.





عناصر الموضوع

المجلد السادس

مفهوم الأوثان

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (وثن) في المعاجم على معنيين: **الأول**: الكثرة والاستزادة، والثاني: الدوام والثبوت، فمن الأول قول القائل: استوثن الرجل من المال: استكثر، واستوثن النحل: صارت فرقتين صغارًا وكبارًا، وأوثن زيدًا: أجزل عطيته[(١)].

ومن الثاني عن صاحب الصحاح: «والواثن مثل الواتن، وهو الثابت الدائم»[(٢)].

و«الوثن التمثال يعبد، سواء أكان من خشب أم نحاس أم فضة أم غير ذلك، جمع أوثان ووثن، والوثني: من يتدين بعبادة الوثن، يقال: رجل وثني، وقوم وثنيون، وامرأة وثنية، ونساء وثنيات، والوثنية مذهب عبدة الأوثان»[(٣)].

ولعل وجه اتصال لفظ (الوثن) بأصل مادته اللغوي ظاهر في كثرة عدد وأنواع الأوثان التي عبدتها العرب، أما «الدوام والثبوت» فظاهر أيضًا في أن الوثن دائم في مكان ما ومستقر فيه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

من خلال ما سبق يتضح أن الوثن واحد الأوثان، ويدور في وضعه اللغوي حول المعنيين السابقين، أما في الاصطلاح فليس في مظان التعاريف الاصطلاحية ما يروي الغليل، ويوضح المقصود، لذا لابد من استنباط تعريف من خلال ما مضى، يكون مناسبًا في هذا الصدد، فالوثن في الاصطلاح يعني: «كل معبود اتخذه المشركون إلهًا من دون الله، حجرًا كان، أو شجرًا، أو معدنًا»، ولعل هذا التعريف يوضح المراد، والله أعلم.

فالعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي: وثيقة جدًا فالأوثان متعددة وكثيرة من ناحية العدد، وثابتة - غالبًا - من ناحية المكان؛ إذ قلما تنقل من مكان لآخر.

---

(١) انظر: القاموس، الفيروز أبادي، ٦/ ٢٧٦، بصائر ذوي التمييز له أيضًا، ٥/ ١٥٩، الصحاح، الجوهري، ٢/ ١٦١٦.

(٢) الصحاح، الجوهري، ٢/ ١٦١٦.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢/ ١٠٢٣.



الأوثان في الاستعمال القرآني

وردت الأوثان في القرآن الكريم (٣) مرات فقط[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم جمع	٣	﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠]

وقد أطلق القرآن الوثن على: ما كان له جثة من خشب أو ذهب أو فضة أو غير ذلك، ينحت وينصب فيعبد من دون الله[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٤٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص ١٤٠٠.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٨٣، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٥٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأصنام:

الأصنام لغة:

واحدها: أصنام، وهو ما وينحت من خشب، ويصاغ من فضة ونحاس، فالجمع أصنام، وهو ما اتخذ إلهًا من دون الله[١].

الأصنام اصطلاحًا:

هي كل ما يعبد من دون الله.

الصلة بين الأوثان والأصنام:

هناك من لم يفرق بينهما فاعتبرهما واحدًا[٢]، وهناك من فرق، ومنهم ابن الأثير حيث قال: «الفرق بين الوثن والصنم: أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب أو الحجارة، كصورة الآدمي تعمل، وتنصب فتعبد، والصنم: الصورة بلا جثة»[٣].

٢ الأنصاب:

الأنصاب لغة:

«النُّصُب: ما ينصب ليعبد من دون الله، أو ليذبح عنده الذبائح تقربًا إليه أو إلى الأصنام»[٤].

الأنصاب اصطلاحًا:

قال الكفوي: «الأنصاب أي: الأصنام التي نصبت للعبادة»[٥].

الصلة بين الأوثان والأنصاب:

الأوثان تشمل كل ما يعبد من دون الله، أما الأنصاب فهي الحجارة التي ليست لها صورة معينة، كان يعبدها الجاهليون من دون الله تعالى لذبحهم القرابين عندها، وبهذا يظهر الفرق بينها وبين الأوثان.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٣٤٩.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٤٧، الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢١٢.
(٣) النهاية في غريب الحديث، ٥/ ١٥١.
(٤) القاموس القويم، إبراهيم عبد الفتاح، ٢/ ٢٦٧.
(٥) الكليات، الكفوي، ١/ ٢٠٣.



٣ الأزلام:

الأزلام لغة:

الأزلام: جمع زلم، والزلم: القدح لا ريش عليه، و«زلم» بالفتح أو «زلم» بالضم، والزلم والقلم واحد، وقلمه إذا قطعه، يقال: زلم أذنه وأنفه زلمًا: أي: قطعهما[(١)].

الأزلام اصطلاحًا:

والأزلام هي القداح أو السهام التي جعلت للاستقسام[(٢)]، وإنما سميت القداح بالأزلام؛ لأنها زلمت، أي: سويت، وقيل: حصًى بيضٌ كانوا يضربون بها، وكانت العرب تستقسم بها عند الأصنام، والاستقسام طلب القسم، أي: معرفة ما يقسم للإنسان ويقدر[(٣)].

الصلة بين الأوثان والأزلام:

الفرق بينهما واضح، فالأوثان ما يعبد من دون الله، أما الأزلام فهي القداح التي تستخدم في الجاهلية لمعرفة ما يقسم للإنسان.

٤ التماثيل:

التماثيل لغة:

جمع تمثال، والتمثال: الصورة، ومثل له الشيء: صوره حتى كأنه ينظر إليه، يقال: مثلت، بالتثقيل والتخفيف، إذا صورت مثالًا، والتمثال: الاسم منه[(٤)].

التماثيل اصطلاحًا:

أصل التمثال الشيء المصنوع مشابهًا لشيء من مخلوقات الله سبحانه، يقال: مثلت الشيء بالشيء إذا جعلته مشابهًا له[(٥)].

الصلة بين الأوثان والتماثيل:

التماثيل هي الأجسام المصورة على هيئة إنسان أو حيوان أو طائر أو كائن ما، عبد هذا المصور أو لم يعبد، أما الأوثان فغالبًا تعبد من دون الله تعالى .

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٦٩، أساس البلاغة، الزمخشري، ص ١٩٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٨، جامع البيان، الطبري، ٩/ ٣١١.
(٣) انظر: الميسر والأزلام، عبد السلام هارون، ص ٥٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٦١٣.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٨٦.

تاريخ وفلسفة

سيطوف بنا البحث في أسطره التالية بتأريخ موجز لعبادة الأوثان وبداية ظهورها، وانتقالها إلى العرب، وهذا فيما يلي:

أولًا: بدء عبادة المجسمات لدى الأمم:

يكاد يكون من المشتهر تاريخيًا أن عبادة الأصنام ظهرت أول ما ظهرت على أيدي قوم سيدنا نوح عليه السلام، وعن طريقهم انتشرت عبادتها في بقية أرجاء المعمورة، وتابعهم على ذلك من جاء بعدهم، لكن حقيقة الأمر بخلاف ذلك، فمن خلال البحث والدراسة تبين أن مبدأ ظهور الأصنام على الساحة كان بعد زمن سيدنا آدم عليه السلام.

وفي ذلك يقول الإمام الفخر الرازي: «اعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأصنام، والدليل عليه أن أقدم الأنبياء الذين وصل إلينا تاريخهم على سبيل التفصيل هو نوح عليه السلام، وهو إنما جاء بالرد على عبدة الأصنام، كما حكى الله عنه ذلك... وذلك ليدل على أن دين عبدة الأصنام قد كان موجودًا قبل نوح عليه السلام»[(١)].

وهذا كلام يؤيده ما ذكره نسابة العرب «هشام بن محمد الكلبي» حيث يروي قصة ظهور الأصنام بعد آدم عليه السلام مباشرة فيقول: «أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: «نوذ»، وهو أخصب جبل في الأرض..

ثم ذكر قولًا عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول فيه: « وكان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه، ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم: يا بني قابيل! إن لبني شيث دوارًا[(٢)] يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شيء، فنحت لهم صنمًا، فكان أول من عملها...» .

ثم يقول هشام: أخبرني أبي قال: كان ود، وسواعٌ، ويغوث، ويعوق، ونسر قومًا صالحين، ماتوا في شهر فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا؟ قالوا: نعم!! فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه، وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣٧.

(٢) الدوار: -بتخفيف الواو المفتوحة-: الطواف، يقال: دار دورًا: طاف حول الشيء. المعجم الوجيز ص ٢٣٧، ولعل المقصود بالدوار هنا: الشيء نفسه الذي يدورون حوله.

تعظيم القرن الأول، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء[١] إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم وعظم أمرهم، واشتد كفرهم، فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام نبيًا فدعاهم فكذبوه، فرفعه الله إليه مكانًا عليًا، ولم يزل أمرهم يشتد حتى أدرك نوحٌ عليه السلام فبعثه الله نبيًا»[٢].

يتضح لنا من خلال ما سبق مبدأ ظهور عبادة الأوثان، وأنها قديمة من بعد زمن آدم عليه السلام.

ويكاد العلماء أن يجمعوا على أن أول من أدخل الأصنام في الجزيرة العربية هو «عمرو بن لحي الخزاعي».

لكن اختلفوا فيما بينهم في تحديد السبب الباعث لهذا الرجل على إدخال الأصنام الجزيرة، فمن قائل: إن عمرو بن لحي كان له رئيٌّ[٣] من الجن، فأمره أن يذهب بالأصنام إلى العرب في وقت حجهم البيت ليعبدوها ففعل[٤]، ومن قائل: إن عمرًا مرض مرضًا شديدًا، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة[٥] إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[٦]، وقيل: غير ذلك[٧].

وفي الصحيح: (**أن عمرو بن لحي هو أول من سيب السوائب[٨]، ووصل الوصيلة[٩]..**) إلخ.

فهو أول من أدخل الأصنام شبه الجزيرة.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) جرت العادة في اللغة باستعمال «هؤلاء» و«أولئك» للعقلاء، وهي هنا للأصنام، ولكن ورد استعمالها أيضًا فيما لا يعقل على سبيل القلة، كما ورد في أشعار العرب. أفاده محقق كتاب الأصنام، أ/ أحمد زكي باشا ص ٥٢.

(٢) انظر الأصنام ابن الكلبي ص ٥١ بتصرف.

(٣) كانت العرب تقول: «فلان له رئي من الجن» إذا ألف الجني إنسانًا، وخبره ببعض الأخبار، وبما وقع ويقع من الأسرار، انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د/ جواد علي ٦/ ٧٣٧ بتصرف.

(٤) الأصنام ص ٥٤، ٥٨ بتصرف شديد.

(٥) الحمة: -بفتح المهملة وتشديد الميم المفتوحة هي العين الحارة- يستشفى بها الأعلاء والمرضى. مختار الصحاح ص ٩٠.

(٦) الأصنام ص ٨.

(٧) للمزيد يراجع: السيرة النبوية للإمام عبد الملك بن هشام ١/ ١٠١.

(٨) السائبة هي: الدابة التي تسيب في المرعى، فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن. مفردات الراغب الأصفهاني ص ٤٣١.

(٩) الوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثنى بعد ذلك بأنثى، وكانوا يتركونها لآلهتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، أو الشاة إذا ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٧٣.

(رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه[1] في النار، وكان أول من سيب السوائب)[2].

والحديث رتب هذا العذاب الشديد في النار، لكون عمرو هو أول من أدخل الأصنام شبه الجزيرة، ولكونه باء بإثم العرب أجمعين لمَا تسبب في الشرك، وبذر بذوره الأولى، والله أعلم.

(١) قصبه: بضم فسكون أي: أمعاءه وجمعه أقصاب، وعليه فالقصب اسم للأمعاء كلها، وقيل: هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٦٧ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري، واللفظ له، في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة، رقم ٣١٥١، ٦/ ١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢٨٥٦، ٤/ ٢١٩.

أشهر أصنام العرب

عبدت العرب أصنامًا كثيرة، حتى لقد كان لكل دار من دور مكة صنم تعبده، ناهيك عن الأصنام التي يعبدونها في أسفارهم، وفي الأمكنة التي يحلون بها، فإذا ارتحلوا تركوها خلف ظهورهم ومضوا لحالهم، ومن ثم تعددت الأصنام بتعدد القبائل، بل بتعدد الدور والأسفار والأشخاص...

لكن البحث لا يتطرق لها كلها، بل يكتفي بالتعريف بأشهرها، والتي ذكرها الله تعالى، وستعرض في عجالة؛ خشية الملل والإطالة.

١ . هُبَل.

كبير آلهة العرب، يحج إليه الناس من كل فج عميق، ولفظ «هبل» مشتق من لفظ أرامي.

معناه : الروح[3].

يذكر ابن الكلبي أن «أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له: هبل خزيمة»[4].

لكن أبا الوليد الأزرقي يذكر عن ابن إسحاق: أن أول من نصبه هو عمرو بن لحي فيقول: «البئر التي كانت في جوف الكعبة كانت على يمين من دخلها، وكان عمقها

(٣) عبادة الأوثان، عكاشة عبد المنان الطيبي ص ٨١ - ٨٢.

(٤) الأصنام ص ٢٨.

ثلاثة أذرع، يقال: إن إبراهيم وإسماعيل حفراها ليكون فيها ما يهدى للكعبة، فلم تزل كذلك حتى كان عمرو بن لحي، فقدم بصنم يقال له: «هبل» من «هيت» من أرض الجزيرة، وكان هبل من أعظم أصنام قريش عندها، فنصبه على البئر في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته»[1]، وكان هبل من عقيق[2] أحمر، على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب[3]، وكانوا يضربون بالقداح[4] عنده، يستقرئون بها الأمور المغيبة كما يزعمون[5]، ومثل ذلك فعل عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم حين أراد أن يذبح ابنه وفاء لنذره الذي نذر، والقصة مشهورة[6].

ولعله اتضح لنا بعض ما كان يفعله أهل الجاهلية من أمور تنم عن جهل وبعد عن الحق، حيث كانوا يستقرئون الغيب من حجارة صماء، لا تملك من أمر نفسها شيئًا.

٢ . اللَّات.

كان هذا الصنم من أعظم أصنام قريش أيضًا، حيث كانوا يتقربون إليه بالقرابين والذبائح، وهو أحد الأصنام المذكورة في القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩].

وفي أصل اشتقاق لفظ «اللات» يقول الإمام الطبري: «اشتقاقه من الله، ألحقت فيه التاء فأنثت، كما قيل: عمرو للذكر، وللأنثى عمرة، وعباس وعباسة، فكذلك سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله -تعالى ذكره-، وتقدست أسماؤه فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزى، وزعموا أنهن بنات الله، تعالى الله عما يقولون وافتروا علوًا كبيرًا»[7].

وذكر ياقوت الحموي رأيًا آخر في أصل اشتقاق اللفظ، فيقول: «يجوز أن يكون من لاته يليته، إذا صرفه عن الشيء، كأنهم يريدون أن يصرف عنهم الشر... »[8].

وأيًا ما كان الأمر فالمراد أن: المشركين نسبوا إلى الله ما هو منه براء، وأوغلوا في الافتراء حين نسبوا إليه الأنثى وجعلوا لهم

(١) تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٤٠ بتصرف.
(٢) العقيق: حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص، يكون باليمن وسواحل البحر الأحمر. المعجم الوجيز ص ٤٢٨.
(٣) الأصنام ص ٢٨.
(٤) القداح: جمع قدح، بكسر القاف وسكون الدال، وهو قطعة من الخشب مستوية، قليلة العرض، متوسطة الطول، تجعل فيها حزوز تدل على نصيب صاحبها من الجزور وغيره وكانت تستعمل في الميسر المعجم الوجيز ص ٤٩١.
(٥) للمزيد يراجع: تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٤٠، ١٤١ بتصرف.
(٦) انظر في ذلك: البداية والنهاية ابن كثير ٢/ ٢٢٨، والسيرة النبوية ابن هشام ١/ ١٧٦.
(٧) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥١٩ بتصرف.
(٨) معجم البلدان للحموي ٥/ ٤، ٥.

الذكر.

هذا وإن المؤرخين وكتاب السير يكادون أن يجمعوا على أن أصل عبادة اللات تعود إلى «أن رجلًا يهوديًا ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف، يبيع السمن للحجيج إذا مروا فيلت سويقهم[(١)]، وكان ذا غنم، فسميت: صخرة اللات، فلما مات، قال لهم عمرو بن لحي: إن ربكم كان اللات، فدخل في جوف الصخرة»[(٢)]، وعندئذ عبدوها واتخذوها إلهًا من دون الله تعالى.

ومن تعظيم العرب لهذا الصنم أنهم كانوا دائمًا يقسمون به في أيمانهم، بالإضافة إلى صنم «العزى» فيقول أحدهم: «واللات والعزى لأفعلن كذا وكذا.. إلخ».

ويروى عن بعضهم أنه كان يقسم باللات والعزى فقال[(٣)]:

وباللات والعزى ومن دان دينها
وبالله، إن الله منهن أكبر

أرأيت معي كيف ضلت العرب ردحًا من الزمان بتعبدهم لهذه الأصنام وتقربهم إليها، حتى امتن الله عليهم وعلينا بنعمة الإسلام، وأعظم بها من نعمة.

٣. العزى.

ومن الأصنام التي كانت العرب تعظمها صنم «العزى»، وهي تأنيث الأعز أو العزيز، ومن تعظيم العرب لها أنهم كانوا يسمون أبناءهم بها، فسموا عبد العزى[(٤)]، وهذا أمر شهير عنهم.

قيل: إن أول من دعا إلى عبادتها هو عمرو بن لحي والحارث بن كعب[(٥)].

وعلى كلٍ فالمقصود أن العرب عبدت العزى من دون الله، ولا يؤثر في ذلك تحديد أول من دعا إلى عبادتها.

هذا وقد اختلف العلماء في تحديد ماهية صنم العزى ووصفه:

فعن مجاهد قال: «العزى شجيرات»[(٦)].

ووافقه أبو الوليد الأزرقي حيث يقول: «كان العزى ثلاث شجرات بنخلة»[(٧)].

وقال الطبري: «قال آخرون: كانت العزى حجرًا أبيض»[(٨)].

ووافقهم ابن الكلبي في ذلك[(٩)].

(١) لت الرجل السويق ونحوه لتًا: خالطه بسمن أو غيره، والسويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، والجمع أسوقة. انظر: المعجم الوجيز ص ٥٥١ (لت)، ص ٣٣٠ (ساق).
(٢) تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٥٠، وبلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب، الآلوسي ١/ ٢٠٣، والأصنام، ابن الكلبي ص ١٦.
(٣) البيت قاله الشاعر أوس بن حجر في ديوانه ص ٣٦.
(٤) الأصنام ص ١٧، ١٨ بتصرف.
(٥) انظر: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام للإمام، ابن الضياء المكي ص ٧٤.
(٦) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢٠.
(٧) تاريخ مكة ١/ ١٥٠.
(٨) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢١.
(٩) في الأصنام ص ١٨.



وحكى الطبري رأيًا ثالثًا فيقول: «قال آخرون: كان بيتًا بالطائف تعبده ثقيف»[(١)].

ولقد جمع بين هذه الآراء أحد المعاصرين فقال: «والرأي المعقول المقبول هو أن العزى صنم، له بيت، وأمامه غبغب، أي: خزانة- يضع فيها العباد المؤمنون بالعزى هداياهم ونذورهم لها، أما الشجيرات الثلاث فإنها شجيرات مقدسة أيضًا ؛ لأنها في حرم العزى، وشجر الحرم شجر مقدس لا يجوز قطعه؛ ولذلك كان أهـل مكة يتجنبون مس شجر الحرم بسوء، ويحذرون من أراد ذلك بسوء العاقبة»[(٢)].

وبهذا يتم الجمع بين الآراء جميعها، ويتضح أن «العزى» هي مجموع ذلك كله، والله أعلم.

٤ . مناة.

حظي صنم «مناة» هو الآخر بمثل ما حظيت به اللات والعزى من عبادة قريش، وتعظيمهم وتقديسهم إياه «وكانت العرب جميعًا تعظمه، وتذبح حوله، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قاربهما من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية «المشلل» بقديد بين مكة والمدينة»[(٣)].

هذا ولم يذكر أحد من العلماء سر جعل هذا الصنم على ساحل البحر دون بقية الأصنام، إلا ما ذكره بعض المعاصرين من «أن العرب كانت تذبح الذبائح عند مناة، وكانوا يفعلون ذلك ليستمطروا عندها الأنواء تبركًا بها، ويتبين من ذلك أن هذا الموضع كان مقدسًا، وقد خصص بإله ينشر السحب، ويرسل الرياح فتأتي بالأمطار لتغيث الناس، وإن لهذا الإله صلة بالبحر وبالماء، ولذلك أقيم معبده على ساحل البحر»[(٤)]، ولأنهم كانوا يذبحون عندها الذبائح استنزالًا للمطر، قال بعض العلماء: «إنما سميت مناة؛ لأن دماء النسائك كانت تمني عندها، أي: تراق»[(٥)] ومن شدة تعظيم العرب لهذا الصنم أنهم ما كانوا يميلون، وينحرفون عن طريقهم إذا ساروا من جانبه حتى لا يستدبروه، أو يكون خلف ظهورهم إعظامًا وتقديسًا له.

وهكذا ضل العرب جميعًا بعبادة هذه الأحجار وتقديسها، وأفنوا أعمارهم هباء في تعظيمها، ولقد عبدت العرب أصنامًا كثيرة غير هذه الأربعة، إلا أنها لم تحظ

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢١.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ٦/ ٢٤٥ بتصرف.
(٣) الأصنام ص ١٣.
(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٤٧ بتصرف.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٢٣.

بالشهرة الواسعة مثل ما حظيت به هذه الأربعة، أمثال «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق... وغيرها» إلا أني اكتفيت بأكثرها شهرة وذيوعًا، وأضربت عن غيرها صفحًا تحاشيًا للإطالة.

حجج عابدي الأوثان

عبد المشركون الأوثان من دون الله تعالى، واحتجوا في عبادتهم هذه بعدة حجج وأسباب، تطرق البحث لبعضها فيما سبق، ويتطرق البحث هنا للبعض الآخر مستشهدًا عليه ببعض الآي التي ورد فيها، وهي كما يلي:

أولًا: تلبيس إبليس عليهم:

لا شك أن إبليس عليه اللعنة أصل كل شر، وأساس كل معصية وضلال، والمشركون نالوا من إضلاله وإغوائه أكبر حظ، وأوفر نصيب، فزين لهم الشيطان أعمالهم في عبادتهم الأوثان، وهذا السبب هو أصل لما بعده من أسباب عبادة الأصنام، من تقليد للآباء، وابتغائهم العزة في عبادتها، وجلب المحبة والخصب والرزق... ونحو ذلك من أسباب وأوهام، ومن ثم فلن أقف معه طويلًا، بل أشير فقط إلى مجمل الآيات.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ

﴿وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]...

والآيات كثيرة، وهي في مجملها تفيد أن الشيطان للإنسان بالمرصاد، يأمره بكل شر، من خمر وميسر وأنصاب وأزلام،... ويصده عن كل خير وطاعة لله تعالى، من توحيد وصلاة وذكر... وكل قربى لله رب العالمين، ولذلك فإنه يتوعد البشر ويمنيهم الأماني الفارغة، ولا شك أنها أمانٍ باطلة كاذبة، لكن لا يعلم البشر بكونها كذلك إلا في الآخرة بعد فوات وقت التنبه والإدراك.

ولا أدل على ذلك من ذكر الله تعالى في الآيات السابقة بعضًا من الأفعال القبيحة، ثم وصفها بقوله ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، ويفسر الإمام الطبري هذه الآية فيقول: «﴿رِجْسٌ﴾، أي: إثم ونتنٌ سخطه الله، وكرهه لكم ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

يقول: شربكم الخمر، وقماركم على الجزر، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام، من تزيين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يقول: فاتركوه وارفضوه ولا تعملوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لكي تنجحوا فتدركوا الفلاح عند ربكم بترككم ذلك»[1].

كما تفيد الآيات أيضًا أن: إبليس تحقق ظنه على الناس -وبخاصة المشركون- حين تأثروا بوسوسته، وبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران، وتقديم القرابين والنذور للآلهة من دون الله تعالى.

هذا والملاحظ على الآيات المباركات أمور:

الأول: أن ورود التعبير عن الوسواس هنا بتعبيرين: «الشيطان» و«إبليس»، يلحظ فيه معنيان، معنى «البعد عن كل خير وهدى»، وهذا مستفاد من الفعل «شطن» أصل كلمة «شيطان»، أما لو كان من «شاط أو شيط» أي: احترق، فهو أيضًا كذلك؛ لأنه يحترق غضبًا؛ حيث إنه مخلوق من نار[2].

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٦٤.
(٢) المفردات، الراغب ص ٤٥٤.

كما أنه يلحظ من التعبير بإبليس معنى «الإبلاس» وهو «الحزن الشديد المعترض من شدة اليأس»[1]، فأبليس -عليه اللعنة- آيس ومطرود من رحمة الله تعالى، ولو لم يكن فيه إلا هذان الوصفان لكان كافيًا في البعد عنه، والتحذير من شره ووسوسته.

الثاني: ورود التعبير في التحذير من عداوة الشيطان في بعض الآيات بالفعل المضارع ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ للدلالة على تجدد هذا بالنسبة للشيطان مع أوليائه، فهو لا ييأس أبدًا، فيغير من أساليبه، وينوع من طرق إغوائه، حتى يصل إلى مقصوده من إضلال الناس، وإيقاعهم في الشرك والمعاصي، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

الثالث: التعبير بالاسم في وصف عصيان الشيطان، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

يدل على دوام واستمرار عصيانه لربه سبحانه، ومن ثم فلن يرجى منه خير ألبتة، وعليه فينبغي الحذر منه غاية الحذر، حيث إنه العدو الألد لبني البشر جميعًا.

ثانيًا: تقليد الآباء والأجداد:

من أعظم مهام الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم محاربة العادات والتقاليد المخالفة للتوحيد، ولم يلق أحد منهم عنتًا وأذى أكثر من عنت محاربة الأعراف وتقليد الآباء والأسلاف، فهذا هود عليه السلام يجابهه قومه، ويردون دعوته بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ قَالَ قَدْ كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وهذا صالح عليه السلام أيضًا يحارب موروث قومه عن آبائهم وأجدادهم، فيعترضون عليه أيضًا بمثل قولهم: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

وهذا موسى عليه السلام يحاربه قومه، وينافحونه في دعوته لهم، ويردون عليه بمثل ما قال السابقون، فيصرخون في وجه نبيهم قائلين له ولأخيه هارون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

وهذا مسك ختامهم محمد صلى الله عليه وسلم يجابهه قومه بمثل ما اعترض السابقون على أنبيائهم، فهم كما قال القرآن عنهم- بعد ذكر عدد من أنواع شركهم ووثنيتهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وكما قال أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

(١) المصدر نفسه ص ١٤٣.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذه الآيات في عمومها تشير إلى هذا الداء الخطير الذي أصاب الأمم والأجيال المتعاقبة، ومقصوده ومعناها قريب وواضح، فمثلًا يذكر تعالى في الأخيرة منها أنه «إذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم فيه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأنداد ونحوها، ثم يقول الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فهم ولا هداية!!».

وهكذا يعاني الدعاة في كل عصر ومصر من محاربة المألوف والعادة لصعوبة نقل الناس وإبعادهم عن هذه.

الموروثات المخالفة للشرع والدين، ولكن مع توفيق الله تعالى والصبر تذلل كل الصعاب، وتتجاوز كل المحن والإحن.

ثالثًا: ابتغاء العزة عندهم:

من الأسباب أيضًا كون المشركين يبتغون العزة لدى معبوديهم من الأوثان، وسبحان الله! أين هذه العقول التي تتطلب العزة والرفعة من حجارة صماء، لا تملك مثقال ذرة من نفع لأنفسها، فضلًا عن عابديها.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]

وهنا يقول تعالى ذكره: واتخذ هؤلاء المشركون من قومك يا رسول الله آلهة يعبدونها من دون الله؛ لتكون هؤلاء الآلهة لهم عزًّا، يمنعونهم من عذاب الله، ويتخذون عبادتها عند الله زلفى، ورد الله تعالى زعمهم هذا بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظنوا وأملوا من هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله، في أنها تنقذهم، وتنجيهم من عذاب الله، ومن سوء ما أراده بهم ربهم، ولكن سيكفر الآلهة في الآخرة بعبادة هؤلاء المشركين يوم القيامة إياها، وكفرهم بها: قولهم لربهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص ٦٣].

فجحدوا أن يكونوا عبدوهم أو أمروهم بذلك، وتبرءوا منهم، وذلك كفرهم بعبادتهم[(١)].

رابعًا: محبتها:

اعتقد المشركون في أوثانهم أنها تجلب المحبة، ومن ثم بادلوها نفس الشعور أو أكثر، فأحبوها محبة تفوق محبتهم لخالقهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٠.

ورازقهم، وفي ذلك يقول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والأنداد -كما يقول الربيع- هي الآلهة التي تعبد من دون الله، يقول: يحبون أوثانهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله، أي: من الكفار لأوثانهم[١].

خامسًا: اعتقاد جلب الرزق:

من الأسباب الأكيدة لدى عباد الأوثان: اعتقادهم فيها أنها تجلب الرزق لهم، والإنسان بطبعه يحب المال والاستكثار منه، لكنه يضل حينما يعتقد في حجر أو شجر أنه يكون سببًا في جلب الرزق أو المال له.

ولقد نعى القرآن الكريم بطريق التصريح على هؤلاء الذين عطلوا عقولهم واعتقدوا في آلهتهم جلب الرزق، وبين لهم أنها لا تملك مثقال ذرة من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وكذلك بطريق السؤال التقريعي أو التوبيخي الموجه لمن يعتقد في هذه الآلهة خيرًا أو رزقًا، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

والآيات في مجملها توضح أن الله تعالى له الأمر كله، وبيده الخير كله، من رزق ونفع وخير وبركة ونماء وإحياء وإماتة... ونحو ذلك، لا شريك له ولا ضد ولا ند، فعلام يضل هؤلاء ويعبدون غيره؟!

سادسًا: اعتقاد الشفاعة لهم عند الله:

يعتقد بعض المشركين أنها تشفع لهم عند الله تعالى، وأنها تقربهم عنده تعالى زلفى، وصرح القرآن عنهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

والمراد: «أن الذين اتخذوا من دونه أولياء، أي: آلهة وأصنامًا، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله، وذلك التقريب هو الشفاعة في قول المفسرين، والزلفى: القربى»[٢].

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٩ بتصرف.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٧٠ بتصرف.

بل ذكر القرآن في موضع آخر تصريحهم بشفاعة آلـهتهم لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨].

ورد القرآن عليهم هذا الادعاء الباطل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وهنا يأمر الله تعالى «نبيه عليه السلام أن يقررهم ويوبخهم: أهم يعلمون الله بأنباء من السماوات والأرض لا يعلمها هو؟ وذكرت السماوات؛ لأن من العرب من كان يعبد الملائكة والشعرى»[1].

وهذا في الدنيا، أما يوم القيامة تكون الحسرة الكبرى والندامة العظمى لعابدي الأوثان حين لا يجدون ما رجوه فيها من شفاعة وإنقاذ من العذاب، ويوقنون أنهم كانوا على باطل، وفي ذلك يقول الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهذا يوم الحسرة والندم، ولات حينئذ مندم.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١١١ بتصرف.

محاورات الأنبياء عن عبادة الأوثان

حفل القرآن الكريم بكثير من محاورات الأنبياء مع أقوامهم حول عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، ونبذ عبادة الأوثان، وسيعرض البحث لبعض من هذه المحاورات فيما يلي:

أولًا: محاورات سيدنا نوح عليه السلام مع قومه:

لقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم عبدوا الأصنام، واتخذوها آلهة من دونه تعالى، متابعين في ذلك أسلافهم، فأرسل الله إليهم نوحًا عليه السلام داعيًا إياهم لنبذ عبادتها لكنهم آثروها على عبادة الله تعالى، ولم يكتفوا بذلك بل وصوا أبناءهم بعدم سماع دعوة نوح عليه السلام، ورد دعوته في فيه، ودارت حورات كثيرة بين نوح عليه السلام وقومه ذكرها القرآن، ونظرًا لأن البحث موسوعي لا يستطيع أن يأتي على هذه الآيات كلها، ويقف معها آية آية، لكن يكفينا ذكرها والإشارة إليها مجملة -كما هو منهج البحث- ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٣].

ففي هذه الآيات يبرز الحوار واضحًا جليًا، فكلما ذكر نوح عليه السلام قولًا راجعه فيه قومه، ووصفوه بالضلال هنا لدعوته إياهم لترك عبادة الأوثان.

وفي ذلك يقول ابن كثير: «قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا... فرد عليهم: ما أنا بضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغًا فصيحًا، ناصحًا بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات...

ثم يذكر تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم، لإنذاركم، ولتتقوا نقمة الله، ولا تشركوا به»[1].

وبعد كل هذه الحوارات والمناقشات لم يستجب له قومه، بل عارضوه وجادلوه، وردوا دعوته في وجهه، وتذكر آيات سورة هود طرفًا آخر من هذه المحاورات، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٥-٣٠].

وفيها يذكر الله طرفًا من محاورة نوح عليه السلام مع قومه، ويبين مدى شفقته عليهم في دعوته إياهم إلى التوحيد بعد نبذ الشرك وعبادة الأوثان، وبيان أنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم، فردوا عليه بقولهم: ما نراك يا نوح إلا آدميًا مثلنا في الخلق والصورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن الله يرسل من البشر رسولًا إلى خلقه، وأضافوا أيضًا: وما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف، فيما نرى ويظهر لنا، وما نتبين لكم علينا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٢ بتصرف يسير.

من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله وإخلاص العبودية له، فنتبعكم.

ويحاورهم رسولهم بعد تكذيبهم له قائلًا: يا قوم أرأيتم إن كنت على علم ومعرفةٍ وبيان من الله لي ما يلزمني له، وما يجب علي من إخلاص العبادة له، وترك إشراك الأوثان معه فيها...، ثم يتساءل منكرًا عليهم موقفهم هذا: أنأخذكم بالدخول في الإسلام، وقد عماه الله عليكم؟![1].

وأيضًا يقول الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وهذه الآية وردت ضمن قصة نوح عليه السلام في السورة التي أفردت باسمه في القرآن، والمتأمل في الآيات وما قبلها يجد أنها تصف قوم نوح بأنهم فعلوا جرائم عظيمة، وأنهم اتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، وأنهم مكروا مكرًا آخر عظيمًا، وهو قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

وهذا ما أكده الفخر الرازي بقوله: «المكر الكبار هو: أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ فهم منعوا القوم من التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر، فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار»[2].

وقيل: المكر الكبار هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح عليه السلام.

وقيل: هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد، حتى قال الضعفة: «لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم»..

وقيل: غير ذلك[3].

وأيًا ما كان الأمر فالمراد: أن قوم نوح عليه السلام عبدوا الأصنام من دون الله تعالى، وسموها بهذه الأسماء؛ لأنها كانت لقوم صالحين، ظهر فيهم الصلاح في زمن نوح عليه السلام فماتوا، ونشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فأشار عليهم إبليس بأنهم إذا صوروهم على هيئة تماثيل كان ذلك أنشط لهم في العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم.. فعبدوهم.

وهذا ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر أصنام قوم نوح عليه السلام فقال عنها: «.. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا،

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٩٩بتصرف وتلخيص.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ١٤٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٢٦.

وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت »[1].

ومع كون قوم نوح عليه السلام لم يستيجوا لهم، إلا أنه لم يرضخ لذلك، بل نوع لهم أساليب الدعوة وأوقاتها ووسائلها علهم يستجيبون، على نحو ما وصفه الله تعالى بقوله عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥-٩].

حتى إنهم ضجوا وصرخوا في وجهه عليه السلام بقولهم: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢-٣٣].

لكن نوحًا عليه السلام لم يرضخ لهم، بل استمر في دعوته، فآمن به من آمن فكان من الناجين، وكفر من كفر فكان من الهالكين الغاوين.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ودًا ولا سواعًا ولا يغوث..)، ٨/ ٦١.

ثانيًا: محاورات سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه:

ذكر القرآن الكريم محاورة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه على قسمين:

القسم الأول: محاورات خاصة بإبراهيم عليه السلام مع أبيه، والقسم الثاني: محاورة إبراهيم عليه السلام مع قومه أو مع قومه وأبيه معًا، وسيكون الحديث أولًا بما يتعلق بشأن محاورة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه، في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أرجح الأقوال في بيان المراد بـ« آزر»: أنه اسم أبي إبراهيم عليه السلام؛ وذلك لأن الله تعالى سماه بهذا الاسم، ولا شيء فوق كلام الله تعالى، فضلًا عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم سماه هو الآخر آزر، فيما ورد صحيحًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَترة وغبرة ....) الحديث[2]، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر أيضًا[3].

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، رقم ٢٩٩٥، ٥/ ٣٣٥.

[3] لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٥ بتصرف. والقترة المذكورة في الحديث معناها: ما يغشي الوجه من الكرب، والغبرة ما يعلوه

والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية.

قال تعالى: ﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدًّا[1].

وعلى هذا فالمعنى: إني أراك وقومك في خطأ وعدول عن الطريق المستقيم لعبادتكم الأصنام من دون الله تعالى، وهذا الخطأ بين واضح لكل ذي لب وعقل مستقيمين.

هذا ولقد اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام «على ذكر الحجة العقلية على فســاد قول عبدة الأصنام من جهتين:

الأولى: أن قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ يدل على أنهم كانوا يقولون بكثرة الآلهة، إلا أن القول بكثرة الآلهة باطل بالدليل العقلي المفهوم من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

الثانية: أن هذه الأصنام لو حصلت لها قدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافيًا، فلما لم يكن الواحد كافيًا دل ذلك على أنها -وإن كثرت- لا نفع فيها ألبتة»[2].

وهكذا أبطل سيدنا إبراهيم عليه السلام مذهب الوثنيين بالبرهان الساطع والدليل القاطع، وبخاصة إذا نظرنا إلى الآيات التالية لهذه الآية، وفيها من الحجج والبراهين الواضحة ما يغني عن التعليق عليها.

وهكذا وصل إبراهيم عليه السلام إلى ما يريد من أقرب طريق، وأسلك سبيل، فينبغي على الدعاة أن يترسموا هذا الخطى، ويسيروا في ضوئه، فيلينوا في دعوتهم ولا يعبسوا في وجوه من يدعونهم؛ حتى ترتفع بهم دعوتهم، ويصلوا بها إلى الغاية المنشودة، وهذا ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم -والأمر للرسول أمر لأمته ما لم يرد دليل على التخصيص- في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

هذا وإن من أعظم الحوارات القرآنية التي ينبغي أن يتعلمها الأبناء في محاوراتهم مع آبائهم، وكذلك الدعاة مع مدعويهم ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ

من الغبار، وقيل غير ذلك. انظر فتح الباري ٨/ ٣٥٨.

(١) المفردات، الراغب ص٥٠٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣٤.

﴿يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

فهذه الآيات تحمل في مجملها أدبًا جمًا، وخلقًا رفيعًا في تعامل الأبناء مع الآباء مهما كانوا مخالفين لهم، وحتى لو كانوا على طريق الكفر والعصيان، ولن يصل الآباء المسلمون اليوم إلى هذه الدرجة، ومع ذلك نجد الإباء والجفاء والنفور من الأبناء في تعاملهم مع آبائهم سواء أكانوا صالحين أم طالحين، اللهم إلا من رحم ربي، نسأل الله تعالى الهداية والرشاد لأبنائنا وجميع أبناء المسلمين، اللهم آمين.

ومن آيات القسم الثاني: التي عرضت لمحاجة إبراهيم مع قومه:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

إلى أن قال سبحانه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

فهذه الآيات تصور مشهدًا من مشاهد قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ومحاوراته مع قومه، وتحمل في طياتها كثيرًا من الجوانب العظيمة والتربوية في الحوار الهادف، حيث إن إبراهيم عليه السلام خاطب قومه بلغة الحوار الهادئ، وسألهم عن حقيقة هذه التماثيل التي يعبدونها من دون الله تعالى قائلًا:

« ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

والعكوف: عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء، والمراد: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء، أي: وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشيًا على طريقتهم، وهكذا يجيب كل المقلدة.

وأجابهم الخليل عليه السلام بقوله: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوي هذا الخسران خسران، ثم لما سمع أولئك

مقالة الخليل قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]؟

أي: أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟ فقال مضربًا عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد: بل ربكم رب السماوات والأرض الذي خلقهن وأبدعهن، وأنا على ذلكم الذي ذكرته لكم من الشاهدين العالمين به المبرهنين عليه.

فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه: هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

أي: قال إبراهيم مقيمًا للحجة عليهم، مبكتا لهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، مشيرًا إلى الصنم الذي تركه، ولم يكسره، فسألوهم إن كانوا ممن يمكنه النطق، ويقدر على الكلام، ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم، ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله.

فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة؛ لأنهم إذا قالوا: إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟ وذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته، وقيل: أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك؛ لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه، إرشادًا لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تدفع، لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم.

ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم: لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام.

فقال إبراهيم مبكتًا لهم، ومزريًا عليهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

بنوع من أنواع الضرر، ثم تضجر عليه السلام منهم، فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[الأنبياء: ٦٧].

وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم، والتأفف: صوت يدل على التضجر، أليس لكم عقول تتفكرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه... »[1].

وهكذا حاور سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه، لكنهم قد تمكنت الوثنية منهم، فلم يجد الحوار معهم نفعًا، ولم يفدهم شيئًا، ولم يكن عندهم من مكافأة لنبيهم بعد كل

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٦ بتصرف وتلخيص.

هذه الحوارات الهادئة الهادفة إلا إضرام النار له، وإلقاؤه فيها، ولكن الله تعالى لم يتركه وحده، ونجاه من مؤامرتهم، فأمر النار فكانت بردًا وسلامًا.

ثالثًا: محاورات موسى عليه السلام مع قومه:

من المعلوم أن قوم موسى عليه السلام كانوا أصحاب جدال ومراء، ونفوس أبية، تأبى أن تنصاع للحق بيسر وسهولة وسرعة، ولقد ذكر القرآن لهم أكثر من موقف يدلل على هذه الطبيعة المتمردة.

ومن هذه المواقف: انتهازهم فرصة غياب موسى عليه السلام مدة مواعدة ربه لتلقي التوارة، فاستضعفوا أخاه هارون عليه السلام وقام السامري بجمع حليهم وصنع لهم منه عجلًا جسدًا، يصدر صوتًا إذا مر فيه الهواء، ولـما رجع موسى عليه السلام ورأى ما حدث غضب غضبًا شديدًا لما حدث، وقام بإهلاك العجل، ودعاهم محاورًا إياهم، ومجددًا ما اندرس من أمر التوحيد لديهم، وإلى عبادة الله الواحد الأحد.

وهذا ما ذكره القرآن في أكثر من موطن[1]، وسيكون التعليق على مجملها.

ومن هذه المواطن: ماذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا

---

(١) ذكرت قصة العجل إجمالاً أو تفصيلاً في ثمانية مواطن من القرآن الكريم في سور: البقرة/ ٥١، ٥٤، ٩٢، ٩٣، والنساء/ ١٥٣، والأعراف/ ١٤٨، ١٥٢، وطه/ ٨٨.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٣-٩٨].

ففي هذه الآيات الكريمة يتجلى الحوار البناء في أبهى صوره، وتبين لنا الآيات مدى بلاهة بني إسرائيل في عبادتهم العجل، «وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسماوات، أفلا يرون أن العجل لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم»[1].

ولم تقتصر سخافة عقول بني إسرائيل على هذا الموقف فقط، بل إنهم عادوا إلى الوثنية، وطلبوها من نبيهم صراحة، في موقف لا يمكن لعقول الفطناء أن يذهلوا فيه عن صاحب الفضل، وموَلي النعم سبحانه وتعالى، فبعد أن أنجاهم الله تعالى من عدوهم فرعون، ومروا على وثنيين طلبوا من موسى عليه السلام مباشرة أن يجعل لهم إلهًا يتعبدون له مثل هؤلاء، ولا زالت أقدامهم ملطخة بالطين مبتلة من أثر إنجاء الله لهم من عدوهم الألد...

ذكر القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

وسبحان الله العظيم، بهذه السرعة جحد بنو إسرائيل نعمة المنعم سبحانه، فما هي إلا لحظات والعدو كان يطاردهم، فإذا بهم يطلبون آلهة غير الذي نجاهم، وأنقذهم بعد الموت المحقق، ولا غرو في ذلك، فهذه هي طبيعة بني إسرائيل المتمردة، وهذه هي عادتهم مع أنبيائهم، الأمر الذي حدا ببعض المفسرين أن يقول: إن الغرض من سياق ذلك «أن يعلم حال الإنسان، وأنه كما وصف ظلوم كفار، جهول كنود[2]، إلا من عصمه الله، وكذلك لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة»[3].

أقول: أما الأول فنعم، وأما الثاني فلا، وذلك لأن السورة الكريمة مكية[4]، ومعنى هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١١.

(٢) كنود: أي كفور، يقال: كند فلان النعمة، أي: كفرها وجحدها، وبابه دخل، فهو كنود، وامرأة كنود أيضًا . يراجع: مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ص ٢٦٥.

(٣) الكشاف ٢/ ١٤٤ بتصرف.

(٤) تقريب المأمول في ترتيب النزول، الجعبري ص٤ .

يكن قد رأى من يهود المدينة شيئًا؛ لأنه لم يكن قد هاجر إليها بعد، اللهم إلا إذا عني بالماضي: الاستقبال، فيحمل قوله: «مما رأى» على «مما سيرى»، والله أعلم.

والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى عليه السلام، وفي جملة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى عليه السلام: اجعل لنا صنمًا نفرده بالعبادة، ونكفر بربك، فعرفهم موسى عليه السلام أن هذا جهل منهم، إذ سألوا أمرًا حرامًا فيه الإشراك في العبادة، ومن ثم يتطرق بهم إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عز وجل[1].

لكن من يعلم طبيعة بني إسرائيل المتمردة لا يستبعد صدور مثل هذا القول منهم؛ لذلك رد موسى عليه السلام قولهم هذا في أفواههم على الفور، راميًا إياهم بالجهل، فقال يخاطبهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ «فهذا وصف لهم بالجهل على أتم وجه، حيث لم يذكر له متعلقًا ولا مفعولًا؛ لتنزيله منزلة اللازم، أو لأن حذفه يدل على عمومه، أي: «تجهلون كل شيء» فيدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى، وأكد ذلك بـ «إن» في «إنكم» وتوسيط «قوم» وجعل ما هو المقصود بالإخبار وصفًا له وهو «تجهلون» ليكون كالمتحقق المعلوم»[2].

هذا ولقد تحاور موسى عليه السلام وعلل ما نهاهم عنه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: «إن هؤلاء العاكفين على هذه الأصنام، الله مهلكٌ ما هم فيه من العمل ومفسده، بإثابته إياهم عليه العذاب المهين، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتهم إياها فمضمحل؛ لأنه غير نافعهم عند مجيء أمر الله وحلوله بساحتهم، ولا دافعٌ عنهم بأس الله إذا نزل بهم، ولا منقذهم من عذابه إذا عذبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن»[3].

ومن البدهي أن هذا السؤال لم يكن قد صدر من بني إسرائيل جميعهم، بل من بعضهم «وإنما نسب إلى الجميع لموافقة بعضهم بعضًا في ذلك، فكأنه قد صدر من جميعهم»[4]. والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) تفسير ابن عطية ٢/ ٤٤٧ بتصرف.

(٢) روح المعاني، الآلوسي ٥/ ٤٠ بتصرف.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٨٣ بتصرف.

(٤) قصص القرآن من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل، محمد بكر إسماعيل ص ١٩٤ بتصرف.

صفات الأوثان في ضوء القرآن

من القواعد المقررة أن «التخلية مقدمة على التحلية» والقرآن الكريم سلك مع المشركين هذه الطريقة، فقدم ما يبين حقيقة معبوداتهم، وأنها لا تملك أي وسيلة من وسائل الإدراك أو النفع أو دفع الضر عن نفسها، فضلًا عن عابديها، فكيف يعبدونها من دون الله تعالى ؟! ثم دعاهم إلى عبادته وتوحيده سبحانه.

والبحث هنا سيوضح هذه القضية من خلال ما يلي:

أولًا: نفي العقل والنطق والسمع والبصر عنها:

نفى القرآن العقل صراحة عن الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله، ونفي العقل عنها هو بيت القصيد، والأصل لما بعده؛ إذ ما فائدة السمع والبصر والنطق من غير العقل؟!

فهو وحده كافٍ في نفي ألوهية هذه الأوثان، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

وهنا «يقول تعالى ذامًا المشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئًا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير»[1].

ونفى القرآن عن الأوثان أيضًا السمع والبصر والنطق... ومن ثم فلم يكن لديها أي سبب من أسباب العبادة، فعلام يعكف هؤلاء الوثنيون على عبادتها ودعائها من دون الله تعالى ؟!

ولقد مر بنا آنفًا في محاورة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ما وصف به الأوثان مخاطبًا إياه في قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧-١٩٨].

والمراد: قل للمشركين يا رسول الله: وإن تدعوا الذين تدعون من دون الله إلى الهدى لا يسمعوا، والهدى على هذا الوجه ما فيه رشد ونفع للمدعو، وذكر ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ لتحقيق عدم سماع الأصنام، وعدم إدراكها؛

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٢.

لأن عدم سماع دعوة ما ينفع لا يكون إلا لعدم الإدراك.

ولهذا خولف بين قوله هنا: ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ وقوله في الآية السابقة: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

لأن الأصنام لا يتأتى منها الاتباع؛ إذ لا يتأتى منها المشي الحقيقي ولا المجازي، أي: الامتثال»[(١)].

ثانيًا: عدم قدرتها على دفع الضر أو جلب النفع:

أكثر القرآن الكريم هذا الوصف بالنسبة للأوثان، حتى أربت مواطن الحديث عن هذا الوصف على عشرة مواطن، وتنوعت فيها الأساليب، فمنها: ما ورد بصيغة الخبر، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

ومنها: ما ورد بصيغة النفي، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ومنها: ما ورد بصيغة النهي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

أما ما ورد بصيغة السؤال فكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]... وغيرها من الآيات.

ويلحظ على هذه الآيات جميعًا عدة أمور:

أولها: تفيد الآيات كلها صراحة عدم قدرة الأوثان على دفع الضر عن نفسها، فضلًا عن عابديها.

ثانيها: يلحظ في بعضها تقديم نفي الضر على النفع، والبعض الآخر العكس، وإنما يقدم الضر على النفع؛ لأن التحرز عن الضر أهم من تحري النفع[(٢)]، أو هو من قبيل درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، أو التخلية قبل التحلية.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٥ بتصرف.

(٢) تفسير القاسمي ٣/ ١٩٢ بتصرف.

وإنما قدم النفع على الضر في آيات؛ لأن جلب النفع محبب إلى النفس ومرغوب، والله أعلم.

ثالثها: تنوع الصيغ في بيان هذه الصفة للدلالة على كمال الإقناع وإقامة الحجة، فمن لم يقتنع بالأسلوب الخبري نفعه أسلوب النفي أو النهي أو السؤال... وقلبنا أساليب القرآن حتى يوقن ويهتدي، وإلا قامت عليه الحجة والبرهان، والله أعلم.

رابعها: الآيات تفيد في مجملها إخبار المشركين أنه «لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا يقدر أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، فإن الضار والنافع هو الله تعالى، لا من تعبدون من دونه، ومن لم يقدر على النفع والضر لا يكون إلهًا»[(١)]، وعليه فمن لا يملك شيئًا منهما لا يصلح للإلهية على الإطلاق!.

ومما يدخل في نفي جلب النفع: عدم استطاعة الأصنام جلب الرزق لأحد من الخلق على الإطلاق، كما صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وكذلك يدخل فيه نفي النصرة عنها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥]. والله أعلم.

ثالثًا: بيان أنها لا تستطيع أن تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة لله رب العالمين:

من الصفات التي وصف بها القرآن الأوثان، ورد بها على عابديها بيان أنها مخلوقة ومربوبة لله رب العالمين، فهي لا تستطيع أن تخلق شيئًا على الإطلاق، ولا تملك مثقال ذرة من ذلك، فكيف تملكه لعابديها! وجاء هذا الرد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٠-٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٧.

﴿حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]... والآيات في هذا الشأن وفيرة ومتنوعة، مما يدل على أهمية هذا الموضوع، واعتناء القرآن به.

والله تبارك وتعالى يجلي لنا في هذه الآيات بعضًا من صفات الأصنام، ويبين حقيقتها لعابديها ولجميع المؤمنين، ومن أوضح صفاتها أنها مخلوقة ومربوبة لله رب العالمين أو أنها مصنوعة بأيدي عابديها، فهم الذين نحتوها، واتجهوا إليها بالعبادة «والمقصود إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للإلهية، فهي لا تقدر على خلق أي شيء على الإطلاق»[1].

والأوثان لا تصلح للإلهية لأن «من حق المعبود أن يكون خالقًا لعابده لا محالة»[2].

فالآيات ترد على عبدة الأوثان ببيان أوصافها لهم علهم يثوبون لرشدهم، ويرجعون عن غيهم ويتركون عبادتها إلى عبادة الله تعالى.

وهكذا جلى الله تعالى حقيقة الأصنام، وبين ماهيتها وكنهها، وأنها أحقر المخلوقات؛ إذ أنها لا تستطيع حتى دفع الضر عن نفسها، ولا تستطيع النصرة فضلًا عن كونها مخلوقة.. إذًا فلم يبق شيء يعبدها عابدوها من أجله، فكيف يتوجهون إليها بالعبادة والدعاء؟! اللهم لا يفعل ذلك إلا المغفلون والدهماء.

هذا والملاحظ على الآيات هنا: أنها جاءت بعدة أوصاف للأوثان، وهي:

الوصف الأول: كونها لا تخلق شيئًا على الإطلاق، فضلًا عن كونها مخلوقة مربوبة لله رب العالمين، أو ينحتها العابدون بأيديهم، وليس قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ تكرارًا لما سبقه من قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لأن «المذكور هناك أنهم لا يخلقون شيئًا، والمذكور هنا أنهم أيضًا لا يخلقون شيئًا وهم مخلوقون لغيرهم، فكان هذا زيادة في المعنى، وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم، فبين أولًا أنها لا تخلق شيئًا، ثم ثانيًا كونها مخلوقة لغيرها»[3].

الوصف الثاني: جاء في قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي هذه الأصنام إنما هي موتى لا حياة ولا حراك فيها «فلو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي: غير جائز عليها الموت، كالحي الذي لا يموت سبحانه، وهذه الأصنام على العكس من ذلك»[4].

الوصف الثالث: كونها لا تعلم عن البعث شيئًا، وهذا ما ذيلت به الآية الثانية من سورة النحل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٣٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٥/ ١٣٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٦-١٧ بتصرف.
(٤) المصدر نفسه ٢٠/ ١٧.

وفائدة وصف الأصنام بهذا: «التهكم بالمشركين، وأن آلهتهم لا تعلم وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت يجازون فيه على عبادتها؟.

وقيل: معناه: أن الأصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى»[1].

وكلا المعنيين مرادان من الآية، إلا أن الراجح أولهما لما فيه من التهكم بأولئك الجهال الذين عبدوا الأصنام من تلقاء أنفسهم دونما حجة مقنعة.

ولكن كيف وصفت الأصنام بأنها أموات مع كونها جمادات لا يصح أن يطلق عليها هذا الوصف؟

والجواب: «أن القوم لما وصفوا تلك الأصنام بالإلهية قيل لهم: ليس الأمر كذلك، بل هي أموات لا تعرف شيئًا، فجاءت العبارة على وفق معتقدهم فيها»[2].

أرأيت كيف ضل العرب وغيرهم ردحًا من الزمان بتوجههم إلى هذه الأحجار بالعبادة والدعاء، وكيف رد القرآن عليهم، وفند شبههم بما لا يبقى لهم معه أدنى حجة، ولقد أفادتنا هاتان الآيتان جديدًا، وهذا الجديد تمثل في ذكر ثلاث صفات مجتمعة للأصنام.

وجاء التصريح بها «للتنبيه على كمال حماقة المشركين، وأنهم لا يعرفون ذلك إلا بالتصريح»[3]، لا التلميح أو التلويح. والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) المصدر نفسه ٢٠/ ١٧ بتصرف.

(٢) ينظر في الجواب مع بقية الأوجه مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٧.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٣٦١ بتصرف.

مظاهر تقديس العرب للأصنام

لقد تعبد العرب للأصنام وقدسوها بأمور عديدة، يذكر البحث هنا بعضًا مما ذكره القرآن الكريم، ولكن في ثوب المعالجة التفسيرية، وأول ما يطالعنا من هذه المظاهر:

أولًا: عبادة الأصنام، والعكوف عليها، والتوجه إليها بالدعاء والتضرع:

والقرآن الكريم تحدث عن هذا المظهر في كثير من آياته، والآيات في هذا الشأن أكثر من أن تحصى، فعن العبادة والدعاء يقول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وفي العكوف عليها والاستمساك بها يقول الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢]... الآيات.

وبما أن المقام لا يتسع لتناول جميع هذه الآيات ونظائرها مفردة بالشرح والدراسة، فإن البحث يشير إجمالًا إليها وإلى أهم ما تحتويه:

الدعاء يرد في القرآن الكريم على معانٍ من أهمها:

- **العبادة**: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يعني: أنعبد، ومنه آياتنا محل الدراسة.
- **القول**: ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]. يعني: ما كان قولهم إذ جاءهم عذابنا إلا أن قالوا: إنا كنا ظالمين.
- **النداء**: ومنه قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. أي: فنادى ربه.
- **الاستغاثة**: فذلك قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

أي: استغيثوا بهم[1].

والآيات التي معنا جاء الدعاء فيها بمعنى العبادة، ويحتمل أن يكون بمعنى التسمية، فمعنى «تدعون من دون الله» أي: «تعبدونهم وتسمونهم آلهة»[2].

وأقول: يحتمل أن يكون الدعاء على حقيقته من طلب قضاء الحوائج وتلبية المصالح التي يتوجهون بها إلى آلهتهم. والله أعلم.

وهنا يخاطب الله تعالى المشركين عباد الأوثان، موبخًا إياهم على عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع بقوله: إن الذين تدعونهم عباد أمثالكم، مخلوقون ومربوبون لله رب العالمين، لا يخرجون عن طوعه وأمره؛ لأنهم مملوكون له، كما أنتم له مماليك، فإن كنتم صادقين في اعتقادكم فيها، فادعوها ولتستجب لدعائكم إذا ما دعوتموها، وإلا فأيقنوا أنها لا تنفع ولا تضر؛ لأنهما إنما يكونان ممن يملكهما وهو الله تعالى[3].

ولكن لم وصف الله الأصنام بأنها «عباد» مع أن هذا اللفظ لا يطلق إلا على العقلاء من البشر؟

وللجواب نقول: وصفت بذلك من حيث كونها مملوكة مسخرة، فصح إطلاق لفظ «العباد» عليها لذلك، وقيل: وصفت بذلك بناء على أن المشركين لما ادعوا أنها تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة؛ فلذا ورد هذا اللفظ على حسب ما يعتقدون.

وقيل: إن هذا اللفظ «عباد» ورد في معرض الاستهزاء بهم، وسيق على سبيل الفرض والتقدير، كأنه قيل: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم، فإن ثبت ذلك فلا فضل لهم عليكم، فلم جعلتم أنفسكم عبيدًا، وجعلتموها آلهة وأربابًا»[4].

ولا مانع من الجمع بين هذه الأوجه جميعها؛ لأنه لا تدافع بينها، فالأصنام مملوكة لله فهي من عباده، والمشركون يعتقدون فيها النفع والضر، فخوطبوا على حسب ما يعتقدون استهزاء وسخرية بهم، وبهذا يتم الجمع بين الوجوه الثلاثة.

والله تعالى هنا يذكر عن عباد الأصنام أمرين:

الأول: عبادتهم للأصنام.

الثاني: أنهم جعلوها شفعاء لهم عند الله.

أما الأول: فقد نبه على فساده من وجهين:

أحدهما: أن المعبود لابد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا

---

(١) انظر في تفصيل هذه الوجوه والاستشهاد عليها: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي ص ٢٨٥- ٢٨٨.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٢٩١ المطبوع مع زادة.

(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٥٠ بتصرف وتلخيص.

(٤) حاشية زادة على البيضاوي ٢/ ٢٩١ بتصرف.

تنفع ولا تضر ألبتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد، وإذا كان العابد أكمل حالًا من المعبود كانت العبادة باطلة.

ثانيهما: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر منه أعظم أنواع الإنعام، من حياة وقدرة وعقل ونحوها، وهذا لا يصدر إلا من الله تعالى فوجب أن لا تليق العبادة إلا به سبحانه [(١)].

والأمر الثاني الذي حكاه الله عنهم: قولهم عن الأصنام: أنها ستشفع لهم عند الله تعالى، وإنما صدر عنهم هذا القول «لتوهمهم أنهم ليسوا أهلًا للاشتغال بعبادة الله تعالى، بل يشتغلون بعبادة الأصنام، ويدعون أنها تشفع لهم عند الله تعالى» [(٢)].

هذا بالنسبة للعبادة والدعاء والتضرع، أما بالنسبة للعكوف فقد عرفه الراغب بقوله: «العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له» [(٣)].

وقال صاحب البصائر: «العكوف على الشيء: الإقبال عليه مواظبًا. وعكفه يعكفه ويعكفه عكفًا: حبسه، والقوم حوله: استداروا، وقوم عكوف: عاكفون» [(٤)].

هذا والملاحظ على آيات «العكوف» أمور، هي:

الأول: ورد التعبير عن العكوف في قصة بني إسرائيل بالفعل المضارع «يعكفون» للدلالة على تجدد عكوف هؤلاء القوم على عبادة الأصنام، وأنهم يجددون ذلك لها حينًا بعد حين، وكان التعبير بالمضارع هنا مناسبًا لأن أحداث القصة تناسب ذلك، فبنو إسرائيل مروا عليهم بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من فرعون -عليه اللعنة-.

الثاني: وورد التعبير عن العكوف في بقية الآيات بالاسم «عاكفين-عاكفون-عاكفًا» للدلالة على الدوام والاستمرار، وأن المشركين في عهد إبراهيم عليه السلام عبروا عما يجيش في صدورهم من طول المكث، وعدم وجود نية التحول عن عبادة الأوثان إلى غيرها.

الثالث: الاستفهام في الآيات مجازي بمعنى التحقير والتقرير، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام، ولكنه سألهم ليريهم أن ما كانوا يعبدونه ليس مستحقًا للعبادة؛ لما ترتب على جوابهم من أوصاف معبوداتهم التي هي منافية للعبادة[(٥)].

الرابع: لما سألهم إبراهيم عليه السلام عن الذي يعبدونه لم يقتصروا على ذكره فقط، بل أجابوا بما يزيد عليه، فقالوا: ﴿نَعْبُدُ

(١) المصدر نفسه ١٧/ ٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه ١٧/ ٢٢٧ بتصرف.
(٣) المفردات ص٥٧٩.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٨٦.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٦٢ بتصرف.

﴿أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

ولم يقتصروا على أن يجيبوا بقولهم: «أصنامًا» للدلالة على ابتهاجهم وافتخارهم بعبادهم هذه؛ لذا أتوا بقصتهم كاملة[(١)].

الخامس: عبروا بقولهم: ﴿فَنَظَلُّ﴾ لأنهم كانو يعبدونهم بالنهار دون الليل، أو معناه: الدوام[(٢)]، والله أعلم.

ثانيًا: ذبح الذبائح والقرابين باسم الأصنام:

هذا هو المظهر الثاني من مظاهر تقديس الأصنام وعبادتها، وجاء الحديث عن هذا المظهر في القرآن الكريم في ثوب تحريم الذبح والإهلال لغير الله تعالى في أربع آيات من القرآن الكريم وهي -حسب ورودها في المصحف- كما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥].

هذه الآيات المباركات تكشف لنا عن لون من ألوان تعبد الوثنيين لأصنامهم، وهو أنهم كانوا يذبحون الذبائح باسمها، ويرفعون أصواتهم بها عند الذبح، وينذرون النذور لها، ويتزلفون بمختلف القرابين؛ لذا فإن ربنا سبحانه وتعالى نهى المسلمين عن مثل هذه الصور المحرمة، والشركيات الباطلة.

وأصل الإهلال -كما يقول الراغب- رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لكل صوت، وبه شبه إهلال الصبي إذا ولد، حيث يستهل صارخًا، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي ما ذكر عليه اسم غير اسم الله وهو ما كان يذبح لأجل الأصنام[(٣)] لأجل التقرب لها، والظفر بحسن المنزلة لديها.

وحرم الله تعالى أكل ما ذبح على غير اسمه تعالى «لخبثه معنويًا؛ لأنه ذكر عليه اسم غير خالقه المنعم به عند ذبحه، ولولا ذلك لكان حلالًا، وسمي الذكر إهلالًا لما فيه من الإهلال، أي: رفع الصوت..»[(٤)].

ولقد كان أهل الجاهلية يذبحون باسم أصنامهم، وكان عند كل صنم مذبح

(١) المصدر نفسه ٨/ ١٦٢ بتصرف.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٢، ومدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٦٧.
(٣) المفردات ص ٥٢٢ بتصرف.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية ١/ ٢٦٣ بتصرف.

يذبحون فيه القرابين، ومن مظاهر تعبدهم عند الذبح أنهم كانوا يأخذون بعضًا من دماء هذه القرابين، ويلطخون بها الأصنام تخليدًا لذكرى تعبدهم بالذبح عندها، ومن جهلهم أنهم كانوا يذبحون ذبائح كثيرة يلقونها بجوار الصنم زاعمين أنها للآلهة فلا يقربها أحد، ويكون مصيرها في النهاية الهلاك، أو طعمة للسباع والطيور... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا وإن الآيات عامة في «تحريم ذبيحة الوثني والمجوس والمعطل، فهي كلها حرام كذبيحة من ذكر اسم غير الله عليها»[(١)].

ومن ضمن المحرمات المذكورة في الآيات: قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ والنصب: هي الحجارة التي تنصب حول الكعبة وما جاورها لتذبح عندها الذبائح، وكانوا يلطخون أصنامهم بدمائها.

وفي ذلك يقول بعض العلماء «النصب: حجارة ينصبونها حول الكعبة، وكانوا يذبحون عندها للأصنام، ويلطخونها بتلك الدماء، ويضعون اللحوم عليها»[(٢)].

هذا ولقد كان أهل الجاهلية «يسمون ذبائح الغنم التي جعلوها لأصنامهم، وأنصابهم تلك بـ«العتائر» والعتيرة في كلام العرب: الذبيحة، والمذبح الذي يذبحون فيه لها يسمى العتر»[(٣)].

وهذا النهي في آية الأنعام في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مخصوص بما إذا ذبح على اسم النصب، ويدل عليه وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ حيث أجمع المسلمون على أنه لا يفسق آكل ذبيحة المسلم الذي ترك التسمية.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾، وهذه المناظرة إنما كانت في مسألة الميتة.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهذا مخصوص بما ذبح على اسم النصب، يعني: لو رضيتم بهذه الذبيحة التي ذبحت باسم الأوثان فقد رضيتم بإلهيتها، وذلك يوجب الشرك[(٤)].

هذا والملاحظ على الآيات أمور، وهي:

الأول: «تكرر قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ في الآيات للتأكيد على تحريم هذا الأمر، فلقد كان الذبح لغير الله من الأمور العادية عند الجاهلين، وكانوا يفعلونه على أنه من أمور حياتهم الطبيعية، حتى استفحل فيهم هذا الأمر، وانتشر وأصبح من الصعب

(١) المصدر السابق ١/ ٢٦٣ بتصرف.
(٢) المصدر نفسه ١١/ ١٣٦.
(٣) الموسوعة الذهبية، فاطمة محجوب ١١/ ٢١١.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٧٧- ١٧٨ بتصرف.



عليهم قسرهم عن هذه العادات مرة واحدة بأمر واحد؛ لذا كان من حكمة القرآن البالغة أن كرر تحريم هذه الأمور مرات ومرات؛ حتى يستأصل شأفة الداء من عندهم، وعلى هذا فالتكرار للتأكيد والتقوية، وترسيخ المعنى في الأذهان.

الثاني: غايرت آية النحل آية سورة البقرة في الأسلوب حيث أخر لفظ «به» عن قوله: «لغير الله» فآية النحل تقول: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وآية البقرة تقول: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ فما سر التقديم والتأخير؟

وأجيب عن ذلك بأن «تقديم الباء في (به) هو الأصل، فإنه يجري مجرى الألف، فكان كحرف من الفعل، فكان الموضع الأول- أي: آية سورة البقرة- أولى بما هو الأصل ليعلم ما يقتضيه اللفظ، ثم قدم فيما سواه ما هو المستنكر -وهو الذبح لغير الله- وتقديم ما هو المستنكر أولى؛ ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذي الحال..»[1]، وعلى الثاني وردت آية النحل.

الثالث: حذف من آية النحل قوله: «﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وذكر في آية البقرة، وذلك لأنه لما قال في آية البقرة: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ صريحًا -وهذا هو الموضع الأول: اكتفى به في غيره تضمينًا؛ لأن قوله في آخر الآية: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دل على أنه لا إثم عليه»[2]، والله تعالى أعلم.

أرأيت معي كيف أفادتنا هذه الآية الكريمة من المعاني الجديدة التي تنبض بالحيوية والجدة مع أنها مكررة ألفاظها من قبل، إذًا لا تخلو إعادة من إفادة، ولا تكرار من جديد، وهذا هو شأن القرآن دومًا، فجميع كلماته بل حروفه تنبض كلها بالجدة والنضارة... ألا فليخسأ أعداء الله، فإن الله حافظ كتابه، وراد كيدهم في نحورهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

ثالثًا: الاستقسام بالأزلام عند الأصنام:

من مظاهر تقديس العرب للأصنام الاستقسام بالأزلام عندها، ولقد جاءت الإشارة إلى هذا المظهر في آيتين من كتاب الله، وكلتا الآيتين وردتا في سورة المائدة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

والثانية: قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

والأزلام: عبارة عن عيدان دقيقة متخذة

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني ص ١٢١ بتصرف.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ بتصرف.

من شجر متين، يتسم بالصلابة والقوة، وسمت بعلامات ميزت بعضها عن بعض، والاستقسام بها معناه: «طلب القسم، أي: معرفة ما يقسم للإنسان ويقدر»[(١)].

أو «هو طلب معرفة الخير والشر بواسطة ضرب القداح»[(٢)].

كيفية الاستقسام بالأزلام:

كان العرب إذا أراد أحدهم السفر للتجارة أو الغزو ونحوهما، أو أراد زواجًا، أو حفر بئر، أو أراد معرفة نسب ولدٍ ما... أو غير ذلك من أمور حياتهم الغيبية جاءوا إلى الأصنام، واستقسموا بالأزلام عندها، واستقرؤوها الغيب، وكان في أحد هذه الأزلام «افعل»، وفي الآخر «لا تفعل»، والثالث «لا شيء فيه» ويجعلونها في قدح معين، ثم يحركها سادن الصنم، ويأتي المستقسم ليأخذ واحدًا من هذه العيدان، فإن خرج الآمر ائتمروا، وإن خرج الناهي انتهوا، وإن خرج الثالث أعادوا الضرب حتى يخرج أحدهما[(٣)].

سبب استقسامهم بالأزلام:

لقد استقسم العرب بالأزلام، واستقرؤوها الغيب، «لأنهم كانوا في حيرة من أمرهم، فأديان شتى، وقبائل متفرقة، لا نظام معين يردون إليه، ولا حكومة موحدة يرجعون إليها، وصحراؤهم تبسط عليهم جناح الأمن حينًا، وتسدل عليهم الحروب أحيانًا، فضلًا عن سوء أحوال المعيشة واضطرابها بين جوع وشبع، وفقر وغنى.. إلخ، وكانت هذه الأمور وغيرها مثار قلق وحيرة واضطراب لديهم، فكان لابد لهم من مذهب عنهم الحيرة والقلق، فلجأوا إلى وسائل شتى، ظنوها تجلب إليهم الطمأنينة، فلجأوا إلى التفاؤل والطيرة، فحكموا الحيوان والطير في أمورهم، وتفاءلوا بالأصوات والكلمات.. وأخيرًا اتخذوا الأزلام يستقسمون بها الغيب المخبوء عنهم»[(٤)].

لكن الله تعالى بالإسلام حرم كل هذا الخلط والخبط العشوائي، فنهى عن الاستقسام بالأزلام ووصفه بأنه فسق «لأنه دخول في علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوب، حيث يقول سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

واعتقاد أن إلى الغيب طريقًا، وإلى استنباطه سبيلًا خطأ وضلال مبين.

و«قول أحدهم: أمرني ربي، أو نهاني ربي... إلخ، افتراء على الله عظيم، وما

---

(١) الميسر والأزلام ص ٥٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٣٨ .
وانظر: الكشاف ١/ ٥٩٢.

(٣) الميسر والأزلام ص ٦٢- ٧٠.

(٤) الميسر والأزلام ص ٦٢- ٦٦.

يدريه أن ربه أمره أو نهاه»[1]، ولو لم يكن في الاستقسام بالأزلام إلا الافتراء على الله تعالى، والكذب عليه لكفى بذلك إثمًا وزورًا، فإن كان بهذه المثابة فهو جدير بالتحريم والنهي عنه.

هذا ولقد أبدلنا الله به في الإسلام صلاة الاستخارة، والدعاء فيها معروف ومشهور[2]، وفي كلمات هذا الدعاء يفوض العبد أموره لله تعالى، ويرد علم الأشياء إلى علام الغيوب سبحانه .

رابعًا: اختصاص الأصنام ببعض الحيوانات الحية:

وجاء إبطال هذا المظهر في آية واحدة من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]

تقرب عباد الأصنام إلى أصنامهم بكثير من العبادات، منها ما كان ينذره البعض من نذور، ومن هذه النذور والقرابين «ما يكون حيوانات حية، تسمى باسم الأرباب، فتحبس عليها، وتوقف باسمها، وتكون حرة طليقة لا يجوز لأحد أن يقربها بسوء.

(١) الكشاف ١/ ٥٩٢ بتصرف.

(٢) دعاء الاستخارة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم ٦٣٨٢.

ومن هذه الحيوانات الحية ما جاء في هذه الآية الكريمة:

١ . البحيرة.

وهي من البحر و«أصل البحر: كل مكان واسع جامع للماء الكثير، ثم اعتبر هذا المعنى في كل واسع، فيقال: بحرت كذا، أي: أوسعته سعة البحر تشبيهًا به، ومنه بحرت البعير: شققت أذنه شقًا واسعًا، ومنه سميت «البحيرة»، ويقال للمتوسع في علمه: بحر»[3].

وهذا خلاصة ما ورد في لفظ «البحيرة» لغة، ولقد اختلف العلماء في تحديد وتعريف «البحيرة» اصطلاحًا اختلافًا كثيرًا[4] إلا أن اختلافهم هذا يؤل إلى أن البحيرة هي:

«الناقة أو الشاة التي تشق أذنها إذا ولدت خمسة أبطن أو عشرة أو بين ذلك، فإذا تم لها ذلك تركت فلا يشرب لبنها، ولا يجز وبرها، ولا يحمل على ظهرها، ولا تطرد عن ماء، ولا تمنع من كلأ، فإذا ماتت حرموا لحمها على النساء دون الرجال»[5].

(٣) المفردات ص ٤٨ بتصرف «بحر».

(٤) فصل هذه الآراء الإمام الآلوسي في تفسيره ٤/ ٤١.

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٤، ومفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١١٦، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٩، ١٣٠، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٥، ومعاني القرآن وإعرابه، الزجاج

٢. السائبة.

أصل السائبة: من «سيبته فساب، والسيب مجرى الماء» [١] الذي ينساب فيه بين شطآنه.

أو السائبة «فاعلة من سيبته، أي: تركته وأهملته فهي سائبة، أو لمعنى مفعول كعيشة راضية» [٢].

ومن هذا الأصل اللغوي جاءت تعاريف العلماء للسائبة، ولقد اختلفوا في تعريفها اصطلاحًا أيضًا، وخلاصة أقوالهم تئول إلى أن السائبة هي «الناقة أو البعير أو الدابة التي يبلغ نتاجها حدًا معينًا، فحينئذ تترك ولا تركب ولا يحمل عليها، ولا تمنع من ماء وكلأ، وتترك سائبة لا يحل لأحد كائنًا من كان أن يخالف ذلك» [٣]، وهذه الأقوال وأشباهها تعطينا صورة كاملة لما كان عليه أهل الجاهلية من تعبد؛ لاعتقادهم أن ذلك يقربهم إلى الله زلفى.

٣. الوصيلة.

قال بعض المفسرين: «الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت ذكرًا وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، وتركوا الذكر لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت أنثى فهي لهم ... وعليه فالوصيلة بمعنى الموصولة، كأنها وصلت بغيرها، ويجوز أن تكون بمعنى الواصلة؛ لأنها وصلت أخاها» [٤].

وقيل: «الوصيلة في الغنم، فإذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا، فإن كان السابع ذكرًا ذبح وأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى تركت في الغنم، وإن كان ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم تذبح لمكانها، وكان لحمها حرامًا على النساء، ولبنها كذلك، إلا أن يموت منها شيء فيأكله الرجال والنساء» [٥]، ولعل هذا الاختلاف راجع إلى أن كل قبيلة من قبائل العرب كان لها نظام معين في مثل هذه الأمور تسير عليه، وتنهج نهجه؛ لذا اختلف النقل عنهم تبعًا لاختلاف أنظمة القبائل، وعلى كلٍ فهذه أقوال تصور لنا جانبًا من جوانب تقديس العرب للأصنام.

٤. الحامي.

الحامي: اسم فاعل من حمى، أي: منع، وهو الفحل من الإبل [٦] واختلفوا في تحديد ماهيته أيضًا.

فقال الفراء: «هو الفحل إذا لقح ولد ولده حمي ظهره فلا يركب، ولا يجز له وبر،

٢/ ٢١٣.

(١) المفردات ص ٢٥٥ بتصرف.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤١، ٤٢.
(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٥ بتصرف، وانظر روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١١٦ بتصرف.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٦ بتصرف.
(٦) تفسير البحر المحيط ٤/ ٢٩.

ولا يمنع من مرعى، وأي إبل ضرب فيها لم يمنع»[1].

وقالوا: بل الحام الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات، ليس بينهن ذكر فقد حمي ظهره، فلا يركب ولا يجز وبره، ويخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع به بغير ذلك[2]، وقيل: كان الفحل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه[3].

والملاحظ أن الاختلاف بين هذه الأقوال اختلاف لفظي ظاهري، حيث يمكن الجمع بينهما، فالحامي هو الفحل من الإبل، الذي يمتد به عمره فيلقح ولد ولده، ولا يكون ذلك إلا إذا نتج له عشر إناث أو ما قارب ذلك، ولعل هذا الاختلاف راجع - كما ذكر من قبل - إلى تباين قبائل العرب في ذلك.

ويؤيد هذا ما ذكره الألوسي بقوله -بعد أن حكى قريبًا من هذه الأقوال-: «وجمع بين الأقوال المتقدمة في كل من تلك الأنواع بأن العرب كانت تختلف أفعالهم فيها»[4].

وبالتالي روى كل راوٍ حسبما نمى إلى علمه من أمورهم، والله تبارك وتعالى أبطل كل هذه الشركيات الجاهلية في الإسلام بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما شرع ولا حكم ... بمثل هذه الأمور، لكن الذين كفروا يختلفون ويفترون الكذب على الله تعالى «حيث يفعلون ما يفعلون، ويقولون: الله أمرنا بهذا، ويكذبون على الله بادعائهم أن هذه الأشياء من فعل الله وأمره»[5]، والله تعالى أعلى وأعلم.

خامسًا: اختصاص العرب الأصنام ببعض الحرث والزراعة:

من أباطيل المشركين وجهلهم في تعبدهم للأصنام أنهم كانوا يخصونها ببعض الحرث والزرع، ولقد ذكر الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

الذرء -كما يقول الراغب- إظهار الله تعالى ما أبداه، يقال: ذرأ الله الخلق، أي: أوجد أشخاصهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأعراف: ١٧٩][6].

والأنعام «لفظ يطلق على الإبل والبقر

(١) معاني القرآن، الفراء ١/ ٣٢٢.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٦ بتصرف.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٦.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤٢.
(٥) المصدر نفسه ٤/ ٤٢، وانظر تفسير الطبرسي ٣/ ٣٣١
(٦) المفردات ص ١٨٣ « ذرأ».

والغنم» خاصة من بين الماشية، وهي «جمع نعم، مأخوذة من نعمة الوطء»[1] فهي موطأة للإنسان ليركبها، ويستخدمها في سائر أموره الحياتية.

وسورة الأنعام من السور التي ذكرت كثيرًا من جهالات العرب في الجاهلية، مما يدل على سفاهة أحلامهم وتفاهة عقولهم، والآية التي معنا تمضي قدمًا في هذا الإطار، لكن فعلهم هنا بلغ حد الإجحاف، وجاوز حد الاعتداء على ما جعلوه لله تعالى، مع أنهم كانوا على العكس من ذلك تمامًا بالنسبة لما كان لأصنامهم، هذا ولقد تباينت أقوال المفسرين في توضيح صورة هذا الإجحاف على أقوال تلخيصها فيما يلي:

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزمًا، جعلوا منها سهمًا لله، وسهمًا لآلهتهم، وكان إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله، ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم، وإن هبت من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقروه ولم يردوه»[2].
- ذكر الطبري عن ابن عباس أيضًا أنه قال: «جعلوا لله من سقي الماء نصيبًا، وللشيطان والأوثان نصيبًا، فإن انفجر شيء من سقي ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سدوه»[3].
- ذكر أبو حيان عن بعض العلماء: أن المشركين كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا آلهتهم على ذلك الذبح، وإذا ذبحوا لآلهتهم لم يذكروا الله، وهذا هو معنى الآية عندهم[4].

والناظر في هذه الآراء جميعها لا يكاد يجد بينها فرقًا جوهريًا، بل هو مجرد خلاف لفظي أو هو -كما يعبر عنه- اختلاف عبارة وتنوع لا اختلاف تضاد؛ وذلك لأنها تلتقي على مائدة واحدة، وتصور لنا مدى قسمة أهل الجاهلية الضيزى، وتبين مدى الجور على حقوق الله تعالى في أي نوع خصوه به من «حرث أو سقي أو أنعام»، ولعل اختلاف النقل عن العرب راجع إلى اختلاف طرائق قبائل العرب أنفسهم في هذه الأمور، فبعض القبائل تجعل النصيبين من الحرث، وبعضهم من الأنعام، والبعض الآخر من سقي الماء.. وهكذا، لذا فقد اختلف النقل، والأمر في ذلك كله يسير.

هذا ولقد رجح الإمام الطبري القول الأول للإمام ابن عباس على غيره، أخذًا

(١) المفردات ص ٥٠١.

(٢) روى هذا الأثر الإمام الطبري في تفسيره ٥/ ٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه ٥/ ٣٥٠ بتصرف.

(٤) البحر المحيط ٤/ ٢٢٨.

بظاهر الآية، فالله جل ثناؤه أخبر أنهم جعلوا له من حرثهم وأنعامهم قسمًا مقدورًا، فقالوا: هذا لله، وجعلوا مثله لشركائهم - وهم الأوثان بالإجماع- وقالوا: هذا لشركائنا، وأن نصيب شركائهم لا يصل منه لله شيء، وما كان لله وصل إلى نصيب شركائهم[1]، وعلى كلٍ فالآية توضح مدى تعظيم وتقديس العرب لأصنامهم، ومدى مبالغتهم في ذلك حتى وإن جاروا على حق الله تعالى.

ويبين بعض الباحثين سبب هذه التفرقة، وسبب هذا الظلم فيقول: «ولعل ذلك بسبب أن ما خصصوه للأصنام كان يجد له معقبًا وسائلًا، يراجع أصحاب الحرث والأنعام لاستحصال حق الأصنام منهم، وهو حق مفروض، فكان السدنة يحصلون حق الأصنام، بينما كان ما يخصصونه لله نذرًا لا يعرف به غير الناذر، فكان يتلاعب به، ويعطيه أو يعطي جزءًا منه إلى جامعي حق الأصنام، على اعتبار أنها شريكة لله، وبهذا يتهرب من أداء النذر كاملًا بهذه الحيلة، أو لاعتقادهم بأن الله بعيد عنهم، وهو غفور رحيم، أما الأصنام فقريبة منهم وهي منتقمة أشد الانتقام»[2].

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف يحتال العرب لاغتيال حق الله تعالى أو الجور عليه، ثم هم يوفون أصنامهم حق الوفاء، بل وأكثر منه، فهم بحق ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، وساء حكمهم هذا «لإيثارهم مخلوقًا عاجزًا عن كل شيء، على خالق قادر على كل شيء»[3] ألا ما أجهل المشركين! وما أحلم الله عنهم!

سادسًا: الطواف حولها:

لم يرد هذا المظهر صراحة في القرآن الكريم، إنما وردت الإشارة إليه بطريق المفهوم، حيث ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ما يفيد أن العرب كانوا يطوفون حول أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى.

فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: سألت عائشة: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: ١٥٨].

فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت

(١) يراجع في تفصيل الترجيح وبقية الاستدلال عليه: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٥١.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ١٩٤ بتصرف.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٧٦ بتصرف.

«فلا جناح عليه ألا يطوف بهما» ولكنها أنزلت فى الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التى كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية، قالت عائشة: (وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما)[1] الحديث.

يعلق الإمام ابن بطال على الآية والحديث فيقول: «نزلت في الفريقين كليهما، في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام من أجل أن الله أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت... ثم يذكر عن بعضهم قوله: كان على الصفا وثن، يقال له: «يساف»، وعلى المروة وثن يقال له: «نائلة»، فكان المشركون يطوفون بينهما، فلما كان الإسلام قال ناس: «يا رسول الله، إن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بين الصفا والمروة للوثنين الذين كان عليهما، وليسا من شعائر الله» فنزلت هذه الآية»[2].

فمن خلال ماسبق يتضح أن المشركين كانوا يتعبدون لأوثانهم بالطواف حولها، وهذا مظهر من مظاهر التعبد والتقديس لها، فلما جاء الإسلام ودخل فيه من كان يطوف حول الصفا والمروة حالة كون الأصنام عليهما وهو في الجاهلية، تحرج وهو في الإسلام أن يطوف بينهما استصحابًا للحالة الماضية، فلما تحرجوا أنزل الله الآية لرفع هذا الحرج، وبيان أنه كان من أمر الجاهلية الذي رفعه الله بالإسلام، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري، واللفظ له، في صحيحه، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله، رقم ٦٤٣، ٢/ ١٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن، رقم ١٢٧٧، ٢/ ٩٢٨.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٤/ ٣٢٣ بتصرف.

عاقبة الأوثان وعابديها

مما لاشك فيه أن العاقبة للمتقين، والنهاية الوخيمة للظلم والظالمين، ولا ظلم أعظم من ظلم الإنسان لنفسه في إشراكه بربه، وعبادته الأوثان من دونه تعالى، وسيجلي البحث هنا عاقبة الأوثان وعابديها في الدنيا والآخرة:

أولًا: عاقبة الأوثان وعابديها في الدنيا:

يعد من نافلة القول إن الإسلام دين الخير والرحمة لجميع البشرية في كل زمان ومكان، حتى وإن لم يكونوا معتنقين له، فالله تعالى وصف حبيبه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فعموم رحمته للعالمين واضح بنص الآية الكريمة، ومن هذا المنطلق فإن عباد الأوثان من هذا القبيل، ينبغي أن يبين لهم سماحة هذا الدين، وفساد ما هم عليه من وثنية وشرك، وأن أوثانهم هذه لن تنفعهم مثقال ذرة من خير في الدنيا والآخرة، ولا أدل على ذلك من حالهم حين يمسهم السوء في البر أو البحر، فإن عقولهم تذهل عن كل معبود سوى الله تعالى، يرفعون إليه وحده أكف الضراعة لينجيهم مما هم فيه، وتلهث الألسنة حينئذ بأحر عبارات الدعاء والثناء والالتجاء إليه وحده دون سواه، والآيات في هذا الصدد كثيرة ووفيرة، يكتفى منها بواحدة توضح المقصود وتبينه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ [الإسراء: ٦٧-٦٩]

وفي هذه الآيات يقول تعالى ذكره: وإذا نالتكم الشدة والجهد في البحر فقدتم من تدعون من دون الله من الأنداد والآلهة، ولم تجدوا غير الله مغيثًا يغيثكم إذا دعوتموه، فلما دعوتموه وأغاثكم، وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه ربكم من خلع الأنداد والأوثان، والبراءة من الآلهة، وإفراده بالألوهية؛ كفرًا منكم بنعمته، وكان الإنسان كفورًا ذا جحد لنعم ربه، ثم يقول تعالى ذكره: أفأمنتم أيها الناس من ربكم، وقد كفرتم نعمته بتنجيته إياكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أن يخسف بكم ناحية البر، أو يرسل عليكم حاصبًا، ثم يقول: أو يمطركم بحجارة حارة من السماء تقتلكم، كما فعل بقوم لوط، ثم لا تجدوا لكم وكيلًا، ثم يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقوم بالمدافعة

عنكم من عذابه وما يمنعكم منه، أم أمنتم أيها القوم من ربكم، وقد كفرتم به بعد إنعامه عليكم، النعمة التي قد علمتم أن يعيدكم في البحر تارة أخرى، فيرسل عليكم قاصفًا من الريح، وهي التي تقصف ما مرت به فتحطمه وتدقه، فيغرقكم الله بهذه الريح القاصف بما كفرتم، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا، ثم لا تجدوا لكم علينا تابعًا يتبعنا بما فعلنا بكم، ولا ثائرًا يثأرنا بإهلاكنا إياكم[(١)].

والآيات الكريمة تحكي حال الإنسان عامة مع ربه تعالى، لا حال الوثنيين وحدهم، نسأل الله العفو والعافية.

هذا وينبغي أيضًا في التعامل مع الأوثان أن تزال وتكسر، وتستأصل شأفتها، كما فعل نبينا صلى الله عليه وسلم بها يوم الفتح، وكما فعل من قبله أبوه إبراهيم الخليل عليه السلام، والأدلة على ذلك شهيرة ووفيرة.

ومن ثم ينبغي أن يفيء الوثنيون إلى رشدهم قبل أن يباغتهم الموت، ويموتوا -عياذًا بالله- على شركهم فيخلدوا في النار، فضلًا عما يقع بينهم وبين آلهتهم من تبرؤ وشقاق.

ثانيًا: عاقبة الأوثان وعابديها في الآخرة:

طوف بنا البحث فيما سبق مع الأوثان والوثنيين وعاقبتهم في الدنيا، من وجوب دعوتهم إلى الحق، وانتشالهم من الجهالة والضلالة، وإزلتها ومحاربتها... والآن يطوف بنا في جولة أخرى لبيان عاقبتهم في الآخرة...

١. تبرؤ الآلهة المزعومة من عابديها.

أورد القرآن أن ما عبد من دون الله تعالى سيتنصل من عابديه يوم القيامة، بل إن المشركين أنفسهم لما يرون العذاب يعلنون البراءة من هذه الأصنام.. ولكن هيهات هيهات، فات وقت الندم والتبرؤ، وانصرم وقت التوبة والتحسر، ولم يبق إلا الحساب والعذاب، وجاء هذا البيان في غير آية من القرآن، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٨ بتصرف.

﴿نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

إلى غير هذه الآيات التي فاض بها القرآن الكريم، ولما كان المقام لا يتسع لتناول هذه الآيات بالدراسة والشرح يكتفي البحث بالنظرة الإجمالية العامة على الآيات المباركات:

يجهد المشركون أنفسهم في التقرب والتزلف إلى آلهتهم في الدنيا، فيعترون العتائر ويقدمون القرابين، بل ويخصصون جزءًا من الحرث والأنعام لهذه الآلهة.. عساهم أن يحظوا بالرضا والقبول لديها، لكنهم يصدمون يوم القيامة حين يجابهون منها بما يكرهون، ويواجهون بما لم يتوقعوا.. وتتنصل هذه الآلهة منهم.

والآيات التي معنا تصور لقطة من هذا المشهد الأخروي، فيحشر العباد جميعًا يوم القيامة، وينادي الذين أشركوا: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء، والمقصود من هذا السؤال «التقريع والتبكيت، لا نفس السؤال، ويحتمل أن يكون معناه: أين نفس الشركاء؟ أو أين شفاعتهم، وانتفاعكم بهم؟ وعلى كل لا يكون الكلام إلا تقريعًا وتوبيخًا، وتقريرًا لهم أن ما يرجونه مأيوس منه، وتنبيهًا على فساد طريقتهم في الدنيا»[1].

لكن المشركين عند سؤالهم لا يجيبون بالحقيقة بل يكذبون، ظنًا منهم أن الله لا يعلم حقيقة الأمر، ولعل كذبهم ينجيهم من هول الموقف، وحكى الله عنهم ذلك في قولـه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ وأصل الفتنة - كما يقول الراغب[2]- إدخال الذهب في النار؛ لتظهر جودته من رداءته، ثم استعملت بعد ذلك في معانٍ كالعذاب، والاختبار، والبلاء، والشدة.. وغيرها، والفتنة تكون من الله للعبد.. كالبلية، والمصيبة، والقتل والعذاب.. وغير ذلك[3].

قال الزجاج[4] في تفسير الآية: «أعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه إلا أن تبرؤا منه، وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين» وعليه فالفتنة هاهنا بمعنى الشرك والافتتان بالأوثان.

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم[5] ما كانوا يدعونه من دون الله تعالى .

وقيل: إنه عام في كل ما يعبد من دون الله تعالى، فهي تضل عن عابديها يوم القيامة،

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١٩١ بتصرف.
(٢) في المفردات ص ٣٧٤ بتصرف.
(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٤٥٣.
(٤) انظر: معاني القرآن له ٢/ ٢٣٥ .
(٥) الكشاف ٢/ ١٢.

ولا تغني عنهم شيئًا[١].

وهكذا جلت الآيات موقفًا من مواقف المشركين يوم القيامة، حيث إنهم أنفسهم يتبرأون من الشرك والآلهة، فضلًا عن تبرؤ الآلهة منهم، وتغييبهم عنهم في الآخرة وقت احتياج النصرة منها.

هذا وإن آية سورة «يونس» وإن كانت تتحدث عن نفس موضوع الآية السابقة إلا أنها غايرت في الأسلوب والمعنى فأفادت جديدًا، حيث أعلنت أن التفرقة بين العابدين والمعبودين ستكون بينهم يوم القيامة، وحينئذ يندم العابدون ندمًا عظيمًا حيث عقدوا آمالهم طوال حياتهم على هذا، فإذا بهم يجابهون بما لم يكن في الحسبان أو الميزان.. فالله تعالى يحشر الخلائق أجمعين من كل حدب وصوب إلى أرض المحشر، ثم ينادى الذين أشركوا في عبادتهم، وفي أموالهم فقالوا: هذا لله، وهذا لشركائنا؛ لذا أضاف الشركاء إليهم في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾[٢].

واختلف في المراد بالشركاء: فقيل: هم الملائكة، وقيل: هم الأصنام، ورجح الثاني بأن هذا الخطاب مشتمل على الوعد والوعيد، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين، والأصنام يخلق الله فيها الحياة والنطق فتنطق بالحقيقة[٣].

ثم ينادى الجميع بقوله: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي: امكثوا مكانكم، وقفوا في موضعكم، أنتم أيها المشركون وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الآلهة والأوثان ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ففرقنا بين المشركين بالله وما أشركوه به[٤].

ولكن كيف تقع الفرقة بينهم وبين الأصنام، والجميع سيحشر إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والجواب: أن الفرقة وقعت بتبري كل معبود ممن عبده.

ويقول الإمام ابن عباس رضي الله عنهما: «ينطق الله الأوثان فتقول: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: لا نعلم بعبادتكم لنا؛ لأنه ما كان فينا روح، فيقول العابدون: بل قد عبدناكم، فتقول الآلهة: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]»[٥].

وبمثل هذا قال الإمام مجاهد في تفسيره[٦].

وهكذا يتبرأ العابدون والمعبودون

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٨٧.
(٣) المصدر نفسه ١٧/ ٨٧ بتصرف.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٧٨ بتصرف.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٠، ٢١.
(٦) تفسير الإمام مجاهد بن جبر ص ٣٨٠.

بعضهم من بعض، ويندم العابدون على ما ضيعوا من أعمارهم، وما قدموا من أعمالهم، ولات حين مندم.

ويذكر الله تعالى في سورة النحل موقف المعبودين من عابديهم على غرار الآيات السالفة، إلا أن هذا الموطن تفرد عن غيره بالتصريح بتكذيب الآلهة لعابديها، وجاء هذا التصريح مؤكدًا بأكثر من مؤكد، فأكد بإن، واللام الداخلة على الخبر، فضلًا عن اسمية الجملة، وهذه المؤكدات تواردت على شيء واحد فأكسبته توكيدًا فوق تأكيد، وهذا ما ورد في قوله: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

ولقد اختلف في تعيين الشركاء، فقيل: هم: الأصنام، وقيل: هم الشياطين [١].

وأميل إلى الرأي الأول، وعليه فالمقصود من إعادة الأصنام زيادة الغم والحسرة في قلوب المشركين، والأصنام تنطق بكذب المشركين في ادعائهم عبادة الأصنام ويعلنونها صريحة مدوية ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فإن قيل: كيف كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم؟

والجواب: أن الأصنام لما كانت غير راضية بعبادتهم، فكأن عبادتهم لم تكن عبادة، ويحتمل أن يكون تكذيبهم لهم في تسميتهم شركاء لله لا في العبادة [٢].

ثم إن المشركين لما رأوا ذلك من آلهتهم «ألقوا إلى الله يومئذ السلم» أي: «الاستسلام والانقياد لحكمه في ذلك اليوم» [٣].

وعلى كل فلن ينفعهم هذا ولا ذاك، فقد وقع قضاء الله، ولا راد لقضائه وقدره، وسبقت كلمته على هؤلاء المشركين أنهم من أصحاب النار.

والقرآن بهذه الردود قد فند شبه المشركين، وأبطل حججهم، وأبطل موروثاتهم العقدية التي ورثوها عن آبائهم... وارتفعت رايات الإسلام على حطام الوثنية، فلله الحمد من قبل ومن بعد.

٢. الأوثان وعابدوها وقود للنار.

لا يقع التبري يوم القيامة بين العابدين وأوثانهم ومعبوداتهم فقط، بل يتعداه إلى أن هذه المعبودات ستكون مع عابديها وقودًا للنار يوم القيامة، وحينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وساعتها يتندمون ويصرخون، ولات حينئذ ينفع الندم والصراخ.

يذكر الله تعالى هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۝٩٨﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٩٩-١٠٠ بتصرف.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ص ٣٦٣.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين مخلوف ص ٣٥٣.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله؟ فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها، قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

عيسى وعزير والملائكة»[(١)].

فهذه الرواية توضح لنا سبب النزول، والمحاورة التي جرت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين على لسان مبعوثهم «عبدالله ابن الزبعرى» في شأن المعبودات التي عبدت من دون الله، والتي من بينها عيسى عليه السلام والملائكة الكرام، حيث فهم أن هؤلاء سيكونون مع عابديهم في النار مخلدين، لكن جاء الرد في الآية التالية بأن هؤلاء الذين عبدوا من دون لا يدخلون النار مع العابدين؛ لأنهم لم يكونوا راضين بعبادتهم لهم، بل الشيطان هو الذي سول لأنفسهم هذا الشرك من دون الله تعالى.

فضلًا عن أن التعبير في الآية بقوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: «ومن تعبدون» ومعلوم أن «ما» تقع على غير العاقل، فيكون مقصود الآية واقعًا على غير العقلاء.

والمعنى: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها وحطبها.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم بها؛ فلهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

وكل من العابدين والمعبودين فيها، خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الإلحاد، الإيمان، الشرك، الكفر

(١) أخرجه الحاكم، واللفظ له، في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأنبياء، رقم ٣٤٤٩، ٢/٤١٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/١٥٣، رقم ١٢٧٣٩.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣١ بتصرف.





عناصر الموضوع

المجلد السادس

مفهوم الإيمان

أولًا: المعنى اللغوي:

الإيمان مصدر الفعل الرباعي آمن وأصله أأمن، وأعلت الهمزة الثانية بالقلب ألفًا؛ لكونها ساكنة والتي قبلها متحركة بالفتح، وهو أصل يدل على معنيين:

الأول: إعطاء الأمن والأمان والطمأنينة؛ الذي هو ضد الخوف، وآمنته ضد أخفته.

الثاني: التصديق الذي هو ضد التكذيب.

وإذا قال العبد: آمنت بالله تعالى ربًا، أي: صدقت به، واطمأننت لأمره.

فالإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان[(١)].

ويرى ابن تيمية أن الإيمان بمعنى الإقرار؛ فيقول: ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الإيمان: «التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة، وأمر بالإيمان به، والانقياد له ظاهرًا وباطنًا»[(٣)].

فهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[(٤)]، «ويشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله»[(٥)].

وهو تصديق القلب واعتقاده، المتضمن لأعمال القلوب، وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله؛ ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح[(٦)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢١، المفردات، الأصفهاني، ص ٩٠.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩١، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد، ص١٩، ٢١.

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(٤) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص١٦١.

(٥) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(٦) انظر: الإيمان، ابن تيمية، ص١٣٧.



الايمان في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (أمن) في القرآن الكريم (٨٧٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (٨١١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤٢	﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾[البقرة:٩]
الفعل المضارع	١٧٥	﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٠٠]
فعل الأمر	١٩	﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[الأحقاف:١٧]
المصدر	٤٥	﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾[المجادلة:٢٢]
اسم فاعل	٢٣٠	﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]

وجاء الإيمان في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: التصديق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [يوسف:١٧].

الثاني: الإسلام والتوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾[البقرة:٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[المائدة:٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨١، ٩٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٩١، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص١١٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسلام:

الإسلام لغة:

الاستسلام، والانقياد[١].

الإسلام اصطلاحًا:

الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله[٢].

الصلة بين الإيمان والإسلام:

لم يفرق أهل العلم بين الإيمان والإسلام حال افتراقهما، وإنما كان التفريق بينهما حال اقترانهما، فقالوا: إذا افترقا اتفقا، وإذا اقترنا اختلفا، فقالوا: إن الإسلام هو القيام بشرائع الإسلام الظاهرة، والإيمان هو التصديق الجازم بالغيب، وهذا كما جاء في حديث جبريل، حيث فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، ومن هذه الحيثية نجد أن الإسلام أعم من الإيمان، وحقيقة الأمر: أن العبد لا يكون مسلمًا إلا إن كان مؤمنًا، و لا يكون مؤمنًا إلا إن كان مسلمًا.

٢ الإحسان:

الإحسان لغة:

الإحسان من أحسن يحسن إحسانًا، وهو ضد الإساءة[٣].

الإحسان اصطلاحًا:

هو إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه[٤].

الصلة بين الإيمان والإحسان:

الإحسان أعلى درجات الدين، وإذا انفرد الإيمان دخل فيه الإسلام، وإذا انفرد الإحسان دخل فيه الإسلام والإيمان.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٥٢، مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٠.
(٢) انظر: ثلاثة الأصول، محمد بن عبد الوهاب ص١٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ١١٧.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٢١٢.



اقتران الإيمان بالعمل الصالح

تكررت جملة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في القرآن (٥١) مرة.

وهذه الجملة هي الصيغة، وهي معظم ما اقترن به الإيمان مع العمل الصالح في صيغ الاقتران بينهما، والتي بلغت (٦٩) مرة[١].

وهذا الاقتران يدل على ارتباطهما الوثيق وتلازمهما المستمر، فلا إيمان بدون عمل صالح يعبر عنه ويبرهن عليه، ولا قيمة للعمل الصالح بدون إيمان يقوم عليه ويركن إليه، فالإيمان بدون عمل كالشجر بلا ظل ولا ثمر، والعمل الصالح بدون إيمان كالجسد بلا روح[٢].

المقصود بالعمل الصالح: ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع المسنون.

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[٣].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «العمل الصالح: هو العمل الذي يصلح عامله في دينه ودنياه صلاحًا لا يشوبه فساد، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين»[٤].

«والعمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل كل شيء في الحياة تباشره باسم الله، ولقد عد الإسلام أعمالًا كثيرة صالحة لم تكن تخطر ببال الناس أن يجعلها عملًا صالحًا وقربة إلى الله تعالى، فجعل كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضي به دين غارم مثقل، أو يهدي حائرًا أو يعلم جاهلًا، أو يدفع شرًا عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعًا إلى كل ذي كبد رطبة..جعل كل ذلك عملًا صالحًا ما دامت النية فيه خالصة لوجه الله الكريم»[٥].

ومما يستنبط من اقتران الإيمان والعمل الصالح:

- أن الإيمان علم وأس والعمل بناء، ولا غناء للأس ما لم يكن بناء، كما لا بناء ما لم يكن له أس، فإذًا حقهما أن يتلازما لذا قرن بينهما.
- أن الغالب في اقتران الإيمان والعمل الصالح، الحديث بصيغة الجمع ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس، عبد الله جلغوم ١/ ١٨٢ - ١٨٧.

(٢) يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر، الشرقاوي ص ٣٦.

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ١٩٤.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص ٣٨١٨.

(٥) العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص ٥٧ بتصرف يسير.

وهذه الصياغة جاءت جمعًا في المتحدث عنهم وعن أعمالهم، فهم جماعة تبنوا تصورًا واحدًا، وأسسوا على هذا التصور أعمالًا صالحات في جميع مناحي الحياة، يصح أن تقوم عليها نهضة حضارية، يقود بها أهل الإيمان والعمل الصالح الأمة إلى الخير والصلاح.

- ترتب على الإيمان والعمل الصلاح الفلاح في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص٦٧]. أي: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب[1]، الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٢٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢١١.

المؤمن من أسماء الله تعالى

سمى الله تعالى نفسه الكريمة بالمؤمن، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣].

من معاني المؤمن في حق الله تعالى:

١. شهادته سبحانه لنفسه بالتوحيد.

قال الزجاج رحمه الله: سمى الله نفسه مؤمنًا؛ لأنه شهد بوحدانيته، فقال تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]. كما شهدنا نحن[3].

٢. الذي أمن عباده من ظلمه.

قال الطبري رحمه الله: «المؤمن: الذي يؤمن خلقه من ظلمه»[4].

وقال الزجاج رحمه الله « ويقال إنه في وصف الله تعالى يفيد أنه الذي أمن من عذابه من لا يستحقه»[5].

٣. الذي صدق رسله عليهم السلام.

قال السعدي رحمه الله: «المؤمن الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل

(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٢.
(٥) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.

كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ماجاؤوا به»[1].

معنى المؤمن في حق المخلوقين:

سمى سبحانه وتعالى بعض عباده بالمؤمن، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾ [السجدة: ١٨].

ومعنى المؤمن إذا وصفنا به المخلوقين: هو الواثق بما يعتقده المستحكم الثقة[2].

وبمعرفة الإنسان المؤمن لمعاني هذا الاسم في حق الله يطمئن قلبه إلى ربه سبحانه وتعالى، وما وعده من سعادة في الدنيا ونعيم في الآخرة، ويوجب عليه أن يثق بما يعتقده.

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، السعدي ٢٣٩.
(٢) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.

أركان الإيمان في القرآن

للإيمان ستة أركان، أربعة منها مذكورة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

روى الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك، قال: لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأحق له أن يؤمن)[3].

قال ابن عطية رحمه الله: «سبب هذه الآية أنه لما نزلت: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾[البقرة: ٢٨٤].

أشفق منها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ثم تقرر الأمر على أن قالوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فرجعوا إلى التضرع والاستكانة، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم، وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة، رقم ٣١٣٤.
قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي في التلخيص فقال: منقطع.

والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أخبر سبحانه وتعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، فقال: فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين»[2].

«إنه الإيمان الشامل الذي جاء به هذا الدين، الإيمان الذي يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله، القائمة على دعوته في الأرض إلى يوم القيامة، الضاربة الجذور في أعماق الزمان، السائرة في موكب الدعوة وموكب الرسول وموكب الإيمان الممتد في شعاب التاريخ البشري، الإيمان الذي يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها صفين اثنين: صف المؤمنين وصف الكافرين، حزب الله وحزب الشيطان، فليس هنالك صف ثالث على مدار الزمان»[3].

ويستفاد من هذه الآية: ثناء الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين في إيمانهم إيمانًا خالصًا يتفرع عليه العمل، وأن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

والركن الخامس من أركان الإيمان هو: الإيمان باليوم الآخر، ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

والركن السادس من أركان الإيمان هو: الإيمان بالقدر خيره وشره، ذكر في الحديث المشهور الذي رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سأل جبريل النبي عن الإيمان فقال:(... فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره

(١) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٧٢.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٤١.

وشره قال: صدقت)[1].

وهذه الأركان الستة هي التي بعث الله بها الرسل وأنزل بها الكتب، ولا يقبل إيمان عبد إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الذي دل عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وسوف نتناول هذه الأركان فيما يلي:

أولًا: الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله: هو التصديق به وبصفاته ورفض الأصنام وكل معبود سواه[2].

والإيمان بالله يتضمن توحيده في ثلاثة: ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، ومعنى توحيده في هذه الأمور: اعتقاد تفرده بالربوبية والألوهية وصفات الكمال وأسماء الجلال.

وسوف نتكلم عن الإيمان بالله تعالى[3] في النقاط الآتية:

١ . الوجود الإلهي.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن الله تبارك وتعالى من حيث هو ذات حقيقية، وله وجود حقيقي لا يشبهه شيء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وهو سبحانه وتعالى الأول قبل كل شيء، وهو الآخر بعد كل شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

وكما قال تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص٨٨].

وهو سبحانه وتعالى بذاته وجود غيبي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، ولكنه يعرف بآثاره في كل شيء، وتقوم كل دروب الأدلة على وجوده وتفرده، واستحقاقه لكل صفات الكمال.

ودليل وجوده سبحانه وتعالى: هو العقل والفطرة والشعور الباطني، وكل ما خلق الله.

أما دليل العقل: فقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥].

وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

«وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

١ . إما أنهم خلقوا من غير شيء، أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، رقم١٠٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٣٩١.

(٣) انظر: محاضرات في التفسير الموضوعي، عبدالستار فتح السعيد ص ٧٥، والمدخل في التفسير الموضوعي، له ص٩٩ .

٢. أم أنهم خلقوا أنفسهم، وهذا أيضًا محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم. فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين:

٣. أن الله خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦].

وهذا استفهام يدل على تقرير النفي، أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدًا. ولكن المكذبين ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية»[1].

فبداهة العقل عند كل إنسان تقضي أن لكل مصنوع صانعه، وأن لكل حادث موجده؛ ولذلك ذهب القرآن الكريم ودأب على حثهم على التفكر، وعلى تقليب النظر في ملكوت السماوات والأرض، وملاحظة جانب الإبداع في هذا الخلق؛ فإن ذلك يقتضي من صاحبه أن يوقن يقينًا مطلقًا، وأن يؤمن الإيمان الوثيق بهذه الذات العليا التي تقوم على هذا الخلق العظيم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦-٨].

أما دليل الفطرة المركوز في النفس فمقرر في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

يقول تعالى: «فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»[2].

«وهذه الدلائل يصل بها الإنسان إلى معرفة قوة عليا مهيمنة، لكنه لا يستطيع بنفسه الوصول إلى معناها الصحيح، ولا إلى معرفة حقوقها وأوصافها على وجه صادق، ولذلك كان الطريق الوحيد لهذه المعرفة الصحيحة، هو الوحي الإلهي، وقد علم الله تعالى- عباده ذلك منذ خلق آدم، ثم أرسل رسله تترى لمقارعة الجاهليات ولتصحيح المعتقدات، فلم يزل اسمه سبحانه وتعالى ومسماه شائعًا معروفًا بين الأمم في كل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٨١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨٢.

العصور حتى في أوساط المشركين، كما قص القرآن علينا ذلك عنه مرارًا سبحانه وتعالى ويقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩].

ولذلك كان الاعتراف بهذه الذات العليا حقيقة عالمية لم يشذ عنها إلا المكابرون، المعاندون من الطواغيت كالفراعنة، أو آحاد من الطبيعيين والدهريين»[١].

٢. الوحدانية.

هذه الصفة تعني تفرده سبحانه وتعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، فليس له في ذلك شريك، ولا نظير ولا مقارب، أو مثيل، وهذه الحقيقة جعلها الله سبحانه وتعالى فاتحة التكليف ومحور الدين، وعليها تأسس كلياته وجزئياته، ولم يكن الوجود الإلهي قضية بين الوحي والأمم لشيوعه بينهم، ولتسلميهم به، ولكنهم كانوا يتخذون معه سبحانه وتعالى شركاء، تحت مختلف الدعاوى والأسماء، حتى قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

ويقولون كما قال ربنا عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

لذلك كان الأصل والأساس الذي بعثت به الرسل، ونزلت من أجله الكتب هو: تقرير وحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الشركاء، والأنداد، والنظراء، والصاحبة، والأبناء، وصرف وجوه العباد إليه وحده سبحانه، وتفريده وحده في الاعتقاد والعمل، والعبادة والطاعة بالذكر والدعاء، وسائر ما لا يليق إلا به وحده سبحانه وتعالى، لذلك كان لصفة الوحدانية الصدارة في الصفات الإلهية جميعًا، فهي حقيقة الحقائق الواقعية من حيث الوجوب، ثم هي أصل الحقائق التشريعية من ناحية الورود، ومن ثم فقد جاءت أدلتها دالة بالطريق الأولى على الوجود الإلهي، وهي دلائل متعددة، ولهذا كله أبرزها القرآن الكريم إبرازًا، وقص علينا من أنباء الرسل ما يؤكد أمرها، وأنها كانت محور دعواتهم جميعًا ولب رسالتهم، ومدخلهم إلى استتباع الناس لدين الله تعالى، فجاء على لسان كل من نوح وهود وصالح وشعيب ألفاظ واحدة ﴿يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وعلى هذا النمط جاءت دعوة الرسل عليهم السلام جميعًا كما يذكر القرآن ذلك تفصيلًا، حتى علم خاتمهم محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس هذه

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار سعيد ٩٩/ ١٠٠.

الكلمات المتفردة في الإيجاز والإعجاز، (بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص١-٤].

وهذه الآيات على وجازتها شاملة لأصول الصفات الإلهية، وردت على جميع أنواع الملحدين فيها، ثم هي مقررة لأسمى العقائد اللائقة بالله عز وجل، ومصححة لضلالة أهل الكتاب، ناهيك عن المشركين والملحدين، وكفى بها دلالة على صدق النبي الأمي في نسبة هذا الدين إلى الوحي الإلهي؛ ولذلك جاء في الحديث الذي رواه مسلم بسنده عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **(قل هو الله أحدٌ تعدل ثلث القرآن)**[1]. أي: أنها تعدل ثلث القرآن، أو هي ثلث القرآن من حيث دلالتها على أهم مقاصده، وهي الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى .

فالآية الأولى: إثبات للوحدانية بأبلغ وجه، ولذلك قالوا إن لفظ الأحد خاص بوصف الله لا يوصف به غيره، فلا يقال: رجل أحد، إنما يقال: الله أحد.

والثانية: بيان لأسباب (أحديته) سبحانه، بتقرير أنه السيد الكامل في جميع صفاته وأفعاله، المقصود في جميع الحوائج وهو الغني عن كل شيء.

والثالثة والرابعة: بيان لهذه الأسباب أيضًا بتقرير تفرد ذاته عن الأصول والفروع، لم يلد ولم يولد وما يلزمها من الصاحبة، أمًا أو زوجًا؛ ولذلك تنزه عمن يكون في درجته، وإن لم يكن أصلًا ولا فرعًا، وهذا التفصيل جاء على سبيل الحصر في دعوة الرسل جميعًا على ما قرره القرآن الكريم على سبيل الإجمال والتعميم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

• ويؤخذ من هذا:

أولًا: أن الوحدانية وحي إلهي لكل الرسل، لم يوكلوا فيه إلى أفهامهم وعقولهم الراجحة، حتى هذه العقول الراجحة لا توكل إليها قضية الوحدانية والتوحيد، لذلك يتولى الوحي الإلهي تقريرها.

ثانيًا: أنها رأس الوحي وأفضله وأوله، وقد جاء ذلك في الحديث الذي رواه الترمذي بسنده عن عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جده، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير)**[2].

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحدٌ، رقم ٨١١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٥/ ٤٦٤، رقم

ثالثًا: أن هذه الحقيقة الاعتقادية الأولى تستلزم خضوعًا كليًا لله تعالى، متمثلًا في إفراده بالعبادة والطاعة عملًا، بعد إفراده بالوحدانية اعتقادًا، ولذلك ختمت بها الآية الجامعة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وجاء تفصيلًا على لسان كل رسول ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، وقررها القرآن الكريم كثيرًا بالإجمال والتفصيل، كما قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥].

رابعًا: أن الآيات الكريمة تستعمل دائمًا أسلوب النفي مع الإثبات خاصة في مجال التكليف الذي يقصد فيه الأمرين جميعًا، أعني: إثبات الوحدانية لله تعالى ونفيها عن كل شيء عداه، تأكيدًا لتفرده عز وجل، وإبطالًا لدعوى المشركين والملحدين في كل زمان»[1].

أقسام الإيمان بالله تعالى:

يقتضي الإيمان بالله تعالى إفراده تعالى بحقوق لا تكون لغيره، وهذا هو معنى التوحيد الذي يتحقق بامتثال العبيد لهذه العقيدة التي كلفوا بها في معناها الواسع، وفي مدلولها الشامل:

أولًا: ففي جانب الربوبية: يجب اعتقاد تفرد ذات الله عز وجل عن كل شبيه ونظير، وتفرده سبحانه وتعالى بكل صفات الخلق والملك، والتدبير، والتأثير، وكل معاني الربوبية.

ثانيًا: وفي جانب الإلهية: يجب اعتقاد تفرده سبحانه وتعالى بحق العبادة والطاعة، والأمر والحكم، والاستعلاء، وكل ما هو داخل في معنى الألوهية.

وهذا تقسيم بحسب المعاني، وإلا فهما وصفان لله الواحد الأحد المتفرد بهما، والتوحيد هو جميع هذين الأمرين معًا، فلا يقبل التجزئة ولا الانقسام، ولما كان ادعاء الخلق والتدبير لغير الله عز وجل لا يكاد يوجد إلا على سبيل المكابرة والمهاترة، وكان الذي كثر في الأمم وشاع: هو اعتقاد أن لغير الله تعالى حقًا ما في الطاعة أو العبادة؛ لذلك تركز تصحيح الرسل عليهم السلام على هذا الجانب، وكثر النزاع بينهم وبين أقوامهم فيه؛ ولذلك كانت الدعوة إلى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي مفتاح الدخول في الإسلام، ومعول نقض الجاهلية؛ لأن معناها اعتقاد تفرد الله تعالى بالعبادة والطاعة وحده لا شريك له، وأول ما يترتب عمليًا على ذلك هو قبول منهاجه ودينه، ورفض مناهج البشر والطواغيت من السدنة، والكهنة، وأصحاب

٣٥٨٥.
قال الألباني: صحيح.
انظر: مشكاة المصابيح ٢٥٩٨.

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبد الستار سعيد، ص ٨.

السلطان، والتخلص من شرائعهم وقوانينهم وأعرافهم، ومن هنا كان هذا التوحيد خطرًا داهمًا على هؤلاء وأمثالهم، فكانت العدوات تندلع بينهم وبين الأنبياء بادئ الأمر بلا روية، وكأنها قانون يتكرر باطراد، كما قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم في مطلع الوحي، حين جاء يسأل ورقة، فقال له: (لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي)[(١)].

«ومن هنا يتضح ارتباط هذه القضية بأصل الأصول وهو التوحيد، وأن الإخلال فيها وضعًا أو اتباعًا هو إخلال بهذا الأصل، فإن كان الإخلال اعتقادًا صار شركًا يبطل التوحيد، وإن لم يصل إلى درجة الاعتقاد كان من كبائر الإثم، بل كان تطاولًا خطيرًا على حق الله المتفرد في الحكم والأمر، وعلى حقه في العبادة والطاعة، يوجب على المؤمنين أن ينكروه وأن يبرؤوا منه، وأن يقاوموه بكل الطرق التي حددتها شريعة الله تعالى، حتى يفيء أصحابه إلى أمر الله عز وجل، ومن ناحية أخرى: كان الإخلال بالتوحيد في هذا الجانب الخطير هو المسئول عما تعانيه البشرية من كوارث شاملة، خلقية كانت أو اجتماعية، أو سياسية ، وذلك لاحتراف الإنسان أمر التشريع وهو لا يحسنه ولا يحيط به خبرًا، وقد كان الخطأ في المعرفة الصحيحة للإله الواحد، واستخدام هذه المعرفة في الحياة اليومية، أحد الأسباب الأساسية في اضطراب الحضارة المعاصرة»[(٢)].

ثالثًا: التفرد بصفات الكمال المطلق: فما من صفة من صفات الكمال المطلق الذي لا تحده نسبة ولا إضافة إلا والله تبارك وتعالى متصف بها، فوق ما تتصوره عقولنا المحدودة، يقول الله تعالى في تقرير اختصاصه بالخلق ابتداء، ثم الإعادة، وفي تقرير كونها أهون عليه، مع أنهما أمران عظيمان، تحار فيهما العقول.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

ويقول سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وجماع ذلك كله: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، رقم ٤.

(٢) المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار سعيد ص ٣٣٠- ٣٣٣.

لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه[1].

وهذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات.

ونذكر هنا ببعض الصفات التي أكد الله تعالى عليها في كتابه العزيز.

- العلم.

فالله عز وجل يعلم الأشياء كلها علم إحاطة وانكشاف، السر عنده علانية، الغيب عنده شهادة، ولا تقف أمامه حوادث الزمان والمكان، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقد أحصى ذلك عدًا ووصفًا، وكل شيء كما قال ربنا: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقال ربنا: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وهذا الكتاب المبين: هو اللوح المحفوظ، وهو سبحانه وتعالى لا يعلم الأمور الجزئية فحسب؛ بل ما دون ذلك من الخفيات والطويات، ولقد قال للكفار حين ظنوا أنه لا يسمع تآمرهم ونجواهم ،

قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٣-١٤].

بل إن علمه سبحانه وتعالى أدق وأشمل من كشف سرهم، إذ يصل إلى ما هو أبعد من ذلك ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧].

وأي شيء أخفى من السر؟ لعلة ما استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه، أو لعله ضمير النفس، كما يقول بعض المفسرين، وهذا ما يسمى حديثًا باللاشعور، حيث لا علم لصاحبه به ولا سيطرة له عليه، ولعله ما يمرق من الخواطر من سوانح الفكر، التي تمضي كلمع البرق أو تتابع كلمح البصر، والقرآن الكريم فياض بذكر هذه الصفة، وبسعة مدلولها وامتدادها، ومصرح بأن من الأشياء ما استأثر الله بعلمه، ولا سبيل لخلق ما إلى معرفته. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو سبحانه وتعالى يحيط علمًا وخبرًا بكل خلقه، حتى الذر في أحجاره، والطير في أوكاره، والثمر في أكمامه، والأجنة في الأحشاء، وكل غائبة في الأرض وفي السماء، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٥٤.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٨-٩].

ويقول ربنا سبحانه ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧].

ويقول: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

وهو في كل هذا العلم رقيب شهيد وقريب، يسمع ويرى، فعلمه ليس انطباعًا من قراءة كتاب، أو إدراكًا من خبر ملك ونحوه؛ ولذلك كان من أسمائه الحسنى: الشهيد، الذي يدل على هذا العلم الحضوري الذي تنكشف له به الأشياء، انكشافًا تامًا بلا سبق خفاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس: ٦١].

فهذا علم مطلق شامل محيط، لا يقاس بعلم غيره، وهو وحده سبحانه وتعالى المتفرد به، وهذه العقيدة إحدى الدعائم الأساسية التي يقوم عليها التشريع الإلهي، من حيث ابتداء وضعه على سلامة واستقامة، ومن حيث لزوم تطبيقه بوازع الضمير، الذي ينقدح فيه دائمًا: أن الله تبارك وتعالى يعلم سره ونجواه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

● القدرة.

بعد العلم القدرة، وهي ككل صفاته عز وجل الثبوتية مطلقة شاملة، لا تحجزها العوائق، ولا تقف دونها العقبات، ولا تحد بحدود العقل البشري، ولا بغيره من أدوات الخلائق.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

وإن حرف تأكيد، وشيء نكرة عامة أضيف إليها أداة عموم، وهي لفظ، كل فأفادت قدرة الله تعالى المطلقة على عموم الأشياء بلا استثناء، ومهما تعاظم العقل أمرًا من أمور النشأتين، فهو سهل يسير في رحاب هذه القدرة العظمى، كما قال ربنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ [ق: ٤٤].

ويقول ربنا: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

ويقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

ويقول ربنا سبحانه وتعالى في آية عامة جامعة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ [لقمان: ٢٨].

ونجد غير ذلك كثيرًا جدًا في القرآن، فهذه إذن قدرة ذات تأثير شمولي في كل أبعاد الكون، أحياءً وأمواتًا، ما نعلمه وما لا نعلمه، والله تعالى وحده هو المتفرد فيها بالتقدير والتأثير، فتبارك الله رب العالمين.

الأسماء الحسنى.

وهي كلها أوصاف كمال وجلال لله رب العالمين، جرت مجرى الأسماء، وجاءتنا عن طريق الشرع إجمالًا، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وورد بعضها تفصيلًا كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وقد ورد في السنة أيضًا ذكرها إجمالًا، كقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة)[1].

وتفصيلًا وردت في عدة روايات، وذكر معظمها في القرآن الكريم نثرًا في مواضع كثيرةً، وهذه الأسماء قد لوحظ فيها المعاني العظيمة التي تدل عليها، وهي تعطي المعنى الحقيقي الكامل للعقيدة الإلهية، ويتم بها الوصف الشامل للإله الحق المطلق الخير والقوة جميعًا، كما أراد أن يعلم عباده وأن يعرفهم نفسه على ما هو عليه من كمال وجلال وسمو وتفرد، وشدة واقتدار.

الله تعالى حاكمًا وشارعًا:

يقول الشيخ محمد المدني رحمه الله: «القرآن الكريم فرغ من قضية التوحيد، ومن محاجة المشركين، وفرغ من إقامة الدليل على بطلان زعمهم في أن لله شركاء يعبدون، كما يعبد، ويرجون كما يرجى، فرغ القرآن الكريم من هذه القضية، حين كان ينزل في مكة ويقرع المشركين، أما وقد صار المسلمون مجتمعًا جديدًا مؤمنًا في المدينة، فإن القرآن الكريم لا يتناول أمر

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، بابٌ: إن لله مائة اسم إلا واحدًا، رقم ٧٣٩٢.

الوحدانية كقضية يناضل عنها على الوجه الذي كان في البيئة المكية المشركة، ولكنه يتحدث عنها على نحو آخر، نرى في سورة النساء مظهرًا له (التوحيد عملًا بعد التوحيد علمًا)، فهو يتحدث عن وحدانية الله، كما يجب أن يستقر في المجتمع عملًا بعد أن قامت الأدلة عليه حجة ونظرًا، فبينما هو يقول في إيجاز: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فلا يعدو أن يكون مذكرًا بقضية استقرت، وقام الدليل من قبل على صحتها، نراه يتحدث عن الله تعالى مشرعًا، يجب على الناس أن يتلقوا أحكامهم عنه، وأن يؤمنوا إيمانًا خالصًا بأنه هو وحده صاحب الحق المطلق في ذلك، من جهة أنه هو الخالق، ومن جهة أنه هو المتصف بالصفات التي لا بد منها فيمن يشرع، ومن جهة أنه رقيب لا يغيب»[1].

ويقول الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله: « نتحدث عن المقصد الثالث من مقاصد سورة البقرة، والخطوات التي مهدت له في السورة الكريمة، ثم يقول:

الخطوة الأولى: تقرير وحدة الخالق المعبود.

الخطوة الثانية: تقرير وحدة الآمر المطاع، وهي ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن من أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلهًا من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكمًا في سائر تصرفاتك، بل تعتقد أنه لا حكم إلا له، وأن بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله والحرام ما حرمه، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر، وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره، والرازق ويشكر سواه، كذلك لا يليق أن يكون هو الحاكم ويطاع غيره.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحوًا من مسلكه في تقرير الوحدة الإلهية»[2].

ويقول الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد حفظه الله: «أن قبول شريعة الله عز وجل ليست أمرًا من أمور التكليفات الفرعية، وإنما هي أمر ملزم واجب بمقتضى عقد التوحيد، وشهادة التوحيد، فإذا قال العبد: «لا إله إلا الله» معناها: أنني لا أعبد ولا

(١) انظر: المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، محمد المدني ص ٣٣.

(٢) انظر: كتاب النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص ٢١٧.

أطيع إلا الله، وعلى أي وجه يطيع الله؟ لا يعبد الله إلا بما شرع، والله عز وجل ما شرع إلا ما علمه وبعث به محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومن هنا جاءت شهادة التوحيد مقترنة بشهادة محمد رسول الله، فيتلخص من ذلك: أن العبد المؤمن يقول: أشهد أني لا أطيع ولا أعبد أحدًا إلا الله على الوجه الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم؛ والمقرر في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك إذا انفصل المجتمع عن هذا فهذا الانفصال الهائل الذي وقع في أرجاء العالم الإسلامي دل على أن هناك انفصامًا هائلًا في عقيدة التوحيد.

لابد أن نعي هذه القضية وأن نفهمها جيدًا، هنا ارتباط كامل بتقرير شريعة الله وقبول هذه الشريعة في واقع الحياة، ربما يخطأ الإنسان، أو ربما يقع في معصية فيستغفر ويعود، لكن أن يرفض شريعة الله في واقعه، وأن تستبدل القوانين الوضعية بشريعة الله سبحانه وتعالى أو توضع فوقها أو تقدم عليها، فهذا أمر في غاية الخطورة، وينبغي أن يتنبه إليه العلماء والدارسون والباحثون، وعليهم المسئولية في أن يعلموا أمتهم وشعوبهم ومؤسساتهم في كل أرجاء العالم الإسلامي، هذا الارتباط الذي لا يقبل الانفصام بين قبول شريعة الله عز وجل وبين عقيدة التوحيد»[1].

ثانيًا: الإيمان بالملائكة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الملك في اللغة: حامل الألوكة وهي الرسالة»[2].

الملائكة في الاصطلاح: «أجسام نورانية لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، ومسكنها السموات، وأبطل من قال: أنها الكواكب أو أنها الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها، وغير ذلك من الأقوال التي لا يوجد في الأدلة السمعية شيء منها»[3].

والإيمان بالملائكة: هو اعتقادهم عبادًا لله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم[4].

والإيمان بالملائكة من أركان الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن ينكر وجودهم فقد كفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾

---

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبدالستار فتح الله سعيد ٦٨.
(٢) النبوات ص٢٥٧.
(٣) فتح الباري ٦/ ٣٠٦ . وانظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٢٩
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.

[النساء: ١٣٦].

قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ فإنه يعني: فقد ذهب عن قصد السبيل، وجار عن محجة الطريق إلى المهالك ذهابًا وجورًا بعيدًا؛ لأن كفر من كفر بذلك خروج منه عن دين الله الذي شرعه لعباده(١).

ويستفاد من الآية: أن الكفر بشيء من هذه الأركان كالكفر بجميعها؛ لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض. وتقديم الملائكة على الرسل؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله.

و سوف نتناول الإيمان بالملائكة في النقاط الآتية:

١ . خلقهم.

أخبر سبحانه وتعالى أنه قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض قومًا يخلف بعضهم بعضًا لعمارتها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

ويفهم من الآية: أن الملائكة خلقت قبل آدم عليه السلام(٢).

٢ . المادة التي خلقوا منها.

وعن المادة التي خلقوا منها روى مسلم بسنده عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**خلقت الملائكة من نور**)(٣).

٣ . الصفات الخلقية.

١ . قدرتهم على تمثلهم بالبشر.

أخبر سبحانه وتعالى أن أرسل إلى مريم الملك جبريل، فتمثل لها في صورة إنسان تام الخلق.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٧].

أي: تمثل جبريل لها بشرًا مستوي الخلق، لم يفقد من نعوت بني آدم شيئًا، قيل: ووجه تمثل الملك لها بشرا؛ أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته(٤).

وقد جاء الملائكة إبراهيم في صورة بشر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات ٢٤- ٢٥].

قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا

---

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٩٦.
(٢) انظر: فتح الباري، ٦/ ٢٣٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم ٥٣١٤.
(٤) فتح القدير، ٣/ ٣٨٧.

عليه في صورة شُبَّان حسان، عليهم مهابة عظيمة[1].

٢. لهم أجنحة.

أخبر سبحانه وتعالى أنَّ من عظيم قدرته أنَّ جعل الملائكة أصحاب أجنحة مثنى وثلاث ورباع تطير بها؛ لتبلغ ما أمرت به سريعًا.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ [فاطر: ١].

قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة[2].

روى مسلم بسنده عن عبد الله، قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾ [النجم: ١١].

قال: (رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناحٍ)[3].

٤. علاقة الملائكة بالله تعالى.

علاقة الملائكة بالله هي علاقة العبودية الخالصة له، وفعل ما يأمرهم به، قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ⑤⓪﴾ [النحل: ٥٠].

وقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

أي: ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ②⓪⑥﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود[5].

ويستفاد من الآية: الاقتداء بالملائكة في كثرة طاعتهم وعبادتهم، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ إنما يريد في المنزلة والتشريف والقرب في المكانة لا في المكان.

٥. علاقة الملائكة بالكون.

أخبر سبحانه أن الملائكة تنفذ أمره فيما أوكل إليها تدبيره من شؤون الكون، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ⑤﴾ [النازعات: ٥].

قال قتادة: هي الملائكة[6]، و زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها عز وجل[7].

٦. علاقة الملائكة بالإنسان.

١. حفظ الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

ومما يحفظونه: بدن الإنسان، بقوله:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٢٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ولقد رآه نزلة أخرى، رقم ١٧٤.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١١٩.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٩٥.
(٦) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٥.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٥.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

و مما يحفظونه جميع أعماله من خير وشر.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

٢. الدعاء للمؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر: ٧-٩].

يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك: الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم[(١)].

٣. تثبيت المؤمنين في مواقع الجهاد.

أخبر سبحانه وتعالى أنه أوحى إلى الملائكة أن يقووا عزائم المؤمنين .

قال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢].

قال ابن إسحاق: وازروهم.

وقال غيره: قاتلوا معهم، وقيل: كثروا سوادهم، وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم، يعني: المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك، فتقوى أنفسهم[(٢)].

قال ابن القيم رحمه الله عن علاقة الملائكة بالإنسان في معنى جامع: «والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر؛ فإنهم موكلون بتخليقه، ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه، وعمله، وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره.

وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ، وبعد البعث.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢.

وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة.

وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره، وما يحبه ليقوى قلبه، ويزداد شكرًا.

وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر، ويحذرونه منه.

فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته، ومعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له.

وهم الذين يصلون عليه مادام في طاعة ربه، ويصلون عليه مادام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه، وعند موته، ويوم بعثه.

وهم الذين يزهدونه في الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي، وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذا جزع.

وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته»[1].

٧. عدد الملائكة.

عدد الملائكة لا يحصيه إلا الله، ومنهم خزنة النار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: ٣١].

والمعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم[2].

فيجب الإيمان بالملائكة الذين ذكروا في القرآن الكريم وفي السنة النبوية و بالأعمال التي أوكلوا بها.

ثالثًا: الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب: هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرهم كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، أو ما أخبر هو به[3].

فالواجب على المؤمن: الإيمان بالكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله، ما سمى الله منها وما لم يسم.

أما الذي يؤمن بكتابٍ ويكفر بالكتب الأخرى فهذا كافرٌ بالجميع.

ومن هذه الكتب: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وأعظمها التوراة والإنجيل والقرآن، وأعظم الثلاثة وناسخها وأفضلها هو القرآن.

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٣٠.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٩٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦]. يعني بذلك جل ثناؤه: «صدقوا بالله، وبمحمد رسوله، أنه لله رسول مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم، وصدقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزله الله عليه، وذلك القرآن، وآمنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكتاب الذي نزله على محمد صلى الله عليه وسلم وهو التوراة والإنجيل»[(١)].

وقيل: المراد بالكتاب الثاني الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية»[(٢)].

فالإيمان بالقرآن والكتب السابقة له ركن، « لا يكون العبد مؤمنًا إلا به، إجمالًا فيما لم يصل إليه تفصيله وتفصيلًا فيما علم من ذلك بالتفصيل»[(٣)].

الكتب المذكورة في القرآن:

التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: ٤٦].

الزبور الذي نزل على داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣].

الصحف التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم وموسى -عليهما السلام-، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

أما الكتب الأخرى التي أنزلها الله على سائر الرسل والتي لم يخبرنا بها فيجب الإيمان بها؛ لأنه سبحانه أخبرنا أنه ما من رسول إلا وجاء برسالة إلى قومه.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

كما يجب أن يؤمن العبد بأن جميع

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٩٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٤٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٠٩.

الكتب جاءت بالدعوة إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، وإفراده بالعبادة، وأن ما حدث في الكتب من تحريف فهو من صنع العباد.

أما القرآن فهو الكتاب المهيمن على الكتب السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن الهيمنة التي للقرآن على الكتب السماوية التي بين يديه: أنه هو المصدق لها، الشاهد الذي ترى فى أضوائه وفى أحكامه، وأخباره وآدابه- آيات صدقها، وأنها من مورد هذا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذ ليس بعد شهادة القرآن شهادة، ولا وراء الحق الذي يقوله حق، وإنه سيظل قائمًا هكذا إلى يوم القيامة[1].

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة، أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم، فالمرجع الذي يعودون إليه بآرائهم في شأن الحياه كله هو هذا الكتاب، ولا قيمه لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير[2].

وقد تكفل سبحانه وتعالى بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

«وقد شمل حفظه: الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسر تواتره وأسباب ذلك، وسلمه من التبديل والتغيير حتى حفظته الأمة عن ظهور قلوبها من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر»[3].

ولذلك يجب علينا الإيمان بالقرآن وأن ما جاء به هو الحق، وأن كل لفظ فيه محفوظ من التبديل والتحريف، كما يجب اتباع أمره واجتناب نهيه، وتصديق ما أخبر به، ورفض ما يخالفه.

رابعًا: الإيمان بالرسل والأنبياء:

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى بعث في كل أمة رسولًا منهم، يدلهم على الخير ويحذرهم من الشر رحمة بهم[4].

أخبر سبحانه وتعالى ما من أمة إلا

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٣٩٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١.

(٤) منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان، علي بن ناصر فقيهي ص٣٠.

وأرسل فيها رسول، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧].

وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. أي: وما من أمة من الأمم الدائنة بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله[1].

ولا يعلم عدد الرسل إلا الله، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

وإنما لم يذكر الله تعالى قصص كثير من الرسل؛ اكتفاءً بالمذكورين، فالمقصود أخذ العبرة، لا ذكر الأسماء والقصص[2].

وسوف نتناول الإيمان بالرسل في النقاط الآتية:

١. الرسل المذكورون في القرآن.

المذكورون في القرآن من الرسل والأنبياء: خمسة وعشرون، منهم: ثمانية عشر في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وورد ذكر بقية الأنبياء في مواضع من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: ٣٣].

فهؤلاء الأنبياء والرسل يجب الإيمان برسالتهم ونبوتهم تفصيلًا، فمن أنكر نبوة واحد منهم أو أنكر رسالة من بعث منهم برسالة كفر، غير أن العامي لا يحكم عليه بالكفر، وأما الأنبياء والرسل الذين لم يقصهم القرآن علينا فقد أمرنا أن نؤمن بهم إجمالًا.

٢. أولو العزم من الرسل.

ذكر الله تعالى أولي العزم من الرسل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وهؤلاء الخمسة صلى الله عليهم هم أصحاب الكتب والشرائع والحروب

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦١.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٣٥.

الفاصلة على التوحيد وأولو العزم، وقدم ذكر محمد على مرتبته في الزمن تشريفًا خاصًا له[1].

ويستفاد من ذكرهم عليهم السلام الاقتداء بهم في أعمالهم.

٣. حقيقة رسالة الرسل والأنبياء.

ما من رسول إلا جاء بكلمة واحدة، هي قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، هذه الكلمة قالها نوح عليه السلام، وهي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين[2].

وقد بين الله الحكمة من إرسال الرسل، فقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥]». أي: معذرة يعتذرون بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: ١٣٤].

وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة؛ تنبيهًا على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلًا منه ورحمة»[3].

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه؛ حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة، تقدر فأزال هذا الاضطرار»[4].

٤. واجبنا نحو الرسل والأنبياء.

- يجب علينا الإيمان بأن الرسل والأنبياء عليهم السلام قاموا بتبليغ الرسالة حق القيام.
- يجب علينا أن نؤمن بجميع الرسل، و لا نفرق بين أحد منهم.

قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: ٨٤].

ومن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض كان من الكافرين بنص الكتاب الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النساء: ١٥٠].

- يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله كانوا بشرًا من الرجال.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧١.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٦٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٢١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢١٤.

رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

ولم يخصهم الله بطبائع غير الطبائع البشرية، فهم يأكلون و يشربون ويمشون في الأسواق.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ولهم عليهم السلام أزواجًا وذرية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٨].

ويتعرضون للأذى من الظلمة والمجرمين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

كما أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

- يجب علينا أن نؤمن أن الله فضل بعضهم على بعض بحسب ما من الله به عليهم.

قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

«يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا صلى الله عليه وسلم الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين»[1].

- ونؤمن بأن الرسول الكريم أرسل للناس جميعًا.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

- ونؤمن أنه أرسل إلى الجن.

قال الله على لسان الجن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣١].

ومما سبق ذكره يتضح أن الإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٩.

١. الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع.

٢. الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، مثل: محمد وإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام، وغيرهم بمن ذكر اسمه في الكتاب أو السنة على وجه التعيين، أما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا؛ حيث نعتقد أن الله بعث في كل أمة نذيرًا.

٣. تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

٤. العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

خامسًا: الإيمان باليوم الآخر:

تعريف الإيمان باليوم الآخر:

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «وهو الإيمان بكل ما أخبر الله ورسوله به بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه، وعذابه وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهليهما، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك جملة وتفصيلًا»[١].

مظاهر اهتمام القرآن باليوم الآخر:

- ذكر الله الإيمان باليوم الآخر مقترنًا بالإيمان بالله في تسعة عشرة موضعًا في كتاب الله.

منها: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

«أي: واستيقنوا أن هناك حياة آخرة، وأن فيها حسابًا وجزاء، وجنة ونارًا.. فعملوا لهذا اليوم العظيم بما ينجيهم من هوله، ويدنيهم من رحمة الله ورضوانه»[٢]، «وإذا حساب الآخرة يشغل بالهم، ويصدهم عن جموح الشهوات، ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة»[٣].

ولما كان هذا الأصل شديد الإيغال في طيات الغيب، كان أكثر الأصول إنكارًا واستبعادًا من الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤].

(١) انظر: الفتاوى السعدية ص ١٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٠/ ٢٠٨.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٢٧.

وبالتالي كان أكثر الأصول جميعًا تناولًا في القرآن.

* كثرة أسماء اليوم الآخر، وكل اسم يدل على ما سيقع فيه من الأهوال.

فمن أسمائه في القرآن: «القيامة والساعة والآخرة ويوم الدين ويوم الحساب ويوم الفتح ويوم التلاق ويوم الجمع ويوم التغابن ويوم الخلود ويوم الخروج ويوم الحسرة ويوم التناد والآزفة والطامة والصاخة والحاقة والغاشية والواقعة وغيرها»[(١)].

* تسمية سور القرآن بأسماء وصفات اليوم الآخر.

فتارة تسمى السور باسم من أسمائها: القيامة، الواقعة، الحاقة، الغاشية، القارعة، النبأ.

وتارة تسمى السور باسم من الأحداث الكونية التي تمهد لهذا اليوم: الدخان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة.

وتارة باسم ما يقع فيها، مثل سور: الأعراف، الزمر، الجاثية، الحشر، التغابن، المعارج.

فهذه أسماء (سبع عشرة) سورة تتعلق بالآخرة، ولم يقع مثل هذا قط لأي أصل من أصول الإيمان في القرآن الكريم.

* التأكيد على وقوع الساعة.

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص٢٦١-٢٦٤.

وكثيرًا ما عبر القرآن عن أن وقوع الساعة لا ريب فيه، من ذلك مثلًا: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾ [غافر: ٥٩].

«ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الساعة آتية، وأكد ذلك بحرف التوكيد الذي هو «إن»، وبلام الابتداء التي تزحلقها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر؛ وذلك يدل على أمرين:

أحدهما: إتيان الساعة لا محالة.

والثاني: أن إتيانها أنكره الكفار؛ لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني»[(٢)].

ومن مظاهر اهتمام القرآن باليوم الآخر: الترابط بين الخلق والحق والساعة، فقد بين القرآن أن الآخرة هي الأصل الذي يحقق حكمة الخلق ومعنى الوجود؛ لأنها غاية جزاء ومصير الخلائق، تصون وجودهم عن العبث واللعب، وتحفظ مصيرهم عن البطلان والضياع، وتجعله خالصًا، وحكمة تامة.

قال تعال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١٣.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢﴾ [النحل: ٢٢].

يجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة، بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء، فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء.

«فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة، ولا يؤمنون بالآخرة- وهي فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله- هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم. إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول، فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب!»[(١)].

«فعدم الإيمان بالآخرة جعل قلوبهم مفعمة بالإنكار والاستكبار، وقد حذف المفعولان للتعميم، فهم ينكرون الحق ويستكبرون عليه، وهم ينكرون حق الأمم والشعوب في عقيدتها وحريتها، ويستكبرون عن الاعتراف به، وهكذا يكون دائمًا الكفار والطواغيت و لايزالون»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

أي: «تمرد وعتا، وآثر الحياة الدنيا، أي: قدمها على أمر دينه وأخراه، فإن الجحيم هي المأوى، أي: فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله، فيه ونهى نفسه عن هواها وردها إلى طاعة مولاها، فإن الجنة هي المأوى، أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء»[(٣)].

«والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى. ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا. واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره. فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده، واختلت كل

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٦٧.

(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد ص ٢٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٩.

القيم في تقديره، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعد طاغيًا وباغيًا ومتجاوزًا للمدى»[1]. و من هداية الآية: «قدم ذكر الطغيان على إيثار الحياة الدنيا؛ لأن الطغيان من أكبر أسباب إيثار الحياة الدنيا»[2].

من مشاهد الآخرة في القرآن:

تبدأ المشاهد بمقدمات اليوم الآخر، ثم الفصل بين الخلائق، ثم النعيم الأبدي أو العذاب الأبدي، من هذه المشاهد:

١. نفخة الصعق.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

«وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن. ﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم، وهذه النفخة الأولى: نفخة الصعق، ونفخة الفزع»[3].

٢. نفخة البعث.

وهي النفخة الثانية؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أي: «قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم»[4].

٣. تصدع الكون وتبديله.

يرى الخلائق بعد بعثهم مشاهد أهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وهذا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق، يبدل الله عز وجل الأرض من غير الأرض ويغير هيئاتها، ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئات الهائلة ليشاهدها أهل المحشر، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٨.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٨١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٧٢٩.
(٤) المصدر السابق.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

«فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله سبحانه لا يكون إلا بعد البعث قطعًا»[١].

٤. حساب الله للخلائق.

يحدثنا الوحي الإلهي طويلًا عن حساب الله تعالى للخلائق في هذا اليوم الشديد، والذي يتسم بالعدل.

٥. تطاير صحف الأعمال.

صحائف الأعمال التي سجل فيها عمل كل فرد على حدة.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

قال الحسن رحمه الله: «قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك»[٢].

ويبلغ الوحي الإلهي غاية من التفصيل حيث يبين كيفيات تسليم الكتب، وأحوال الناس عندها، يقول ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ١٩]. يعني: خذوا اقرءوا كتابيه ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق: ٧-١٣]. يعني: في الدنيا.

٦. الشهود.

وهذا من تمام إظهار العدل الإلهي في هذا الموقف العظيم، فإن الله عز وجل يستشهد على المذنبين قبل إدانتهم مع علمه عز وجل القاطع بما عملوا، لكنه لا يريد أن يعاملهم بعلمه، لكن يعاملهم بالشهود حتى يتأكد كل إنسان من ذنبه وعمله.

- والأنبياء هم أول الشهود عليهم السلام، يشهدون على أممهم بالبلاغ، وإقامة الحجة.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

- والملائكة، وهم أيضًا يشهدون؛ لأنهم سجلوا الأعمال، وشهدوا الطاعات والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٩٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٢٣.

﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [ق: ٢١].

* والأرض أيضًا تشهد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة: ٤].

وقد فسر النبي أخبارها في الحديث الذي رواه أحمد عن أبي هريرة، قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة: ٤]. قال: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل على ظهرها، أن تقول: عملت علي كذا وكذا يوم كذا وكذا)، قال: (فهو أخبارها)[1].

* أيضًا من الشهود: جوارح الإنسان، أي: خاصة عندما يماري، ولا يرضى إلا شاهدًا من نفسه.

يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] يعني: فلا تنطق ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويقول جل شأنه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: ٢٤].

ويقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

٧. السؤال الشخصي.

ليدافع كل إنسان عن نفسه، وليبين أعذاره إن كانت له أعذار، والله تعالى مع ذلك أعلم بالمرء من نفسه، قال تعالى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٢-٢٤].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٢٢ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

٨. وضع الميزان.

ليوفي كل إنسان جزاءه في دقة كاملة بالغة حتى مقادير ومثاقيل الذر والخردل، كما قال ربنا: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧] جل شأن الله.

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، تفسير سورة (إذا زلزلت الأرض)، رقم ٢٤٢٩.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد.
انظر: ضعيف الترمذي ١/ ٢٧٥.

[النساء: ٤٠].

وعلى نتيجة هذا الميزان العدل يقضي الله تعالى بالحق بين عباده: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القارعة: ٦-٧].

يعني: ثقلت بالحسنات، والطيبات ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨﴾ [القارعة: ٨].

من الحسنات والطيبات، وامتلأت بالسيئات، يقول ربنا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: ٨-١١]. نعوذ بالله منها.

وصف الجنة والنار:

فأما المؤمنون الصالحون فيبلغون سعادة الأبد، ويظفرون بنعيم الخلد، قال تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] يعني: جماعات جماعات ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٧٤﴾

[الزمر: ٧٣-٧٤].

الأرض هي: أرض الجنة، ويصف الوحي الإلهي أحوال أهل الجنة، وما فيها من نعيم وصفًا تفصيليًا، في دار لم يبلغها علمنا المحدود، ولم تشاهدها حواسنا، ولكنها أعدت للمتقين، وأخبرنا بها رب العالمين، وينبغي أن نوقن بوجودها أكثر مما نوقن بحاضرنا المشاهد؛ لأنها وعد الله الحق، وجزاؤه الصدق، كما قال ربنا: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا وعد سجله في كتبه الثلاثة الأساسية التي أنزلها من السماء إلى أهل الأرض، على موسى، وعلى عيسى، وعلى محمد صلى الله عليهم جميعًا يقول: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

وأما الكافرون فيساقون إلى جهنم زمرًا، حيث يذوقون العذاب الأبدي، وحيث يذوقون شقاء الخلد بشؤم ذنوبهم، واستكبارهم على ربهم، وقد بلغ الوصف القرآني للنار وأحوالها ودركاتها وبلاء أهلها حدًا يخلع القلوب خلعًا، وفي القرآن الكريم آيات تفرد وصف الجنة، وآيات تفرد وصف النار، وفيه آيات تجمع ذكرهما معًا؛ ليوازن العاقل، ويقارن بين الصورتين، كما قال تعالى عقب الكلام عن النار والجنة، وهلاك المكذبين: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

ومنها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

ثم تأتي الصورة الأخرى المزعجة: ﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

لا يستويان أبدًا، يقول ربنا أيضًا: ﴿۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

يصهر: يصير صهارًا مذابًا ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢١-٢٤].

والمقصود من هذه الأخبار والأوصاف: تشويق الناس إلى الجنة؛ ليعملوا بعمل أهلها هنا في الدنيا، ولتحذير الناس من النار؛ ليجتنبوا عملها وسوء حالها.

الخلود الأبدي:

أكد القرآن الكريم تأكيدًا قاطعًا أن الجنة والنار خالدتين أبدًا، لا فناء لهما، ولا انقطاع فيهما، ولا موت لأهلهما، وإنما هي حياة الأبد والخلود السرمدي، وقد ورد هذا في القرآن الكريم بأساليب كثيرة، أشهرها: أسلوب (الخلود الأبدي)؛ ذلك لأن معنى الخلود هو المكث الطويل، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي[1]: خوالد؛ وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها؛ ولذلك أكد الله تعالى خلود الجنة والنار بالأبدية، ليخرجه من المكث الطويل إلى البقاء الدائم؛ لأن معنى الأبد كما قال الراغب الأصفهاني: هو مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان[2].

وقد ورد تأكيد الجنة بالخلود الأبدي في ثماني آيات، والتاسعة بالمعنى في أول سورة الكهف: ﴿مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ٣]. والمكث هو الخلود؛ فلذلك تكون تسع آيات، قيد الخلود فيها بالأبدية، مثلًا يقول: أصحاب الجنة خالدين فيها أبدًا، وورد تأكيد خلود النار بالأبدية ثلاث مرات

(١) الأثافي: هي جمع أثفية، وقد تخفف الياء في الجمع، وهي الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها: انظر النهاية في غريب الأثر: ص٢٣.

(٢) المفردات، الراغب ص ٥٩.

في القرآن: في آخر سورة النساء الآية ١٦٩، وفي آخر سورة الأحزاب الآية ١٦٥، وفي آخر سورة الجن الآية ٢٣، فهذه الآيات تقيد أيضًا أصحاب النار بكونهم خالدين فيها أبدًا، والمراد بأصحاب النار: أهلها الذين هم أهلها، يعني: الكفار والمشركين، الذين ماتوا ولم يتوبوا توبة نصوحًا، أما المسلمون العصاة من المؤمنين فهؤلاء إن دخلوا النار وعذبوا فالله يغفر لهم بعد ذلك، ويخرجون مآلًا إلى الجنة إن شاء الله.

فالمراد بالخلود الأبدي لأهل الجنة جميعًا من يدخل الجنة، فلا يموت أبدًا، ولا تفنى الجنة والنار، الخلود الأبدي لأهلها الذين هم أهلها كما جاء في الصحيح، هذا عدا الآيات الأخرى بغير هذا الأسلوب التي تؤكد أن أهل الجنة لا يخرجون منها أبدًا، وأن أهل النار لا يخرجون منها أبدًا مثل، قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]. ففي الآية الكريمة نفي للخروج منها، وإثبات للعذاب الدائم، ويقول تعالى عن أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٨].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت)[(١)].

ولعل أجمع ما يبين نعيم الجنة: هو الحديث القدسي الشريف الذي رواه البخاري بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر)، قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][(٢)].

سادسًا: الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر: «هو الاعتقاد الجازم بأن الله سبق في علمه مقادير الخلائق -ويشمل ذلك ما يعمله العباد من خير وشر، وطاعة ومعصية، ومن هو من أهل الجنة، ومن من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وأنذرهم يوم الحسرة)، ٤٧٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعينٍ)، رقم ٤٤٠٦.

أهل النار- وقد كتب الله ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

كما كتب لهم وعليهم ما تقتضيه حكمته من المقادير والأحوال التي يستحقونها على أعمالهم التي علم أنهم سيعملونها، وأراد إرادة كونية أن يقع ما علمه وكتبه لأجله الذي قدر له، وهو الذي يخلقه إذا حان الأجل، فهو الخالق لكل شيء بما في ذلك أفعال العباد، من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وغيرها»[1].

وسوف أتناول الإيمان بالقدر في النقاط الآتية:

١ . أدلة القرآن على القدر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]. «أي: كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. أي: خلقنا كل شيء مقدرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته الحكمة، أو مقدرًا مكتوبًا في اللوح معلومًا قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه[3].

٢ . مراتب القدر.

للقدر أربع مراتب دلت عليها النصوص[4]، وهي:

المرتبة الأولى: علم الله بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، وإحاطته بذلك علمًا، فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

المرتبة الثانية: كتابة الله تعالى لكل شيء مما هو كائن إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

المرتبة الثالثة: المشيئة فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩].

(١) رسائل العقيدة، ابن عثيمين ص٣٧، ٤٠
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٨٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٤١.
(٤) الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد بالسعودية ص ٢٤٧.

المرتبة الرابعة: خلق الله تعالى للأشياء وإيجادها وقدرته الكاملة على ذلك، فهو سبحانه خالق لكل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

وروى البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم: (كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض)[1].

فيجب الإيمان بهذه المراتب الأربع لتحقيق الإيمان بالقدر، ومن أنكر شيئًا منها لم يحقق الإيمان بالقدر.

٣. أنواع القدر.

القدر بمعناه العام نوعان: قدر تصريفي وقدر تكليفي، أو تكوين وتشريع، والقدر التكويني التصريفي لا خيار لأحد فيه، والخلائق جميعًا لا تملك معه إلا أن تصدع بأمر ربها وخالقها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: ٤٠]، ويقول ربنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾ [غافر: ٦٨].

أما القدر التشريعي التكليفي ففيه الخيار، وقد عرض على السماوات والأرض والجبال فأبين استصغارًا لا استكبارًا.

وحمله الإنسان اختيارًا حين خير؛ ليتم بذلك ما اقتضت حكمة الله تعالى من إيجاد جنسٍ من الخلائق يكلف اختيارًا، ويترتب على سلوكه نوعية الجزاء، ولو شاء الله عز وجل لكان الأمران جميعًا على سواء، فينقاد الإنسان له في التوحيد والشعائر، وسائر الشرائع كما ينقاد له في قوانين الوجود الأخرى التكوينية، كالحياة والموت، والأكل والشرب والتنفس وغير ذلك، ولكن الله تبارك وتعالى ترك للإرادة الإنسانية جزءًا من الاختيار، ليصح تعلق الثواب والعقاب بالفعل الإنساني.

ومن بديهيات العقيدة القرآنية: الإيمان بأن قدر الله كله مبني على غاية الحكمة والعلم المحيط، فكله حق ونعمة ورحمة، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾ [المرسلات: ٢٣]، وذلك في القدر التكويني، وكما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وذلك في القدر التكليفي التشريعي، والإنسان حين يخضع الأمور لمقياسه المحدود، يقول: هذا خير وهذا شر، وما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)، رقم ٣١٩١.

هذا إلا قياس بالمصلحة الشخصية، أو العلم المحدود الذي لا ينفذ وراء الأشياء ولا يستطيع، ومن هنا كان التسليم بالقدر الإلهي تسليمًا مطلقًا، هو من لب الاعتقاد وصريح الإيمان، يقينًا بالله تعالى، وثقة فيه، واتهامًا للنفس والرأي، ومعرفة بحدود الإنسان وضآلة علمه، وهذا ما ربى عليه القرآن المسلمين، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى في عشرة الأزواج: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

والآيتان الكريمتان تشملان القدر بنوعيه، بل هما واردتان أصلًا لبيان أحكام تشريعية: وهي فرضية القتال وعشرة الزوجات، والمنازعة في القدر التشريعي أكثر من المنازعة في القدر التصريفي؛ لأن القدر التصريفي ظاهر القهر والنفاذ، والقدر التشريعي جعله الله مجالًا للاختيار والاختبار، ومن ثم كثرت الوصية بالتسليم فيه لله تعالى، بل جعل الله تعالى تحكيم شرعه ورسوله والتسليم المطلق بهذا التحكيم التشريعي شرطًا للإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فقد أقسم الله تعالى أن إيمان الناس لا يتحقق أو لا يكتمل إلا بالتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالرضا والتسليم بقضائه المبني على شرع الله تعالى، كما جاء ذلك صريحًا في نفس السورة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

٤ . الاحتجاج بالقدر.

الاحتجاج بالقدر كان يثيره الكفار فيقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

وغير ذلك من ألوان الاحتجاج بالباطل الذي رد عليه القرآن في مواضع كثيرة، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والآية الكريمة إخبار بالغيب عن دعواهم الباطلة في الاحتجاج بالقدر، وهذا من دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم؛

لأنه أخبرهم بما سيقولون مما علمه الله، فوقع الأمر كما قال تمامًا.

وقد رد الله تعالى عليهم بدليل التاريخ الذي وقع للسابقين ممن قالوا مثل دعواهم، ثم تحداهم أن يكون لديهم علم يثبت دعواهم؛ وأكد ذلك بكشف حقيقة دعواهم القائمة على الظن والتخمين، والمجردة من التثبت واليقين.

خامسًا: أمران هامان يجب مراعاتهما في الإيمان بالقدر:

الأول: يجب اليقين باستحالة الإحاطة بسر القدر الإلهي إحاطة كاملة؛ لأن هذا من خصائص العلم الإلهي الخالصة، والله تعالى يطلع من شاء من عباده على ما شاء من أسرار خلقه وغيبه، وهذا الاطلاع مهما عظم وامتد فهو ضئيل جدًا بجانب علم الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولقد كان موسى عليه السلام هو كليم الله، وعلمه الله تعالى ما شاء، ثم لقي الخضر وهو كما وصفه الله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

(فلما ركبا في السفينة جاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرةً أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر) [١].

وفي ذلك دلالة على حكمة الله تعالى البالغة وراء الحوادث، وأن القدر الإلهي ليس عشوائيًا، وإنما يمضي على نظام وإتقان، وإن بدا للناس أحيانًا تحت وطأة النوازل أمرًا غريبًا مستنكرًا؛ لأنهم لم يحيطوا به خبرًا.

الأمر الثاني: لا سبيل في الأعمال الاختيارية إلى الاحتجاج بالقدر؛ لأن رب القدر هو الذي ترك لنا فيها الخيار ابتلاءً واختبارًا، وكلفنا بناء على هذا، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، ولهذا أعد الآخرة ثوابًا وعقابًا، جزاء وفاقًا لهذا الجهد الإنساني الاختياري في طاعته، أو معصيته.

والاحتجاج بالقدر يبطل ذلك كله، فعلمنا يقينًا أن الإنسان حر مختار في هذا الباب، وأن الله عز شأنه لم يجبر أحدًا على الطاعة، وإنما أمر بها وشرع للناس سبيلها، ولم يرغم أحدًا على المعصية، وإنما نهى عنها وبين حدودها؛ ولذلك أبطل الله تبارك وتعالى حجة المشركين حين تذرعوا بالقدر، واحتجوا لضلالهم بمشيئة الاقتضاء أو الارتضاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣١٤٩.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] [(١)].

لهذا لا يصح للمسلم أن يحتج في ارتكاب المعصية، يقول هذا كتبه الله علي، أو الله قدر علي ذلك، أو أنا مرغم على ذلك، كل هذا باطل؛ لأن الله سبحانه بين لنا الطريق، وعلمنا ما لم نكن نعلم، وكان فضله علينا عظيمًا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن القدر نؤمن به ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولًا، لقبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد؛ لم يعذب الله أحدًا من الخلق، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر» [(٢)].

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبدالستار السعيد ص٦٥.
(٢) دقائق التفسير، ابن تيمية ٢/ ٣٦٨.

زيادة الايمان ونقصانه وقلته

ورد في كتاب الله تعالى آيات استنبط منها العلماء أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بفعل الطاعات وينقص بارتكاب المحرمات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

يقول تعالى ذكره: وأما الذين وفقهم الله لاتباع الحق، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك زادهم الله بذلك إيمانًا إلى إيمانهم، وبيانًا لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم [(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾،[مريم: ٧٦]. أي: أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقًا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أمورًا أخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[المدثر: ٣١]. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٠٥.

ويدل عليه أيضًا الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. أي صبرًا على البلاء، وتسليمًا للقضاء، وتصديقًا بتحقيق ما كان الله وعدهم ورسوله[2].

وفي الآية «دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص»[3].

وقال تعالى: ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين، وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

في هذه الآية: دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها، وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه[5].

وقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وفي الآية دليلٌ على أن الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصانًا، قال: ابن عمر رضي الله عنهما قلنا: يا رسول الله: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: (نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار)[6].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك»[7].

ومن أقوال العلماء في زيادة الإيمان ونقصانه:

قيل لسفيان بن عيينة: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرأون: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. في غير موضع، قيل: فينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص[8].

وقال ابن بطال رحمه الله: «مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص».. ثم قال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص»[9].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٥١.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢١٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٥.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٤.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٠.
(٨) أخرجه الآجري في الشريعة ص ١١٧.
(٩) شرح صحيح مسلم، النووي ١/ ١٤٦.

وخلاصة القول: أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وتجدر الإشارة إلى أن نقصان الإيمان غير الإيمان القليل التي ذكره القرآن وصفًا لليهود، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النساء: ٤٦]. «أي: إلا إيمانًا قليلًا، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وببعض الرسل دون بعض»[(١)].

«قيل: أي: إلا إيمانًا قليلًا لا يعبأ به، وهو الإيمان ببعض الكتب والرسل، أو إلا زمانًا قليلًا وهو زمان الاحتضار فإنهم يؤمنون حين لا ينفعهم الإيمان»[(٢)].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فيه قولان:

أحدهما: فلا يؤمن منهم إلا قليل، وهم عبد الله بن سلام، ومن تبعه، قاله ابن عباس.

والثاني: فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا، قاله قتادة، والزجاج. قال مقاتل: وهو اعتقادهم أن الله خلقهم ورزقهم»[(٣)].

والمعنى يسع هذه الأقوال؛ لأنها من باب التفسير بالمثال.

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٤٨.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٨٤.
(٣) زاد المسير ١/ ٤١٦.

أثر الإيمان في النفوس

للإيمان تأثير بليغ في النفوس، فيحدث فيها تغيرًا كبيرًا.

وفي القرآن الكريم بعض النماذج التي تظهر تأثر النفس وتغييرها بعد الإيمان.

ومن تلك النماذج: سحرة فرعون.

فقد أخبرنا الله في القرآن الكريم عن قصة إيمان سحرة فرعون وأثر هذا الإيمان في ثباتهم واسترخاص أنفسهم في سبيل الله تعالى.

ويظهر هذا التأثير في النقاط الآتية:

أولًا: سحرة فرعون وتعلقهم بعطايا فرعون:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]. أي أجمع لكم بين الأجر والمنزلة عندي والقرب مني، وسألوا استحقاق الأجر إدلال بخبرتهم وبالحاجة إليهم، إذ علموا أن فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين، وخافوا أن يسخرهم فرعون بدون أجر فشرطوا أجرهم من قبل الشروع في العمل ليقيدوه بوعده»[(٤)].

وهذا دأب المستبدين، تسخير العباد بمختلف طاقاتهم ومهاراتهم لحساب

(٤) تفسير التحرير والتنوير ١٩/ ١٢٦.

ذواتهم، دون أن يعطوهم من الأجر ما يستحقونه.

ثانيًا: سحرة فرعون وتعلقهم بعظمة فرعون:

قال تعالى ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

ثالثًا: أثر الإيمان في نفوسهم:

وعندما من الله عليهم بالإيمان واليقين قالوا: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[طه: ٧٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرفت عليهم أنوار الرسالة، فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته»[١].

وتعليقًا على هذا التحول العجيب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء»[٢].

ثمرات الإيمان في الدنيا والآخرة

جعل الله تعالى للإيمان ثمرات في الدنيا والآخرة؛ لتحفيز العباد على الثبات عليه، وتجديده باستمرار وزيادته بالطاعات، وسوف نتناول هذه الثمرات في المطالب الآتية:

أولًا: جزاء الإيمان في الدنيا:

١. الاستخلاف والتمكين في الأرض.

أخبر سبحانه وتعالى أنه وعد بالنصر الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٦/ ٢٦٦.
(٢) الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٥١٣.

يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نكون آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ إلى ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[(١)].

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد. وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنًا وحكمًا فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة[(٢)]، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح[(٣)].

قال سيد قطب رحمه الله: «أن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض -كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم- ليحققوا النهج الذي أراده الله، ويقرروا العدل الذي أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله.. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان.. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض؛ إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله.. وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها»[(٤)].

«وإن الله تعالى إذا نبه عباده إلى أن الأرض يرثها عباده الصالحون، فإن معنى ذلك الصلاح أوسع من ركعات تؤدى، أو أيام تصام، إنه علم رحب الآفاق بكل شيء في مقدور البشر، وعدل محدود الرواق، لا يشقى معه ضعيف، ولا يقهر معه مظلوم،

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٥٩ مرسلاً عن أبي العالية.
وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، الوادعي ص ١٥٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٣.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٩.

وأمان ضد الجوع والقلق، وطوارق اليوم والغد، وكفالة لحرية العقل والضمير، تنمو فيها المواهب وتتضح الملكات، وتكمل الشخصية، وتصان المرافق العامة والخاصة»[1].

٢. الخيرية بين البشرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: ٧].

يقول تعالى ذكره: إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، وعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى، يقول: من فعل ذلك من الناس فهم خير البرية[2]، حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال، ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال: إنه الإيمان، لا مجرد مولد في أرض تدعى الإسلام، أو في بيت يقول: إنه من المسلمين، ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان! إنه الإيمان الذي ينشيء آثاره في واقع الحياة، وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه! والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل. وفي أولها إقامة شريعة الله في الأرض، والحكم بين الناس بما شرع الله، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية[3].

٣. البركات من السماء و الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

«أي: لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب»[4]. وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش.

«والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون، في توكيد ويقين، ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها، وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال.

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة، وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله سبحانه وكفى بالله شهيدًا، ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها

(١) انظر: سر تأخر العرب والمسلمين، محمد الغزالي ص ١٢٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٥٦.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٥٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٥٣.

الناس[1].

وهنا يثار تساؤل: لماذا نرى أممًا مسلمة مضيق عليهم في الرزق، ونرى أممًا لا يؤمنون موسعًا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ؟

قال سيد قطب رحمه الله: إن أولئك الذين يقولون: إنهم مسلمون، لا مؤمنون ولا متقون، إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله، إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم، يتألهون عليهم، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما أولئك بالمؤمنين، فالمؤمن لا يدع عبدًا من العبيد يتأله عليه، ولا يجعل عبدًا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره، ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقًا. دانت لهم الدنيا، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض، وتحقق لهم وعد الله، فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق، فهذه هي السنة: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٥].

فهو الابتلاء بالنعمة، وهو أخطر من الابتلاء بالشدة، وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح، وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق ويتنظرها الانحلال، فهي قوة بلا أمن، وهو متاع بلا رضى، وهي وفرة بلا صلاح، وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال.

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال»[2].

٤ . الحياة الطيبة.

أخبر سبحانه وتعالى أنه من عمل عملًا صالحًا ذكرًا كان أم أنثى، وهو مؤمن بالله ورسوله، فلنحيينه في الدنيا حياة سعيدة مطمئنة، ولو كان قليل المال، ولنجزينهم في الآخرة ثوابهم بأحسن ما عملوا في الدنيا، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ذكر أو أنثى،

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٣٨.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٣٩.

من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها هي السعادة.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضًا: هي العمل بالطاعة والانشراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله[1].

فالعمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها. وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة.. وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار»[3].

وفي الآية دليل على أن الجنسين: الذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل والجزاء، وفي صلتهما بالله، وفي جزائهما عند الله، و أن أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصصه الدين بأحد الصنفين.

٥ . عدم الحرمان من ثواب العمل.

أخبر سبحانه وتعالى أنه يجازي أهل الإيمان والعمل الصالح بالأجر الجزيل غير المقطوع، وهذا الأجر يكون بأحسن ما عملوا، ويكون وافيًا تامًّا.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾[الأنبياء: ٩٤].

«هذا هو قانون العمل والجزاء، لا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان، وهو مكتوب عند الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٦.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٣.

(٣) مدارج السالكين: ٣/ ٢٤٣.

لا يضيع منه شيء ولا يغيب»[1].

ووعد الله أهل الإيمان والعمل الصلاح بالثواب غير المقطوع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت: ٨].

قال السدي: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى، إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون[2].

بل وعدهم سبحانه بتوفية أجورهم والزيادة من فضله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

يعني جل ثناؤه بذلك: فأما المؤمنون المقرون بوحدانية الله، الخاضعون له بالطاعة، المتذللون له بالعبودية، والعاملون الصالحات من الأعمال، وذلك أن يردوا على ربهم، قد آمنوا به وبرسله، وعملوا بما أتاهم به رسله من عند ربهم، من فعل ما أمرهم به، واجتناب ما أمرهم باجتنابه فيؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وافيًا تامًا، ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها من الفضل والزيادة ما لم يعرفهم مبلغه ولم يحد لهم منتهاه. وذلك أن الله وعد من جاء من عباده المؤمنين بالحسنة الواحدة عشر أمثالها من الثواب والجزاء، فذلك هو أجر كل عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحدود مبلغه، والزيادة على ذلك تفضل من الله عليهم، وإن كان كل ذلك من فضله على عباده، غير أن الذي وعد عباده المؤمنين أن يوفيهم فلا ينقصهم من الثواب على أعمالهم الصالحة، هو ما حد مبلغه من العشر، والزيادة على ذلك غير محدود مبلغها، فيزيد من شاء من خلقه على ذلك قدر ما يشاء، لا حد لقدره يوقف عليه[3].

ويستفاد من الآية: أن أجر أهل الإيمان والعمل الصالح مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات، ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المآكل والمشارب، والمناكح، والمناظر والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

٦ . الأمن من الخوف والحزن.

أخبر سبحانه وتعالى أن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة، وأدوا الصلاة كما أمر الله ورسوله، وأخرجوا زكاة أموالهم، لهم ثواب عظيم

(١) في ظلال القرآن ٥/ ١٧٢ .
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٧١٠.

خاص بهم عند ربهم ورازقهم، ولا يلحقهم خوف في آخرتهم، ولا حزن على ما فاتهم من حظوظ دنياهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. وعد سبحانه- الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة بالأجر العظيم، والرحمة والرضوان، والأمن يوم الفزع الأكبر.. ذلك لأنهم استقاموا على الصراط المستقيم، وجاءتهم الموعظة فاستمعوا إليها، وامتثلوا لها، وانتهوا عما نهوا عنه من منكرات كانوا يأتونها وهم جاهلون[١].

من هدايات الآية: أنه سبحانه وتعالى خص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمنهما عمل الصالحات تشريفًا لهما، وتنبيهًا على قدرهما، إذ هما رأس الأعمال، الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.

٧. الأمان من الظلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

لا يخاف أن يظلم فيزاد في سيئاته، ولا أن يهضم من حسناته، ولا يخاف أن يظلم فيزاد من ذنب غيره، ولا يخاف أن يؤاخذ بما لم يعمل، ولا ينتقص من عمله الصالح، ولا يخاف أن لا يجزى بعمله، ولا أن ينقص من حقه[٢].

٨. المحبة في قلوب العباد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]. أي سيحدث لهم في القلوب مودةً من غير تعرضٍ منهم لأسبابها سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح[٣].

روى مسلم بسنده عن عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض)[٤].

٩. الهداية إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٣٥٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٧٧.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٨٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، رقم ٢٦٣٧.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩]، أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم؛ ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾[1].

١ . صلاح البال.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد: ٢].

يقول تعالى ذكره: والذين صدقوا الله وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه، وصدقوا بالكتاب الذي أنزل الله على محمد، محا الله عنهم بفعلهم ذلك سيئ ما عملوا من الأعمال، فلم يؤاخذهم به، ولم يعاقبهم عليه، وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جنانه[2].

«وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر. والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام، ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام»[3].

ويستفاد من الآية: أن الإيمان والعمل الصالح أصل صلاح بال المؤمن، فلا يفكر إلا صالحًا، ولا يتدبر إلا ناجحًا، و لا يعمل إلا نافعًا.

١١ . النجاة من الخسران.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٢-٣].

إن الإنسان لفي خسارة وهلاك إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم وتواصوا بالحق: وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات وتواصوا بالصبر، أي: على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر[4].

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

«قد يكون خسارًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٠.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥٧.

بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين، يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم»[١].

ويستفاد من الآية: أن الإنسان لا ينفك عن نوع خسران، وتفسيره: «أن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضًا حاصل؛ لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر، مع أنه كان متمكنًا من أن يعمل فيه عملًا يبقى أثره دائمًا، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك؛ لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران»[٢].

ويستفاد أيضًا: أن الأمة إذا قامت بالصفات الأربع-الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر-قادت العالم الإنساني إلى الخيرية التي أخرجت من أجل تحقيقها كما كانت في سابق عهدها؛ لأنه لما ضعف في الأمة تحقيق هذه الصفات الأربع أصبحت في ذيل الأمم وتحقق الخسار للعالم أجمع، وكثرت رايات الباطل ومن يحملها، وقلت رايات الحق ومن يحملها.

ونحن على موعد لإرهاصات عهد جديد للأمة ترفع فيه رايات الحق وينضوي تحتها المحبون له المناضلون من أجله؛ لإسعاد الخلق به، وقيادتهم إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح.

١٢. الإخراج من الظلمات إلى النور.

أخبر سبحانه وتعالى أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٨٠.

﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير[(١)].

ويستفاد من الآية: أن الله يدفع عن المؤمنين كل مكروه بسبب إيمانهم، ويعينهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم.

١٣ . مجازاة المؤمنين بأحسن ما كان يعملون.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧]. قيل: وإنما خص أحسن أعمالهم؛ لأن ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة، وقيل: المعنى: ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم، كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم ، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن، والأحسن بالأحسن[(٢)].

ويستفاد من الآية: أن الله يجزي أهل الإيمان والعمل الصالح الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١٤ . الامتناع عن الظلم.

أثنى الله على أهل الإيمان والعمل الصالح بأنهم لا يبغي بعضهم على بعض، بل ينتصفون من أنفسهم للحق، وهم قليل.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص ٢٤]. أي: وإن كثيرًا من الشركاء في المال ليتعدى بعضهم على بعض، ويظلمه غير مراع لحقه إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم يتحامون ذلك، ولا يظلمون خليطًا ولا غيره، وقليل هم»[(٣)].

ويستفاد من الآية: أن الإيمان والعمل الصالح يمنع صاحبه من الظلم.

ثانيًا: جزاء الإيمان في الآخرة:

أخبر سبحانه وتعالى أن لأهل الإيمان والعمل الصالح الثواب العظيم في الآخرة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٤.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٤٨٩.

و الذي منه:

١. تكفير السيئات وتبديلها حسنات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٧].

قال القرطبي رحمه الله: «أي لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم. ثم قيل: يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها في الشرك ويثابوا على ما عملوا من حسنة في الإسلام، ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم في الكفر والإسلام، ويثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام»[١].

وقال تعالى في تبديل السيئات حسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. في معنى قوله: يبدل الله سيئاتهم حسنات قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، قال: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات، وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرًا.

وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات.

وقال الحسن البصري: «أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصًا، وأبدلهم بالفجور إحصانا، وبالكفر إسلامًا»، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوبًا عليه، فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته[٢].

وقد روى مسلم بسنده عن عبد الله قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، رجلٌ يخرج منها زحفًا فيقال له: انطلق فادخل الجنة - قال - فيذهب فيدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل فيقال له: أتذكر الزمان الذى كنت فيه، فيقول: نعم. فيقال له تمن. فيتمنى: فيقال له: لك الذى تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا - قال - فيقول أتسخر بى وأنت الملك؟!) قال: فلقد رأيت

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٦.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه[1].

٢. المغفرة.

وعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يثيبهم على ذلك الجنة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾ [المائدة: ٩].

هذه آية وعد للمؤمنين بستر الذنوب عليهم، وبالجنة فهي الأجر العظيم[2].

ووعدهم سبحانه وتعالى بالرزق الحسن الذي لا ينقطع وهو الجنة، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾ [الحج: ٥٠].

٣. الجنة و نعيمها.

وعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح أن لهم أعلى الجنة وأفضلها منزلًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف: ١٠٧].

وفي وصف الفردوس روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)** فقالوا: يا رسول الله: أفلا نبشر الناس؟ قال: **(إن في الجنة مائة درجةٍ أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة)**[3].

وقد بشر الله أهل الإيمان والعمل الصالح بالجنة وما فيها من أنواع النعيم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾ [البقرة: ٢٥].

«فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه، وعظمته وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشرك به، وضمنه لك، وجعله أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، نعيم القلب، وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد، وعدم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم ٤٨٠.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ١٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٥٨١.

انقطاعه»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَٰبِهًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء[2].

وأخبر سبحانه وتعالى أن من نعيم أهل الجنة: الأزواج المطهرة، وقد فسر مجاهد رحمه الله قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧].

قال: «طهورٌ من الحيض، والغائط، والبول، والبزاق، والنخامة، والمني، والولد»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء؛ بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام[4].

وقال سبحانه في موضع آخر: أنه سبحانه يدخل أهل الإيمان و العمل الصالح ظلًا كثيفًا ممتدًا في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

الظل الظليل: الكثيف الذي لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك، وقيل: هو مجموع ظل الأشجار والقصور، وقيل: الظل الظليل: هو الدائم الذي لا يزول[5].

وقد وصف النبي ظل الشجرة فيما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن فى الجنة لشجرةً يسير الراكب فى ظلها مائة سنةٍ)[6].

وأخبر سبحانه أنه عند دخول أهل الإيمان والعمل الصالح الجنة يُحَيَّوْنَ بالسلام.

قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر مضاف إلى الضمير، فجائز أن يكون الضمير للمفعول أي تحييهم الملائكة، وجائز أن يكون الضمير للفاعل، أي يحيي بعضهم بعضًا[7].

وأخبر سبحانه وتعالى عن زينة أهل الإيمان والعمل الصالح في الجنة، فقال:

---

(١) التفسير القيم، ابن القيم ١٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٣) البعث والنشور، البيهقي ١/ ٢٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٥٤.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن فى الجنة شجرةً يسير الراكب فى ظلها مائة عامٍ لا يقطعها، رقم٧٣١٤.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج: ٢٣].

« يحلون فيها من الحلية من أساور من ذهب ولؤلؤًا أي: في أيديهم.

كما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم بسنده عن أبي مالكٍ الأشجعي عن أبي حازم قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمد يده حتى تبلغ، إبطه فقلت له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ، أنتم هاهنا لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)»[(١)].

وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكًا لو شئت أن أسميه لسميته: يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة ، لو أبرز قلب منها-أي سوار منها-لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسندسه، كما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢] »[(٢)].

وقد روى مسلم بسنده عن خليفة بن كعبٍ أبي ذبيان قال سمعت عبد الله بن الزبير يخطب، يقول: ألا لا تلبسوا نساءكم الحرير، فإني سمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة)**[(٣)].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه: أعد لأهل الإيمان والعمل الصالح غرف وصفها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت: ٥٨].

«أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا، ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا، نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين الذين صبروا أي على دينهم. وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم ٢٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تشربوا في إناء الذهب والفضة ولا تلبسوا الديباج والحرير، رقم ٣٨٥٠.

ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده، وتصديق موعوده»[1].

وأخبر سبحانه وتعالى أن أهل الإيمان والعمل الصالح، يكرمون ويسرون وينعمون في الجنة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم: ١٥].

الحبر، والحبور: السرور والغبطة، والرضوان.. والروضة: الجنة. أي أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا يحزنهم هذا اليوم، ولا يضرهم التفرق، إذ كان مع كل مؤمن عمله، الذي يؤنسه، ويذهب وحشته، ويملأ قلبه طمأنينة وأمنًا، بما يرى من بشريات الإيمان والأعمال الصالحة، التي بين يديه[2].

وذكر تعالى (الروضة)؛ لأنها من أحسن ما يعلم من بقاع الأرض، وهي حيث اكتمل النبت الأخضر وجن، وما كان منها في المرتفع من الأرض كان أحسن[3].

والخلاصة: أن نعيم الجنة المعد لأهل الإيمان والعمل الصالح: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

موضوعات ذات صلة:

التوحيد، الشرك، القدر، الملائكة، النبوة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن ١١/ ٤٩١.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.



عناصر الموضوع

مفهوم الباطل

أولًا: المعنى اللغوي:

من المعلوم أن الباطل خلاف الحق وضده[1]، ويعني: ذهاب الشيء وزواله، وقلة مكثه في الوجود والواقع، قال ابن فارس: «(بطل) الباء والطاء واللام أصل واحد، وهو ذهاب الشيء وقلة مكثه ولبثه. يقال: بطل الشيء يبطل بطلًا وبطولًا. وسمي الشيطان: الباطل؛ لأنه لا حقيقة لأفعاله، وكل شيء منه فلا مرجوع له ولا معول عليه، والبطل الشجاع... لأنه يعرض نفسه للمتالف»[2].

«وبطل الأجير بالفتح بطالةً، أي تعطل فهو بطال»[3].

فالذي يربط تلك المعاني جميعها هو الزوال واللاقيمة؛ فالشيطان سرعان ما يزول شره، ويظهر وهنه، والبطل يزول بتعريض نفسه للخطر، والبطالة كذلك لا قيمة لصاحبها ولا أثر.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الباطل هو: ما لا ثبات له، ولا خير فيه، سواء أكان اعتقادًا، أم فعلًا، أم كلامًا، أم غيره[4].

وما يجمع هذه المصطلحات مع المعنى اللغوي هو الزوال والذهاب، فما كان غير صحيح فهو إلى ذهاب، وفي عرف الفقهاء: الباطل كأنه لم يكن، فهو زائل، حتى كلمة بطل التي تقال للشجاع فلأنه يعرض نفسه للموت، ودمه للهدر، أو لأنه يبطل دم من تعرض له أي يذهبه ويزيله.[5]

ومن ثم فإن الارتباط بين المعنيين - اللغوي والاصطلاحي - يعد ارتباطًا وثيقًا؛ يقوم على أن الباطل لا قيمة له، ولا دوام؛ فسرعان ما يتلاشى بلا أثر يذكر.

(١) انظر: الصحاح الصحاح، للجوهري ٤/ ١٦٣٥، مختار الصحاح، الرازي ص ٣٦.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٥٨، بتصرف يسير.
(٣) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٦٣٥.
(٤) انظر: التعريفات، علي الجرجاني ص ٤٢، المفردات، الراغب ص ١٢٩، الكليات، الكفوي ص ٢٤٤، القاموس الفقهي، سعيد أبو حبيب ص ٣٩، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٢١٩.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي ص ٦٩.

الباطل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بطل) في القرآن الكريم (٣٤)، مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف:١١٨]
الفعل المضارع	٤	﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال:٨]
اسم فاعل	٢٩	﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١﴾ [الإسراء:٨١]

وجاء الباطل في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: بمعناه اللغوي، وهو ضد الحق، وما لا ثبات ولا صحة له، مثل: الشرك والكذب والظلم.

الثاني: الإحباط: ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]. يعني: لا تحبطوا.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٢٣- ١٢٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب ص١٢٩، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١٣١- ١٣٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ١٩٦- ١٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الضلال:

الضلال لغة:

مصدر (ضل)، والذي يعني الضياع والذهاب والغياب، وكل من زاغ عن المطلوب والقصد يسمى (ضالًا)، و(يَضَل ويَضِل) لغتان عند العرب[(١)].

الضلال اصطلاحًا:

«كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا قليلًا كان أو كثيرًا»[(٢)].

وهذا التعريف يشمل جميع المعاني، وهو أن الضلال خلاف الهدى، سواء كان في الاعتقاد أو في الأفعال، عامدًا الضلال أم جاهلًا؛ فالنتيجة واحدة وهو أنه ضال، ولذا فقد عرفه الراغب بقوله: «العدول عن الطريق المستقيم»[(٣)].

الصلة بين الباطل والضلال:

سبق القول: إن الضلال كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا، قليلًا كان أو كثيرًا، وعلى هذا فهو صورة من صور الباطل، ونموذج من نماذجه؛ إذ إن ضلال المرء عن الطريق يبعده عن الوصول لمقصده أكثر فأكثر، وبالتالي لا يحقق المرء غايته أبدًا، وهكذا الباطل لا يرجى منه نفع ولا مقصود.

٢ الحبوط:

الحبوط لغة:

يقول ابن فارس: «الحاء والباء والطاء أصل واحد يدل على بطلانٍ أو ألم. يقال: أحبط الله عمل الكافر، أي أبطله... ومما يقرب من هذا الباب حبط الجلد، إذا كانت به جراحٌ فبرأت وبقيت بها آثار»[(٤)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٦٣.

(٢) الكليات، الكفوي ص ٥٦٧.

(٣) المفردات، الراغب ص ٥٠١.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٩، ١٣٠ بتصرف.

الحبوط اصطلاحًا:

فهو «إبطال عمل البر من الحسنات بالسيئات»[(١)].

قال ابن الأثير: «(أحبط الله عمله) أي: أبطله. يقال: حبط عمله يحبط، وأحبطه غيره»[(٢)].

والملاحظ في الرابط بين المعنيين، أن الحبوط لغة انتفاخ في بطن الدابة، نتيجة لأكلها نباتًا يترك هذا الأثر، فيظن الناظر إلى الدابة أنها سمنة نافعة، غير أنه انتفاخ قاتل يسبب الألم والموت، وهكذا اصطلاحًا؛ حيث يظن الكافر أن عمله له قيمة وأجر، غير أنه لاقيمة له بسبب فساده وحبوطه.

الصلة بين الباطل والحبوط:

تظهر العلاقة بين الباطل والحبوط بشكل جلي؛ فالحبط: إبطال عمل البر من الحسنات بالسيئات، فالعمل أو القول الذي يكون باطلًا لا خير فيه، وكذلك العمل المحبط، لا نفع ولا أجر له، ويتحول هذا العمل بعد الحق إلى الباطل.

٣ اللغو:

اللغو لغة:

اللغو هو: ما لا نفع ولا خير فيه، وقد يكون مضرًا، ثم اختلف أهل اللغة بين معممٍ له في الأقوال والأفعال[(٣)]، وبين مخصص له في الأقوال دون غيرها[(٤)].

اللغو اصطلاحًا:

فقد عرفه الكفوي بأنه: «كل مطروح من الكلام لا يعتد به»[(٥)]، وبما أنه مطروح ولا يعتد به، إذن فلا خير فيه ولا نفع.

الصلة بين الباطل واللغو:

لما أن كان اللغو يشمل كل مطروح من الكلام الذي لا يعتد به، فهو يشترك مع الباطل في عدم نفعه، وتضييع الوقت في الاشتغال فيه؛ إذن هو صورة من صور الباطل.

---

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٣٣١.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٥٥، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٩٢، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٤٥٤.

(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٤٤٩، مختار الصحاح، الفيومي ص ٢٨٣.

(٥) الكليات، الكفوي ص ٧٧٨.

وانظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢/ ٨٢.

٤ الحق:

الحق لغة:

هو نقيض الباطل وخلافه، وهو مصدر من حق الشيء إذا ثبت وكان واجبًا[(١)]، ولا يصح إنكاره، يقول ابن فارس: «يدل على إحكام الشيء وصحته»[(٢)].

الحق اصطلاحًا:

هو الحكم المطابق للواقع، في الأقوال والعقائد والأديان، ويقابله الباطل[(٣)].

الصلة بين الباطل والحق:

سبق القول إن الباطل هو: ما لا ثبات له، ولا خير فيه، سواء كان اعتقادًا أو فعلًا أو كلامًا أو غيره، وبالتالي فخلافه الحق الذي هو: الحكم المطابق للواقع، في الأقوال والعقائد والأديان؛ فالباطل زائل، وأما الحق فثابت راسخ.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٤٣.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٥، ١٧ بتصرف.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٨٩، وأما أبو البقاء الكفوي فقد رأى أن اللفظ انتقل من القول المطابق للواقع إلى«اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب»، الكليات ص ٣٦٣.

الباطل بين النفي والإثبات

ذكر القرآن الكريم كثيرًا من الأمور والشخصيات، وأثبت بطلان بعضها، ونفى البطلان عن البعض الآخر، وذلك بناء على ماهية وحقيقة تلك الأمور، وما يترتب عليها من آثار إيجابية أو سلبية على الواقع الديني والاجتماعي ونحوهما.

أولًا: الباطل المثبت:

هناك عدة أشياء وصفها القرآن الكريم بكونها باطلًا، منها:

١ . عبادة غير الله تعالى.

تعددت المعبودات من دون الله بتعدد الأهواء والمصالح والأزمان؛ فمنهم من عبد الأوثان (الأصنام)، ومنهم من وله في عبادة الشمس والنار، ومنهم من نزل عن كرامته ليعبد الدواب -ومنها الأبقار التي يعبدها الهندوس-، وغيرها من المعبودات؛ كالهوى والمال والحب في غير ذات الله، عدا عن العبادات المعنوية.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[الأنفال: ٨].

نعم، جاء ليثبت بطلان المعبودات الأخرى من دونه سبحانه، فهي لا تستحق العبادة، ولا تستحق أن يصرف جزء من العبادة لها، يقول الطبري: «يريد الله أن يقطع دابر الكافرين، كيما يحق الحق، كيما يعبد الله وحده دون الآلهة والأصنام، ويعز الإسلام، وذلك هو «تحقيق الحق»، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾، يقول: ويبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر»[(١)].

وقد يتساءل عن سبب التأكيد في الآية الكريمة بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وكان يكفي أن يكون حقًا ليتبع، لكنها حكمة الله في إحقاق الحق -وهو إظهاره وليس جعله حقًا- وإبطال الباطل -وهو محقه وطمسه-؛ إذ قد يظن الناس الحق باطلًا بتشابههما في عدم الظهور[(٢)].

ولقد أكثر القرآن العظيم من ذكر آيات كريمات تدل على وحدانية الله تعالى، واستحقاقه للألوهية وحده، وذلك بطرق عقلية مختلفة، منها:

- أنه لا يمكن أن يكون في الكون إلا خالق واحد هو الله.

حيث قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وفي آية أخرى يبين سبب الفساد؛ إذ يقول تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٠٨.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧.

﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ولو ذهب كل إله بما خلق لحدث التزلزل في نظام الكون، غير أن الاستقرار الحاصل في الكون دليل واضح على وجود مدبر واحد لا ثاني له.

- أنه تعالى المنعم بكل شيء؛ فهو الخالق وغيره لا، ولن يخلقوا -ولو اجتمع بعضهم إلى بعض- أصغر مخلوقات الله تعالى، فكيف إذن يعبد غيره.

قال سبحانه عن عجز الآلهة المزعومة المعبودة من دون الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال عز من قائل مستنكرًا عليهم عبادة غيره؛ لأن بطلانها مدرك بالعقل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

أفمن العدالة أن ينسب الفضل لغير أهله، ويشكر على الفعل غير فاعله؟!.

- جاء القرآن الكريم بقصص للأنبياء كثيرة، تبين إثبات بطلان عبادة غير الله تعالى.

كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه من الوثنيين، حيث يقول الله تعالى عنهم بعد أن حطم إبراهيم عليه السلام أوثانهم: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الأنبياء: ٥٩ -٦٧].

نعم والله إنه خلاف العقل، وانتكاس للفطرة التي خلقوا عليها.

٢. كل ما يصدر عن الشيطان.

لقد أثبت القرآن العظيم البطلان للشيطان؛ حيث وصفه الحق سبحانه بالباطل في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ [محمد: ٣].

ومن كان في ذاته باطلًا فكل ما يصدر عنه فهو باطل، واتباعهم لباطله يعني أنهم «اتبعوا وسوسته بالذي دعاهم إليه من عبادة الأوثان»(١).

---

(١) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٢٣٤، واعتبر الماوردي أنه يحتمل معنى الهوى حيث قال: «فيه قولان: أحدهما: أن الباطل الشيطان، قاله مجاهد. الثاني: إبليس، قاله

وإثبات بطلانه يكون بإثبات خطأ اعتقاده، الأول من أن خلقه من نار خير من خلق آدم عليه السلام من طين، ثم ما تبعه من بطلان رفضه السجود لآدم عليه السلام، ثم بطلان ما هو عليه إلى قيام الساعة من ضلال وإضلال للناس عن طريق الجادة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وإثبات البطلان لما يعد أتباعه من نصر وتأييد وعزة، حيث قال سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

يقول الطبري: «يعد الشيطان المريد أولياءه الذين هم نصيبه المفروض: أن يكون لهم نصيرًا ممن أرادهم بسوء، وظهيرًا لهم عليه، يمنعهم منه ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروههم والفلج[1] عليهم».

ثم قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ يقول: «وما يعد الشيطان أولياءه الذين اتخذوه وليًا من دون الله ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني: إلا باطلًا. وإنما جعل عدته إياهم جل ثناؤه ما وعدهم ﴿غُرُورًا﴾، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتخاذهم إياه وليًا على حقيقةٍ من عداته الكذب وأمانيه الباطلة»[2].

ولا أدل على بطلانه من آيتي لقمان والحج اللتان أثبت فيهما الحق سبحانه أن الشيطان باطل في كل ما يدعو إليه الناس، وأيضًا باطل فيما يوجهونه إليه من العبادة والخشية وغيرها من المصروفات، كما قال ربنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

ونلحظ التأكيد في الآية بهو، وهذا يرجح أن يكون المقصود بالباطل هو الشيطان في جميع الأحوال.

ومن الأدلة أيضًا على ضعفه وبطلان سعيه وعدم قدرته على المواجهة: الوسائل التي استخدمها في إغواء الناس وإضلالهم، ومن ذلك -على سبيل الإيجاز-:

قتادة، وسمي بالباطل لأنه يدعو إلى الباطل. ويحتمل ثالثًا: أنه الهوى»، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٩٢، والجامع بينها: أن إبليس الشيطان يستغل هوى الإنسان ورغباته لإغوائه؛ ولهذا يقال للهوى هوى؛ «لأنه يهوي بصاحبه في الباطل» إعراب القرآن، النحاس ١/ ٢٧٨، فلا تعارض إذن.

(١) أي: الفوز والغلبة.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٤٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٢٤- ٢٢٥.

الأولى: الوسوسة.

فقد بدأ إبليس بالكيد لآدم وزوجه لإخراجهما من الجنة، ومن ذلك أكذوبته الأولى، قال سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[الأعراف: ٢٠].

والوسوسة هي: «الكلام الخفي الذي لا يسمعه إلا المداني للمتكلم»[(١)]، غير أن الثعالبي يرى أن وسوسة إبليس لأبينا آدم عليه السلام يمكن أن تكون بمحاورة خفية أو بالإلقاء في النفس[(٢)]، ولا شك في أن الله تعالى أمده بقدرات كبيرة لا نعلم كثيرًا منها.

ويلاحظ في اللفظ القرآني أنه استخدم ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ بدل (وسوس إليهما)، فالأولى تعني: وسوس لأجلهما، أي لأجل أن يغويهما، أما الثانية فتفيد بأنه: ألقاها إليهما[(٣)].

يقول الطبري: «ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها، إلا لئلا تكونا ملكين، وأسقطت«لا» من الكلام، لدلالة ما ظهر عليها، كما أسقطت من قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

والمعنى: يبين الله لكم أن لا تضلوا»[(٤)].

وهكذا حصل لإبليس ما أراد، فما أن أكل آدم وزوجه من الشجرة التي نهيا عنها إلا وظهرت سوءاتهما؛ فبدأت نتيجة وسوسته بالارتباك والبحث عما يستر السوءة، فعصى آدم وزوجه ربهما، وكانت المعصية سببًا في إخراجهما من الجنة.

الثانية: الإلقاء في النفوس عند الأماني.

الإلقاء في النفوس عند الأماني وسيلة من وسائل إبليس التي تدل على ضعفه وبطلان فعله؛ ليبعد عن الطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحج: ٥٢].

نلحظ في الآية الكريمة كيف أن الله تعالى أبطل ما يلقي الشيطان، فكيده كما أسلفنا ضعيف.

ولقد ورد في الآية الكريمة لفظا التمني والإلقاء؛ فأما التمني فأسند إلى الرسول خاصة والرسل عامة صلى الله وسلم عليهم جميعًا، وأما الإلقاء فإلى الشيطان.

والتمني ينصرف على أحد معنيين:

الأول: التلاوة أو القراءة، وهو رأي جمهور العلماء[(٥)]، وهو الراجح، والله

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٥٦.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٢٤.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٤٨.

(٥) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٢٩، إعراب القرآن، النحاس ٣/ ٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١١ / ١٣٤، ١٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٤١، فتح القدير،

أعلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير التمني: «إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته»[(١)].

قال البخاري تعقيبًا عليه: «ويقال أمنيته قراءته»[(٢)].

ويكون المعنى: «أن الله ما أرسل قبل محمد ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في قراءته، من طرقه ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره.

ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: يزيله ويذهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان»[(٣)].

الثاني: تمني القلب والخاطر[(٤)] الذي يرد عليه.

والمعنى حينئذ أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما يتمنى شيئًا من الأمور، يوسوس الشيطان إليه بالباطل، ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته[(٥)].

وهذا المعنى باطل، كما رد الرازي عليه سابقًا.

وأما الإلقاء فالأرجح فيه أنه وسوسة من الشيطان، إذ إنه لا يجوز أن يكون بمعنى الإدخال في كلام الله ما ليس منه، فالقرآن محفوظ بحفظ الله تعالى.

يقول الرازي: «الغرض من هذه الآية بيان أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان؛ بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر»[(٦)].

وذهب الشعراوي مذهبًا قريبًا حيث رأى أنه «لا يمكن للشيطان أن يدخل في القرآن ما ليس منه، لكن يحتمل تدخل الشيطان على وجه آخر، فحين يقرأ رسول الله القرآن، وفيه هداية للناس... أتنتظر من عدو الله أن يخلي

الشوكاني ٣/ ٤٦٢، وغيرهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب كما بدأنا أول خلق نعيده، سورة الحج ٦/ ٩٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٥٤٢.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٣٣.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٣٨.

(٦) المصدر السابق ١١/ ١٣٨.

الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أن يشوش عليهم، ويبلبل أفكارهم، ويحول بينهم وبين سماعه؟ فإذا تمنى الرسول يعني: قرأ، ألقى الشيطان في أمنيته، وسلط أتباعه من البشر يقولون في القرآن: سحر وشعر وإفك وأساطير الأولين، فدور الشيطان... أن يلقي في طريق القرآن وفهمه والتأثر به العقبات والعراقيل التي تصد الناس عن فهمه والتأثر به، وتفسد القرآن في نظر من يريد أن يؤمن به»[1].

فحقيقة الإلقاء أنه: «رمي الشيء من اليد، واستعير هنا للوسوسة وتسويل الفساد، تشبيهًا للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين الناس. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]»[2].

وهكذا يظهر بطلان سعيه وضعفه واقتصاره على الوسوسة والإلقاء في النفس وغيرها من الوسائل، وهي بلا ريب تدل على بطلانه وبطلان نصرته لأوليائه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨.]

٣. أعمال الكفار.

من خلال استقراء للآيات الكريمة التي تتحدث عن بطلان أعمال الكافرين، يتبين أن البطلان له صورة رئيسة هي: حبوط أجر الأعمال وثوابها بسبب الكفر والرياء.

كثيرًا ما يتساءل عن أجر الكافر وثواب عمله، وهل له ثواب بعد الكفر؟

وهكذا يجيب الله تعالى على أسئلتهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

والحبوط هو: «أن تكثر الأنعام من بعض المراعي التي تستطيبها حتى تنتفخ وتفسد أحشاؤها، فظاهر كثرة الأكل أنه سبب للقوة فكان في هذه الحالة سببًا للضعف»[3].

وهكذا الذي يحبط عمله ويبطله.

يقول أبو السعود: «أي: ظهر في الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت تؤدي إلى الثواب لو كانت معمولةً للآخرة، أو حبط ما صنعوه في الدنيا من أعمال البر إذ شرط الاعتداد بها الإخلاص ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي: في نفسه... وقرىء: وبطل على الفعل ، أي: ظهر بطلانه؛ حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوي فبطل

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٦٠٦٦، بتصرف، وانظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٣٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٩٨.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٤٢.

مطلقًا»(١).

ثانيًا: الباطل المنفي:

لقد صرح القرآن العظيم بنفي البطلان عن بعض الأشياء، ومن ذلك:

١ . نفي الباطل عن أفعال الله تعالى.

لا ريب في أن الله هو الحق، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

ولأنه صاحب الجلال والجمال والكمال؛ فإن كل ما يصدر عنه من أفعال هي حق مطلق، لا يأتيها الباطل ولا يعتريها في أي جانب منها، ومما كان يثيره الكفار من مزاعم واعتقادات باطلة: عبثية خلق السماوات والأرض؛ فلا يوجد بعد هذه الحياة من حياة بدليل الواقع، وبالتالي في تصورهم القاصر فإن خلق الكون بما فيه هو ضرب من العبث.

وقد جاء القرآن الكريم يفند هذه الترهات، حيث قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص ٢٧].

يقول النحاس: «كانوا يقولون: ليست ثم عقوبة ولا نار، فالكافر والعاصي يسعدان باللذات وغصب الأموال، والمظلوم يشقى؛ لأنهما يصيران إلى شيء واحد، فرد الله جل وعز هذا عليهم بأنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا لأن الذي ادعوه باطل وذلك منهم ظن»(٢).

ومن ثم فقد ذكر الله تعالى في كتابه الحكيم صفاتًا ممدوحة لعباده المؤمنين منها: أنهم يقولون: أن خلق الله تعالى للسماوات والأرض كله حكمة، وأنه لا يصدر عنه سبحانه أي نقص ولا عيب كاللهو والعبث، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قال الزمخشري: «المعنى: ما خلقته خلقًا باطلًا بغير حكمة، بل خلقته لداعي حكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك»(٣).

وقد أكد البيضاوي تلك الحكم وفصل بعضها قائلًا: «بل خلقته لحكم عظيمة من جملتها: أن يكون مبدأ لوجود الإنسان، وسببًا لمعاشه، ودليلًا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك»(٤).

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٩٤، بتصرف.

(٢) إعراب القرآن، النحاس ٣/ ٣١٠.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٥٤.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٥٤.

فمنشأ هذا الفساد في الاعتقاد عند الكفار: هو سوء ظنهم بالله تعالى؛ ولهذا جاء الله تعالى على لسانهم بالقول ﴿سُبْحَانَكَ﴾ بعد النفي السابق؛ لينزهوه وأفعاله عن سوء ظن الكافرين.

وبين الفينة والأخرى تطل هذه الأفكار المبطلة للدين علينا برأسها، فينجر خلفها من حدث سنه، ولم تجثو ركبتاه طويلًا في طلب العلم النافع، فيستزلهم الشيطان، بالرغم من أن دواءهم في بضع آيات ونصوص كريمة عظيمة.

٢. نفي الباطل عن القرآن العظيم.

قلنا فيما سبق إن القرآن الكريم نفى البطلان عن أفعال الله تعالى، ونفى كذلك الباطل عن القرآن نفسه، وسبب النفي لبطلانه قائم على نفس الأصل السابق، من كون القرآن كلام الله تعالى، وهو صفة من صفاته الكاملة؛ إذن كلماته التي هي جزء من صفة الكلام له كاملة.

قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

يقول ابن كثير: «أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزلٌ من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع، محمودة عواقبه وغاياته»[(١)].

وقد ورد عن قتادة قوله في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ في الآية التي قبلها تماما: «أعزه الله لأنه كلامه، وحفظه من الباطل»[(٢)].

ولقد ذكر الماوردي أنهم اختلفوا في الباطل على خمسة معاني هي: إبليس أو الشيطان أو التبديل أو التعذيب أو التناقض والاختلاف[(٣)].

ورجح الطبري أن معناها: «لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيء من معانيه عما هو به، وذلك هو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه»[(٤)].

ولقد تكفل ربنا سبحانه بحفظ كتابه كما ذكر في مواضع كثيرة، منها قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

إنا للقرآن حافظون من كل ما قد يزاد فيه أو ينقص منه من باطل سواء كان الشيطان أو غيره؛ فأحكامه وفرائضه محفوظة بحفظ الله الذي خص هذا الكتاب المجيد بها من دون الكتب الأخرى، التي أوكل حفظها للرهبان والقساوسة لحكمة بالغة[(٥)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٨٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٨٠.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٨٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٨٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٨،

أنواع الإبطال

يتنوع الإبطال بين المدح والذم، فتارة يكون ممدوحًا، وتارة يكون مذمومًا، ومن ذلك:

أولًا: الإبطال المحمود:

١. إبطال الباطل.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

وقد سبق أن إبطال الباطل يكون بإعدامه ومحقه بكل أشكاله وصوره، كما قلنا إن إحقاق الحق يعني إظهاره[١]، بإظهار دلائله وتقويته، وقمع رؤساء الباطل وقهرهم[٢].

وهذا جواب لسؤال قد يعرض مفاده: إن الحق حقٌّ لذاته، والباطل باطل لذاته، إذن ما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل؟

فالكثير من الرعاع يغره انتفاخ الباطل، إذ إنه لا ينظر بعين الحق والعلم، بل بميزان المادة، وبالتالي فإنه من الضروري لمثل هؤلاء أن يبطل الباطل، وتطمس رايته وتنكس، وكثير من هؤلاء ينبغي الأخذ بأيديهم ببيان بطلان الباطل وأهله لهم، وإلا ضلوا وتاهوا في زخارف الباطل.

والكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٧٢.

(١) انظر: جامع الأحكام، القرطبي ٧/ ٣٧٠.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٩٦.

٢. إبطال السحر.

فهذا موسى صلى الله عليه وسلم يثق بموعود الله تعالى له بمنع آثار ما صنع الكفرة من السحرة، حيث قال الله تعالى عنه: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

«أي سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثرٌ أصلًا أو سيظهر بطلانه للناس، والسين للتأكيد»[٣].

والجملة «استئنافية لبيان ما يوقن به موسى من مآل هذا السحر، ويجوز أن تكون خبرًا لما قبلها، ويكون التقدير: ما جئتم به الذي هو السحر، إن الله سيبطله بما جئت به من الحق، وعلل حكمه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو قاعدة عامة مبينةٌ لسنة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فإنه باطل وفساد، أي لا يجعل عمل المفسدين صالحًا، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين»[٤].

وبمتابعة ما حدث مع موسى عليه السلام، وبمتابعة الآيات الأخرى لمعرفة صحة اليقين الذي اعتمد عليه سيدنا موسى عليه السلام، سنجد النصر والمعية الربانية

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٧٠.

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٨٢.

الكاملة لموسى عليه السلام؛ فقد أخبرنا الله تعالى بخبر مفاده: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨].

نعم إنه جندي الله المبعوث منه سبحانه، فكيف لا يؤيده بنصره، وهل يصح الإيمان ويبقى منه شيء إن لم يكن جازمًا بتلك المعية وذلك التأييد؟!.

فصفة الشك وعدم اليقين بنصر الله تعالى هي من صفات المنافقين، كما بينه تعالى في غزوة الخندق، عندما حوصر المؤمنون والمنافقون في المدينة، وازداد الخوف وبلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف، حتى ظهرت صفات المنافقين فقال الله عنهم: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

وهكذا يجب على المسلمين اليوم إزالة ما تلبد على مشاعرهم الإيمانية، فموعود الله تعالى بهزيمة الباطل وأهله مرتبطة بقوة إيمانهم، وتغييرهم ما فيهم من الباطل، وحينها سيكون النصر لا محالة حليفنا، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ثانيًا: الإبطال المذموم:

الأعمال الصالحة:

جاء التوجيه الإلهي لعباده المؤمنين باجتناب ما يحبط ثواب عملهم من ترك طاعة الله ورسوله، وفعل ما يشبه فعل الكفار، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

ولقد ذكر العلماء بعض ما يبطل الثواب على اختلاف بينهم، من الكفر والرياء والسمعة والكبائر(١).

فالله تعالى يخبر «عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضةٍ من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات»(٢).

ثم صرح سبحانه بمبطل لثواب الأعمال وخاصة الصدقات، وهو الرياء والمن والأذى عند التصدق، حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٧، والنكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٣٠٦.
واختار الطبري عدم دخول الكبائر والمعاصي في محبطات الأعمال، وتبعه أبو السعود في إرشاد العقل السليم ٨/ ١٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٢٢.

﴿مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وفائدة هذا التمثيل البليغ في الآية لتقريب الصورة الذهنية لتصبح واقعًا محسوسًا، وبالتالي يقوم المؤمن بتجرع مرارته نفسيًا قبل حصوله، حتى لا يتذوقه واقعًا في آخرته.

يقول الخازن: «الرياء يبطل الصدقة ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين، لكن من فعل المنافقين؛ لأن الكافر معلن بكفره غير مراء به ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي مثل هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ هو الحجر الأملس الصلب، وهو واحد وجمع، فمن جعله جمعًا قال واحده صفوانة، ومن جعله واحدًا قال: جمعه صفي. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي: على ذلك الصفوان تراب ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ يعني المطر الشديد العظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ يعني ترك المطر ذلك الصفوان صلدًا أملسًا لا شيء عليه من ذلك التراب، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته يؤذي الناس، يرى الناس أن لهؤلاء أعمالًا في الظاهر، كما يرى التراب على الصفوان، فإذا جاء المطر أذهبه وأزاله، وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة، تبطل أعمالهم وتضمحل ؛ لأنها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب»[١].

سلوكيات باطلة

لقد وصف القرآن الكريم مجموعة من السلوكيات الناتجة عن الأفراد أو الجماعات بالبطلان، سواء كانت صادرة من كافر أم من مسلم، فلا فرق بين الفاعلين في وصف بعض أفعالهم بالبطلان، ومن تلك السلوكيات:

أولًا: أكل أموال الناس بالباطل:

لقد نهى الله تعالى الناس عن الظلم فحرمه أشد تحريم، ورتب عليه العقوبات الجسيمة، والعذاب الشديد، وجعل ظلم العباد فيما بينهم لا يسقط فيه الحق بالتقادم، حتى يمتنع الإنسان عن ظلم أخيه؛ فقد فطر الإنسان على الأنفة من طلب المسامحة من الغير، والذي هو من شروط التوبة في الاعتداء على حقوق العبيد، ولقد بين القرآن العظيم إحدى صور الظلم بين الناس، ألا وهي: أكل أموالهم بينهم بالباطل والظلم.

وتتعدد طرق أكل الباطل من: «الإغارة ومن الميسر، ومن غصب القوي مال الضعيف، ومن أكل الأولياء أموال الأيتام واليتامى، ومن الغرر والمقامرة، ومن المراباة»[٢]، والرشوة المحرمة والخيانة بأشكالها المختلفة، ومنها الغش والنصب،

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٠٠.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٨٧.

وغير ذلك[1].

ومن خلال تتبع الآيات التي نهت عن الصور السابقة يتبين أنها ترتسم في ثلاث مراحل، هي:

المرحلة الأولى: بيان أن أكل الأموال بالباطل من صفات كفرة أهل الكتاب.

تعددت حالات أكل أهل الكتاب لأموال الناس بالباطل كما ذكر القرآن الكريم؛ حيث قال تعالى عنهم: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١].

ومن تلك الحالات الكثيرة الرشاوى التي كانوا يأخذونها على الحكم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

يقول البغوي: «وأكلهم أموال الناس بالباطل، من الرشا في الحكم، والمآكل التي يصيبونها من عوامهم، عاقبناهم بأن حرمنا عليهم طيباتٍ، فكانوا كلما ارتكبوا كبيرةً حرم عليهم شيءٌ من الطيبات التي كانت حلالًا لهم»[2].

ومن تلك الحالات أيضًا التي أكلوا فيها أموال الناس بغير حق: أنهم كانوا يكتبون الكتب ويقولون بأنها موحاة من الله تعالى؛

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٤١١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٢٠، وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠٩.

لتأخذ قدسية دينية، كما قال سبحانه عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

«كان من أكلهم أموال الناس بالباطل، ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وما أشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة، فعاقبهم الله على جميع ذلك، بتحريمه ما حرم عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالًا قبل ذلك»[3].

المرحلة الثانية: التحذير من مشابهة أهل الكتاب في أكل الأموال بالباطل.

يقول الله تعالى مخاطبًا المؤمنين بخبر مفاده النهي عن المشابهة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ويلفت انتباهنا الشعراوي إلى مجموعة من اللطائف، منها: أن الأكل للمال يكون بشراء الطعام والشراب به، وليس أكل المال نفسه، وهذا من الاستعارة - والذي يظهر أنه لا يمنع من أنهم كانوا يأخذون أنواعًا

(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٩٢.

من الأطعمة والأشربة جزاء الرشاوى، فهي أيضا تسمى مالًا-؛ كذلك يبين أن أكل المال قسمان: أكلٌ بالحق وأكلٌ بالباطل -كما هو حال بعض الأحبار والرهبان هنا-، ويبين ذلك قائلًا: «هناك أكلًا من أموال الناس بالحق في عمليات تبادل المنافع، فالتاجر يأخذ مالك ليعطيك بضاعة، ويذهب التاجر ليشتري بها بضاعة وهكذا، وقانون الاحتياط هنا في أن يكون هناك رهبان وأحبار محافظون على تعاليم الدين، ولا يأكلون أموال الناس بالباطل، وهذا ظاهر في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ولم يقل جل جلاله: كل الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، بل قال: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾؛ لأنه قد يوجد عدد محدود من الأحبار والرهبان ملتزمون، والله لا يظلم أحدًا؛ لذلك جاء بالاحتمال»[1].

المرحلة الثالثة: النهي بخطاب مباشر للمؤمنين من أكل أموالهم بالباطل.

يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

كذلك ورد التحريم في الكثير من الأحاديث الشريفة، كحديث أبي بكرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فإن دماءكم وأموالكم - قال محمدٌ وأحسبه قال - وأعراضكم، عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب)[2].

ويجب علينا ابتداء أن نتنبه للفارق في اللفظ بين الآيتين الأوليين، وهذه الآية من حيث إضافة المال في الأوليين إلى الناس دون الآكلين من الأحبار والرهبان، بينما في الثانية إلى نفس المؤمنين، وذلك -والله أعلم- «لما كان كل واحد منهما منهيًا ومنهيًا عنه، كما قال: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾»[3]، صح أن يجمع حينئذ الآكل والمأكول، ولمحمد رشيد رضا كلام نفيس يعلل فيه ما سبق بوجه آخر يقول فيه: «واختار لفظ ﴿أَمْوَالَكُم﴾ وهو يصدق بأكل الإنسان مال نفسه للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وللتنبيه على أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لمالك؛ لأن استحلال التعدي وأخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب، ففي هذه

---

(١) تفسير الشعراوي ٨/ ٥٠٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم ١٠٥ /١/ ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال رقم ١٦٧٩، ٣/ ١٣٠٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٣٣٨.

الإضافة البليغة تعليلٌ للنهي، وبيانٌ لحكمة الحكم، كأنه قال: لا يأكل بعضكم مال بعضٍ بالباطل؛ لأن ذلك جناية على نفس الآكل، من حيث هو جناية على الأمة التي هو أحد أعضائها، لا بد أن يصيبه سهم من كل جناية تقع عليها، فهو باستحلاله مال غيره يجرئ غيره على استحلال أكل ماله عند الاستطاعة... وفي الإضافة معنى آخر قاله بعضهم، وهو للتنبيه على أنه يجب على الإنسان أن ينفق مال نفسه في سبيل الحق، وألا يضيعه في سبيل الباطل المحرمة»[(١)].

وهكذا يحذر الله المؤمنين من التعرض لأموال بعضهم البعض بالباطل؛ حتى لا يعم الفساد، ويضيع مقصود الشريعة في حفظ المال، ثم ختم ربنا التحذير ببيان تحريم الإدلاء بتلك الأموال المأكولة بالباطل إلى الحكام، والإدلاء بها إلى الحكام له معنيان:

الأول: ليبرروا لهم أن هذا الباطل هو حق لهم، وذلك من خلال الرشوة، وهو باطل؛ لأن كل إنسان مسؤول عن فعله[(٢)].

وهذا القول رجحه ابن عطية وأشار لمعنى لطيف فيها مفاده: «ترشوا بها على أكل أكثر منها، فالباء إلزاق مجرد، وهذا القول يترجح؛ لأن الحكام مظنة الرشا إلا من عصم وهو الأقل، وأيضًا فإن اللفظتين متناسبتان، تدلوا من أرسل الدلو والرشوة من الرشا، كأنها يمد بها لتقضى الحاجة»[(٣)].

والثاني: أنهم يذهبون للتحاكم إلى الحكام إذا علموا أن الحجة تقوم لهم، كأن لا تكون على الجاحد بينة، أو يكون مال أمانة كاليتيم وغيره، والباء في كلمة (بها) باء السببية[(٤)].

ثانيًا: الجدال بالباطل:

يستخدم الكثير من الناس الجدال بالباطل وسيلةً لإثبات باطلهم، وهذا يدل على ضعف الحجة أو انعدامها؛ إذ لو كان الدليل الواضح حاضرًا لكان استحضاره من قبل المجادل غاية من الغايات، مصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وحتى تتضح صورة الموقف علينا أن نبين من المقصودين في الآية، ومن خلال النظر في كلام أهل التفسير نجد أنهم بين معمم ومخصص؛ فمنهم من يرى أنها عامة في الرسل الكرام في جدال أقوامهم لهم بالباطل، وأن الباطل الذي يجادلون به هو أنهم بعثوا من البشر، مع أن الأصل أن

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١٥٧، بتصرف.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ٧٩٩.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٦٠.

(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٦٠.



يكونوا من الملائكة[1].

ومنهم من يرى أنها في كفار قريش وغيرهم من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم، واعتبروا أن من الباطل الذي جادلوه به -تكذيبًا له وللحق ومنه القرآن - قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم: أخبرنا عن حديث فتية ذهبوا في أول الدهر لم يعرف من شأنهم شيء، وعن رجل بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وعن الروح، وما أشبه ذلك من أمور[2].

والراجح أنه لا مانع من الجمع بين القولين؛ فقد استخدم الكفار في كل حين كل وسيلة لإثبات الباطل ودحض الحق، وما كانت مجادلتهم للرسول صلى الله عليه وسلم بدعًا عمن سبقه من الرسل.

ويقصد بالدحض عدم إثبات الحق، بل وإزالته، وهو مأخوذ من (دحض) وهو الطين الذي يزهق فيه الإنسان؛ لذا يسمى المكان الذي تزل فيه القدم وتنزلق: مكان دحضٌ[3].

وللباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ معنيان:

الأول: أنها للملابسة، بمعنى أن الكفار وهم يجادلون الرسل كانوا ملابسين للباطل.

والثاني -وهو الأقرب-: أنها للآلة، وذلك بتنزيل الباطل منزلة الآلة[4].

إذن هدف الكفار منذ سيدنا نوح عليه السلام وحتى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم أن يبطلوا الحق ويدحضوه، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

قال الطبري: «وخاصموا رسولهم بالباطل من الخصومة ليبطلوا بجدالهم إياه ، وخصومتهم له الحق الذي جاءهم به من عند الله، من الدخول في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادة ما سواه، كما يخاصمك كفار قومك يا محمد بالباطل»[5].

وحتى يومنا هذا تتضافر جهود أهل الباطل؛ فيظلمون الناس ويستعبدونهم، وخاصة أمة الإسلام التي تخلت عن منهج ربها سبحانه، فصارت كالقصعة التي يتنافسون على الأكل منها، كما قال حبيبنا الصادق المصدوق في حديث ثوبان رضي

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٨٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٠، تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٢.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٢٥، تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٢، مجاز القرآن ١/ ٤٠٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٨٦.

(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٥٣.

الله عنه: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائلٌ: ومن قلةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: (بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائلٌ: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا، وكراهية الموت)[1].

ولا خلاص لنا إلا بالعودة إلى ديننا.

ثالثًا: خلط الحق بالباطل:

طريقة أخرى من طرق أهل الباطل في الاستدلال، وهي تزيين الباطل بشيء من الحق، وخلطه به مغبة أن يلتبس الأمر على السامعين، قال عز من قائل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

واللبس له معنيان: الأول: مادي محسوس، وهو مأخوذ من اللباس، وهو الثوب؛ لأنه يستر الجسد، ويخفي حقيقته، والثاني: المعنوي، وهو الخلط بغيره حتى يخفى أمره،[2] ويجمعهما إخفاء الشيء.

ومما يدل عليه، ما ورد عن ابن عباس من قوله: «﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، قال: لا تخلطوا الصدق بالكذب»[3]، ويرى الماوردي أنه يصح في المقصود بالباطل المعاني الثلاثة، وهي: الكذب المختلط بالحق، أو اليهودية والنصرانية بالإسلام، أو الذي كتبوه بأيديهم بالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام.

والذي يظهر أن الحديث هنا عن بني إسرائيل، حيث يدعوهم ربنا إلى عدم خلط كتابه (التوراة) بشيء مما كتبته أيديهم من الباطل، والتصاق الباء بالباطل تجعله يحمل معنيين:

الأول: لا تكتبوا في التوراة شيئًا منكم، فتخلطوا الحق بالباطل.

والثاني: لا تجعلوا الحق ملتبسًا بالباطل الذي تكتبونه.

حيث يقول الزمخشري: «الباء التي في بالباطل إن كانت صلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء خلطته به، كأن المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها، فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم، وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبسًا مشتبهًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٨٧١٣، ١٤/ ٣٣١، وأبو داود في سننه،واللفظ له، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم ٤٢٩٧، ٤/ ١١١، وصححه الألباني، مشكاة المصابيح، رقم ٥٣٦٩، ٣/ ١٤٧٤.

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٧١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٦٨، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ٩٨.

بباطلكم الذي تكتبونه»[1].

وقد ورد في آية أخرى على صورة الاستفهام الإنكاري، وليس كسابقتها على صورة النهي المباشر، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

والملاحظ هنا: التصريح بالمخاطبين وهم أهل الكتاب، والأرجح أنهم اليهود؛ حيث ورد عن ابن عباس قوله: «قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوةً ونكفر به عشيةً، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم!»[2].

وهكذا ترتسم صورة اليهود من الكذب والخلط والكيد للمسلمين، يقول ابن عاشور عن الآية السابقة والتي قبلها: «فيهما التفاتٌ إلى خطاب اليهود، والاستفهام إنكاري.

وإعادة ندائهم بقوله: يا أهل الكتاب ثانية لقصد التوبيخ وتسجيل باطلهم عليهم، ولبس الحق بالباطل تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة، حتى ارتفعت الثقة بجميعه. وكتمان الحق يحتمل أن يراد به كتمانهم تصديق محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها»[3].

رابعًا: اتهام المؤمنين بالباطل:

مما تعارف عليه الناس أن خير وسيلة للدفاع الهجوم، وها هم أعداء الله والإسلام يتهمون المؤمنين بأنهم مبطلون، ولا نراه إلا من هذا الباب، كما ورد في قول ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨].

إنه فرط العناد وشدة في الخصومة وقسوة القلب؛ إذ إن قلوبهم متيقنة ببطلان ما يزعمون، بل ويوقنون بأنهم هم المبطلون، يقول ابن عطية: «ثم أخبر تعالى عن قسوة قلوبهم وعجرفة طباعهم في أنه ضرب لهم كل مثل، وبين عليهم بيان الحق، ثم هم مع ذلك الآية والمعجزة يكفرون ويلجون ويعمهون في كفرهم، ويصفون أهل الحق بالإبطال»[4].

فمهما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم به من «معجزةٍ، كفلق البحر والعصا

(١) الكشاف ١/ ١٣٢، الزمخشري.
وانظر: تفسير القرآن، ابن المنذر ٥٨٩ ١/ ٢٤٩ عن محمد بن إسحاق.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ٥٠٤.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٧٩ بتصرف.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٤.

وغيرهما ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ﴾ يا معشر المؤمنين. ﴿إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾ أي تتبعون الباطل والسحر»[1].

ومهما ذكر لهم من آية فيها صفات الناس يوم القيامة وأحوالهم وشؤونهم «كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم»[2]، إلا أنهم يصرون على أنها أباطيل وأن القائلين بها مبطلون.

وتتناغم هذه الأساليب الشيطانية في الاحتجاج، ورد كلام الخصم في كل صولات الجدال بين المؤمنين وقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمشركين بقيادة إبليس -عليه من الله ما يستحق-، فها هم قد طلبوا منه أن يشق لهم القمر قسمين، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن طلب من الله تعالى ذلك، فانشق القمر، فماذا كان بعد ذلك؟

لم يؤمنوا؛ بل ازدادوا إثمًا على إثمهم، كما قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

[يونس: ٩٦-٩٧].

إذن فهو أسلوب رخيص من أساليبهم التي يعلنون فيها وبكل وضوح إفلاسهم الفكري، وانعدام حجتهم القائمة على البرهان، مع شدة حاجتهم لإظهارها لو ملكوها!.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٩، وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٨٨.



الباطل في المثل القرآني

كثيرًا ما يستخدم القرآن أسلوب التمثيل لكي يقرب الصورة إلى الأفهام، من صورة ذهنية مجردة إلى صورة حسية واقعية، وهكذا تؤثر في النفس، بعد استحضار الذهن لها.

ولقد بين القرآن العظيم أن ضرب المثل في القرآن طال كل شيء، وأنه ليس ضربًا من العبث المنزه تعالى عنه، بل له فائدة جليلة، ولا يغفل عنها إلا المختوم على قلبه، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨].

يقول شيخ المفسرين في محضر تفسيره للآية: «ولقد مثلنا للناس في هذا القرآن من كل مثل احتجاجًا عليهم، وتنبيهًا لهم عن وحدانية الله. وقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ يقول: ولئن جئت يا محمد هؤلاء القوم بآية، يقول: بدلالة على صدق ما تقول ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ يقول: ليقولن الذين جحدوا رسالتك، وأنكروا نبوتك، إن أنتم أيها المصدقون محمدًا فيما أتاكم به إلا مبطلون فيما تجيئوننا به من هذه الأمور»[1]، هكذا ينظر السطحيون والمتربصون بالإسلام وأهله، الذي يأتي بالحق مبطل؛ لأنه يخالف هواهم، وما هم عليه من الملة الباطلة!.

ومن الأمثلة التي استحضرها القرآن الكريم للباطل:

١ . الماء والزبد.

شبه الله تعالى الحق أو الإيمان أو القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، يثبت في الأرض فينفع الزرع والضرع والخلق، وشبه الباطل بالزبد والرغوة والقش، التي طالما صعدت برهة على السطح، ثم سرعان ما تقذف إلى الشاطئ، فلا تنفع شيئًا، بل تكون عبئًا يتمنى الفرد الخلاص منه في أسرع وقت، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال الطبري: «هذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر، يقول تعالى ذكره: مثل الحق في ثباته والباطل في اضمحلاله، مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، يقول: فاحتملته الأودية بملئها، الكبير بكبره، والصغير بصغره، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، يقول: فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٠.

السماء، زبدًا عاليًا فوق السيل... فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل»[1].

فعلينا التيقن بموعود الله لنا بالظفر والنصر على المبطلين، فهم كالزبد الذي سرعان ما يظهر أنه انتفاش خادع ليس إلا، ثم لا يلبث ويزول ولا يمكث ويطرد.

٢. الحلية وشوائبها.

في نفس الآية الكريمة نستشف مثالًا آخر ضربه الله تعالى للحق والباطل، ألا وهو صناعة الحلي ليتزين الناس بها، حيث شبه الله تعالى الذهب والفضة وغيرهما من المعادن بالحق الذي يثبت ويزداد قوة كلما عرض على النار، أما الشوائب فلا تمكث أمام النار؛ فسرعان ما تزول، ولا يبقى أثرها، كما هو الباطل.

قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: ١٧].

يقول ابن أبي زمنين تعليقًا على الآية: «يعني: الذهب والفضة، إذا أذيبا فعلا خبثهما، وهو الزبد، وخلص خالصهما تحت ذلك الزبد ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ أي: وابتغاء متاع ما يستمتع به ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي: مثل زبد الماء، والذي يوقد عليه ابتغاء متاع هو الحديد والنحاس والرصاص إذا صفي ذلك أيضًا؛ فخلص خالصه، وعلا خبثه، وهو زبده ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ زبد الماء، وزبد الحلي، وزبد الحديد والنحاس والرصاص ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يعني: لا ينتفع به، فهذا مثل عمل الكافر، لا ينتفع به في الآخرة ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فينتفع بالماء ينبت عليه الزرع والمرعى، وينتفع بذلك الحلي والمتاع، فهذا مثل عمل المؤمن يبقى ثوابه في الآخرة»[2].

ويحتاج المسلمون اليوم إلى غربلة، وعرض على النار لتمحيصهم، فبالتمحيص تظهر معادنهم، وتنجلي صفاتهم للعيان.

٣. إبطال الصدقات.

شبه الله تعالى إبطال الصدقات بالمن والأذى على الناس، كمثل الصخرة الملساء التي عليها تراب، فنزل عليها المطر، فلم يبق من التراب شيءٌ على الصخرة، وهكذا يفعل الرياء بأجر الصدقات، يبطلها فلا يبقى لها أثر.

قال الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٠٧ بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٣٥٢، وانظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٠٨.

[البقرة: ٢٦٤].

«فالله تعالى أمر عباده برأفته أن لا يمنوا بصدقاتهم، لكي لا يذهب أجرهم، ثم ضرب لذلك، مثلًا فقال تعالى: كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، يعني المشرك إذا تصدق، فأبطل الشرك صدقته، كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن، ثم ضرب لهما مثلًا جميعًا لصدقة المؤمن الذي يمن وبصدقة المشرك»[(١)].

وفي بيان كلمة صفوان، يقول أبو عبيدة: «الصفوان: جمع، ويقال للواحدة: (صفوانة) فى معنى الصفاة، والصفا: للجميع، وهى الحجارة الملس. (صلدًا) والصلد: التي لا تنبت شيئًا أبدًا من الأرضين، والرؤوس... وهو الأجلح»[(٢)].

هكذا نلاحظ أن القرآن الحكيم لا يترك فرصة لترك كبير الأثر وتوضيح الموقف في نفس الإنسان إلا واهتبلها، منها ما يتعلق بالكفار ومنها ما يتعلق بالمؤمنين، مما يدل على أن إبطال العمل يشمل الجميع، فالواجب علينا الحذر من كل ما يبطل أعمالنا.

٤. دعاء الآلهة المزعومة من دون الله تعالى وعجزها.

قريب مما سبق ذكره التشبيه الذي أورده رب العزة سبحانه عن عجز الآلهة المزعومة في قضاء حوائج عابديها، فقد شبه الله تعالى عجزها بعجز من ورد الماء ليستقي منه، وليس معه شيء ليشرب به، فبسط يديه إلى الماء من بعيد، فماذا عساه أن يستقي، وكيف عساه أن يشرب؟!.

قال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

ذكر الفراء أن المقصود بـ ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ هي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وأن المقصود ب ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ هم: الأصنام[(٣)].

وقد وضح ابن أبي زمنين وجه التشبيه الذي ضربه الله تعالى بشكل جميل قائلًا: «هذا مثل الذي يعبد الأوثان رجاء الخير في عبادتها هو كالذي يرفع بيده الإناء إلى فيه يرجو به الحياة، فمات قبل أن يصل إلى فيه؛ فكذلك المشركون، حيث رجوا منفعة آلهتهم ضلت عنهم ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ آلهتهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾»[(٤)].

(١) تفسير السمرقندي ١/ ١٧٦.
(٢) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٨٢ بتصرف.
(٣) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٦١.
(٤) تفسير القرآن العزيز ٢/ ٣٥٠.

الصراع بين الحق والباطل

شاءت حكمة الله تعالى في الابتلاء أن يطلق العنان لإبليس وحزبه في الدعوة إلى الباطل، لكنه سبحانه ما فتئ يدفع باطلهم بحقٍ أبلج، يحمله ثلة من خيرة الخلق، على رأسهم أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم جميعًا، وقد بذلوا في هذه المعركة -التي لن يخمد لهيبها إلا مع صيحة إسرافيل عليه السلام الأولى -كل غالٍ ونفيس من دماء زكية، وأموال طائلة، ومهج عن ربها رضية.

ولولا هذا الدفع منه سبحانه بخيرة خلقه؛ لمنع الباطل ومروجيه، لما صلحت الحياة ولا الاستخلاف فيها، كما قال ربنا: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

بعد حديثه عن قتل طالوت وهزيمة جنوده، على يد الثلة المؤمنة جالوت وجنوده، الذين اصطفاهم الله لهذا الواجب، فقد «أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مر الدهر لفسدت الأرض؛ لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها، ولكنه تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله ومقاتل عليه، إلى أن جعل ذلك في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، له الحمد كثيرًا.

قال مكي: «وأكثر المفسرين على أن المعنى لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم»[1].

وهكذا تتعدد حالات الإفساد بالباطل، ويتعدد لأجلها الدفع لها، ومن ذلك مجيء الإسلام -خاتم الرسلات- في دفع عبادة الأصنام، فنال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه صنوفًا من العذاب، لا تستطيع الجبال حملها، حتى أذن الله لهم بالدفع عن دينهم وأنفسهم.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

و«دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعًا، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات، ولا للمسلمين مساجد. أو لغلب المشركون من أمة محمد صلى

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٧.

الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين»[1].

وهنا يأتي رب العزة سبحانه ليبان الحكمة من وراء هذا التدافع، وتلك الدماء التي تراق، والأنفس التي تزهق، ليقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

نعم! إن البعض يقاتل الناس ليسود الباطل بكل صوره وأشكاله، وأما أهل الحق فلا يعبدون إلا الحق، ويرخصون أنفسهم زكية في سبيله.

ولما تمكن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم من دفع الباطل وأهله، وفتح مكة، ودخل إلى الكعبة، وجد الأصنام فيها وحولها، فأخذ يكسرها قائلًا: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا.

قال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: **(وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل إلى الحجر، فاستلمه ثم طاف بالبيت، قال: فأتى على صنمٍ إلى جنب البيت كانوا يعبدونه، قال: وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قوسٌ وهو آخذٌ بسية القوس[2]، فلما أتى على الصنم جعل يطعنه في عينه، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾** [الإسراء: ٨١])[3].

«لو ما رأيت محمدًا وجنوده بالفتح يوم تكسر الأصنام لرأيت دين الله أصبح بينًا والشرك يغشي وجهه الإظلام»[4].

وقد أمر الله تعالى حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يصدع أمام كفار قريش بالقول: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

ورد عن قتادة القول: «﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ والباطل: إبليس، أي: ما يخلق إبليس أحدًا ولا يبعثه»[5].

وعمم الطبري القول في الباطل فقال: «قل لهم يا محمد: جاء القرآن ووحي الله ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ يقول: وما ينشىء الباطل خلقًا»[6].

وهكذا ستنتهي هذه المعركة بانتصار

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٦٠.

(٢) هي ما انعطف من طرفي القوس، انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٣، ونيل الأوطار، الشوكاني ٨/ ٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، رقم ١٧٨٠، ٣/ ١٤٠٦.

(٤) ينسب إلى فضالة بن عمير بن الملوح الليثي، انظر: أخبار مكة، للفاكهي ٥/ ٢٠٤.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣١٦٨.

(٦) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤١٩.

الحق على الباطل، كما صرح بذلك سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وسيؤول حال الباطل إلى الزهوق والاندثار، كما نص على ذلك رب العزة قائلًا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

أي: «بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلًا، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه، ثم قال: ولكم الويل مما تصفون به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته»[(١)].

وعليه فإنه يجب على المؤمن أن يرتبط بالله القوي، وأن يحذوه الأمل في قرب انتصار الحق على الباطل ودحره، راضيًا بسنة الله تعالى الاجتماعية القائمة على الصراع الدائم بين الحق والباطل، وتشتمل في ثناياها بحرًا من الحكمة لا ينضب، ودليلًا على استحقاقه سبحانه بالألوهية لا ينتهي؛ فعلينا بالصبر والتصبر.

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٠٧.

مصير الباطل والمبطلين

لكل بداية نهاية في هذه الحياة الدنيا؛ فكما أعطى الله تعالى الشيطان وحزبه القدرة على سلوك طريق الباطل، فهو كذلك بشرهم بمصير محتوم في الدنيا والآخرة، كنهاية حتمية لباطلهم، ولهم أنفسهم.

أولًا: مصير الباطل:

من خلال النظر في الآيات الكريمة السابقة وغيرها، يتبين لنا أن الله تعالى وعد الباطل بمصير محتم، ملؤه الخسران والمحو والزهوق والمحق، ولكل منها معنى يختص به، وهي كالآتي:

١ . محو الباطل.

تكفل الحق تبارك وتعالى بمحو الباطل، كما في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

والمحو عند أهل اللغة يعني ذهاب الشيء وأثره[(٢)]، ويقال: محت الريح السحاب بمعنى: ذهبت به[(٣)]، ومحى

(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ٣١٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٢، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٥١٢.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٢، والمحكم، ابن سيده ٣/ ٤٥٤، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ٢٠٧٤.

الطالب السبورة، أي: لم يترك عليها أثرًا للكتابة.

وأما أهل العلم الشرعي، فلم يذهبوا في معناه أبعد مما ذهب إليه أهل اللغة، فهذا الإمام أبو جعفر الطبري يقول: «﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ يقول: ويذهب الله بالباطل فيمحقه»[1].

وكذا النحاس حيث قال: «معناه أن الله جل وعز يزيل الباطل ولا يثبته»[2].

أما السمرقندي فيرى أنه «يعني: يهلك الله تعالى الشرك»[3].

ومن مجموع ما ذكروه يتبين لنا أن المحو هو إزالة الباطل وإهلاكه حتى لا يبقى له أثر.

وبالاستدلال من كلام الله تعالى نجد أنه سبحانه استخدم المحو في إزالة الشيء وعدم بقاء شيء منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

وكذا في قوله سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وكذلك ورد في كلام أفصح العرب صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لي خمسة أسماءٍ: أنا محمدٌ، وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)**[4].

وهكذا كان حقًا صلى الله عليه وسلم.

وأما السياق الذي ورد فيه المحو للباطل في الآية السابقة، فهو في معرض الإقناع للمشركين بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم لن يفتري على الله تعالى شيئًا، وإلا لعذبه الله على مرأى من الجميع.

قال الطبري: «يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: لو حدثت نفسك أن تفتري على الله كذبًا، لطبعت على قلبك، وأذهبت الذي أتيتك من وحيي، لأني أمحو الباطل فأذهبه، وأحق الحق، وإنما هذا إخبار من الله الكافرين به، الزاعمين أن محمدًا افترى هذا القرآن من قبل نفسه، فأخبرهم أنه إن فعل لفعل به ما أخبر به في هذه الآية»[5].

وفي إثبات ما سبق ذكره يقول النحاس: «ففيه احتجاج عليهم لنبوة محمد صلى الله

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٢.
(٢) إعراب القرآن، النحاس ٤/ ٥٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٤٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، رقم ٣٥٣٢، ٤/ ١٨٥، واللفظ له،، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٤، ٤/ ١٨٢٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٢.

عليه وسلم؛ لأن معناه أن الله جل وعز يزيل الباطل ولا يثبته، فلو كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم باطلًا لمحاه الله جل وعز وأنزل كتابًا على غيره.

وهكذا جرت العادة في جميع المفترين أن الله سبحانه يمحو باطلهم بالحق والبراهين والحجج ويحق الحق بكلماته أي يبين الحق»[(١)].

إذن فهو تعالى يبرهن للكفار على صدق الرسول والرسالة بمحو باطلهم، ولا أدل على ذلك من الواقع الذي خبروه من أسلافهم، في عاد وثمود وقرى لوط وغيرها الكثير.

٢. زهوق الباطل.

وأما النتيجة الثانية التي يتعرض لها الباطل كما وعد الله تعالى، فهو الزهوق، حيث قال عز من قائل: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

والزهوق له عند أهل اللغة أكثر من معنى، أهمها: الذهاب والهلاك والاضمحلال، يقال: «زهقت نفسه، وهي تزهق زهوقًا، أي: ذهبت، وكل شيء هلك وبطل فقد زهق»[(٢)].

وذهب ابن فارس إلى أن له أصلًا واحدًا يدل على: «تقدمٍ ومضيٍ وتجاوزٍ، من ذلك زهقت نفسه، ومن ذلك زهق الباطل، أي: مضى. ويقال: زهق الفرس أمام الخيل، وذلك إذا سبقها وتقدمها. ويقال: زهق السهم، إذا جاوز الهدف، ويقال: فرسٌ ذات أزاهيق، أي: ذات جريٍ وسبقٍ وتقدمٍ»[(٣)].

والذي يظهر أنها ترجع إلى معنى الذهاب، فإذا تقدم الشيء فقد ذهب، وكذلك إذا مضى وتجاوز غيره، ثم إن الرابط مع أقوال غيره من أهل العلم، أن الهالك والمضمحل نهايتهما الذهاب.

ومن ثم فإننا نتحدث عن مصير آخر للباطل، ألا وهو اضمحلاله وإهلاكه حتى يذهب بلا عودة.

ولقد عاين المسلمون الأوائل زهوق الباطل -من عبادة للأوثان والهوى وتقليد للآباء وغيرها-، حين بزغ فجر الإسلام، وأخذ هذا النور بالاتساع أكثر فأكثر، والباطل يضمحل شيئًا فشيئًا، كما وعد الله تعالى.

وسيبلغ النور الذي يذهب الباطل مشارق الأرض ومغاربها، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حيث قال في الحديث الذي رواه ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله: (إن الله زوى لي الأرض،

(١) إعراب القرآن، النحاس ٤/ ٥٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٥.

(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ٣٦٣.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٤٧، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٨٩٢.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٢.

فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ عامةٍ، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامةٍ، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»[1].

يقول الإمام النووي: «أما زوي فمعناه جمع، وهذا الحديث فيه معجزاتٌ ظاهرةٌ وقد وقعت كلها بحمد الله كما أخبر به صلى الله عليه وسلم، قال العلماء: المراد بالكنزين الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر ملكى العراق الشام، فيه إشارةٌ إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده في جهتي المشرق والمغرب، وهكذا وقع، وأما في جهتي الجنوب والشمال فقليلٌ بالنسبة إلى المشرق والمغرب، وصلوات الله وسلامه على رسوله الصادق الذي لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى.قوله صلى الله عليه وسلم:(فيستبيح بيضتهم) أي: جماعتهم وأصلهم»[2].

وقد ورد عن قتادة في بيان معنى ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: «هلك الباطل وهو الشيطان»[3].

قال ابن كثير: «تهديدٌ ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزهق باطلهم، أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]»[4].

«ودل فعل كان على أن الزهوق شنشنة[5] الباطل، وشأنه في كل زمانٍ أنه يظهر ثم يضمحل»[6].

ثم نحن بعد هذا الظلم الذي تحياه الأمة، من تسلط أعدائها عليها، ترتفع أعناقنا أملًا في رؤية بزوغ فجر ذاك اليوم، الذي يزول فيه الباطل ويندحر بكل ملله.

٣. محق الباطل وقذفه.

توعد الله العزيز الكفر والباطل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعضٍ، رقم ٢٨٨٩، ٤/ ٢٢١٥.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ١٨/ ١٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٢. وانظر: إعراب القرآن، النحاس ٢/ ٢٨١، تفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٦.

(٥) أي: غريزته، انظر: العين، الفراهيدي ٦/ ٢٢٠.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٨٨.

بالمحق، وهو جزء من الحرب التي تكفل الله تعالى فيها بنصرة الحق وأهله، قال سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

والمحق عند أهل اللغة ذهاب البركة ونقص الشيء بما يؤدي إلى تلفه، قال الخليل بن أحمد: «محق: محقه الله فانمحق وامتحق: أي ذهب خيره وبركته ونقص»[١].

«وكل شيءٍ نقص وصف بهذا، والمحاق: آخر الشهر إذا تمحق الهلال، ومحقه الله: ذهب ببركته. وقال قومٌ: أمحقه، وهو رديءٌ»[٢].

إذن هو وعد منه سبحانه بأن يمحق الباطل، فيذهب بركته، وينقص منه ومن أهله.

وفي التفريق بين المحق والإذهاب، يلفت العسكري الانتباه إلى أن المحق يكون لمجموع الأشياء وليس للفرد، ومن ذلك أنه لا يقال: محق الدينار إذا أذهبه، بل محق الدنانير.[٣]

ومحق الباطل -بإذهاب بركته وإنقاصه- له صور كثيرة منها:

❁ تسليط أهل الحق على الباطل وأهله. قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فلله أجناد لا يعلم عددها إلا هو سبحانه، ومنهم خلص المؤمنين، الذين اشترى الله منهم أنفسهم، فأرخصوها في سبيل رضوانه، يذبون عن الحق، لا يهدأ لهم بال حتى يروا الكفر والباطل يتقلص شيئًا فشيئًا، حتى تعلو راية الحق.

❁ ما يقذفه الله تعالى في نفوس أهل الباطل من الشعور الدائم بالضيق والهم، بالرغم من كونهم يرتكبون المعاصي، وينتهكون الأعراض، ويسلبون الأموال، غير أنهم لا يجدون لذتها الحقيقية، فهم يخالفون فطرة الرحمن، ويعادون أولياءه.

٤. بطلان الباطل.

ومما توعد الله الباطل به (إبطاله)، كما صرح ربنا سبحانه وتعالى في قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

وقد ذكرنا في أن الباطل في اللغة هو خلاف الحق وضده، وأنه يعني: ذهاب الشيء وزواله، وقلة مكثه في الوجود والواقع.

وذكرنا أن الذي يربط تلك المعاني جميعها هو الزوال واللاقيمة؛ فالشيطان سرعان ما يزول شره، ويظهر وهنه.

(١) العين، الفراهيدي ٣/ ٥٦.
وانظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٦٠.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٠٥.

يقول القرطبي: «أي: يستأصلهم بالهلاك. ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يظهر دين الإسلام ويعزه. ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي الكفر. وإبطاله إعدامه، كما أن إحقاق الحق إظهاره»[1].

وبعد: فقد ظهر لنا من خلال ما سبق، أن الله تعالى تكفل بإعدام الباطل ومحقه وإذهابه وإبطاله ومحوه وعدم الإبقاء عليه، وهذا يجعل طمأنينة في صدر المؤمن لا نهاية لها، فمن الذي يقف في وجه الجبار سبحانه؟!.

ثانيًا: مصير المبطلين:

لا شك في أن مصير المبطلين تابع لمصير الباطل؛ فهم جنوده الأوفياء، ومن ذلك:

١ . ارتياب المبطلين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

الريبة خلق ذميم، يتصف به الشاك وضعيف اليقين والثقة، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن من أن يستحوذ عليه الريب، كما في الحديث الذي رواه الحسن بن علي رضي الله عنه: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينةٌ، وإن الكذب ريبةٌ)[2].

وأما الريب فهو الشك والخوف، و«ما رابك من أمرٍ تخوفت عاقبته»[3]، والاسم منه: (الريبة)، وتعني التهمة والشك[4].

ويفرق العسكري بكلام لطيف بين الريب والشك، حيث يقول: «الشك: هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء، وأما الريب فهو شك مع تهمة.

ودل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقــرة: ٢٣].

فإن المشركين - مع شكهم في القرآن - كانوا يتهمون النبي بأنه هو الذي افتراه وأعانه عليه قوم آخرون! ويقرب منه (المرية) وهو بمعناه»[5].

فأهل الباطل في ريبة دائمة، وخوف ينكد عليهم عيشهم، فكيف يستلذون بالعيش،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٧٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين، حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، رقم ١٧٢٣، ٢/ ٣٤٥، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٥١٨، ٤/ ٦٦٨، واللفظ له. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ٢٧٧٣، ٢/ ٨٤٥.

(٣) العين، الفراهيدي ٨/ ٢٨٧.

(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ١٤١، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٦٣.

(٥) معجم الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٦٤.

والخوف من قرب مصيرهم المحتوم يؤرقهم ليلًا ونهارًا؟.

٢. إهلاك المبطلين.

من الأمور التي توعد الله تعالى فيها أهل الباطل الهلاك في الدنيا، قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

ووجه الاستدلال في الآية الكريمة: أنه إذا كان اتباع المبطلين في أفعالهم يهلك غيرهم من الصالحين، فما بالنا بإهلاك المبطلين أنفسهم.

فإهلاك الله تعالى الكافرين المبطلين ومعهم الصالحين أمر طبيعي، إذا لم يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثر الخبث، وانتشرت الفواحش.

فعن زينب بنت جحش، رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحشٍ: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[1].

ومن السنن الاجتماعية التي بينها الله في كتابه: إهلاك المبطلين، ولا أدل على ذلك من إهلاكه سبحانه للقرى الظالمة، كقوم عاد وثمود وغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

فتلك «القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا، فكفروا بالله وآياته، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ يعني ميقاتًا وأجلًا حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدًا موعدًا»[2].

ولهذا كان من بين ما حذر به الله تعالى المشركين من عاقبة الكفر، هو تذكيرهم بعاقبة تلك القرون التي لا زالت مساكنهم شاهدة على حجم العذاب الذي تعرضوا له وهوله.

قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣٣٤٦، ٤/ ١٣٨، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٢٨٨٠، ٤/ ٢٢٠٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٣

[القصص ٥٨].

موضحًا لهم أن أرضهم ومساكنهم لم تسكن من بعدهم، وأن البقاء لله تعالى فهو الوارث.

٣. خسران المبطلين.

ذكرنا سابقًا أن الله تعالى توعد المبطلين بالهلاك في الدنيا، فصدقهم وأهلكهم أيما إهلاك، غير أن ذلك كان جزءًا من مصير مخيف ينتظرهم في الآخرة؛ فعذاب الآخرة أشد وأعظم من عذاب الدنيا، وكذلك فهو دائم لا ينقطع.

وهذا أمر تضطرب له القلوب التي فيها ولو ذرة من الحياة، ويشيب له الولدان، وبنظرة سريعة في وصف العذاب الذي أعده الله تعالى للمبطلين، سيتبين أنهم مغمورون عن هذه الحقائق والأهوال.

قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقال أيضا: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]؛ فهو أشق وأشد وأبقى وأكبر وأخزى، وكلها بالمقارنة بعذاب الدنيا، أيًا كان نوعه وحجمه وشدته.

فخسارة المبطلين يوم القيامة وفي الآخرة عمومًا شيء مجزوم به، لا راد له.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

وقال في أخرى تأكيدًا لما سلف: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧].

«فإذا جاء أمر الله بالعذاب في الدنيا أو الآخرة قضي بالحق بإنجاء المحق وتعذيب المبطل، وخسر هنالك المبطلون المعاندون باقتراح الآيات بعد ظهور ما يغنيهم عنها»[1].

وهكذا تنتهي فصول حياة طويلة نجح فيها أناس لم تغرهم الحياة الدنيا، وسقط فيها المبطلون، بما كانوا عن آيات الله يصدون ويستكبرون، فكانت نهايتهم خسرانًا مبينًا، لا رجعة فيها ولا ينفع معها الندم.

موضوعات ذات صلة:

الافتراء، الحق، الزور، الكذب

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٤.



عناصر الموضوع

مفهوم البحر

أولًا: المعنى اللغوي:

الباء والحاء والراء أصل يدل على السعة والانبساط، قال الخليل: «سمي البحر بحرًا لاستبحاره وهو انبساطه وسعته»[(١)]، والبحر لغة: الشق، وإنما سمي البحر بحرًا؛ لأنه شق في الأرض شقًا، وجعل ذلك الشق لمائه قرارًا، والبحر: الماء الكثير، ملحًا كان أو عذبًا، وهو خلاف البر، سمي بذلك لعمقه واتساعه.

وقد غلب البحر على الملح حتى قل في العذب، وجمعه أبحرٌ وبحورٌ وبحارٌ، وماءٌ بحرٌ: ملحٌ، قل أو كثر، قال ابن سيده: «وكل نهرٍ عظيم بحرٌ»، وقال الزجاج: «وكل نهرٍ لا ينقطع ماؤه فهو بحرٌ»[(٢)]، قال الراغب في المفردات: «أصل البحر: كل مكانٍ واسعٍ جامعٌ للماء الكثير»[(٣)]، ويسمى الفرس الواسع الجري: بحرًا، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام في مندوب فرس أبي طلحة: (إن وجدناه لبحرًا)[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

من المعاني اللغوية يتضح أن تعريف البحر اصطلاحًا لابد أن يشتمل على ثلاثة أمور: سعة المكان، وجمعه للماء، وأن يكون الماء كثيرًا، سواء كان هذا الماء ملحًا أو عذبًا، راكدًا أو جاريًا[(٥)]، وقد عرف البحر خلق كثيرون، قال صاحب التوقيف على مهمات التعريف: «البحر: مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفيه من كان في وسطه، وهو مأخوذ من الاتساع»[(٦)].

وقال بعضهم: «البحر يقال في الأصل للماء الملح دون العذب»[(٧)].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٤.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٠١.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ١٠/ ١١٤، مختار الصحاح، الرازي ١/ ٢٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ١٠٨.
(٥) المحكم، ابن سيده ٣/ ٣١٩.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٢، ٤١
(٧) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي ١/ ٧١.



البحر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بحر) في القرآن الكريم (٤٢) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٣٣	﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾[الكهف: ٤٢]
المثنى	٥	﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[البقرة: ٢٧٢]
الجمع	٣	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴿٢٥٤﴾﴾[البقرة: ٢٥٤]

وجاء البحر في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي وهو: المكان الواسع الجامع للماء الكثير، سواء كان عذبًا أو مالحًا[٢].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١١٧.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص١٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليم:

اليم لغة:

الياء والميم: كلمةٌ تدل على قصد الشيء وتعمده وقصده، واليم: البحر[١].

اليم اصطلاحًا:

متسع من الأرض أصغر من المحيط مغمور بالماء الملح أو العذب[٢].

الصلة بين البحر واليم:

اليم من الكلمات المرادفة للبحر، قال ابن منظور: «وقد أجمع أهل اللغة أن اليم هو البحر»[٣]، لكن من الملاحظ أن القرآن لم يستعمل اليم إلا في مقام الخوف والعقوبة، ولم يستعمله في مقام النجاة، أما البحر: فقد يستعمله في مقام النجاة أو العقوبة[٤].

ويطلق اليم أيضًا على النهر العذب: كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

قال القرطبي: «﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي اطرحيه في البحر: نهر النيل»[٥].

٢ النهر:

النهر لغة:

النون والهاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على تفتح شيءٍ أو فتحه، وسمي النهر؛ لأنه ينهر الأرض أي يشقها[٦].

النهر اصطلاحًا:

الماء الجاري المتسع، ثم أطلق على الأخدود مجازًا[٧].

الصلة بين البحر والنهر:

أطلق في القرآن البحر على النهر، ولم يطلق النهر على البحر.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٥٢.
(٢) انظر: المحكم، ابن سيده، ١٠/ ٥٧٩.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٢.
(٤) لمسات بيانية في نصوص التنزيل، فاضل السامرائي، ١/ ٩٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ١٩٥.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٦٢.
(٧) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي، ١/ ٣٣١

٣ البر:

البرُّ لغة:

خلاف البحر. والبرية من الأرضين، بفتح الباء: خلاف الريفية. والبرية: الصحراء نسبت إلى البر، ويقال: أفصح العرب أبرهم. معناه: أبعدهم في البر والبدو دارًا. وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ [الروم: ٤١]، قال الزجاج: «معناه ظهر الجدب في البر والقحط في البحر أي: في مدن البحر التي على الأنهار»[١].

والبر: الصادق. وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

والبر: من صفات الله تعالى وتقدس: العطوف الرحيم اللطيف الكريم[٢].

البر اصطلاحًا:

البر: خلاف البحر، وهو التراب واليابس[٣].

الصلة بين البحر والبر:

البحر: مستقر الماء الواسع، وكما ذكرنا في البر أنه خلاف البحر، فيمكننا القول: إن العلاقة بينهما تضاد.

(١) لسان العرب، ٤/ ٥٢، ابن منظور، وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٧٩.
(٢) لسان العرب ٤/ ٥٢، ابن منظور.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٤، الكليات، أبو البقاء الكفوي، ١/ ٢٢٥.

البحر والقدرة الإلهية

أولًا: تسخير البحر:

البحر آية عظيمة من آيات الله تعالى الدالة على قدرته، وتسخير الله تعالى البحر للناس بما ينفعهم لمن أعظم الدلائل على ربوبية الله تعالى، والتي تستلزم الإقرار بوحدانيته جل وعلا.

وتأتي الآيات الكريمة لتذكير الناس بتلك النعمة العظيمة والآية الباهرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

ومعنى التسخير: التذليل، قال السمرقندي: «وهو الذي سخر البحر أي: ذلل لكم البحر»[١]، وقال ابن عطية: «وتسخير البحر: هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله للركوب والإرفاق وغيره»[٢]، وقال الماتريدي: «وتسخيره إياه لنا: هو ما بذل للخلق ما فيه من أنواع الأموال التي خلق الله فيه من الحلي والجواهر واللؤلؤ، وبذل ما فيه من الدواب السمك وغيره، فلولا تسخير الله إياه للخلق، وتعليمه إياهم الحيل التي بها يوصل إلى ما فيه من الأموال النفيسة، وإلا ما قدروا على استخراج ما فيه والوصول إليه؛ لشدة أهواله وأفزاعه»[٣].

وللبحر منافع كثيرة[٤]، وقد ذكر الله تعالى في الآيات السابقة ثلاث منافع من جملة منافع تسخير البحر[٥]:

المنفعة الأولى: أكل اللحم الطري منه: وهو السمك الذي يصطاد منه.

المنفعة الثانية: استخراج الحلي: وهو اللؤلؤ والمرجان.

المنفعة الثالثة: جريان الفلك فيه: وهذه المنفعة من أعظم مظاهر تسخير البحر، فالله تعالى قد خصها بالذكر والتسخير في غالب آيات البحر، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج:

(١) تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٦٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ٣٨٣.
(٣) تأويلات أهل السنة، للماتريدي، ٦/ ٤٨٥.
(٤) سيأتي الحديث عن منافع البحر مفصلاً في مبحث مستقل.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٨٠.

[٦٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[لقمان: ٣١].

والفلك هو السفن، واحده وجمعه بلفظ واحد، ويذكر ويؤنث، كما قال تعالى في تذكيره في آية أخرى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] فذكره[١].

وسبب تسمية السفينة فلكًا لأنها تدور في الماء بسهولة[٢]

والآية في الفلك تسخيره وجريها على وجه الماء، وهي موقرة مثقلة، لا ترسب تحت الماء بل تعلو على وجه الماء[٣].

فالسفينة طائر مقلوب، والماء في أسفلها نظير الهواء في أعلاها[٤].

وأما دلالة الفلك على وجود الإله، فلأنها أثقل من الماء، فحقها الرسوب فيها، فإمساكها فوق الماء من الله. ودخول الهواء فيها- وإن كان من الأسباب- فلا يتم عند امتلاء الفلك بالأمتعة الكثيرة، إذ يقل الهواء جدًا فيضعف أثره في إمساك هذا الثقيل جدًا، فلا ينبغي أن ينسب إلا إلى الله تعالى من أول الأمر وعلى التوحيد، فلأن إله الفلك لو كان غير إله البحر لربما منع أحدهما الآخر من التصرف في ملكه، وهو يفضي إلى اختلال نظام العالم؛ لاختلاف المنافع المنوطة بالفلك وعلى الرحمتين، فلأنه رحم المسافرين بالتجارات، والمسافر إليهم بالأمتعة التي يحتاجون إليها[٥].

وقد جاء وصف السفن بأنها مواخر في آيتين من كتاب الله، وهذا الوصف من كمال تسخير البحر.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[فاطر: ١٢].

وفي معنى ﴿مَوَاخِرَ﴾ أقوال: فقال قتادة: «مقبلة ومدبرة، وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر، تجريان بريح واحدة».

وقال الحسن: «﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: مملوءة».

وقال الفراء والأخفش: «شواق تشق الماء بجناحيها».

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٢٧٣.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٣/ ١٢٢.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ١٦٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ١٩٤.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي، ١/ ٤٦٠.

قال مجاهد: «تمخر السفن الرياح».

وقال أبو عبيدة: «صوائخ، والمخر: صوت هبوب الريح عند شدتها»[1].

ولا يحصل جريان الفلك على وجه الماء إلا بتسخير ثلاثة أشياء.

قال الرازي[2]: «أحدها: الرياح التي تجري على وفق المراد.

وثانيها: خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك.

ثالثها: خلق الخشبة على وجهٍ تبقى طافيةً على وجه الماء ولا تغوص فيه.

ولا شك أن الاطلاع على العجائب التي في البحر من دلائل توحيد الله تعالى، ولا يكون الاطلاع على عجائب البحر إلا بالفلك، ولذلك خصها الله تعالى بالذكر، قال الألوسي: «خص الفلك بالذكر مع أن مقتضى المقام حينئذ أن يقال: والعجائب التي في البحر- لأنه سبب الاطلاع على أحواله وعجائبه- فكان ذكره ذكرًا لجميع أحواله، وطريقًا إلى العلم بوجوه دلالته، ولذلك قدم على ذكر- المطر والسحاب- لأن منشأهما البحر في غالب الأمر»[3].

والناظر في آيات البحر يلحظ قضية عقدية في خلق أفعال العباد في تسيير الله تعالى الفلك في البحر، فتسيير الفلك في البحر من الله تعالى، والسير: فعل العباد، فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

دليل على أن الحوادث كلها مخلوقة لله تعالى، فأخبر تعالى بتسيير الفلك في البحر أنه خالق لسيرنا؛ فالتسيير فعله والسير فعل العباد وهو أثر التسيير، وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن الخلق هم الخالقون لسيرهم، وهذا رد منهم للقرآن.

قال ابن القيم: «فالتسيير فعله، والسير فعل العباد وهو أثر التسيير»[4].

وقال ابن عاشور: «ومن تسخير البحر خلقه على هيئةٍ يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين»[5].

ثانيًا: شمول علم الله لما في البحر:

لا شك أن علم الله تعالى لا حد له، فهو بكل شيء عليم، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩].

قال جمهور المفسرين: «هو البر والبحر المعروفان؛ لأن جميع الأرض إما بر وإما

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٣.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٧٣.
(٣) روح المعاني ١/ ٤٣٠.
(٤) شفاء العليل ١/ ٥٨.
(٥) التحرير والتنوير، ١٤/ ١١٩.

بحر، وفي كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه»[(١)].

يقول العلامة السعدي في تفسيره: «هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلًا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلًا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها»[(٢)].

قال الطبري «قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وعنده علم ما لم يغب أيضًا عنكم؛ لأن ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمه العباد، فكأن معنى الكلام: وعند الله علم ما غاب عنكم، أيها الناس، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضًا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعكم، لا يخفى عليه شيء؛ لأنه لا شيء إلا ما يخفى عن الناس أو ما لا يخفى عليهم. فأخبر الله تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وما هو كائن مما لم يكن بعد، وذلك هو الغيب»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، هذا يحتمل وجوهًا:

أولًا: أي يعلم ما في البر والبحر من الدواب، وما يسكن فيها من ذي الروح، كثرتها وعددها وصغيرها وكبيرها، لا يخفى عليه شيء.

والثاني: يعلم رزق كل ما في البر والبحر من الدواب ويعلم حاجته، ثم يسوق إلى كل من ذلك رزقه.

يذكر هذا -والله أعلم- ليعلموا أنه لما ضمن للخلق لكل منهم رزقه، يسوق إليه رزقه من غير تكلف ولا طلب، كما يسوق أرزاق كل ما في البر والبحر من غير طلب ولا تكلف، لا تضيق قلوبهم لذلك، فما بالكم تضيق قلوبكم على ذلك، وقد ضمن ذلك لكم كما ضمن لأولئك؟!

والثالث: يعلم ما في البر والبحر من اختلاط الأقطار بعضها ببعض، ومن دخول بعض في بعض، يخرج هذا على الوعيد: أنه لما كان عالمًا بهذا كله يعلم بأعمالكم ومقاصدكم[(٤)].

الرابع: يعلم ما يهلك في البر والبحر[(٥)].

وقال الواحدي: « ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾: القفار، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ كل قرية فيها ماءٌ، لا

(١) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ١١٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ٢٥٩.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٤٠٢.
(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٩٨.
(٥) تفسير السمرقندي، ١/ ٤٥٣.

يحدث فيهما شيء إلا بعلم الله»[1].

وقد خصهما الله تعالى بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر[2].

والله تعالى قدم ذكر البر؛ لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر، وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات والمعادن.

وأما البحر فإحاطة العقل بأحواله أقل، إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر، وطولها وعرضها أعظم، وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء»[4].

وقال أبو السعود: «﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملةً له، وتنبيهًا على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط، سواءٌ في الجلاء أي يعلم ما فيهما من الموجودات مفصلةً على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها»[5].

(١) الوجيز، الواحدي، ١/ ٣٧٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٢٦٥.
(٥) إرشاد العقل السليم، ٣/ ١٤٣.

قال العلامة محمد رشيد رضا: «وعلمه تعالى بما في البر والبحر من علم الشهادة المقابل لعلم الغيب، على أن أكثر ما في خفايا البر والبحر غائب عن علم أكثر الخلق، وإن كان في نفسه موجودًا يمكن أن يعلمه الباحث منهم عنه، وقدم ذكر البر على البحر على طريقة الترقي من الأدنى إلى ما هو أعظم منه، فإن قسم البحر من الأرض أعظم من قسم البر، وخفاياه أكثر وأعظم»[6].

ومناسبة ذكر علم الله تعالى على ما في البر والبحر بعد ذكر علمه تعالى مفاتيح الغيب، قال الرازي: «وقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قضية عقلية محضة مجردة؛ فالإنسان الذي يقوى عقله على الإحاطة بمعنى هذه القضية نادر جدًا.

والقرآن إنما أنزل لينتفع به جميع الخلق. فههنا طريق آخر: وهو أن من ذكر القضية العقلية المحضة المجردة، فإذا أراد إيصالها إلى عقل كل أحد ذكر لها مثالًا من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية؛ ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهومًا لكل أحد، والأمر في هذه الآية ورد على هذا القانون؛ لأنه قال أولًا: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ ثم أكد هذا المعقول الكلي المجرد

(٦) تفسير المنار ٧/ ٣٨١.

بجزئي محسوس، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وذلك لأن أحد أقسام معلومات الله هو جميع دواب البر، والبحر، الحس، والخيال، قد وقف على عظمة أحوال البر والبحر، فذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظمة ذلك المعقول[1].

ثالثًا: الحاجز بين البحرين:

سبق القول: إن البحر يطلق على الملح غالبًا، ويطلق على النهر العذب على سبيل التغليب، وتظهر قدرة الله تعالى في خلقه لحاجز بين البحرين: الملح والعذب، يمنع من اختلاط أحدهما بالآخر، فلا يفسد أحدهما الآخر، وقد ورد ذكر هذا الحاجز في ثلاث آيات من كتاب الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[الفرقان: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النمل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن: ١٩- ٢٠].

قال الطبري: «وإنما عنى بذلك أنه من نعمته على خلقه، وعظيم سلطانه، يخلط ماء البحر العذب بماء البحر الملح الأجاج، ثم يمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته، وإفساده إياه بقضائه وقدرته؛ لئلا يضر إفساده إياه بركبان الملح منهما، فلا يجدوا ماء يشربونه عند حاجتهم إلى الماء، فقال جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يعني حاجزًا يمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يقول: وجعل كل واحد منهما حرامًا محرمًا على صاحبه أن يغيره ويفسده»[2].

وقال بعض المفسرين: إن الحاجز هو أرض يبس تفصل البحرين الملح والعذب، وهذا قول مرجوح.

قال الطبري[3]: «إنما اخترنا القول الذي اخترناه في معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ دون القول الذي قاله من قال معناه: إنه جعل بينهما حاجزًا من الأرض أو من اليبس؛ لأن الله -تعالى ذكره- أخبر في أول الآية أنه مرج البحرين، والمزج: هو الخلط في كلام العرب على ما بينت قبل، فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين، والملح الأجاج أرضًا أو يبسًا لم يكن هناك مزج للبحرين، وقد أخبر جل ثناؤه أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملح الأجاج عن إفساد

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ٩.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٨٣.

(٣) المصدر السابق.

هذا العذب الفرات، مع اختلاط كل واحد منهما بصاحبه. فأما إذا كان كل واحد منهما في حيز عن حيز صاحبه، فليس هناك مرج، ولا هناك من الأعجوبة ما ينبه عليه أهل الجهل به من الناس، ويذكرون به، وإن كان كل ما ابتدعه ربنا عجيبًا، وفيه أعظم العبر والمواعظ والحجج البوالغ».

قال الزجاج: «فهما في مرأى العين مختلطان، وفي قدرة الله منفصلان لا يختلط أحدهما بالآخر»، قال أبو سليمان الدمشقي: «ورأيت عند عبادان من سواد البصرة الماء العذب ينحدر في دجلة نحو البحر، ويأتي المد من البحر، فيلتقيان، فلا يختلط أحد الماءين بالآخر، يرى ماء البحر إلى الخضرة الشديدة، وماء دجلة إلى الحمرة الخفيفة فيأتي المستقي فيغرف من ماء دجلة عذبًا لا يخالطه شيء، وإلى جانبه ماء البحر في مكان واحد، ونيل مصر في فيضه يشق البحر المالح شقًا بحيث يبقى نهرًا جاريًا أحمر في وسط المالح؛ ليستقي الناس منه، وترى المياه قطعًا في وسط البحر المالح فيقولون: هذا ماء ثلج فيسقون منه من وسط البحر»[1].

قال ابن عطية: «إن المقصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى وإتقان خلقه للأشياء في أن بث في الأرض مياها عذبة كثيرة من أنهار وعيون وآبار، وجعلها خلال الأجاج وجعل الأجاج خلالها، فتلقى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه، وتلقى الماء العذب في الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج فبثها هكذا في الأرض»[2].

قال الشوكاني: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مرج: خلى وخلط وأرسل، يقال: مرجت الدابة وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء.

قال مجاهد: أرسلهما وأفاض أحدهما إلى الآخر، وسمي الماء الحلو فراتًا: لأنه يفرت العطش، أي: يقطعه ويكسره ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: بليغ الملوحة»[3].

والبرزخ حاجز معنوي، قال ابن عاشور: «وجعل الحاجز بين البحرين من بديع الحكمة، وهو حاجز معنوي حاصل من دفع كلا الماءين، أحدهما الآخر عن الاختلاط به، بسبب تفاوت الثقل النسبي لاختلاف الأجزاء المركب منها الماء الملح والماء العذب. فالحاجز حاجز من طبعهما وليس جسمًا آخر فاصلًا بينهما»[4].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٣٢٥، البحر المحيط، أبو حيان، ٨/ ١١٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٢١٤.

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٩٥.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٠/ ١٣.

البحر وأشراط الساعة

لما كان البحر من أعظم آيات الله في الأرض، وقد أخبر الله تعالى أن الأرض تبدل يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

كان تغير البحر عن طبيعته من أشراط الساعة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

فيها ثمانية تأويلات[(١)]:

أحدها: فاضت، قاله الربيع.

الثاني: يبست، قاله الحسن.

الثالث: ملئت، أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها حتى امتلأت، قاله أبو الحجاج.

الرابع: فجرت فصارت بحرًا واحدًا، قاله الضحاك.

الخامس: سيرت كما سيرت الجبال، قاله السدي.

السادس: هو حمرة مائها حتى تصير كالدم، مأخوذ من قولهم عين سجراء، أي: حمراء.

السابع: يعني أوقدت فانقلبت نارًا، قاله علي رضي الله عنه وابن عباس وأبي بن كعب.

الثامن: معناه: أنه جعل ماؤها شرابًا يعذب به أهل النار، حكاه ابن عيسى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[(٢)] بتخفيف (سجرت) إخبارًا عن حالها مرة واحدة، وقرأ الباقون بالتشديد إخبارًا عن حالها في تكرار ذلك منها مرة بعد أخرى.

قال ابن عباس: «يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتصير نارًا تأجج»، وقال مجاهد: ﴿سُجِّرَتْ﴾: «أوقدت»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

قال الطبري: «يقول: فجر بعضها في بعض، فملأ جميعها»[(٤)].

وقال قتادة: «فجر عذبها في مالحها، ومالحها في عذبها».

وقال الحسن: «فجر بعضها في بعض، فذهب ماؤها».

وقال الكلبي: «ملئت»[(٥)].

قال الزمخشري: «فجرت: فتح بعضها إلى بعض، فاختلط العذب بالمالح، وزال البرزخ الذي بينهما، وصارت البحار بحرًا

(١) النكت والعيون، الماوردي، ٦/ ٢١٣.

(٢) البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي، ١/ ٣٣٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ٢/ ٦٠٥.

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٢٦٨.

(٥) هذه الآثار أخرجها الطبري في تفسيره ٢٤/ ٢٦٨.

واحدًا»(١).

واعلم أنه على جميع الوجوه، فالمراد أنه تتغير البحار عن صورتها الأصلية وصفتها، وهو كما ذكر الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨](٢).

(١) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٧١٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ٧٣.

البحر والابتلاء

لا شك أن الابتلاء من سنن الله تعالى في عباده، والناظر في كتاب الله تعالى يجد أن البحر كان محلًا للابتلاء في غير ما موضع، ويتضح ذلك في الآتي:

أولًا: اللجوء إلى الله عند مس الضر:

جاء البحر في القرآن مكانًا لابتلاء الناس واختبارهم من الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل: يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم، الداعين إلى عبادة أوثانهم: من الذين ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه فتحيرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم فيه السبيل، فلا تهتدون له غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء ﴿تَضَرُّعًا﴾، منكم إليه واستكانة جهرًا ﴿وَخُفْيَةً﴾، يقول: وإخفاء للدعاء أحيانًا، وإعلانًا وإظهارًا تقولون: ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ يا رب، أي من هذه الظلمات التي نحن فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، يقول: لنكونن ممن يوحدك بالشكر، ويخلص لك العبادة، دون من كنا

نشركه معك في عبادتك.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤].

قل يا محمد: الله القادر على فرجكم عند حلول الكرب بكم، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من هم الضلال وخوف الهلاك، ومن كرب كل سوى ذلك وهم لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضر، ثم أنتم بعد تفضيله عليكم بكشف النازل بكم من الكرب، ودفع الحال بكم من جسيم الهم، تعدلون به آلهتكم وأصنامكم، فتشركونها في عبادتكم إياه، وذلك منكم جهل بواجب حقه عليكم، وكفر لأياديه عندكم، وتعرضٌ منكم لإنزال عقوبته عاجلًا بكم»[١].

وابتلاء البحر أشد من ابتلاء البر، قال الرازي: «أما ظلمات البحر: فهي أن تجتمع ظلمة الليل، وظلمة البحر وظلمة السحاب، ويضاف الرياح الصعبة والأمواج الهائلة إليها، فلم يعرفوا كيفية الخلاص وعظم الخوف، وأما ظلمات البر فهي ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من هجوم الأعداء، والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب، والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله تعالى، وهذا الرجوع يحصل ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يعظم إخلاصه في حضرة الله تعالى، وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى.

فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضل الله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات، لكنه ليس كذلك، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية، ويقدم على الشرك»[٢].

وإن الله تعالى بين أنه لا ينجيهم مما يعرض لهم من شدائد من خارجهم، وما لا قبل لهم به وحسب، بل ينجيهم من ذلك، وينجيهم من الكروب التي تعتري نفوسهم من ضراء تنزل بهم، أو مرض يحل بأجسامهم، ومن كل شيء يكربهم ويلقي غمة النفس عليهم»[٣].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ

(١) جامع البيان ١١/ ٤١٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ٢٠.

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٥٣٢.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، يعني: يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، ويقال: هو الذي يحفظكم إذا سافرتم في بر أو بحر.

قرأ ابن عامر[1] ينشركم من النشر، يعني: يبثكم، ثم قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ بلفظ المغايبة، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، يعني: لينة ساكنة، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بالريح الطيبة، ﴿جَاءَتْهَا﴾ يعني: السفينة، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ يعني: شديدة، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: من كل ناحية ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، يعني: علموا وأيقنوا أنه قد دنا هلاكهم.

وقال القتبي: «وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بالقرية، يقال: دنا أهلها من الهلكة، فصار ذلك كناية عن الهلاك، ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، يعني: إذا دنا هلاكهم أخلصوا لله تعالى، يعني: بالدعاء وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾، يعني: من هذه الريح العاصف، ويقال: من هذه الأهوال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ﴾ يعني: من الموحدين المطيعين. ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، يعني: يعصون ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، يعني: الدعاء إلى غير عبادة الله تعالى، والعمل بالمعاصي والفساد»[2].

واعلم أن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود، حصل له الفرح التام والمسرة القوية، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة:

فأولها: أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة.

وثانيها: أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب.

وثالثها: أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع، وأن النجاة ليست متوقعة.

ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم، والرعب الشديد، وأيضًا مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيد الرعب والخوف، ثم إن الإنسان في هذه الحالة لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته، ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعًا إلى الله تعالى.

ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة، ونقله من هذه المضرة القوية إلى الخلاص والنجاة، ففي الحال ينسى تلك النعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، فظهر أنه

(١) البدور الزاهرة، القاضي ١/ ١٤٣.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١١٠.

لا يمكن تقرير ذلك المعنى الكلي المذكور في الآية المتقدمة بمثال أحسن وأكمل من المثال المذكور في هذه الآية[1].

ثانيًا: ابتلاء اليهود بمنع الصيد يوم السبت:

من سنن الله تعالى في كونه ابتلاء الناس والأمم لتمحيصهم واختبارهم، وقد ابتلي اليهود بابتلاءات كثيرة، وذلك لما علم من كثرة جدالهم أنبياءهم ومخالفتهم أوامر الله تعالى، ومن جملة ما ابتلي به اليهود: ابتلاء طائفة منهم وهم أهل قرية كانت مجاورة البحر وعلى شاطئه، ابتلاهم الله بمنع الصيد في البحر يوم السبت.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال الطبري: «واسأل يا محمد هؤلاء اليهود، وهم مجاوروك، عن أمر القرية التي كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه[2]، إذ يعتدون في السبت أمر الله، ويتجاوزونه إلى ما حرمه الله عليهم، وكان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك؛ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ ﴿حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي نهوا فيه عن العمل شارعة ظاهرةً على الماء من كل طريق وناحية، كشوارع الطرق، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: وباقي الأيام التي لا يعظمونها، وهي سائر الأيام غير يوم السبت لا تأتيهم الحيتان.

ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل صيده، وذلك بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها»[3].

وقد خالف اليهود أمر الله تعالى واعتدوا في السبت فمسخهم الله تعالى قردة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

قال السمرقندي: «مسخهم الله تعالى قردة وأبعدهم عن رحمته لما اعتدوا في السبت، وهذه الآية على معنى التحذير والتهديد، فكأنه يقول: إنكم تعلمون ما أصاب الذين اعتدوا في السبت، فاحذروا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ١٧/ ٢٣٢.

(٢) ورد ذكر أصحاب السبت في خمسة مواضع من القرآن الكريم وهي: البقرة: آية ٦٥، النساء: الآيتين: ٤٧، ١٥٤، الأعراف: آية: ١٦٣، النحل: آية: ١٢٤، وفي جميعها ذكرت مجملة وفي موضع الأعراف ذكرت مفصلة وفيها ذكر البحر.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ١٨٤.

كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم»[(١)].

وقد بين الله تعالى أنه جعل عقاب أهل القرية وهو المسخ والإبعاد من رحمة الله نكالًا وعقوبة لما قدم اليهود من الذنوب، وزجرًا لمن يفعل مثل فعلهم، وموعظة للمتقين[(٢)]، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

ثالثًا: ابتلاء يونس عليه السلام:

لا شك أن أشد الناس ابتلاءً هم الأنبياء، بوب البخاري رحمه الله باب: أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل[(٣)]، وإن نبي الله يونس عليه السلام ابتلي بتكذيب قومه له، فأنذرهم وحذرهم من عذاب الله، فلم يستجيبوا له، فخرج مغاضبًا لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ[(٤)] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢].

قال أهل التفسير: «وإن يونس لمرسل من المرسلين إلى أقوامهم حين فر إلى الفلك، وهو السفينة، المشحون: وهو المملوء من الحمولة الموقر، فاحتبست السفينة، فعلم القوم أنما احتبست من حدث أحدثوه، فتساهموا، فقرع يونس، فرمى بنفسه، فالتقمه الحوت وهو مكتسب اللوم على صنعه، إذ عجل ترك قومه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

فلولا أنه كان من المصلين قبل ذلك والمسبحين في بطن الحوت للبث في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم أمر الله الحوت فألقى يونس بالعراء، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ثم اجتباه ربه فجعله من الصالحين»[(٥)].

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٦١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٤٤٣.
(٣) صحيح البخاري، ٧/ ١١٥.
(٤) النون: الحوت، وذا نون: لقب نبي الله يونس بن متى، عليه السلام.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥١١.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ١٠٥، تفسير السمرقندي، ٣/ ١٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ١٢١.

منافع البحر

للبحر منافع كثيرة، منها ما ذكره القرآن ومنها ما لم يذكره، بل هو داخل في عموم نفع البحر للإنسان، وسنقتصر على المنافع التي ذكرها الله تعالى في كتابه.

أولًا: أكل صيده وطعامه:

من نعم الله على عباده أن من عليهم بصيد البحر وطعامه، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[المائدة: ٩٦].

فقد أجمع أهل العلم أن صيد البحر وطعامه حلال، أكله وبيعه وشراؤه، للمقيم والمسافر[(١)]، وقد قال عمر بن الخطاب: «صيده: ما اصطيد، وطعامه: ما رمى به»[(٢)].

وقد جاء وصف صيد البحر الذي سخره الله لعباده بالطري، وهذا يدل على حكمة الله وقدرته، من جهة إظهار الضد من الضد، فيخرج الله لنا لحمًا طريًا عذبًا من البحر المالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[فاطر: ١٢].

قال الرازي: «واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحًا، لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري؛ فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته؛ حيث أظهر الضد من الضد»[(٣)].

ولحم البحر طري عذب، والطري: الناعم الغض[(٤)].

وقال ابن منظور: «الغض: الطري الذي لم يتغير»[(٥)].

وقال الراغب: «الغض: الطري الذي لم يطل مكثه»[(٦)].

وقال المناوي: «الشيء الغض، ومنه

(١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٤/ ٤٨٢، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد، ١/ ٢٦٥، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ابن قدامة، ٣/ ١٦٥.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٦١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ١٨٨.
(٤) تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي، ١/ ٤٦٧، طلبة الطلبة، النسفي، ١/ ١٧١.
(٥) لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ١٩٦.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ٣٦١.

الطراوة»[1].

وعلى هذا يكون معنى اللحم الطري: الناعم الطازج الغض الذي لم يطل مكثه.

وميتة البحر جائزٌ أكلها، كما جاء في حديث النبي.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحلت لنا ميتتان، ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال)[2].

وقوله عن البحر: (هو الطهور ماؤه، الحل ميتته)[3].

وجاء في صحيح مسلم: «باب إباحة ميتات البحر»، وذكر حديث جابر رضي الله عنه وفيه: «انطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ، ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرًا ونحن ثلاث مائةٍ حتى سمنا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو كقدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا، فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعيرٍ معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرنا ذلك له، فقال: (هو رزقٌ أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ فتطعمونا؟)، قال: فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله»[4].

ثانيًا: حلية البحر:

الحلية: اسم لما يتحلى به[5]، وسميت حلية لأنها تحلي الجوارح في أعين الناظرين.

وقد امتن الله على عباده بتسخير البحر، ومن تسخيره استخراج الحلية منه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٤٨٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عمر، ١٠/ ١٦، وعبد بن حميد في المنتخب، رقم ٨٢٠، وابن ماجه رقم ٣٢١٨ و ٣٣١٤. قال الألباني: «صحيح». انظر: المشكاة ٤١٣٢.

(٣) أخرجه مالك في موطأه، باب ما جاء في صيد البحر، رقم ١٨١٩، وأحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، رقم ٧٢٣٣. قال الألباني: «صحيح». انظر: صحيح الجامع ٢٨٧٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة ميتات البحر، رقم ١٩٣٥.

(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عدال الحنبلي، ١٢/ ٢٩.



﴿تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤]

والمراد بالحلية في الآية: قال الطبري «اللؤلؤ والمرجان»؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[الرحمن: ٢٢-١٩].

«الحلية ههنا: اللؤلؤ وما يتحلى به مما يخرج من البحر»، وقال الواحدي: «الحلية الدر والجواهر».

وقال الرازي: «المعهود في القرآن في لفظ الحلي: اللآلئ».

وهل تخرج الحلية من المالح والعذب، أم من المالح فقط؟

قيل: إن الحلية لا تخرج إلا من البحر المالح دون العذب.

فكيف قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[فاطر: ١٢]؟

قال ابن جزي: «فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ذلك تجوز في العبارة كما قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[الأنعام: ١٣٠].

والرسل إنما هي من الإنس.

الثاني: أن المرجان إنما يوجد في البحر الملح؛ حيث تنصب أنهار الماء العذب، أو ينزل المطر فلما كانت الأنهار والمطر، وهي البحر العذب تنصب في البحر الملح كان الإخراج منهما جميعًا.

الثالث: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح والعذب، وهذا قول يبطله الحس»[(١)].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل قرآني واضح، على بطلان دعوى من ادعى من العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من الملح خاصة»[(٢)].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «نأخذ بما يوافق ظاهر القرآن، فالله عز وجل يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وهو خالقهما وهو يعلم ماذا يخرج منهما، فإذا كانت الآية ظاهرها أن اللؤلؤ يخرج منهما جميعًا وجب الأخذ بظاهرها، لكن لا شك أن اللؤلؤ من الماء المالح أكثر وأطيب، لكن لا يمنع أن نقول بظاهر الآية، بل يتعين أن نقول بظاهر الآية.

وهذه قاعدة في القرآن والسنة: إننا نحمل الشيء على ظاهره، ولا نؤول، اللهم

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/ ١٧٣.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٢٨٢.

إلا لضرورة، فإذا كان هناك ضرورة، فلابد أن نتمشى على ما تقتضيه الضرورة، أما بغير ضرورة فيجب أن نحمل القرآن والسنة على ظاهرهما»[١].

أما العلم الحديث فإن الموسوعات العلمية تؤكد استخراج الحلي من الأنهار والمياه العذبة[٢]، ففي تعليق علمي على قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾: قد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرًا للحلي، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك، أما اللؤلؤ فإنه كما يستخرج من أنواع معينة من البحر، يستخرج أيضًا من أنواع معينة أخرى من الأنهار، فتوجد اللآلئ في المياه العذبة في إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان وغيرها، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة. ويدخل في ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة، كالماس الذي يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة. ويوجد الياقوت كذلك في الرواسب النهرية في موجوك بالقرب من باناﻻس في بورما العليا. أما في سيام وفي سيلان فيوجد الياقوت غالبًا في الرواسب النهرية. ومن الأحجار شبه الكريمة التي تستعمل في الزينة حجر التوباز، ويوجد في الرواسب النهرية في مواقع كثيرةٍ ومنتشرةٍ في البرازيل وروسيا (الأورال وسيبريا)، وهو فلورسيليكات الألمونيوم، ويغلب أن يكون أصفر أو بنيًا[٣].

وروي عن الزجاج أنه قال: «إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده»[٤].

والحلية لها منافع كثيرة، والذي ورد في الآية: اللبس، وهو تنبيه على غاية الحلية[٥].

واللباس: اسم لما يلبس، وقوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾: تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في الأصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق والخلخال في الرجل، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما[٦].

قال ابن عاشور: «واللباس: اسم لما يلبسه الإنسان، أي يستر به جزءًا من جسده، فالقميص لباس، والإزار لباس، والعمامة لباس، ويقال: لبس التاج، ولبس الخاتم»[٧].

---

(١) تفسير القرآن الكريم من سورة الحجرات حتى سورة الحديد، العثيمين، ص٣١٠.
(٢) انظر: موسوعة بريتانيكا العلمية، الطبعة الرابعة عشرة موضوع رقم ٤٤٧٩٧٤.
(٣) التعليقات العلمية على المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لنخبة من علماء الأزهر، ٢/ ٢٥٣.
(٤) فتح البيان، القنوجي، ١١/ ٢٣٣.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥١٣.
(٦) فتح البيان، القنوجي، ١١/ ٢٣٣.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٢٨١.

ثالثًا: التجارة لطلب الرزق:

من نعم الله على الإنسان: أن كرمه وحمله في البر والبحر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وركوب الإنسان البحر متعدد المقاصد، منها التجارة، وطلب الرزق، كما يذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولتتصرفوا في طلب معايشكم بالتجارة»[١]، وبنحوه قال الثعلبي[٢]، وقال السمرقندي: «لكي تطلبوا رزقه، حين تركبون السفينة للتجارة»[٣]، وقال الزمخشري: «قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يريد تجارة البحر»[٤].

وقد ذكر الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام، قصة القوم المساكين الذين يعملون في البحر، قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

قال السمرقندي: «قوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾: أي يؤاجرون في البحر ويكسبون قوتهم»[٥].

فائدة: استدل الإمام الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالًا من المسكين[٦].

وقد ذكر البخاري: «باب التجارة في البحر»[٧]، وكان تميم الداري رضي الله عنه عظيم التجارة في البحر.

رابعًا: ركوبه للحج والغزو والعلم:

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾، قوله: ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾، يعني: بما ينفع الناس من ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب»[٨].

ذكر مالك رحمه الله أن عمر بن الخطاب كان يمنع الناس من ركوب البحر، فلم يركبه أحد طوال حياته، فلما مات استأذن معاوية عثمان بن عفان في ركوبه فأذن له، فلم يزل يركب حتى كان أيام عمر بن العزيز رحمه الله فمنع الناس من ركوبه، ثم ركب بعده حتى الآن.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٨٢.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي، ٦/ ٢٦٨.
(٣) تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٦٨.
(٤) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٨٩.
(٥) تفسير السمرقندي، ٢/ ٣٥٧
(٦) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٤٥١.
(٧) صحيح البخاري، باب التجارة في البحر، ٣/ ٥٥.
(٨) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ١٩٥.

وقال ابن عبد البر: «وهذا إنما كان من عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما ما في التجارة وطلب الدنيا، والله أعلم»[(١)].

وعن ابن عمر: «أنه كان يكره ركوب البحر إلا لثلاث: غازٍ، أو حاج، أو معتمر»[(٢)].

وفي حديث أبي هريرة: جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**)[(٣)].

قال ابن عبد البر: «وفي حديث هذا الباب من الفقه: إباحة ركوب البحر؛ لأنه لو كرهه لنهى عنه الذين قالوا: إنا نركب البحر، وقولهم هذا يدل على أنهم كثيرًا ما كانوا يركبون البحر لطلب الرزق من أنواع التجارة وغيرها وللجهاد وسائر ما فيه إباحة أو فضيلة، والله أعلم، فلم ينههم عن ركوبه»[(٤)].

وقال الجصاص في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]: «دلالة على إباحة ركوب البحر غازيًا وتاجرًا ومبتغيًا لسائر المنافع؛ إذ لم يخص ضربًا من المنافع دون غيره»[(٥)].

وقد امتن الله على عباده بجريان الفلك في البحر.

قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[الإسراء: ٦٦].

قال ابن عاشور: «وفي امتنان الله تعالى بجريان الفلك في البحر دليل على جواز ركوب البحر من غير ضرورة، مثل: ركوبه للغزو والحج والتجارة»[(٦)].

عقد البخاري في صحيحه: «باب ركوب البحر»، وبوب الإمام مسلم في صحيحه: «باب فضل الغزو في البحر» ثم ساقا حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على أم حرامٍ بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرامٍ تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا، فأطعمته، ثم جلست تفلي رأسه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (**ناسٌ من أمتي عرضوا علي، غزاةً في**

(١) التمهيد، ابن عبد البر، ١/ ٢٣٣.
(٢) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في مصنفه، ٥/ ٢٨٤.
(٣) أخرجه مالك في موطأه، باب الطهور للوضوء، رقم ١٢.
(٤) التمهيد، ابن عبد البر، ١/ ٢٣٣.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص، ١٣١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٨١.

سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر، ملوكًا على الأسرة)، أو (مثل الملوك على الأسرة) -يشك أيهما- قال: قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه، فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (ناسٌ من أمتي عرضوا علي، غزاةً في سبيل الله)، كما قال في الأولى، قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: (أنت من الأولين)، فركبت أم حرامٍ بنت ملحان البحر في زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[1].

نخلص مما سبق أن ركوب البحر جائز في طلب شتى المنافع من التجارة، والجهاد، والغزو، والحج، وطلب العلم، وغيرها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب ركوب البحر، رقم ٢٨٩٤، ومسلم في صحيحه، باب فضل الغزو في البحر، رقم ١٩١٢.

البحر من جند الله سبحانه وتعالى

إن الله تعالى قويٌ عزيزٌ لا يغالب، له جنود السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

وجنوده تعالى لا يعلمها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

وقد ذكر الله تعالى البحر في آيات متعددة، تبرز البحر كونه جندًا من جنده يسلطه على من يشاء من خلقه، وقد تجلى البحر بهذا المعنى في قصة نبي الله موسى -عليه السلام -وذلك في مراحل دعوته:

أولًا: البحر من جند الله، بحفظه لنبي الله موسى عليه السلام:

فقد أوحى الله تعالى لأم موسى عليه السلام إذا خافت عليه من بطش فرعون، أن تضعه في تابوت، ثم تلقيه في اليم، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

فسخر الله تعالى اليم جندًا من جنوده لحفظ نبيه وهو طفل صغير، قال السمعاني: «اليم: هو البحر، ويقال: إن اليم ها هنا هو

النيل، والعرب تسمي الماء الكثير بحرًا»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ جزاء أخرج مخرج الأمر، وكأن اليم هو المأمور[2].

ثانيًا: البحر من جند الله ينفلق لموسى، ويغرق فرعون وجنده:

لما أمر الله تعالى موسى أن يخرج ببني إسرائيل، فرارًا بدينهم من فرعون وجنده، قابلهم البحر، فكان البحر من أمامهم وفرعون من خلفهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

فقال موسى: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، وأوحى إلى البحر أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك[3]، فضربه موسى فانفلق فكان فيه اثنا عشر طريقًا، كل طريق كالطود العظيم، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]

فسار موسى وأصحابه، حتى خرجوا من البحر، ودخل فرعون وقومه في البحر، فلما دخل آخر قوم فرعون، وجاز آخر قوم موسى، أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ثانية لينطبق حتى لا يمر فرعون وجنده، فأمر الله موسى أن يترك البحر «رهوًا»: أي ساكنًا فهو مأمورٌ بإغراقهم[4].

قال تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

فأطبق البحر على فرعون وقومه فأغرقوا، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ولما كان البحر جنديًا مأمورًا من الله تعالى، أمره بأن يحفظ جثة فرعون ويلقيها على الساحل، وأن يبقيها حتى يكون آية لمن خلفه من الطغاة.

قال السمرقندي: «قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ

(١) تفسير القرآن، السمعاني، ٣/ ٣٢٩.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٠٢.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٥٤.
(٤) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٢٧٥.

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: نخرجك من البحر بجسدك».

وقال أبو عبيدة: «نلقيك على نجوة من الأرض، والنجوة من الأرض: ما ارتفع منها ببدنك»[1].

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

ثالثًا: البحر المكان الذي نسف فيه موسى عجل بني إسرائيل:

إن موسى عليه السلام لما ذهب لمواعدة ربه إياه، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وكان فيهم السامري، فأخرج السامري لهم عجلًا له خوار، وقال لبني إسرائيل: هذا إلهكم، فلما رجع موسى سأل السامري فأخبره خبر العجل، قال -تعالى حكاية عن موسى-: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

قال الطبري: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي: ثم لنذرينه في البحر تذرية»[2].

وقال الكلبي: «﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي: نلقيه في البحر»[3].

وقال البغوي: «﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾، أي: لنذرينه، ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾: في البحر»[4].

(١) تفسير السمرقندي، ٢/ ١٣١.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٦٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٣.
(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٩٣.

البحر في المثل القرآني

جاءت الآيات القرآنية بضرب المثل بالبحر، وذلك في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وذلك أنه لو كان البحر مدادًا - والمداد: اسم لما يمد الشيء كالحبر للدواة - للقلم الذي يكتب به كلمات الله تعالى وحكمه وآياته، من وعد بالثواب والعقاب، وذكره ما خلق وما هو خالق، وعلم القرآن، ومواعظه تعالى وعلمه وحكمته، لنفد البحر، وما نفدت كلمات الله تعالى[١].

ولو أن شجر الله كلها بريت أقلامًا، والبحر لهذه الأقلام مدادًا، ومن بعده سبعة أبحر، تكتب هذه الأقلام كلام الله تعالى بذلك المداد من البحار، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك المداد ولم تنفد كلمات الله تعالى وعلمه[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال البيضاوي: «وإيثار جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل، فكيف بالكثير! فإن الله عزيزٌ لا يعجزه شيء، حكيمٌ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر»[٣].

وهل إذا نفدت البحار هل تنفد كلمات الله تعالى؟

قال الزركشي: «ليس المراد أن كلمات الله تنفد بعد نفاد البحر، بل لا تنفد أبدًا، لا قبل نفاد البحر ولا بعد نفاده، وحاصل الكلام: لنفد البحر ولم تنفد كلمات ربي»[٤].

والبحار السبع التي تمد البحر، هي بحار غير موجودة.

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ إشارة إلى بحار غير موجودة، يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر»[٥].

وحصر البحار بالسبعة غير مراد، بمعنى لو كانت أكثر من سبعة بحار تمد البحر هل تنفد كلمات الله؟

قال الرازي: «وقوله: سبعة، ليس لانحصارها في سبعة، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد؛ لأنها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة، والذي يدل على ذلك وجوه: ... فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة، فاستعملت في كل كثير»[٦].

---

(١) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٣٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ٢٩٢ بتصرف.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢١٦.
(٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣/ ٣٩٩.
(٥) مفاتح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٣٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٣٨.

لمسات اعجازية في البحر

لما كان كتاب الله تعالى بحر درر، لا تنقضي عجائبه، ولما كانت البحار والمحيطات تشغل الحيز الأكبر من سطح الأرض فتبلغ نحو ثلاثة أرباعه[1]، كانت عناية الباحثين والعلماء عناية فائقة في استنباط دلائل صدق النبوة في الآيات التي ذكرت البحر وما تحمل في طياتها من إعجاز علمي أبهر كبار العلماء والباحثين الغربيين.

أولًا: ظلمات البحر:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

تتحدث الآية الكريمة عن أولئك الذين كفروا بآيات الله وأنكروا لقاءه وجحدوا برسوله، فهؤلاء مثل أعمالهم التي قاموا بها في الدنيا كمثل إنسان يركض وراء سراب، يلهث وراءه فإذا ما وصل إليه لم يجده شيئًا، ووجد عنده عمله السيئ، ومثل هذا الكافر كإنسان يعيش في ظلمات بحر عميق لا يكاد يرى شيئًا بسبب الظلمات المتراكمة.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾: وهو الذي لا يدرك قعره، واللجة معظم الماء، والجمع لجج، واللج هو البحر إذا تلاطمت أمواجه»[2].

وتبرز الحقيقة العلمية[3]: عندما نزل العلماء إلى أعماق المحيطات وجدوا أن البحار العميقة تتمتع بظلام دامس، وعلى عمق كيلو متر واحد لا يكاد الإنسان يرى شيئًا، وتزداد الظلمة إذا كانت أمواج البحر السطحية عالية الارتفاع؛ لأنها تساهم في حجب ضوء الشمس.

وكذلك وجدوا أن البحار العميقة في أعماقها هناك أمواج داخلية لا يمكن لأحد أن يراها إلا إذا نزل إلى أعماق أكثر من ألف متر، وهذه الأمواج قد تكون أشد من الأمواج السطحية.

وجه الإعجاز في هذا الآية يتمثل في إشارتين علميتين:

تحدثت عن الظلمات في البحار العميقة، وهو ما كشفه العلماء حديثًا، ولم يكن معلومًا زمن التنزيل.

أشارت إلى الأمواج الداخلية العميقة، وهو ما كشفه العلماء أيضًا، وهو ما أشارت إليه الآية في قوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾.

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، ١/ ٤٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ٢٨٣.

(٣) آيات الله في المحيطات والبحار والأنهار، ماهر أحمد الصوفي، ١/ ٢٦١.

ثانيًا: الحاجز بين البحرين:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن: ١٩-٢٠].

العَذْب هو النهر، وصفه القرآن الكريم بوصفين ﴿عَذْبٌ﴾ و ﴿فُرَاتٌ﴾، ومعناهما أن ماء هذا البحر شديد العذوبة، ويدل عليه وصف ﴿فُرَاتٌ﴾، وبهذا الوصف خرج ماء المصب، الذي يمكن أن يقال: إن فيه عذوبة، ولكنه لا يمكن أن يوصف بأنه فرات، وما كان من الماء ملحًا أجاجًا فهو ماء البحار.

ووصفه القرآن الكريم بوصفين: ﴿مِلْحٌ﴾ و﴿أُجَاجٌ﴾ أي: شديد الملوحة.

وبهذا خرج ماء المصب؛ لأنه مزيج بين الملوحة والعذوبة، فلا ينطبق عليه وصف ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

وبهذه الأوصاف الأربعة تحددت حدود الكتل المائية الثلاث:

١ - ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ ماء النهر.

٢ - ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ماء البحر.

٣ - ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾،

البرزخ هو الحاجز المائي المحيط بالمصب.

الحجر والحجر هو المنع والتضييق، يسمى العقل حجرًا؛ لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[الفجر: ٥].

فمن يقرأ قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[الرحمن: ١٩].

فقط يتصور أن امتزاجًا واختلاطًا كبيرًا يحدث بين هذه البحار، يفقدها خصائصها المميزة بها، ولكن العليم الخبير يقرر في الآية بعدها ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾.

ومع حالة الاختلاط والاطراد هذه التي توجد في البحار، فإن حاجزًا يحجز بينهما، يمنع كلًا منهما أن يطغى ويتجاوز حده، وهذا ما شاهده الإنسان بعدما تقدم في علومه وأجهزته، فقد وجد ماءً ثالث يختلف في خصائصه عن خصائص كلٍ من البحرين، ويفصل كل من البحرين الملحين المتمايزين في خصائصهما من حيث الملوحة والحرارة، والكثافة، والأحياء المائية، وقابلية ذوبان الأكسجين، ووجد أن هذا الحاجز المائي متحرك بين البحرين على اختلاف فصول السنة، وهذا المعنى يندرج أيضًا تحت قوله تعالى: ﴿مَرَجَ﴾ الذي يعني أيضًا الذهاب، والإياب، والاختلاط، والاضطراب[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾[الفرقان: ٥٣].

يقول الشيخ النابلسي: «إن بين البحرين برزخًا وحجرًا محجورًا، هذا الماء العذب

(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مناهج جامعة المدينة العالمية، ١/ ٣٩٣.

يسير داخل الماء المالح، ومع ذلك لا يختلطان، ولا يتمازجان، لأن: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، فهناك بين الماء العذب، والماء المالح حجرٌ محجورٌ، والحجر المحجور يعني: أن معظم أسماك المياه العذبة لا تدخل في المياه المالحة، وأسماك المياه المالحة لا تدخل في المياه العذبة، ففي الحجر المحجور حجرٌ على هذه الأسماك من أن تنتقل إلى الماء المالح، وحجرٌ على تلك الأسماك أن تنتقل إلى الماء العذب»[١].

ثالثًا: البحر المسجور:

من أكثر الآيات الباهرة في البحار والمحيطات: ما جاء به القرآن الكريم في مطلع سورة الطور في وصف البحر بأنه مسجورٌ، قال تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦].

يقسم الله تبارك وتعالى بهذا البحر المسجور، وهو تعالى غنيٌّ عن القسم لعباده، ولكنه يلفت نظرهم إلى عظمة المقسم به، فإنه تعالى لا يقسم إلا بعظيم، والمسجور في اللغة: هو الذي أوقد عليه حتى أصبح حارًا، والماء يتناقض مع النار؛ لأن وجود أحدهما ينقض وجود الآخر، حيث إننا نطفيء النار بالماء، فكيف يكون البحر مسجورًا؟ بعضهم قال: ألا تتألف ذرة الماء من الأوكسجين والهيدروجين؟ والأوكسجين غازٌ مشتعلٌ، والهيدروجين غازٌ يعين على الاشتعال، فلو أن الله فك هذه العلاقة الباردة بينهما لأصبح البحر كتلةً من اللهب، هذا معنًى، بيد أن عالمًا معاصرًا قال: «ثبت أن في قاع المحيطات براكين تقذف باللهب من الصدوع»، وهذه آيةٌ من آيات الله في خلقه، حيث إنه لولا هذه النار لما استطاعت الكائنات الحية في قاع المحيط أن تعيش في هذه الظلمة الحالكة، والعلماء في أواخر الستينيات من القرن العشرين، أي بعد أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام من نزول هذا القرآن يقررون أن جميع المحيطات، وعديدًا من البحار قيعانها مسجورةٌ بالنيران، وهي الحقيقة التي ذكرها القرآن قبل ألفٍ وأربعمئة عام، وسماها: البحر المسجور[٢].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأنهار، الجبال، الماء

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، ٢/ ٩٦ بتصرف.

(٢) المصدر السابق.



البخس

عناصر الموضوع

مفهوم البخس

أولًا: التعريف اللغوي:

يدور معنى البخس في اللغة حول مطلق النقص، سواء كان النقص على سبيل الظلم، أو بغير ظلم.

فمن الأول: قولهم في المثل: تحسبها حمقاء وهي باخس، ويقال: باخسة[(١)].

ومن الثاني: قول الشاعر[(٢)]:

قالت سليمى اشتر لنا سويقًا وهات بر البخس أو دقيقًا

ومعنى «بر البخس» في البيت هو الذي لم يسق بماء عِدٍ، إنما سقاه ماء السماء، ووجه إطلاق البخس عليه أنه لم ينل من الماء حظًا كافيًا.

إلا أنه اشتهر عرفًا في المعنى الأول، وهو النقص على سبيل الظلم.

وللبخس معان أخرى غير النقص، فيطلق على الظلم، والتغابن، والمكس، وعلى الأرض تنبت من غير سقي، والزرع لم يسق بماء عِدٍ، ذلك حاصل ما ذكره أهل اللغة[(٣)].

ثانيًا: التعريف الاصطلاحي:

البخس في الاصطلاح هو: نقص حقوق الناس ظلمًا، قال الراغب الأصفهاني: «البخس: نقص الشيء على سبيل الظلم»[(٤)].

وعرفه الطاهر ابن عاشور بأنه: إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه[(٥)]. وهو قريب مما قبله.

والعلاقة بين معنى البخس في الاصطلاح ومعناه في اللغة واضحة، فهو في الاصطلاح أخص منه في اللغة.

---

(١) انظر: مجمع الأمثال، الميداني ١/ ١٢٤-١٢٣.

(٢) البيت لرجل من كندة، يقال له: العذافر. النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص١٧٠، ط: دار الشروق، الأولى، ١٤٠١ه، ١٩٨١م. وفي لسان العرب ٦/ ٢٥: يقال له: العذافة.

(٣) الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٠٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٥، المغرب في ترتيب المعرب، المطرزي ١/ ٥٩، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٥-٢٤، تاج العروس، الزبيدي ١٥/ ٤٣٧- ٤٤٠.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨، وانظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٧٩.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٤٢.



البخس في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بخس) في القرآن الكريم (٧) مرات(١).

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]
المصدر	٢	﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]

وجاء البخس في القرآن على معناه اللغوي، وهو: المكس ونقص الشيء على سبيل الظلم(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١١٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الباء ص٣١٢.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٣٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي،٢/ ٢٢٨، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٦٢، ١٦٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ النقص:

النقص لغة:

خلاف الزيادة(١).

النقص اصطلاحًا:

عرفه الراغب بأنه الخسران في الحظ(٢).

وقال ابن القطاع: النقص في الشيء: ذهاب شيء منه بعد تمامه(٣)، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقوله جل شأنه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤].

الصلة بين النقص والبخس:

ويفرق بين النقص والبخس من وجهين:

الأول: أن النقص يكون ظاهرًا وخفيًا، بخلاف البخس.

الثاني: أن النقص يكون بظلم وبغيره، بخلاف البخس. فالعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص مطلق.

٢ التطفيف:

التطفيف لغة:

من الطفيف، وهو الشيء النزر القليل، وتطفيف المكيال والميزان، أي: نقصه.

قال بعض أهل العلم: إنما سمي بذلك، لأن الذي ينقصه منه يكون طفيفًا(٤).

التطفيف اصطلاحًا:

تقليل نصيب المكيل له في إيفائه واستيفائه(٥). وعرفه الجوهري بأنه: نقص المكيال،

(١) تاج العروس ١٨/ ١٨٧.
(٢) المفردات ص٦٥٢.
(٣) تاج العروس ١٨/ ١٨٧.
(٤) مقاييس اللغة ٣/ ٤٠٥.
(٥) المفردات ص٣٩٧.



وهو أن لا تملاه إلى أصباره[1]، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ - ٣].

الصلة بين التطفيف والبخس:

التطفيف أخص في الاستعمال من البخس من وجهين:

الأول: التطفيف خاص بنقص المكيال والميزان، والبخس عام في كل حق للإنسان، يقول رشيد رضا: «البخس أعم من نقص المكيل والموزون، فإنه يشمل غيرهما من المبيعات كالمواشي والمعدودات، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل»[2].

الثاني: أن التطفيف يكون بالشيء النزر اليسير، والبخس يكون بالقليل والكثير، وبالخسيس والنفيس.

وذهب الشيخ محمد أبو زهرة إلى أنهما متباينان، فخص التطفيف بالأموال المثلية، والبخس بالأموال القيمية[3].

٣ الغبن:

الغبن لغة:

النقص والخدعة، يقال: غبنه في البيع غبنًا بالسكون، وهو الأكثر، وغبنًا بالفتح،أي: غلبه ونقصه، وغبن رأيه غبنًا بالفتح أي: ضعف[4].

الغبن اصطلاحًا:

عرفه الراغب بأنه: أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء[5].

وعرفه تقي الدين النبهاني بأنه: بيع الشيء بأكثر مما يساوي، أو بأقل مما يساوي[6].

الصلة بين الغبن والبخس:

البخس نقص الشيء على سبيل الظلم، فإن كان على سبيل الخدعة والخفية فهو الغبن.

---

(١) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٣٩٥.
(٢) تفسير المنار ٨/٤٦٨-٤٦٩.
(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٤٠٣.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ص١٦٨، تاج العروس ٣٥/ ٤٦٩.
(٥) المفردات ص ٤٦٣.
(٦) النظام الاقتصادي في الإسلام، النبهاني ص ١٩٣.

٤ القسط:

القسط لغة:

القسط بالكسر: العدل، يقال أقسط يقسط؛ فهو مقسطٌ: إذا عدل، وقسط يقسط فهو قاسطٌ: إذا جار، والقسط أيضًا: مكيال، وهو نصف صاع[(١)].

القسط اصطلاحًا:

«القسط بالكسر، النصيب بالعدل»[(٢)].

الصلة بين القسط والبخس:

والعلاقة بين القسط -بفتح القاف- والبخس علاقة عموم وخصوص مطلق؛ فإن كلاهما عدول عن الحق، لكن القسط عام في كل عدول عن الحق، لا سيما في العقيدة، والبخس متعلق بحقوق الناس.

والعلاقة بين القسط -بكسر القاف- والبخس علاقة تقابل.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٦٢٦؛ الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٢.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، ١/ ٢٧١.
وانظر: الكليات، الكفوي ١/ ٧٣٣.



أساليب القرآن في ذم البخس

لا تستقيم الحياة الاقتصادية إلا بالمعاوضة القائمة على العدل، ومن ثم حرم الله تعالى كل ما يؤدي إلى اختلال ذلك النظام من الربا، والميسر، والغصب، والسرقة، والغش، والتدليس، والاحتكار، فتلك معاملات محرمة، إما لأنها لم تقم على مبدأ المعاوضة كالسرقة والغصب، أو لأنها تقوم على المعاوضة المبنية على الظلم كالربا والغش والتدليس والبخس.

وتحريم هذه الأنواع يأتي في ضوء تنظيم الشريعة الإسلامية لكيفية حيازة الأموال، وهو أحد دعامتي تنظيم الإسلام للحياة الاقتصادية، والدعامة الثانية تتمثل في تنظيم مصارفها، وهاتان الدعامتان أشار إليهما النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: **(لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)**[(١)].

فالبخس محرم لكونه ظلمًا وتعديًا على حق الغير، وقد سلك القرآن الكريم في ذمه والتنفير عنه كل مسلك، فقد نهى عنه صراحة تارة، وضمنًا أخرى، وعلل النهي عنه بالوعيد الشديد، ورتب عليه فساد الأرض، وأمر بالتوبة عنه، وأخيرًا تنزه الله عز وجل عنه في الدنيا والآخرة. والآن نشرع في تفصيل تلك المسالك منتظمة فيما يلي:

أولًا: تنزيه الله تعالى عنه:

صرح القرآن الكريم بتنزيه الله تعالى عن البخس في الدنيا والآخرة، وذلك من آكد الأساليب في ذم البخس والتنفير عنه، ألا ترى أن الله -جل شأنه- لما حرم الظلم على عباده أكد ذلك التحريم ببيان تنزهه تعالى عنه، فقال في الحديث القدسي: **(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا)**[(٢)].

وقد صرح القرآن الكريم بتنزيه الله تعالى عن البخس في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥، ١٦].

والمعنى -كما قال ابن عطية-: «من كان يريد بأعماله الدنيا فقط -إذ لا يعتقد آخرة-

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، رقم ٢٤١٧، ٤/ ٦١٢، عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.
وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧، ٤/ ١٩٩٤، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

فإن الله يجازيه على حسن أعماله في الدنيا بالنعم والحواس وغير ذلك، فمنهم مضيق عليه ومنهم موسع له، ثم حكم عليهم بأنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إلا النار، ولا تكون لهم حال سواها»[(١)].

وهذا التوجيه مبني على أنها نزلت في عموم الكفار، وهو ما اقتضاه سياق الآيات وظاهرها.

وقيل: إن الآية نزلت في المرائين، وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة[(٢)].

والمعنى: أن من قصد الدنيا بعمله من صلاة وزكاة وغيرها من الأعمال الصالحة فإن الله يجازيه عليها بالنعم في الدنيا، ولا يحق لهم في الآخرة إلا النار.

وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، وهو مروي عن أنس رضي الله عنه والحسن[(٣)].

ولا يبعد هذا القول عن الأول.

والفرق بين الرأيين السابقين: أن ظاهر الآية الكريمة يقضي بخلود من نزلت فيه في النار، فعلى الرأي الأول لا إشكال فيها. وعلى الثاني فهو مشكل لإيمانهم، فقد ثبت -عندنا نحن أهل السنة والجماعة- بالدليل القطعي أن عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار، فتؤول ظاهرها بأن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ بمعنى: ليس يجب لهم أو يحق لهم إلا النار[(٤)]، وذلك لا ينفي أن يتفضل الله عليهم بالخروج من النار وإدخالهم الجنة بإيمانهم.

وأيًا من نزلت في شأنه الآية الكريمة فإنها صريحة الدلالة على أن الله تعالى لا يبخس أحدًا أجره، ولو كان كافرًا أو عاصيًا، وذلك من كمال عدله جل شأنه، فالبخس صفة ذم، تنزه الحق تعالى عنه. يقول محمد القوجوي: «سواء نزلت في المؤمنين... أو المنافقين.... أو في الكفار يكون معناها: من كان يريد بما عمله من أعمال البر والإحسان التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها من ثناء الخلق عليه في الدنيا ونحو ذلك، فإن جزاء عمله من أعمال البر والإحسان يصل إليه في الدنيا تامًا كاملًا»[(٥)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن: ١٣].

والآية الكريمة إخبار عن قول الجن إذ استمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: أنا لما سمعنا الهدى -وهو القرآن الكريم- سارعنا إلى التصديق

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٥٦.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٦٣- ٢٦٤.
(٣) أخرجه الطبري في تفسير ١٥/ ٢٦٥، وابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠١٠.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٥٦.
(٥) حاشية شيخ زاده، القوجوي ٤/ ٦٢٩، بتصرف.

به والإذعان له، فمن يؤمن من الجن والإنس بربه فلا يخاف أن يبخس من حسناته شيئًا، ولا أن يحمل عليه من سيئات غيره.

والمقصود بالآية الكريمة إظهار ثقتهم المطلقة في عدالة الله تعالى[1]، فلا يبخس الله أحدًا حقه، ولا يرهقه بما لم تقترف يداه؛ إذ البخس والرهق يتنافيان مع كمال عدل الله تعالى.

وقد دلت الآية الكريمة على ثقة المؤمن بكمال عدل الله تعالى بأبلغ الأساليب، حيث عدل عن التعبير بالجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية في قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾، قال الزمخشري: «فإن قلت: أي فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبرًا له ووجوب إدخال الفاء، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال: لا يخف؟

قلت: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك، فكأنه قيل: فهو لا يخاف، فكان دالًا على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه هو المختص بذلك دون غيره»[2].

ثانيًا: النهي عنه:

نهى الله تعالى عن البخس في القرآن الكريم، والنهي عن الشيء -بصورة عامة- يستلزم أمرين:

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٥/ ١٣٨.

(٢) الكشاف ٦/ ٢٢٨.

الأول: كونه حرامًا؛ إذ النهي يقتضي التحريم ما لم يرد دليلٌ يصرفه عن التحريم إلى غيره من الكراهة أو الدعاء أو الالتماس أو التحذير أو اليأس أو تحقير شأن المنهي عنه[3].

الثاني: كونه قبيحًا، فقد عرفنا أن النهي عن الشيء يعني قبحه شرعًا، كما أن الأمر بالشيء يعني حسنه شرعًا، إذ العقول السليمة تدرك حسن ما أمر به الله -جلت حكمته- وقبح ما نهى عنه.

وقد جاء النهي الصريح عن البخس في أربعة مواضع، واحدة منهن وردت في سياق آية المداينة، وثلاثة في سياق قصة نبي الله شعيب عليه السلام.

أولًا: ما ورد في سياق آية المداينة، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالنهي عن البخس في قوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ واردٌ في سياق الأمر بتوثيق الدين بالكتابة حفظًا للحقوق، وحسمًا للنزاع.

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي ٢/ ٤٢٨.

فقد أمر الله تعالى المتداينين بكتابة دينهما -والأمر للندب عند جمهور العلماء، وقيل: للوجوب- وأن لا يكون الكاتب أحد المتعاقدين ضمانًا للحيادية وعدم الانحياز، وأن يكون ذا خبرة بشروط العقود وتوثيقها، وهو اللازم من اشتراط العدالة فيه في قوله: ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾؛ إذ الكاتب الجاهل قد يترك بعض الشروط أو يزيد فيها أو يكتب أجلًا باطلًا في الشرع أو نحو ذلك[1].

وقد أكد اشتراط علمه بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

وأن يتولى المدين الإملال[2] على الكاتب بما اتفقا عليه؛ ليكون إقراره أثبت وأوثق.

وأن لا ينقص منه شيئًا، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾، وذلك بأن لا يسوغ عبارات محتملة أو يضع شروطًا أو غير ذلك من وجوه الاحتيال التي من شأنها الإضرار بصاحب الدين، هذا التوجيه مبني على أن مرجع الضمير المستكن في ﴿وَلْيَتَّقِ﴾ و﴿يَبْخَسْ﴾ يعود إلى ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، وهو الراجح؛ صناعةً لكونه أقرب مذكور، ومعنىً لكونه هو من تنازعه نفسه بيخس صاحب الحق حقه.

ونقل الآلوسي جواز رجوعه إلى الكاتب، وضعفه بأن الكاتب يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص، فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما[3].

وقد اقترن هذا النهي بالأمر بالتقوى، فقال جل شأنه: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾، ولهذا الاقتران دلالات عدة، منها:

- **ربط الأحكام الشرعية بالوازع الديني.**

وذلك لأن الوازع النفسي للتمسك بها أقوى وأعم من الوازع الخارجي، ومن ثم كثر اقتران الأوامر والنواهي بالتقوى، كما في قوله جل شأنه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١].

ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم.

- **النهي ضمنًا عن البخس خاصة، وعن سائر ما يؤدي إلى الخصومة والنزاع**

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٣/ ٥٥٥.

(٢) الإملال والإملاء واحد، إلا أن الأولى لغة الحجاز وبني أسد، والثانية لغة بني تميم وقيس، وقد ورد القرآن الكريم بهما، فالأولى كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، والثانية كما في قوله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ [الفرقان: ٥].
انظر: المصباح المنير ٢/ ٥٨٠.

(٣) روح المعاني ٣/ ٥٦.

بين المتداينين عامة.

فمعنى قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: عليه عند الإملاء أن يراقب الله ربه جل جلاله فلا يملي بما يضر بصاحب الدين، وقد جمع بين لفظي الألوهية والربوبية ترهيبًا وترغيبًا، فلفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ له من الدلالة على معاني الترهيب ما يردع عن اقتراف الذنب، كبيرًا كان الذنب أو صغيرًا، ولفظ ﴿رَبَّهُ﴾ له من الدلالة على معاني الترغيب ما يحمل النفس على الالتزام بما أمر الله به وبما نهى عنه.

قال العلامة أبو زهرة: «وإذا كانت تبعة الإملاء قد وضعت في عنق من عليه الحق، فإن عليه عند الإملاء واجبين: تقوى الله، وعدم البخس؛... وقد وثق سبحانه الأمر بالتقوى بأن جعل التقوى من الله، وهو رب كل شيء ورب من عليه الحق، أي: عليه عند الإملاء أن يراقب الله جل جلاله الواحد القهار، الغالب على كل شيء، المسيطر على كل شيء، الذي يغلب ولا يغلب، فلا يتلاعب بالعبارات حتى لا يذهب بحق صاحب الحق، ثم ليعلم أن الذي عليه أن يتقيه هو ربه الذي ذرأه ورباه ونماه، ووهب له المواهب التي توجب الشكر، ولا تسوغ التلاعب بالحقوق»[(١)].

❁ تأكيد النهي عن البخس وتوثيقه؛ لما يترتب عليه من أضرارٍ خطيرة.

قال أبو السعود: «وإنما شدد في تكليف المملي حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس؛ لما فيه من الدواعي إلى المنهي عنه؛ فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما في ذمته بما أمكن»[(٢)].

ثانيًا: ما ورد في قصة نبي الله شعيب عليه السلام.

بعث الله تعالى نبيه شعيبًا عليه السلام إلى مدين -وهي اسم قبيلة تنسب إلى مدين ابن خليل الله إبراهيم عليه السلام - وأصحاب الأيكة، كلاهما سكن شمال الحجاز، وكانوا عربًا مستعربة، عبدوا غير الله، وكانوا في رغد من العيش، ومع ذلك نقصوا الكيل والميزان، وبخسوا الناس أشياءهم، وسعوا في الأرض فسادًا، فأمرهم نبي الله شعيب عليه السلام بعبادة الله وحده، وترك ما هم عليه من صور الظلم والفساد، ولنقف مع الآيات التي ورد فيها النهي عن البخس إجمالًا:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢/ ١٠٦٩.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٧٠.

﴿فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ۝٨٤ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

وقال سبحانه: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

فالآيات السابقة اشتملت على النهي عن البخس بأبلغ الأساليب وأدقها، وإن اختلفت طريقة العرض فيما بينها على حسب اختلاف موضوع السورة وسياقها، ولنقصر الحديث هنا على ما يتعلق بالبخس، وأوجز القول عنه فيما يلي:

أولًا: أن النهي عن البخس جاء صريحًا تارة، حيث قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾، وضمنًا تارة أخرى، حيث أمرهم -في المواضع الثلاثة- بإيفاء الكيل والوزن والعدل فيهما، ونهاهم عن نقصانهما، وكل ذلك يتضمن النهي عن البخس.

فإن قيل: هل للنهي عن البخس بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان والعدل فيهما فائدة؟

فالجواب: نعم، له فائدة من وجهين:

الأول: أنه أفاد التأكيد، فإن القوم كانوا مصرين على بخس الناس أشياءهم، فكرر النهي عنه -تارة صريحًا وأخرى ضمنًا- والتكرار يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام[1].

قال أبو السعود: «وقد صرح بالنهي عن البخس بعد ما علم ذلك في ضمن النهي عن نقص المعيار، والأمر بإيفائه اهتمامًا بشأنه وترغيبًا في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها»[2].

الثاني: أن النهي عن بخس الناس أشياءهم أعم من الأمر بإيفاء الكيل والميزان والعدل فيهما، قال الفخر الرازي: «لما نهى قومه من البخس في الكيل والميزان، منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة وأخذ الرشوة وقطع الطريق وانتزاع الأموال بطريق الحيل»[3].

كذلك النهي عن الفساد في الأرض أعم من النهي عن البخس؛ بل إن البخس يؤدي إلى المنازعة والخصومة وسفك الدماء،

(١) مفاتيح الغيب ١٤/ ١٨١.
(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٧٩.
(٣) مفاتيح الغيب ١٤/ ١٨١.

فالجمع بينهما إنما هو جمعٌ بين النهي عن السبب ومسببه معًا.

قال الطاهر ابن عاشور: «وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرج، فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد فاش فيهم وهو التطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال الناس، ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض كله. وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال»[(١)].

ثانيًا: أن النهي عن البخس جاء معللًا:

ففي سورة الأعراف جاء التعليل بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعود على جملة ما أمرهم به ونهاهم عنه، أي: إنما طلبت منكم ما طلبته؛ لأن ذلكم خير لكم، والمراد بالخيرية ما يشمل خيري الدنيا والآخرة بشرط الإيمان، فإن ذلك يوجب هناء العيش واستقرار الأمن وصفاء الود بين الأمة، وزوال الإحن المفضية إلى الخصومات والمقاتلات، فإذا تم ذلك كثرت الأمة وعزت، وهابها أعداؤها، وحسنت أحدوثتها، وكثر مالها بسبب رغبة الناس في التجارة والزراعة لأمن صاحب المال من ابتزاز ماله.

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٣٨.

وفيه خير الآخرة؛ لأن ذلك إن فعلوه امتثالًا لأمر الله تعالى بواسطة رسوله أكسبهم رضى الله، فنجوا من العذاب، وسكنوا دار الثواب، فالتنكير في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ للتعظيم والكمال؛ لأنه جامع خيري الدنيا والآخرة[(٢)].

ومن ذهب من المفسرين إلى أن المراد بالخيرية ما يعود عليهم من نفع دنيوي[(٣)]، فقوله مرجوح؛ لأن فيه حملًا للألفاظ على غير محملها الشرعي، حيث حمل الإيمان في قوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على مجرد التصديق، وقد تقرر أنه إذا تردد حمل اللفظ بين معناه الشرعي ومعناه اللغوي، فإن حمله على المعنى الشرعي هو الأولى، قال الطاهر ابن عاشور: «والمؤمنون لقب للمتصفين بالإيمان بالله وحده، كما هو مصطلح الشرائع، وحمل المؤمنين على المصدقين لقوله ونصحه وأمانته حملٌ على ما يأباه السياق»[(٤)].

كما أن التعظيم المستفاد من تنكير ﴿خَيْرٌ﴾ ينصرف إلى ما يتعلق بأمور الآخرة، وإن كانوا -مع كفرهم- لا يعدمون الخير بترك البخس والتطفيف.

وفي سورة هود جاء النهي عن البخس معللًا بعلتين:

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٢٤٥.
(٣) روح المعاني ٨/ ١٧٧
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٢٤٥.

الأولى: قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾، والمعنى: إني أراكم في سعة من العيش، تستغنون به عن البخس، وهو تعليل لا مفهوم له؛ لأنه تقرير للأمر الواقع، والبخس محرم سواء كانوا في عوز وفاقة أو في غنى؛ إذ لم يقيد النهي عنه بشيء.

الثانية: قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، والمراد بالعذاب هنا هو عذاب يوم القيامة، أو عذاب الاستئصال الذي حل بهم، ومعنى ﴿يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾: لا يشذ عنه أحد منهم، أو يوم مهلك، نحو قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢].

ووصف الإحاطة لليوم لا للعذاب.

قال الزمخشري: «فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ، أم وصف اليوم بها؟ قلت: بل وصف اليوم بها؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه»[(١)].

وتعليل البخس بهذا الوعيد دليل على أنه من الكبائر[(٢)]؛ وذلك بناءً على ما ذهب إليه بعض العلماء من أن الكبيرة هي: ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيدٌ شديدٌ بنص كتاب أو سنة[(٣)].

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٣.

(٢) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ١/ ٤٠٨.

(٣) الزواجر ١/ ٨.

فإذا كان البخس من الكبائر، فإن المبادرة إلى التوبة عنه آكد وألزم؛ ولذلك أمر شعيب عليه السلام قومه التوبة، فقال لهم -كما حكى الله عنه-: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود: ٩٠].

والمعنى: استغفروا ربكم من عبادة الأوثان، ثم توبوا إليه عن البخس والنقصان[(٤)].

كما أن الإصرار عليه سبب للهلاك، فقد أهلك الله مدين بأنهم بخسوا الناس أشياءهم، وإليهم أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لأصحاب المكيال والميزان: (**إنكم قد وليتم أمرين هلكت فيه أممٌ سالفةٌ قبلكم**)[(٥)].

وروي هذا الحديث موقوفًا عن ابن

(٤) مفاتيح الغيب ١٥/ ٤٩.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البيوع، باب ما جاء في المكيال والميزان، رقم ١٢١٧، ٣/ ٥١٣، والحاكم في مستدرك، كتاب البيوع، رقم ٢٢٣٢، ٢/ ٣٢، عن ابن عباس.
قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث حسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث، وقد روي هذا بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».
وخالفه الذهبي في التلخيص، حيث قال: «حسين بن قيس ضعفوه».
وأخرجه مرفوعًا وموقوفًا البيهقي في شعب الإيمان، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، رقم ٤٩٠٤، ٧/ ٢٢١.

عباس رضي الله عنهما، ووقفه أصح من رفعه.

والتعليلان السابقان واردان عقب النهي عن نقصان الكيل والميزان، وهو أخص من البخس، فتعليل النهي عنه تعليل للنهي عن البخس أيضًا.

كما أن قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فيه حثٌّ للانتهاء عن البخس، والمعنى: ما يبقى -بعد التنزه عما هو حرام- لكم من رزق حلال ومن ذكر حسن ومن أمن وبركة خير لكم من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان بالله.

أما سورة الشعراء فقد خلت عن تعليل النهي عن البخس؛ وذلك لأن الجو العام للسورة يمتاز بالنصح والإرشاد، والدعوة والاتعاظ والاعتبار، ألا ترى أنه تكرر فيها خمس مراتٍ قول الله تعالى -على لسان كل نبي خلا كليمه موسى وخليله إبراهيم-: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧﴾ [الشعراء: ١٠٦- ١٠٧].

وتكرر ثماني مراتٍ قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾ [الشعراء: ٦٧-٦٨].

فلا يتلاءم مع هذا الجو تعليل النهي عن البخس.

وذلك بخلاف سورة هود، فإن الجو العام لها يمتاز بالتهديد والتقريع، فناسب ذلك الكشف عن حكمة ما اشتملت عليه من تشريعات وتعليلها إقامةً للحجة عليهم قبل نزول العذاب بهم.

أما سورة الأعراف فالجو العام لها هو الدعوة إلى عمارة الأرض التي قوامها اتباع ما أنزل الله، فناسب ذلك بيان الحكمة في النهي عن البخس بما يتلاءم وهذا الجو العام لها، حيث قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

ثالثًا: أنه اقترن ذكر البخس بالفساد في الأرض متقدمًا عليه في المواضع الثلاثة، وفي ذلك إشارة إلى أن البخس سبب للفساد في الأرض، فإن بخس الناس حقوقهم مفضٍ إلى وقوع المنازاعات والخصومات بينهم وسفك الدماء.

فإن قلت: فما الأداة الدالة على السببية في الآيات؟

فالجواب: أن تكرار الاقتران بينهما، وتقدم البخس على الفساد في الذكر مشعرٌ بكونه سببًا فيه.

ومما يؤكد تلك السببية: قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما بخس قومٌ المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة،**

وجور السلطان عليهم)[1].

فأداة السببية هنا هي ترتب الحكم -وهو الأخذ بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان- على الوصف، وهو البخس. وقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا بخس الميزان حبس القطر»[2]، فأداة السببية هي أداة الشرط: «إذا»[3].

ثالثًا: الأمر بضده:

تقرر فيما سبق أن القرآن الكريم قد سلك في ذم البخس كل مسلك، ومن تلك المسالك: الأمر بما هو ضده، حيث أمر الله تعالى بإقامة العدل بين الناس بوجه عام، وإيفاء الكيل والميزان بوجه خاص. وكلا الأمرين نهيٌ عن البخس، إذ الأمر بالشيء نهي عن ضده، سواء كان الضد واحدًا كما إذا أمره بالإيمان فإنه يكون نهيًا عن الكفر، وإذا أمره بالحركة فإنه يكون نهيًا عن السكون، أو كان الضد متعددًا، كما إذا أمره بالقيام فإنه يكون نهيًا عن القعود والاضطجاع والسجود وغير ذلك، وهو ما ذهب إليه الجمهور من أهل الأصول، من الحنفية والشافعية والمحدثين، عزاه إليهم الشوكاني[4].

١ . الأمر بإيفاء الكيل والوزن.

فقد أمر الله تعالى بإيفاء الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أمرٌ بالعدل في الأخذ والعطاء، بأن يوفي ذو الحق حقه من غير نقصان، وأن يأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب زيادة، فالأمر بالإيفاء من الجانبين[5]، وهو يتضمن النهي عن النقص فيهما، بأي وجه من الوجوه، وهو ما توعد الله عليه بالويل في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③﴾ [المطففين: ١ - ٣].

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بيان أن من أخطأ في أداء ما عليه من حق بعد استفراغ جهده فلا حرج عليه، فما لا يمكن الاحتراز عنه ولا يدخل تحت قدرة البشر

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سنن، كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢، والبيهقي في شعب الإيمان، كتاب الزكاة، باب ، رقم ٣٠٤٣، ٥/ ٢٣ ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
قال الألباني: «صحيح لغيره».
انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٥٢١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، رقم ٨٥٣٦، ٤/ ٥٤٩.
وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».
ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) تراجع تلك الأدوات في: الأسباب والمسببات في القرآن الكريم ص٤٥- ١٧٤.

(٤) إرشاد الفحول، الشوكاني ١/ ٤٦٩.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٤٧.

فمعفو عنه[1]، فإن الله لم يكلف عباده ما لا طاقة لهم به.

ونحو الآية السابقة قوله جل شأنه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: ٣٥].

والقسطاس (بكسر القاف وضمها[2]) هو آلة ميزان يعرف بالقبان، وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: إيفاء الكيل والميزان خير عند الله وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة، ولا يخفى ما في الأمر بإيفاء الكيل والميزان من النهي عن البخس.

٢. الأمر بالعدل.

فقد أمر الله بإقامة العدل في أكثر من آية، منها قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والمراد بالميزان: العدل، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة[3]، ومعنى ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، أي: لتعاملوا بينهم بالنصفة والعدل، وهو نهي عن الجور والظلم، وقد عرفت أن البخس ظلمٌ، فتضمنت الآية النهي عنه.

وقد صرح الحق بالجمع بين الأمر بالعدل والنهي عن البخس في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٩].

تأكيدًا للأمر بالعدل وللنهي عن البخس، قال السيوطي: «فيه وجوب العدل في الوزن، وتحريم البخس فيه»[4].

والخلاصة أن الله أمر بما يتنافى مع البخس ليتضمن النهي عن البخس؛ تأكيد للنهي عنه.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٦، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٩٩.

(٢) قرئ بهما في السبعة المتواترة، حيث قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبى بكر بضم القاف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بكسر القاف.
انظر: السبعة، ابن مجاهد ص٣٨٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٧.

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص٢٥٣.

صور البخس

لم يرد في مصنفات أهل العلم قديمًا أو حديثًا تقسيم له، وذلك -فيما يبدو لي- لأن حكمه واحد، وهو التحريم. وقبل أن أتطرق إلى ذكر أنواع البخس أنبه على أمرين:

الأول: النهي عن البخس جاء بصورة مجملة، ليشمل كل ما يستجد من صور البخس على تعاقب الأزمان، سواء ما عرف منها وقت التنزيل مما ورد في القرآن الكريم كالتطفيف والغلول، أو في السنة النبوية كالنجش والاحتكار، أو ما عرف بعد كالحقوق المدنية.

الثاني: أكثر الآيات التي ورد فيها النهي عن البخس تدور حول المعاملات المالية، إلا أن التعبير عنها جاء بصيغة العموم، كما أسلفنا من قبل.

وإذا كان البخس عامًا في جميع حقوق الناس، فمن الأجدر تصنيفه تقريبًا للأذهان، وتوضيحًا للأفهام، وذلك ينتظم فيما يلي:

أولًا: البخس في الحقوق:

المراد بالحقوق هي: ما ثبت للإنسان شرعًا من مما لا تتحقق إنسانيته إلا بها[1]، فإن كانت هذا ما ثبت له ماديًا نحو المال فهي حقوق مادية، وإن كان معنويًا كالحرية والأمن فهي حقوق معنوية.

١ . الحقوق المادية.

إن انتقاص شيء من تلك الحقوق بأي صورة من الصور حرام؛ لأن فيها إهدارًا لحقوق الإنسان وإضرارًا به، ويمكن تعداد تلك الصور فيما يلي:

١ . التطفيف.

أحد أساليب بخس الناس أموالهم وأكثرها شيوعيًا قديمًا وحديثًا، لا سيما في البيع والشراء، حيث يكون بالازدياد إن اقتضى من الناس، أو بالنقصان إن قضاهم، وقد توعد الله تعالى المطففين بالويل، فقال جل شأنه: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١-٣].

٢ . الغلول.

لم يكن البخس قاصرًا على الاحتيال لأخذ أموال الناس فرادى، وإنما يشمل الاحتيال لأخذ شيء من أموال الأمة، وذلك مثل التعدي على أموال الغنائم قبل تقسيمها، وهو ما يسمى بالغلول، وهو- كما عرفه ابن عرفة-: أخذ ما لم يبح الانتفاع به من الغنيمة قبل حوزها[2]. ويلحق به ما يأخذه الولاة والعمال من أموال الدولة بغير حق، كهدية تعطى إليه، أو مال يتقاضاه بدون حق.

فذلك كله خيانة وخديعة لأكل أموال

(١) الأسباب والمسببات في القرآن الكريم ص٥٣٦.

(٢) شرح حدود ابن عرفة، الرصاع ص٢٣٤.

الناس بالباطل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: ١٦١].

فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ تبرئة لساحة النبي صلى الله عليه وسلم من خيانة الأمة بأي صورة من صور الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك[(١)]، ويدخل فيها دخولًا أوليًا ما تقوله البعض يوم بدر من أنه صلى الله عليه وسلم أخذ قطيفة حمراء، فنزلت الآية[(٢)].

وقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وعيد شديد وتهديد أكيد لمن يغل من أموال المسلمين شيئًا، والمعنى: من يغلل شيئًا يأت به حاملًا له على ظهره ورقبته، معذبًا بحمله وثقله، ومرعوبًا بصوته، وموبخًا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد[(٣)].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم صورًا من الغلول محذرًا من الوقوع في شيء منه، فقال صلى الله عليه وسلم: (من استعملناه على عملٍ فرزقناه رزقًا، فما أخذ بعد ذلك فهو غلولٌ)[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره، قال: (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثغاءٌ، على رقبته فرسٌ له حمحمةٌ، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، وعلى رقبته بعيرٌ له رغاءٌ، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، وعلى رقبته صامتٌ، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، أو على رقبته رقاعٌ تخفق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك)[(٥)].

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥١.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحرف والقراءات، باب بدون تسمية، رقم ٣٩٧١، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، رقم ٣٠٠٩، ٥/ ٢٣٠، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٥٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥١.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في أرزاق العمال، رقم ٢٩٤٣، ٣/ ٢٣٨، والحاكم في المستدرك، كتاب الزكاة، رقم ١٤٧٢، ١/ ٥٦٣، عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه.
وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول، رقم ٣٠٧٣، ٣/ ٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، رقم ١٨٣١، ٣/ ١٤٦١، واللفظ للبخاري.

رجلًا من بني أسد، يقال له ابن الأتبية على صدقة، فلما قدم، قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول: هذا لك وهذا لي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى له أم لا، والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيءٍ إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاءٌ، أو بقرةً لها خوارٌ، أو شاةً تيعر - ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه- ألا هل بلغت) ثلاثًا[1].

وعن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أعظم الغلول عند الله عز وجل ذراعٌ من الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض أو في الدار، فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعًا، فإذا اقتطعه طوقه من سبع أرضين إلى يوم القيامة)[2].

٣. الغش.

وهو: إظهار الشيء على خلاف حقيقته[3].

وهو حرام؛ إذ إنه ضرب من الاحتيال والمكر؛ لأكل أموال الناس بالباطل، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا)[4].

ومر صلى الله عليه وسلم على صبرة طعام[5]، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا فقال: (ما هذا يا صاحب الطعام؟) قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني)[6].

وهو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

وللغش ميادين عديدة، وله في كل ميدان صور كثيرة، فيدخل في باب البيع والشراء، وذلك بأن يخلط البائع الجيد بالرديء، ويظهره كله في صورة الجيد، وبأن يكذب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب هدايا العمال، رقم ٧١٧٤، ٤/ ٣٣٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، رقم ١٧١٨٨، ١٣/ ٣١٧، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٢٩٩، رقم ٣٤٦٣.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٧٥: «أخرجه أحمد، والطبراني في الكبير، وإسناده حسن».

(٣) أحكام المال الحرام، عباس الباز ص٦٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، رقم ١٠١، ١/ ٩٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الصبرة: ما جمع من الطعام بلا كيل ووزن، يكون بعضه فوق بعض.
انظر: تاج العروس ١٢/ ٢٧٦.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، رقم ١٠٢، ١/ ٩٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في بيعه بأن يقول: اشتريته بكذا، أي: بأكثر مما اشتراه به، أو يخبر بأن سلعته جلبت من بلد كذا وهو مشهور بجود الصنعة، ولم تجلب منه، ومنه التصرية، وهو: جمع اللبن في ضرع الحيوان، من الغنم أو البقر أو الإبل عند إرادة بيعها حتى يعظم ضرعها، فيظن المشتري أن كثرة لبنها عادة لها مستمرة، فيعلو حينئذٍ ثمنها، ولا يخفى ما فيها أيضًا من إيذاء الحيوان.

ويدخل أيضا في باب التعليم والطب والصناعة وغيرها[1]، ولكل ميدان شياطينه الذين يحتالون فيه لأكل أموال الناس بالباطل.

٤. الاحتكار.

وهو: حبس ما يحتاج إليه الناس من السلع حتى تقل من الأسواق، فيرتفع سعرها.

فهو عام في كل ما يحتاجه الناس من قوت وغيره، وهو ما ذهب إليه المالكية، ومن الفقهاء من خصه بالقوت والثياب، ومن من خصه بالقوت فقط[2]. والأول هو الأرجح، وإن كانت حاجة الناس إلى بعض السلع أكثر من بعض كالقوت.

وهو حرام باتفاق العلماء، وعده ابن حجر الهيتمي من الكبائر، فقال: «عد هذا كبيرة، هو ظاهر ما في هذه الأحاديث -الصحيح بعضها- من الوعيد الشديد؛ كاللعنة وبراءة الله ورسوله منه»[3].

ومن ذهب من الشافعية إلى أنه مكروه فقوله ضعيف، قال محمد بخيت المطيعي: «ومن أصحابنا من قال: يكره ولا يحرم، وليس بشيء»[4].

ووجه تحريمه: أن فيه إضرارًا بالناس، إذ لا تكافؤ بين السلعة وثمنها، وحصولًا على مال الغير من غير طيب نفس منه، وضربًا من الخدعة والاحتيال لأكل أموالهم بالباطل[5].

وقد وردت أحاديث كثيرة -يقوي بعضها بعضًا- في التحذير من الاحتكار، والعمل على زيادة الأسعار وغلاء المعيشة، منها: قوله صلى الله عليه وسلم: (**من احتكر طعامًا أربعين ليلةً، فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله تعالى منه، وأيما أهل عرصةٍ أصبح فيهم امرؤٌ جائعٌ، فقد برئت منهم ذمة الله تعالى**)[6].

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة ٢/ ١١١.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢/ ٩٢.

(٣) الزواجر ١/ ٣٨٩.

(٤) تكملة المجموع شرح المهذب، محمد بخيت المطيعي ١٣/ ٤٤.

(٥) أحكام المال الحرام ص ٥٦.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم ٤٨٧٨، ٤/ ٤٣٧، والحاكم في المستدرك، رقم ٢١٦٥ ، ٢/ ١٤، عن معقل ابن يسار رضي الله عنه.
وصححه أحمد شاكر.

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (من احتكر حكرةً يريد أن يغلي بها على المسلمين، فهو خاطئٌ)[1].

ومنها: ما ورد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاحتكار ما هو؟ قال: (إذا سمع برخصٍ ساءه، وإذا سمع بغلاءٍ فرح به، بئس العبد المحتكر، إذا رخص الله الأسعار حزن، وإذا أغلا فرح)[2].

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (من دخل في شيءٍ من أسعار المسلمين ليغليه عليهم، فإن حقًا على الله أن يقعده بعظمٍ من النار يوم القيامة)[3].

٥. النجش.

وهو مدح السلعة بما ليس فيها، والزيادة في ثمنها، وهو لا يريد شراءها، بل ليغر غيره[4]، فيشتريها الغير بأكثر مما تستحق، وهو ضرب من الاحتيال والخديعة لأكل أموال الناس بالباطل[5]. وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم[6]، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا)[7].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تلقوا الركبان، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضرٌ لبادٍ، ولا تصروا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم ٨٦٠٢، ٨/ ٣٦٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٠٠: «أخرجه أحمد، وفيه أبو معشر، وهو ضعيف، وقد وثق».

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٩٥، رقم ١٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٥١٢- ٥١٣، باب في أن يحب الرجل لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، رقم ١٠٧٠٢.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٠١: «أخرجه الطبراني في الكبير، وفيه سليمان بن سلمة الخبائري، وهو متروك».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٥/ ١٧٦، رقم ٢٠١٩١، عن معقل ابن يسار رضي الله عنه. والطبراني في المعجم الأوسط ٨/ ٢٨٥، رقم ٨٦٥١، وفي المعجم الكبير ٢٠/ ٢٠٩، رقم ٤٧٩.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٠١: «أخرجه أحمد، والطبراني في الكبير، والأوسط... وفيه زيد بن مرة أبو المعلى، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله رجال الصحيح»

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ١٩٣، وطرح التثريب، العراقي وولده ٦/ ٦١.

(٥) طرح التثريب ٦/ ٦٢.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ١٠٠، كتاب البيوع، باب النجش، رقم ٢١٤٢، ومسلم في صحيحه ٣/ ١١٥٦، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، وسومه على سومه، وتحريم النجش، وتحريم التصرية، رقم ١٥١٦، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٠٣، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، رقم ٦٠٦٦، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٩٨٥، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها، رقم ٢٥٦٣، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الغنم، ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحتلبها، إن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعًا من تمرٍ)[١].

٦. تلقي الجلب.

وهو أحد سبل بخس الناس أموالهم، وذلك بأن يجلب إلى السوق سلعة من البوادي وغيرها، فيلقى الجالب أحد فيشتريه منه، فغالب الحال أن يكون الجالب على جهل بسعر مثله في السوق، فيستغل المشتري جهله، فيشتريه بأقل من ثمنه، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه في الحديث السابق: (لا تلقوا الركبان).

قال النووي: «قال العلماء: وسبب التحريم إزالة الضرر عن الجالب وصيانته ممن يخدعه»[٢].

وقال أبو زرعة العراقي: «ومذهب الشافعي أن النهي إنما ورد رفقًا بصاحب السلعة لئلا يبخس في ثمن سلعته»[٣].

٧. المطل في أداء الحق.

المراد بالمطل: تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر، فيحرم على الغني القادر أن يمطل بالدين بعد استحقاقه[٤]، قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقد نهى الله المدين أن يتحايل -إذ يملي على الكاتب- بشيءٍ يتخذه تكأةً في بخس الدائن حقه، وذلك فيشمل -من باب أولى- مماطلته حين يستوجب أداء ما عليه؛ فإن فيه ضررًا بصاحب الدين، وقال صلى الله عليه وسلم: (مطل الغني ظلمٌ)[٥].

٢. الحقوق المعنوية.

انتقاص الإنسان أي حق من الحقوق المعنوية التي خولتها له الشريعة الإسلامية مما لا تتحقق آدميته إلا بها إنما هو بخس، من تلك الحقوق ما يلي:

١. حق الأمن.

إن الأمن -بمفهومه الواسع- هو أهم حق من حقوق الإنسان في الحياة، وهو بمثابة الركن الرئيس في البناء الحضاري، ومن ثم اهتم به الإسلام غاية الاهتمام إذ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ١٠٢، كتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل، والبقر والغنم وكل محفلة، رقم ٢١٥٠، ومسلم في صحيحه ٣/ ١١٥٥، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، وسومه على سومه، وتحريم النجش، وتحريم التصرية، رقم ١٥١٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ١٠/ ١٦٣.

(٣) طرح التثريب ٦/ ٦٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/ ٤٦٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ١٧٥، كتاب الاستقراض، باب مطل الغني ظلم، رقم ٢٤٠٠، ومسلم في صحيحه ٣/ ١١٩٧، كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني، وصحة الحوالة، واستحباب قبولها إذا أحيل على ملي، رقم ١٥٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

جعل سلامة الناس وتأمينهم من كمال الإسلام والإيمان.

دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[١].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن). قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[٢].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم)[٣].

فترويع الإنسان في نفسه أو في عرضه وولده أو في ماله بأي صورة من الصور الترويع والتخويف بخس وتعدٍ وظلم، سواء كان الإنسان مسلمًا أو غير مسلم، فالتعبير بالمسلم -في الأحاديث السابقة- خرج مخرج الغالب.

وكما أن ظاهرها نفي الإسلام عمن روع معصومًا، لكن العلماء حملوه على نفي الكمال لا نفي الماهية[٤].

٢. الحرية.

الحرية هي أهم دعائم تكوين شخصية الإنسان في الإسلام، حيث جعلها مناط المسئولية، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ١٠﴾ [البلد: ١٠].

والمعنى: أنا بينا للإنسان طريق الخير ومآله، وطريق الشر وعاقبته، ليختار هو ما يجني ثماره أو ما يتحمل تبعاته.

فالحرية حقٌّ مصونٌ للإنسان في كافة ميادينها، والتي منها حرية التفكير، وحرية الرأي والتعبير، وحرية التجمع، وحرية الحركة.

وقد ضبطها الإسلام ونظمها تنظيمًا يحقق للإنسان السعادة وللمجتمع الرقي، فلم تكن حريةً مطلقة، يطلق فيها العنان للإنسان ليفعل ما يشاء ويدع ما يشاء؛ إذ لم تعرف هذه الحرية إلا في الوسط الاستبدادي والمجتمع الهمجي.

فالحرية المنضبطة حقٌّ للناس، فإكراههم على أمر انتقاصٌ لهم، وبخسٌ لحقوقهم،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٢٠، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم ١٠، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم في صحيحه ١/ ٦٥، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، رقم ٤١، عن جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ٩٤، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوايقه، رقم ٦٠١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٧، كتاب الإيمان، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم ٢٦٢٧، والنسائي في سننه ٥/ ١٠٨، كتاب الإيمان وشرائعه، صفة المؤمن، رقم ٤٩٩٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) عمدة القاري، العيني ١/ ٢١٨- ٢١٩.

وقد نهى الله تعالى إكراه الناس على أجل الأمور وأنفعها، وهي الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقال جل شأنه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

٣. الحقوق المدنية.

المراد بالحقوق المدنية تلك الحقوق التي كفلها له القانون الوضعي، والتي تتيح له المشاركة في بناء مجتمعه ودولته، نحو حق الترشح لمنصب إداري، وحق الانتخاب، وحق تكافؤ الفرص، فمنعه من تلك الحقوق بخس له.

ثانيًا: البخس في ثواب الأعمال:

تضافرت نصوص الكتاب والسنة على ربط الجزاء بالأعمال في الدنيا والآخرة، فمن عمل خيرًا، وفاه الله أجره، وقد تنزه الحق -جل شأنه- أن يبخس عاملًا أجره في الدنيا أو الآخرة، فمن عمل خيرًا وفاه أجره غير منقوص.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، أي: إن الله لا يبخس عاملًا أجره وثوابه بأقل ما يمكن أن يتخيله عقل من بخس، ولو بمقدار مثقال ذرة؛ فإن ذلك ظلم، والله تعالى منزه عنه، والآية عامة في كل من عمل خيرًا، مؤمنًا كان أو كافرًا.

فأما الكافر فيوفى أجره في الدنيا، ولا نصيب له في الآخرة، وأما المؤمن فيوفى أجره في الدنيا والآخرة، قال ميمون بن مهران: «ليس أحد يعمل حسنة إلا وفي ثوابها، فإن كان مسلمًا مخلصًا وفي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافرًا وفي في الدنيا»[1].

١ . أجر الكافر.

الدليل على أن الكافر يوفى أجره في الدنيا قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥- ١٦].

فمن عمل من الكفار خيرًا -مما لا تشترط فيه النية كالابتكارات العلمية النافعة، ونصرة المظلومين، وإعانة المحتاجين، وإكرام الضيفان، والرفق بالحيوان، وكل ما يسمى اليوم بالأعمال الإنسانية- فإن الله سبحانه وتعالى يعجل لهم في الدنيا ثمرات أعمالهم وافية غير منقوصة، وهو المراد بقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. يقول أبو السعود: «وإنما عبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه... بناء للأمر على ظاهر الحال، ومحافظة على صور الأعمال، ومبالغة في نفي النقص، كأن ذلك نقص لحقوقهم، فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم

(١) ذكره القرطبي في تفسيره ٩/ ١٤.

أصلا»[1].

أما في الآخرة فلا نصيب لهم إلا النار؛ إذ لم تكن أعمالهم مصحوبةً بالإيمان.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى: ٢٠].

ومن السنة: قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الكافر إذا عمل حسنةً أطعم بها طعمةً من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته)[2].

قال القاضي عياض: «والأصل أن الكافر لا يجزى في الآخرة على خير عمله في الدنيا، ولا يكتب له حسنة؛ لأن شرط الثواب والجزاء عدم، وهو الإيمان، لكن أخبر في هذا الحديث أنه من عدل الله أنه قد جازاه بها في الدنيا بما أعطاه ورزقه وأطعمه»[3].

وذهب بعض العلماء إلى أن ما يعمله الكافر من خير يخفف به عنه من عذاب غير الكفر، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «ونحن لا نرى في ذلك خروجًا عن حكم الإسلام، وهو معقول في ذاته يتفق مع عموم النصوص، وإن كنا نميل إلى الأول»[4].

وأجر الكافر في الدنيا يتمثل فيما يغبطه من زيادة في رزقه، وصحة في بدنه، ودفع المكاره عنه، فلم يكن الكفر مانعًا من حصولهم على نتائج سعيهم، فإن الله تعالى أجرى سنته في خلقه بربط المسببات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها شرعًا وقدرًا، فمن أخذ بأسباب الرزق وسع له في رزقه، ومن أخذ بأسباب الصحة عوفي في بدنه، ومن أخذ بأسباب القوة قوي واشتد.

يقول سيد قطب: «إن للجهد في هذه الأرض ثمرته، سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة. فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ويتمتع بها كما يريد»[5].

وذلك منوط بمشيئة الله تعالى وإرادته، لقوله جل شأنه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

فليس كل مؤملٍ ينال، ولا كل مطلوب يدرك.

ولا يخفى ما في هذا العطاء من استدراج لهم وإملاء؛ إذ يغترون بما هم فيه من نعمة فيزدادون عصيانًا وعتوًا، قال تعالى:

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ١٩٣، بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢١٦٢، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، رقم ٢٨٠٨، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ٨/ ٣٤١.

(٤) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٤/ ١٦٨٥.

(٥) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٢.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

٢. أجر المؤمنين.

أما المؤمن فإن الله يجمع له بين خيري الدنيا والآخرة جزاء على ما قدم من عمل يبتغي به وجه الله، والدليل على ذلك: قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنةً، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة)**[١].

يقول النووي: «أما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة، ويجزى بها مع ذلك أيضًا في الدنيا، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة، وقد ورد الشرع به، فيجب اعتقاده»[٢].

فإن قلت: ما الفرق بين جزاء المؤمن وجزاء الكافر على ما قدم كلاهما من خير في الدنيا؟

فالجواب: أن كلا العطائين خاضع لسنة الله الجارية في خلقه من ربط المسببات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، إلا أن ما يناله الكافر من نصيب الدنيا هو نقمة في صورة النعمة؛ لأنه استدراج وإملاء -كما سبق بيانه-، وما يوفاه المؤمن من نصيب الدنيا هو نعمة حقيقية، إذ هي مطيته لطاعة الله.

أما في الآخرة فإنه الله يجزيه على عمله لا ينقص من أجره شيئًا، والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝﴾ [الجن: ١٣].

والمعنى: أن المؤمن يخاف أن ينقص من حسناته، وهو المراد بالبخس، أو يحمل عليه غير سيئاته، وهو المراد بالرهق[٣].

وقوله جل شأنه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝﴾ [طه: ١١٢].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢١٦٢، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، رقم ٢٨٠٨، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٧/ ١٥٠.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٧/ ١٥٠.

أسباب البخس

للبخس أسباب لعلها تتمثل فيما يلي:

١. ضعف الوازع الديني.

المراد بالوازع الديني: ملكة في النفس تحمل على فعل المأمورات واجتناب المنهيات، فكلما كانت تلك الملكة قوية كانت دواعي الامتثال أوفر، ولعل ذلك هو السر في تصدير الأوامر والنواهي بنداء الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، حيث تكرر هذا النداء في القرآن العظيم تسعًا وثمانين مرة، وفي كل مرة يعقبه أمر بفضيلة، أو نهي عن رذيلة، فإن فيه استنهاضًا للهمم، وشحذًا للعزائم، للامتثال لما أمروا به، أو نهوا عنه، وتذكير أخذه الله من عهد أن يؤمنوا به، فضلًا عما فيه من تشريف للمنادى؛ إذ هو نداء بأجل السمات وأشرف الصفات، وهي صفة الإيمان بالله تعالى.

كذلك اقتران الأوامر والنواهي بالتقوى أمرًا وتعليلًا، فمن الأول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وقوله جل شأنه: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن الثاني قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

كذلك ما اشتمل عليه الإلهاب والتهييج - وهو: كل الكلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه، وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله[1] - من تقوية هذا الوازع، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [النور: ٢].

فقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ ذكر على سبيل الإلهاب والتهييج، إذ الإيمان متحقق من المخاطبين.

وكلما ضعفت تلك الملكة، كانت الدواعي إلى المعاصي بوجه عام والبخس بوجه خاص أوفر، ومن باب أولى إذا عدمت تلك الملكة، وحل محلها الشرك بالله.

وإذ تبين أن سبب الوقوع في بخس الناس حقوقهم هو ضعف الوازع الديني، أدركنا سر اقتران النهي عنه بالأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وأدركنا حكمة تعليل الأمر بإيفاء المكيل والميزان والنهي عن البخس والإفساد في

(١) الطراز لأسرار البلاغة، يحيى بن حمزة ٣/ ٩٣.

الأرض بالإيمان بالله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

واقتران النهي عن التطفيف بالإيمان بالبعث في قوله جل وعلا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ - ٦]

٢. الحرص على المال.

كذلك من أسباب البخس الحرص على المال، فإنه يحرك داعي الشهوات في قلب صاحبه بالتنعم في الحلال -ولا حرج فيه-، إلا أنه لا يلبث أن ينسيه ذكر الله، فيقع في براثن المعاصي، ويجمع المال من الحلال والحرام تلبيةً لدواعي شهواته، فيفسد دينه ودنياه، وذلك هو الشح المذموم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩]. فالشح هو: الحرص الشديد الذي يحمل المرء على ارتكاب المحارم. فمن وقي نفسه أن يكون الشح خلقا لها فقد أفلح؛ إذ يسلم من أسباب الذم، ومن وقي من بعضه كان له من الفلاح بمقدار ما وقيه[1].

يقول إسماعيل حقي: «واعلم أن بخس الناس أشياءهم في المكيل والموزون من خساسة النفس ودناءة الهمة وغلبة الحرص ومتابعة الهوى والظلم، وهذه الصفات الذميمة من شيم النفوس، وقد ورد الشرع بتبديل هذه الصفات وتزكية النفس، فان الله تعالى يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها»[2].

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من مغبة الحرص على المال، فقال: **(ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)**[3].

والمعنى: أن حرص المرء على المال والجاه أشد إفسادًا لدينه من ذئبين جائعين أرسلا في غنم غفل عنها راعيها. يقول المباركفورى: «أما المال فإفساده أنه نوع من القدرة يحرك داعية الشهوات ويجر إلى التنعم في المباحات، فيصير التنعم مألوفًا، وربما يشتد أنسه بالمال ويعجز عن كسب الحلال، فيقتحم في الشبهات مع أنها ملهية عن ذكر الله تعالى، وهذه لا ينفك عنها أحد. وأما الجاه فيكفي به إفسادًا أن المال يبذل

(١) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٨، التحرير والتنوير ٢٨/ ٩٥.

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٥٨٨، أبواب الزهد، باب بدون ترجمة، رقم ٢٣٧٦ عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

للجاه ولا يبذل الجاه للمال، وهو الشرك الخفي، فيخوض في المراءاة والمداهنة والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة، فهو أفسد وأفسد»[(١)].

٣. الاستبداد.

الاستبداد هو: حكم أو نظام يستقل بالسلطة فيه فرد أو مجموعة من الأفراد دون خضوع لقانون أو قاعدة ودون النظر إلى رأس المحكومين.

وعرفه الكواكبي بأنه: تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة[(٢)]. فالمستبد لا يراعي لأحد حقًّا من مال أو كرامة أو حرية؛ إذ لا رادع له من دين أو ضمير أو قانون، فديدنه بخس الناس حقوقهم. يقول الغزالي: «إن الحاكم المطلق يتشهى ما يشاء، فلا ينقطع شيء دون أمانيه الحرام، والحلال عنده ما حل في اليد، أما الدين وتعاليمه ففكاهة النهار وسمر الليل»[(٣)].

فإذا كان الاستبداد سبيلًا لبخس الناس أشياءهم، فإن الشورى في الحكم واتخاذ القرار هي السبيل لنيل كل ذي حق حقه إنصافًا وعدلًا وتمتعه به، وهو ما أسسه الإسلام بتعاليمه الخالدة، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨﴾ [الشورى: ٣٨]

وقد طبق النبي صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ في أمره كله إلا فيما أنزل بشأنه وحي، وسار على دربه الخلفاء الراشدون من بعده، والصالحون من حكام الأمة.

---

(١) تحفة الأحوذي للمباركفوري ٧/ ٤٧.
وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٠/ ٣٢٨٧.

(٢) طبائع الاستبداد، عبد الرحمن الكواكبي ص٣٧.

(٣) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص٤٠.

مضار انتشار البخس في المجتمع

أحكام الشريعة الإسلامية كلها قائمة على المصلحة، سواء أدركنا وجه المصلحة في تشريع الحكم، أو خفي عنا وجه المصلحة فيها، فجهلنا بها لا يعني خلو الحكم عنها، ومن ثم يقرر العلماء أنه: متى تحققت المصلحة فثم شرع الله. والمصالح التي تدور الأحكام الشرعية حول تحقيقها تتمثل في حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال.

إن انتشار البخس في مجتمع من المجتمعات يؤدي إلى كوارث إنسانية واجتماعية واقتصادية، تتمثل فيما يلي:

١. نشأة طبقة مترفة، وأخرى كادحة.

إن بخس الناس أموالهم سبيلٌ لنشأة طبقة مترفة في المجتمع، تمتص عرق الناس، وتحصل ما في أيديهم، وتسرف في التنعم به، وأخرى كادحة بائسة، تلتقم العيش كدًا، ولا تكاد تجده في كثير من الأحايين مع بذل أقصى ما في وسعهم من طاقة، فتحرم ثمار جهدها، ويضيع عليها نتاج كدها.

ومن ثم كانت هذه الطبقة على مر العصور هي العدو الألد لكل دعوة إصلاحية، تهدف للمساواة بين الناس، ولا تفاضل بينهم إلا على أساسٍ من العقيدة الصحيحة والعمل الصالح، فيسعون جاهدين لإطفاء نورها، فها هي دعوة رسل الله وأنبيائه قد وقفوا أمامها موقف المكذبين، وتغنوا بأموالهم وأولادهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥]

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

كما أن هذه الطبقة هي منبع كل فتنة، ومصدر كل فساد في الأرض، وما استؤصلت أمة من الأمم إلا بسبب ترفها، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

والمعنى: إذا أراد الله أن يهلك قرية من القرى أرسل إليها رسولًا من عنده، فيأمرهم وينهاهم بما أوحى الله إليه، فيعصيه مترفوها -وهم من أبطرتهم النعمة وسعة العيش- فيفسقون عن أمر ربهم، فيحل بها عذاب الله. فقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ يشير إلى أن الترف أودى بهؤلاء إلى الفسق؛ ذلك لأن المترف لا هم له إلا إشباع رغباته واتباع شهواته.

يقول العلامة محمد أبو زهرة: «والمترف يختص بثلاث خصال: ضعف في الإرادة، واندفاع وراء الأهواء والشهوات، وأثرة تجعله يعيش في محيط نفسه ولا يخرج عن دائرتها، ولذا كان المترفون دائمًا هم أعداء الأنبياء؛ لأنهم أوتوا أثرة مقيتة»[(١)].

التدمير في الآية الكريمة هو الهلاك، وذلك يشمل عذاب الاستئصال الذي حل بالأمم السابقة، ويشمل ضعف الأمة ووهنها، حتى تكون طعمة سائغة في أفواه أعدائها، كما هو حال الأمة الإسلامية اليوم[(٢)].

٢. تعطيل قوى العمل، وانتشار البطالة.

كذلك من الآثار السلبية للبخس أنه يؤدي إلى تعطيل قوى العمل لدى الباخسين والمبخوسين على حد سواء، فأما الباخسون فلأنهم تعودوا حصول ما في أيدي غيرهم من غير بذل مجهود، وأما المبخوسون فإنه متى ضاع جهدهم هدرًا دون أن يعود عليهم بثمرة، فإنه يبطئون في العمل ويقل إنتاجه، سواء كان عالمًا في مختبره ومعمله، أو عامل في مزرعته، أو صانع في مصنعه، وذلك له أخطر الآثار على المجتمعات الإنسانية بوجه عام، وعلى الأمة الإسلامية بصفة خاصة، فهو يعد بمثابة القنبلة الموقوتة

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨/ ٤٣٥٢.
(٢) المصدر السابق.

في وجه المجتمع.

يقول الشيخ الغزالي: «التعطل نوعان: تعطل المترفين، أصحاب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة،.... وهناك تعطل آخر منتشر بين الطبقات الفقيرة، وينتظم الألوف المؤلفة من أبنائها، وتأوي إليه جرائم التسول والتشرد، والفساد والعدوان. وحاجة هؤلاء إلى العمل الشريف لا ريب فيها، وفائدة الدولة من استغلال هذه القوى المضيعة لا ريب فيها»[(٣)].

وقد عالج النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرة البطالة بدعوة القادرين إلى العمل والإنتاج؛ ليحفظوا حياتهم وكرامتهم، وأن يوفى صاحب الحق حقه، فقال صلى الله عليه وسلم: (**لأن يحتطب أحدكم حزمةً على ظهره، خيرٌ له من أن يسأل أحدًا، فيعطيه أو يمنعه**)[(٤)].

وقال صلى الله عليه وسلم: (**ما أكل أحدٌ طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**)[(٥)].

(٣) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، محمد الغزالي ص٤٧ - ٤٨، بتصرف.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ٨١، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ٨٠، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، عن المقدام رضي الله عنه.

وقال صلى الله عليه وسلم: (**أعطوا الأجير أجره، قبل أن يجف عرقه**)[1].

فلو بذل كل واحد من أبناء المجتمع طاقته، وأعطي كل ذي حق حقه -كما وجه النبي صلى الله عليه وسلم - لدارت عجلة الإنتاج سريعة، ولنشطت الحياة العلمية والاقتصادية، ونعم المجتمع كله برغد من العيش. يقول الطاهر ابن عاشور: «وما جاء في هذا التشريع (وهو النهي عن البخس) هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمة؛ لأن المعاملات تعتمد الثقة المتبادلة بين الأمة، وإنما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط الناس للتعامل، فالمنتج يزداد إنتاجًا وعرضًا في الأسواق، والطالب من تاجر أو مستهلك يقبل على الأسواق آمنًا لا يخشى غبنًا ولا خديعة ولا خلابة، فتتوفر السلع في الأمة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها، فيقوم نماء المدينة والحضارة على أساس متين، ويعيش الناس في رخاء وتحابب وتآخ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار تفشي ضد ذلك»[2].

٣. بث روح العداء بين أفراد المجتمع.

إن بخس الناس أموالهم يسبب اضطرابًا نفسيًا في النفوس، فهو بالنسبة للباخسين يولد حالة من الجشع في نفوسهم والطمع فيما في أيدي غيرهم، وبالنسبة للمبخوسين فإنه يتسبب في حالة من الأسى والأسف على ما ضاع من أموالهم وأهدر من جهدهم.

إن تلك الحالة لدى هؤلاء وهؤلاء تورث في نفوسهم جميعًا الشحناء والعداء، وما يلبثون أن يشيع بينهم التقاتل وسفك.

ومن أجل ذلك اقترن في القرآن الكريم أكل أموال الناس بالباطل بسفك الدماء، فقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

فالقتل وتدمير الحياة العامة هو النتيجة الحتمية الذي يؤول إليه شيوع المعاملات الباطلة وأكل أموال الناس بغير وجه مشروع؛ ومن ثم اقترن به في الذكر.

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ٢/ ٨١٧، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء، رقم ٢٤٤٣، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
قال محمد فؤاد عبد الباقي: «في الزوائد: أصله في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة. لكن إسناد المصنف ضعيف، وهب بن سعيد وعبد الرحمن بن زيد ضعيفان».
وقال الألباني: «صحيح لغيره». صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٨٤.
وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١/ ٤٣ رقم ٣٤، عن جابر رضي الله عنه.
وأخرجه البيهقي في السنن الصغير ٢/ ٣٢٠، كتاب البيوع، باب الإجارة، رقم ٢١٥٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٢٤٤، بتصرف.

قال العلامة محمد أبو زهرة: «قال بعضهم: إن المعنى: لا تقتلوا أنفسكم بأكل بعضكم أموال بعض وبارتكاب المعاصي، فإن ذلك مفرق لجماعتكم، مفسد لأمركم، مذهب لوحدتكم، وبذلك تقتل الأمم والجماعات، وقد ارتضى هذا ابن بشير فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: بارتكاب محارم الله تعالى ومعاصيه، وأكل أموالكم بينكم، وإن هذا هو الذي نرتضيه»[1].

ونجد هذا الاقتران بينهما في شائعًا في السنة النبوية، منه قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: (إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من قتل دون ماله فهو شهيدٌ)[3].

يقول الطاهر ابن عاشور: «فكما أن إهراق الدماء بدون حق يفضي إلى التقاتل

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣/ ١٦٥٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ٨٨٦، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٣٦، كتاب المظالم والغصب، باب من قاتل دون ماله، رقم ٢٤٨٠، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم في الصحيح ١/ ١٢٤، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق، كان القاصد مهدر الدم في حقه، رقم ١٤١، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

والتفاني بين الأمة، فكذلك انتزاع الأموال بدون وجهها يفضي إلى التواثب والتثاور فتكون معرضة للابتزاز والزوال»[4].

٤. هلاك المجتمع.

من الآثار التي تترتب على بخس الناس حقوقهم هلاك المجتمع، والمراد بالهلاك أحد أمرين:

الأول: عذاب الاستئصال، فقد هلك أهل مدين بالصيحة بسبب بخسهم الناس أشياءهم، وكان قد نهاهم نبي الله شعيب عليه السلام عنه -كما تبين سابقًا- قال تعالى مبينًا هلاكهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

وإلى هذا النوع من الهلاك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لأصحاب المكيال والميزان: (إنكم قد وليتم أمرين هلكت فيه أممٌ سالفةٌ قبلكم)[5].

وهذا اللون من الهلاك خاص بالأمم السابقة[6].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

(٤) التحرير والتنوير ١٢/ ١٣٩.

(٥) سبق تخريجه ص٢١.

(٦) الأسباب والمسببات في القرآن الكريم ص٥٩١.

الثاني: ضعف الأمة ووهنها، بحيث تصبح لقمةً صائغة لأعدائها، تتكالب عليها من كل صوب وحدب.

وتلك هي النتيجة الطبيعية لما ينشب بينها من إحن وعداءات وتواثب وتقاتل، ولضعف إنتاجها وركود اقتصادها، فيحتاجون حينئذ إلى ما يسد ضرورات حياتهم، فيمدون أيدي الحاجة والعوز إلى أعدائهم، فلا يأخذونه إلا حشفًا، وفضلًا عما يفرضونه عليهم من سياسات تفت عضدهم، وتنخر بها عظامهم، ويقررون بها واقعهم ومستقبلهم، ولعل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما بخس قومٌ المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم)[1]، إشارة إلى ذلك.

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: «إذا جئت أرضًا يوفون المكيال، والميزان فأطل المقام بها، وإذا جئت أرضًا ينقصون المكيال والميزان، فأقلل المقام بها»[2].

يقول ابن عبد البر معلقًا على هذا الأثر: «هذا يدل على أنه لا ينبغي المقام بأرض يظهر منها المنكر ظهورًا لا يطاق تغييره، وأن المقام بالموضع الذي يظهر فيه الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأغلب محمود مرغوب فيه إذا وجد»[3].

٥. تسلط الحكام وظلمهم.

إن الآثار الاجتماعية للبخس تتضاعف في هذا الجو الذي تشيع فيه العداءات بين أفراد المجتمع ويضعف فيه الاقتصاد، فيلجأ حينئذ سلاطينهم إلى فرض أموال يتحملون أعباءها، وفتح غياهب السجون لمن يبدي أدنى اعتراضًا ضربهم بالسياط يتوجعون آلامها، وغير ذلك من صور الظلم، والتي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه السابق.

٦. الكوارث الطبيعية.

لا شك أن ذنوب العباد تتسبب في حدوث كوارث طبيعية، كحدوث الزلازل وانفجار البراكين ومنع الأمطار[4].

يقول ابن تيمية: «ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٦٨٥، كتاب البيوع، باب جامع البيوع.
(٣) الاستذكار، ابن عبد البر ٦/ ٥٤١.
(٤) الأسباب والمسببات في القرآن الكريم ص٣٧٩.

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] [(١)].

ومن تلك الكوارث التي تقع بسبب بخس الناس أشياءهم منع القطر، فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أنه قال: «إذا بخس الميزان حبس القطر»[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

البركة، الظلم، العدل

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ١٣٨.
(٢) سبق تخريجه.





عناصر الموضوع

مفهوم البخل

أولًا: البخل لغة:

إن الناظر في معاجم اللغة العربية، والمتتبع لكتبها، والباحث فيها، يجد أن مادة (ب خ ل) تدل على: «ضد الكرم والجود»، وقد بخل بكذا: أي ضن بما عنده ولم يجد، ويقال: هو بخيل وباخل، وجمعه: بخلاء، والبخال: الشديد البخل، والبخل مشتق من قولهم: بخل بالشيء يبخل به، وهو خلاف الكرم، والبخيل: صاحب البخل، وجمعه: بخل وبخال، والبخلة: المرأة الواحدة من البخل(١).

وحد البخل الزبيدي رحمه الله تعالى بقوله: «إمساك المقتنيات عما لا يحل حبسها عنه»(٢).

ثانيًا: البخل اصطلاحًا:

أما البخل في الاصطلاح فقد ورد له تعاريف متعددة عند أهل العلم:

فعرفه القرطبي رحمه الله تعالى بأنه: «الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه»(٣).

وأما ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى فقال: «البخل: منع ما يطلب مما يقتنى، وشره ما كان طالبه مستحقًا، ولا سيما إن كان من غير مال المسئول»(٤).

وقيل: هو إمساك المال وعدم صرفه في الوجوه المعتبرة حرصًا على بقائه وزيادته وخوفًا من نفاده(٥).

وبهذا يتبين أن البخل في الاصطلاح هو: منع ما يطلب عما لا يحق حبسها عنه، سواء كانت من مال نفسه أو من مال غيره وهو أشد.

وعند المتأمل في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للبخل يتبين أن معناهما جميعًا يدور حول: المنع والإمساك.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٧ بتصرف، وانظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٢٧٢، الصحاح الجوهري ٤/ ١٦٣٢، مجمل اللغة، ابن فارس ص ١١٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٧، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩٦٥.

(٢) تاج العروس، الزبيدي ٢٨/ ٦٢- ٦٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣ بتصرف.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٧.

(٥) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، أبو الفضل البستي ٢/ ٢٤٥.



البخل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بخل) في القرآن الكريم (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾ [التوبة:٧٦]
الفعل المضارع	٧	﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٨٠]
المصدر	٢	﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النساء:٣٧]

وجاء البخل في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه[٢].

(١) نظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١١٥.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢٢٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشح:

الشح لغة:

«البخل مع حرص»[١]. وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل»[٢].

الشح اصطلاحًا:

«حرص النفس على ما ملكت وبخلها به، وما جاء في التنزيل من الشح، فهذا معناه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]»[٣].

قال الراغب رحمه الله تعالى: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»[٤].

العلاقة بين البخل والشح:

العلاقة بين الشح والبخل علاقة عموم وخصوص، فالبخل لفظ عام يدل على المنع، بينما الشح يدل على شدة المنع، أو البخل بمال الغير.

وذكر ابن القيم أن البخل: منع إنفاق ما هو موجود، والشح: الحرص على ما ليس موجودًا، وجشع النفس في تحصيله، قال رحمه الله: «فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله»[٥].

٢ الإقتار:

الإقتار لغةً:

التضييق. قال ابن فارس: «القاف والتاء والراء أصل يدل على تجميع وتضييق»[٦].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧٨.
وانظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ٥٠٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٢٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٤٩٧- ٥٠٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٤٧٤.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٩٥.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٩٦.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٤٦.

(٥) الوابل الصيب، ابن القيم ص ٣٣.

(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٥.
وانظر: العين، الفراهيدي ٥/ ١٢٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٧٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٤٥٩، تاج العروس، الزبيدي ١٣/ ٣٦١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧١٤.

الاقتار اصطلاحًا:

«تقليل النفقة، وهو بإزاء الإسراف، وكلاهما مذمومان»[(١)].

الصلة بين البخل والاقتار:

العلاقة بين البخل والإقتار: أن البخل هو: المنع، والاقتار هو: التضييق في النفقة والمعاش، فبينهما شبهٌ من جهة أن في كلٍ منهما منع، وإن اختلف مقدار المنع فيما بينهما، والله أعلم.

٣ الضن:

الضن لغة:

«الإمساك والبخل»[(٢)].

قال ابن فارس رحمه الله تعالى: «الضاد والنون أصل صحيح، يدل على بخل بالشيء، يقال: ضننت بالشيء أضن به ضنًا وضنانة، ورجل ضنين»[(٣)].

الضن اصطلاحًا:

«البخل بالشيء النفيس... وفلان ضني بين أصحابي، أي: هو النفيس الذي أضن به»[(٤)].

الصلة بين البخل والضن:

العلاقة بين البخل والضن أن البخل عام في إمساك كل شيء، حقيرًا كان أو نفيسًا، بينما الضن يكون في إمساك الشيء النفيس.

٤ الكرم:

الكرم لغة:

«ضد اللؤم»[(٥)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٥.
(٢) العين، الفراهيدي ٧/ ١٠.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٧.
وانظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ٥٦٠، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٦١، تاج العروس، الزبيدي ٣٥/ ٣٣٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥١٢.
(٥) الصحاح، الفارابي ٥/ ٢٠١٩.
وانظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٣٦٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٥٣، تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٣٣٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢/ ٧٨٤.

الكرم اصطلاحًا:

«اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر من الإنسان، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه»[1]. قال الجرجاني رحمه الله تعالى: «الكرم هو: الإعطاء بسهولة، والكريم: من يوصل النفع بلا عوض»[2].

الصلة بين البخل والكرم.

البخل يعني: المنع من إعطاء شيء للغير، وأما الكرم فهو من الألفاظ المقابلة للبخل الذي يعني: الإعطاء بسهولة، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه، فهو الكريم سبحانه.

١ الإيثار:

الإيثار لغة:

تقديم الشيء.

قال ابن فارس رحمه الله تعالى: «الهمزة والثاء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي»[3]، والمعنى الأول هو الذي يعنينا هنا.

الإيثار اصطلاحًا:

تفضيل المرء غيره على نفسه.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «الإيثار: تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية؛ رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة»[4].

وأضاف الجرجاني رحمه الله تعالى معنىً لطيفًا فقال: «الإيثار: أن يقدم غيره على نفسه في النفع له والدفع عنه، وهو النهاية في الأخوة»[5].

الصلة بين البخل والإيثار:

الإيثار هو: تفضيل المرء غيره على نفسه، فهو ضد البخل الذي يعني: منع الشخص نفسه من إعطاء شيء لغيره، فالصلة بينهما هي الضدية.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٠٧.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ١٨٤.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٣.
وانظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٦.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٤٠.



إيتاء المال فضل من الله

اعلم أن المال ملك لله تعالى وحده، أعطاه الإنسان في هذه الحياة منة منه سبحانه وفضل، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [النمل: ٧٣].

فما في أيدي الناس من مال وغيره إنما هو من فضل الله سبحانه وتعالى عليهم، يعطيه من يشاء من عباده ليبتليهم، ماذا سيصنعون به؟ قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولذلك فإنه سبحانه سيحاسب الإنسان عليه يوم القيامة، فقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه: عن أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وتمام هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ولقد أبدع الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند تفسيره لهذه الآية فقال: «قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم: ٤٠].

وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

فأخبر أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكًا للعبد، فمنعه لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص ٧٧].

ثم ذكر أن هذا الذي بيد العباد كله يرجع إلى الله، ويرثه تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر السبب الجزائي، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ٢/ ٦٢٩، رقم ٩٤٦.

﴿تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فإذا كان خبيرًا بأعمالكم جميعها -ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر- لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب»[1].

وعند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد يتساءل متسائل فيقول: كيف يرث الله السماوات والأرض وهي ملكه في الحقيقة؟

فيجيب على هذا التساؤل القرطبي رحمه الله تعالى بقوله: «أخبر تعالى ببقائه ودوام ملكه، وأنه في الأبد كهو في الأزل غني عن العالمين، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم، فتبقى الأملاك والأموال لا مدعى فيها، فجرى هذا مجرى الوراثة في عادة الخلق، وليس هذا بميراث في الحقيقة؛ لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئًا لم يكن ملكه من قبل، والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض وما بينهما، وكانت السموات وما فيها، والأرض وما فيها له، وإن الأموال كانت عارية عند أربابها، فإذا ماتوا ردت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل، ونظير هذه الآية قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

والمعنى في الآيتين: أن الله تعالى أمر عباده بأن ينفقوا ولا يبخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثًا لله تعالى، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا»[2].

ومن رحمة الله بعباده: طلب إنفاق بعض المال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾.

وحتى يتم معنى هذا الجزء من الآية نذكر سباقها ولحاقها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٧].

«قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾، يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم، أي: إنما يسألكم ما لا يجحف بكم، فإضافة أموال وهو جمع إلى ضمير المخاطبين تفيد العموم، فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال»[3].

وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال البغوي: «قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، ولم يقل: خذ أموالهم»[4]، فهذا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٨ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٩٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٣٤.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٨٤.

من رحمة الله سبحانه بعباده أنه طلب إنفاق بعض المال ولم يطلب إنفاق المال كله.

قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾، «الإحفاء أخذ الجميع، أو الإلحاح وإكثار السؤال، مأخوذ من الحفاء وهو: المشي بغير حذاء»[1].

قال الرازي رحمه الله تعالى: «الفاء في قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانًا لشح الأنفس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين، وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر، فكأنه تعالى بين أن الإحفاء يقع عقيب السؤال؛ لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئًا»[2].

وقد فسر ابن عاشور قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ۝٣٧﴾ بقوله: «تحدث فيكم أضغان فيكون سؤاله أموالكم سببًا في ظهورها فكأنه أظهرها، وهذه الآية أصل في سد ذريعة الفساد»[3].

قال قتادة: «قد علم الله في مسألة الأموال خروج الأضغان»[4]، قال ابن كثير معلقًا على قول قتادة: «وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه»[5].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٣٥.
(٤) الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٥٠٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٢٤.

أولًا: منافع الإنفاق في وجوه الخير:

واعلم أن من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أنه طلب منهم الإنفاق مما آتاهم من الأموال؛ ليمنحهم فوائد وجوائز عظيمة أعدها لهم، منها:

١. مضاعفة ما أنفقوا أضعافًا كثيرة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٥].

«فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما أعد لهم من الثواب قرضًا؛ لأنهم يعملون لطلب ثوابه»[6].

٢. الله تعالى جعل النفقة تطهر صاحبها من الذنوب والخطايا وتزكيه.

قال الله سبحانه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣].

٣. مساعدة الفقراء والمساكين، ومواساة المحتاجين.

ورتب الله سبحانه على ذلك الأجر العظيم، ووعدهم جنة عرضها السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

(٦) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٣٠.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

واعلم أن الإنفاق لا ينقص المال، ولكنه يزيده؛ لأن الله وعد عباده بالخلف منه سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

وهذا من رحمة الله بعباده، فإنه سبحانه لما علم أن النفس البشرية تخشى الفقر وتخاف الإنفاق، ضمن لها سبحانه وتعالى أن يخلف لها غير ما أنفقت، وخيرًا منه.

ولقد وكل الله ملكين من ملائكته كل صباح بالدعاء، فأحدهما يدعو للمنفق بالخلف، والآخر يدعو على الممسك بالتلف، فقد روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)[1].

ثانيًا: الله عز وجل غني عن عباده:

واعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الغني فلا يفتقر إلى شيء، والمستغني عن الخلق بقدرته وعز سلطانه، فلا يحتاج إلى إنفاق عباده ولا إلى شيء من خلقه، والخلق فقراء إلى إحسانه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وهو سبحانه الذي أغنى الخلق جميعًا، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: ٤٨].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «وما دلت عليه هذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

مع كونه معلومًا من الدين بالضرورة، جاء في مواضع كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ الآية [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨].

إلى غير ذلك من الآيات، وبذلك تعلم عظم افتراء: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ١١٥، رقم ١٤٤٢، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾، ومسلم ٢/ ٧٠٠، رقم ١٠١٠، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك.

﴿أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقد هددهم الله على ذلك، بقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١]»[1].

فمن هذا يتبين أن الله تعالى غني بذاته، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، سواء كان هذا المخلوق: ملك من ملائكته العظام، أو إنس أو جن، أو أي مخلوق كان، وأن جميع خلقه مفتقرون إليه في كل حال من أحوالهم، وفي كل وقت من الأوقات.

وللسعدي رحمه الله تعالى كلام لطيف عند قوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

بين فيه وجوه فقر العباد إلى الله تعالى بالتفصيل فقال: «أنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير، فقراء إليه في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه؛ لم يتعلموا، ولولا توفيقه؛ لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت.

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه.

ومن غناه تعالى: أن أغنى الخلق في الدنيا مفتقر إليه في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته وأسمائه؛ لأنها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده»[2].

فالرب الذي هذا غناه وهذا ملكه غني عن إنفاق عباده كلهم، ولو أنفق عباده كلهم جميع ما يملكون، وأنفقوا الأرض وما فيها، ما زادوا في ملكه مثل قطرة في بحر، ولو

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨٧ بتصرف.

بخل عباده كلهم وأمسكوا عن الإنفاق، ولم ينفقوا مثقال ذرة، ما نقصوا من ملكه مثل قطرة من بحره سبحانه وتعالى، جل في علاه الغني الحميد.

الشح والبخل طبيعة إنسانية

سنحاول في هذا المبحث أن نتعرف من خلال القرآن الكريم على هذه الجبلة التي طبع الله الخلق عليها، فعندما تحدثت الآيات عن داء البخل لم تقل: وكان الكافر أو وكان المنافق قتورًا، ولكن بلغة التعميم نجد الآيات تتحدث عن الإنسان بصفة عامة، وكأنها صفة كائنة فيه، حتى وإن كان مؤمنًا، ولكن بدرجات متفاوتة مختلفة من شخص لآخر، قال الله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

فهذا «إخبار بأن الشح في كل أحد، وأن الإنسان لا بد أن يشح بحكم خلقته وجبلته، حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره»[(١)]، «فالمراد أن الشح جعل كالأمر المجاور للنفوس اللازم لها»[(٢)].

ولقد كرر القرآن الكريم هذا المفهوم في مواضع أخرى كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٣].

وقوله: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

وقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٣٧.

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ١٧ - ٢٠].

وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾ [الإسراء: ١٠٠].

فيخبر تعالى في هذه الآية أنه بسبب البخل المطبوع في الإنسان «لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله تعالى لما جاد بها كجود الله تعالى، لأمرين:

أحدهما: أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته.

الثاني: أنه يخاف الفقر ويخشى العدم، والله عز وجل يتعالى في جوده عن هاتين الحالتين»[(١)].

قال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

أي: «خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل»[(٢)].

«وقد بلغت هذه الآية الكريمة من وصف الإنسان بالشح الغاية القصوى، حيث أفادت أنه لو استولى على خزائن رحمة ربه التي لا تحد ولا تنفد، وانفرد بملكها دون مزاحم له لأمسكها؛ لشدة حرصه وبخله على عباد الله»[(٣)].

فإن قيل: فقد دخل في (الإنسان) الجواد الكريم؟

فيجيب عن هذا الرازي فيقول: «الأصل في الإنسان البخل؛ لأنه خلق محتاجًا، والمحتاج لا بد أن يحب ما به يدفع الحاجة، وأن يمسكه لنفسه، إلا أنه قد يجود به لأسباب من خارج، فثبت أن الأصل في الإنسان البخل.

ثم إن الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد، وللخروج عن عهدة الواجب! فهو في الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض، فهو في الحقيقة بخيل»[(٤)].

إذًا ففي نفس كل إنسان قدر من الشح، ولكن مع هذا فكل إنسان مأمور أن يقاوم هذا الشح، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم -فيما رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه-: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن

(١) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٧٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٧.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٨١٠- ٨١١.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤١٣ بتصرف.

سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[1].

فقد أمر الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم المسلم بالابتعاد عن الشح، ولو لم يوجد في نفس الإنسان شح لما أمراه بأن يتوقاه، إذ كيف يأمراه بأن يتوقى شيئًا ليس موجودًا فيه أصلًا، فالله عز وجل له الحكمة البالغة والعلم الكامل، وهو الحكيم العليم سبحانه.

وإذا أمر الله العبد بشيء لم يأمره إلا بما فيه مصلحة ومنفعة له سواء كانت هذه المنفعة دنيوية أو أخروية، وإذا نهاه عن الشيء لم ينهه إلا عن شيء فيه مضرة عليه في الدنيا وفي الآخرة.

فالشريعة أتت لتهذيب نفس هذا الإنسان، والاهتمام بأخلاقه، فلا بد على كل إنسان أن يتعرف على طرق الوقاية من داء البخل والشح وطرق العلاج؛ لكي يعمل بما أمره الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما ستتكلم عليه في مبحث قادم، إن شاء الله تعالى.

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٧٨، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

أنواع البخل

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

لا شك أن البخل لا خير فيه؛ بل هو شر كله، وهو من الصفات المذمومة التي نهى الله تعالى عنها، وحذر منها في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، فالبخل داء فتاك، كم فرق بين أحباب، ودمر بيوتًا ومجتمعات، وزرع الحسد والحقد بين قلوب البشر.

ولا شك أن البخل مذموم كله، وظلمات بعضها فوق بعض؛ لكنه كما قيل: بعض الشر أهون من بعض! فلذلك ستتكلم عن أنواع البخل في القرآن الكريم، فلقد ذكر القرآن الكريم نوعين للبخل:

النوع الأول: بخل المرء بما يملك: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾.

النوع الثاني: بخل المرء بما يملك غيره: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

قال الرغب رحمه الله تعالى: «والبخل ضربان: بخل بقنيات نفسه، وبخل بقنيات غيره، وهو أكثرها ذمًا، دليلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [الحديد: ٢٤]»[2].

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٠٩.

ونحن إن شاء الله تعالى سنتكلم في هذا المبحث عن النوعين، كل نوع في مطلب، فستتكلم في المطلب الأول عن النوع الأول من أنواع البخل، ثم في المطلب الثاني نتكلم إن شاء الله عن النوع الثاني.

أولًا: بخل المرء بما يملك:

هذا هو النوع الأول من أنواع البخل، وهو: بخل الإنسان بمقتنيات نفسه مما يملك مما آتاه الله سواء كان مالًا أو علمًا أو جاهًا أو غير ذلك.

وهذا النوع قد أكثر القرآن الكريم من ذمه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النساء: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل: ٨ - ١١].

ولقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم الاستعاذة من البخل، فقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات)[1].

والبخل قد يحمل صاحبه على الامتناع عن أداء ما أوجب الله تعالى عليه في هذه الحياة، فترى البعض يبخل بنفسه وماله ووقته عن أداء ما أوجبه الله عليه في الدنيا، فيمتنع عن تأدية حقوق الله من الزكاة والصدقة وغيرها، أو عن تأدية حقوق النفس من الطعام والشراب والملبس، أو عن تأدية حقوق الخلق من حق الوالدين والزوجة والأولاد والأقارب، يمتنع عن كل ذلك بسبب البخل، وبهذا يكون قد دمر سعادته في حياته الدنيا وفي الآخرة.

فصاحب البخل لا يشعر بالراحة ولا الطمأنينة، فهو دائمًا يسيء الظن بخالقه، ويعيش في هم وحزن على رزقه، ويحسب أنه بقوته وفطنته هو الذي جمع هذا المال كله بتعبه وجده واجتهاده وعلمه، كما قال الله تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص ٧٨].

ويحسب أن الله لن يرزقه ولن يكرمه إذا أنفق من هذا المال الذي عنده، ويحسب أن هذا الذي بين يديه من خير ونعمة إذا ذهبت لن يأتي بعده خير منها، فلهذا يطمع ويبخل ويحرص على ماله كل الحرص مع عدم إنفاقه.

ولقد حذر الله تعالى الناس من البخل

(١) أخرجه البخاري ٨/ ٧٩، رقم ٦٣٦٧، كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة المحيا والممات، ومسلم ٤/ ٢٠٧٩، رقم ٢٧٠٦، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره.

الذي يزينه لهم الشيطان؛ فبين أنه شر عظيم، وداء عضال مهلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ومن أساليب القرآن في ذم هذا النوع من البخل: أنه جعل عاقبة البخل راجعة على البخيل بعكس قصده، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد نقل الخطيب البغدادي في كتابه البخلاء عن أعرابي قوله: «عجبًا للبخيل المتعجل للفقر الذي منه هرب، والمؤخر للسعة التي إياها طلب، ولعله يموت بين هربه وطلبه، فيكون عيشه في الدنيا عيش الفقراء، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء، مع أنك لم تر بخيلًا إلا وغيره أسعد بماله منه؛ لأنه في الدنيا متهم بجمعه، وفي الآخرة آثم بمنعه، وغيره آمن في الدنيا من همه، وناج في الآخرة من إثمه»[1].

ثانيًا: بخل المرء بما يملك غيره:

هذا هو النوع الثاني من أنواع البخل، وهو: بخل الإنسان بمقتنيات غيره مما لا يملك.

وهذا النوع أشد ذمًا في كتاب الله تعالى، فهو من أشد أنواع البخل، وهو صفة غير لائقة بأهل الإسلام، بل هو سجية عرف بها اليهود قديمًا وحديثًا، وهو من صفات المشركين عامة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

«الخير: النعمة والفضل»[2]، فانظر كيف يبخلون بما لا يملكون من فضل الله تعالى ونعمه؟!

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس، فلا ترى يهوديًا، وإن كان ماله في غاية الكثرة، إلا وهو من أبخل خلق الله»[3].

وفي قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: ٣٧].

«ذكر تعالى في هذه الآية من الأحوال المذمومة ثلاثًا:

أولها: كون الإنسان بخيلًا وهو المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾.

وثانيها: كونهم آمرين لغيرهم بالخبل،

(١) البخلاء، الخطيب البغدادي ص ٢٢٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٥٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٦.

وهذا هو النهاية في حب البخل، وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

وثالثها: قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعسار مع اليسار، والعجز مع الإمكان، ثم إن هذا الكتمان قد يقع على وجه يوجب الكفر، مثل أن يظهر الشكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حد الكفر، فلذلك قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾»[1].

إذًا فالبخل من الأخلاق السيئة، والسجايا الذميمة، والخلال الرديئة التي عابها الإسلام، وحذر منها تحذيرًا رهيبًا، فهو خلق لئيم باعث على المساوئ الجمة، والأخطار الجسيمة في دنيا الإنسان وأخراه، الموجبة لهوان صاحبها ومقته وازدرائه.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٩.

درجات البخل

بما أن الناس يتفاوتون في أعمالهم فكذلك الحال في إنفاقهم، فمن الناس من هو مسارع ومنفق للمال في وجوه الخير لا يبالي به، ومنهم من هو ممسك بخيل به لا ينفق حتى الواجب منه.

والممسكون عن الإنفاق البخلاء به يتفاوتون في بخلهم، فمنهم من يبخل عن أداء الواجبات، ومنهم من يبخل عن أداء المستحبات.

قال الألباني رحمه الله تعالى: «البخل بخلان:

- بخل يعذب عليه الإنسان، وهو إذا بخل بما فرض الله عليه.
- والبخل الآخر يذم عليه، ولكن لا يعاقب عليه، وهو الذي لا ينفق يمينًا ولا يسارًا ولا أمامه ولا خلفه.

فمن هنا نفرق بين ما هو واجب وبين ما هو مستحب، والناس في هذا متفاوتون»[2].

وبما أن الممسكون والبخلاء عن الإنفاق يتفاوتون في بخلهم على درجات، فنحن إن شاء الله تعالى سنتكلم في هذا المبحث عن ذلك بشيء من التفصيل فيما يلي:

(٢) دروس للشيخ الألباني ٦/ ١١، بترقيم الشاملة آليا.

الدرجة الأولى: البخل عن أداء الواجبات.

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

فهذا الوعيد الشديد في حق من بخل عن أداء الواجبات، ومنع كل ذي حق من أخذ حقه.

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: «وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

وذكر الله في هاتين الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، والنهي عن الشيء، أمر بضده»[1].

الدرجة الثانية: البخل عن أداء المستحبات.

وأما الذي يبخل عن أداء المستحبات فيقول الله جل وعلا فيه: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

«يعني: قد طلبت منكم اليسير فبخلتم فكيف لو طلبت منكم الكل... ثم بين أن ذلك البخل ضرر عائد إليه، فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على غيرهم؛ بل لا ينفقونه على أنفسهم، فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه، ثم حقق ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾، غير محتاج إلى مالكم، وأتمه بقوله: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، حتى لا تقولوا: إنا أيضًا أغنياء عن القتال، ودفع حاجة الفقراء، فإنهم لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة»[2].

فقوله: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨].

«مسوق مساق التوبيخ أو مساق التنبيه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٦ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٣.

على الخطأ في الشح»[1].

فالبخل إنما يعود على الإنسان بالوبال، سواء كان البخيل يبخل عن الواجبات أو يبخل عن المستحبات؛ «لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئًا»[2].

فمن خلال هذا العرض نستطيع أن نقول: إن البخل درجات يتفاوت فيها الناس من شخص إلى آخر، فهناك أشخاص يبخلون عن أداء الواجبات التي فرضها الله عليهم، فيعذبون بسبب بخلهم، وهناك أشخاص يبخلون عن أداء المستحبات، فيذمون على بخلهم، والله أعلم.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٣٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩١.

الشح من صفات المنافقين

لا شك أن البخل خلق ذميم، ووصف قبيح، لا بد على المسلم أن يتجنبه، وذلك لأنه من الصفات التي يبغضها الله تعالى، وهو من صفات المنافقين.

يقول الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٧٥ - ٨٠].

والمنافقون هم أشد الناس بخلًا على المؤمنين، وبخلهم على المؤمنين أشد من بخلهم على غيرهم من الناس.

يقول الله تعالى مبينًا ذلك: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا

يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٨ - ١٩].

فحول هذا الموضع ستتحدث بشيء من التفصيل فيما يلي:

١ . أشحة على المؤمنين.

يقول تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «أي: بخلاء عليكم، أي: بالحفر في الخندق، والنفقة في سبيل الله، وقيل: بالقتال معكم، وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم، وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها»(١)، وذلك «للضغن الذي في أنفسهم»(٢).

فالبخل من صفات المنافقين التي ظهرت جلية عليهم، وأثبتها الله تعالى في كتابه في غير ما موضع، وقد قال الله تعالى فيهم أيضًا أنهم قالوا: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧].

فهم من أشد الناس بخلًا على المؤمنين، وبسبب بخلهم هذا لا يحبون أن ينال المؤمنون خيرًا ولا نصرًا، ولو كان هذا الخير سيأتي من غيرهم، وتراهم يحرضون الناس على بغض المؤمنين ومعاداتهم وعدم الإنفاق عليهم، وذلك من شدة عداوتهم وبخلهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين.

قال السعدي رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: «وهذا من شدة عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم ومسارعتهم في مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم، قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧].

فإنهم - بزعمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور، ولهذا قال الله ردًا لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧].

فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٥٢-١٥٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٢.

من يشاء، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون: ٧].

فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم»[١].

فبعد هذا العرض يتبين لنا أن المنافين من أشد الناس بخلًا على المؤمنين، وأن سبب البخل عندهم هو: عدم الإيمان بالله وحده، وعدم اليقين على لقائه يوم القيامة، وكذلك الحسد الذي ملأ قلوبهم غيظًا على المؤمنين، وكرهًا لهذا الدين العظيم، والله أعلم.

٢. أشحة على الخير.

ليس بخل المنافقين منحصرًا فقط على المؤمنين وعلى أنفسهم؛ بل بخلهم شمل كل خير، يقول الله تعالى مبينًا ذلك: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٨ - ١٩].

«فهم مع ذلك أشحة على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير»[٢].

قال السعدي رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: «أشحة على الخير الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحًا بما أمر به، شحيحًا بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحًا في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحًا بجاهه، شحيحًا بعلمه، ونصيحته ورأيه»[٣].

ففي هذه الآية دليل واضح على أن المنافقين من أشد الناس بخلًا، فهم «بخلاء على مشاريع الخير، وما ينفق في سبيل الله، فلا ينفقون؛ لأنهم لا يؤمنون بالخلف ولا بالثواب والأجر، وذلك لكفرهم بالله ولقائه؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٩].

فسجل عليهم وصف الكفر، ورتب عليه نتائجه»[٤].

فقد بين لنا ربنا جل وعلا حجم البخل والشح الذي وصل إليه المنافقون، وأن شحهم عم الخير كله، وسبب ذلك كله هو عدم الإيمان برب العالمين، والحسد على المؤمنين؛ ولذلك حذر الله المؤمنين من أن يتصفوا بأخلاق المنافقين، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «حذر المؤمنين أخلاق المنافقين، أي: لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا -للشح بأموالهم-: لا تنفقوا على من عند رسول الله»[٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٩١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦١.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٥٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٩.

فلا بد على المسلم أن يحذر من هذه الصفات التي قد تؤدي بالإنسان إلى الهاوية، نسأل الله تعالى العفو والعافية، في الدنيا والآخرة.

الوقاية والعلاج من الشح

قد تقرر من خلال المبحث الثالث أن البخل والشح طبيعة إنسانية! فهو موجود إذن في كل أحد، ولكن المشكلة التي وقع فيها البخلاء أنهم أطلقوا العنان لأنفسهم حتى تزايد البخل فيهم فتمكن منهم، فهذا هو السبب الداعي للذم الذي أصابهم، وهذا ما سنحاول التكلم فيه عن طرق الوقاية منه وعلاجه، لكيلا يصل المسلم إلى ما وصلوا إليه.

إن البخل والشح من الأمراض القلبية التي لا بد على المسلم أن يتجنبها ويبتعد منها قدر الإمكان، ولذلك ذم الله في كتابه من هي فيه، وحذر منها النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، ومدح الله ورسوله متجنبها، ونحن في هذا المبحث سنتكلم بإذن الله تعالى عن طرق الوقاية منها لمن لم يصب بها، وطرق العلاج لمن أصيب بها، ولذلك سنقسم هذا المبحث إلى قسمين:

القسم الأول: ذكر طرق الوقاية من البخل والشح.

القسم الثاني: ذكر طرق العلاج من البخل والشح.

وسنبدأ بذكر طرق الوقاية التي يسلكها الشخص حرصًا منا على عدم تفشي هذا المرض العضال الذي ذمه الله ورسوله،

فنقول وعلى الله نتكل:

أولًا: ذكر طرق الوقاية من البخل والشح:

لقد مدح الله تعالى من وقى نفسه من الشح فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وقال جل في علاه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ [التغابن: ١٦].

وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم من تصدق وهو شحيح كما عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم؟ فقال: **(أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان)**[(١)].

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم كثرة الشح دليل على فساد الزمان، وعلامة على قرب الساعة، فقد جاء عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يتقارب الزمان، ويقبض العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح، ويكثر الهرج) قالوا: وما الهرج؟ قال: (القتل)**[(٢)].

وقبل ذكر طرق الوقاية من البخل والشح لا بد علينا من ذكر أسباب الوقوع في ذلك؛ لأنه إذا عرف الإنسان سبب المرض استطاع أن يتجنبه.

١. أسباب الوقوع في البخل والشح.

للبخل والشح أسباب توقع فيه ودواعي تدعو إليه، وأهم هذه الأسباب:

١. عدم اليقين على رب العالمين.

إن عدم اليقين على رب العالمين سواء بما أعده للمنفقين، أو بما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة، قد يكون هو الباعث على البخل، والسبب في ذلك: أن من لم يتيقن أن الله يبدل للعبد أكثر مما يعطي هذا العبد، بل هو المعطي للعبد ابتداء من غير حول منه

(١) أخرجه البخاري ٢/ ١١٠، رقم ١٤١٩، كتاب الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح، ومسلم ٢/ ٧١٦، رقم ١٠٣٢، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ١٤، رقم ٦٠٣٧، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، ومسلم ٤/ ٢٠٥٧، رقم ١٥٧ كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

ولا قوة، من لم يتيقن بذلك يبخل، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل: ٨ - ١١].

فقد ربط في الآيات بين البخل والتكذيب.

٢. نسيان العواقب المترتبة على الشح.

قد يكون نسيان العواقب والآثار المترتبة على الشح سواء كانت دنيوية أو أخروية، أو كانت على الفرد، أو على المجتمع الإسلامي هي السبب في الوقوع في الشح، فإن من نسي عاقبة الشيء الضارة، وأثره المهلك، أو جهلها، فإنه يقع في هذا الشيء وهو لا يدري بعواقبه، وستتكلم على عواقب الشح والبخل بالتفصيل في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

٣. حب الدنيا وتوهم الفقر.

حب الدنيا بزينتها وزخارفها من الأسباب المؤدية إلى الشح، حيث يتوهم من ابتلي بحب الدنيا أنه إذا أعطى فسيصبح فقيرًا تعيسًا، وستضيع صحته وعافيته، وتذهب مكانته وغناه ومنزلته بين الناس، وسيعيش شقيًا ذليلًا أمامهم، ويعرض نفسه لما لا تحمد عقباه من الأذى بكل صنوفه وأشكاله المادية والمعنوية.

فلذلك يفكر أن من الخير له أن يمسك عن الإنفاق، وعن المعروف الذي سيقدمه للناس؛ كي تدوم له دنياه، ناسيًا أو متناسيًا أن الله يخلف على عبده، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: ٣٩].

ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها ذم الله عز وجل حب الدنيا، والمحبين لها، إذ يقول الله سبحانه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة: ٢١ ٢٠].

ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾ [إبراهيم: ٢ - ٣].

٤. الواقع الذي يعايشه البخيل.

إن الواقع الذي يعيشه البخيل -سواء كان البيت أو المجتمع- إذا كان هذا الواقع معروفًا بالشح، ولم تكن لدى هذا الشخص المناعة الكافية، قد يتأثر بهذا الوقع المر، وتنتقل عدواه إليه، فيبخل بكل ما لديه من مال أو غيره، سواء كان في يده أو في يد غيره؛ ولهذا المعنى وغيره أكد الإسلام على ضرورة نظافة وطهارة واستقامة المجتمع المسلم، والحفاظ عليه من الآفات.

٥. إهمال الإنسان عن مجاهدة نفسه.

بسبب إهمال الإنسان نفسه عن المجاهدة

قد يقع في الشح دون أن يعلم، والسبب في ذلك: أن من طبيعة الإنسان أنه مجبول بفطرته على الشح كما بينا سابقًا، كما قال سبحانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٦ - ٨].

فقد يستسلم الإنسان لفطرته دون أية مجاهدة، فيقع في الشح ويتمكن منه، ويصعب عليه بعد ذلك علاجه.

٦. الكبر والحقد.

قد يكون الكبر والحقد من أسباب الوقوع في الشح، والسبب في ذلك: أن المتكبر يرى نفسه فوق الناس، وذلك بسبب اتباعه هواه، ووسوسة نفسه الأمارة بالسوء له، وطاعته لشياطين الجن والإنس، فيزينون له: ألا يعطي مما عنده شيئًا للآخرين؛ لأنهم هم المطالبون بخدمته وقضاء حوائجه، لا أن يكون هو في خدمتهم وحاجتهم، وحينئذ يقع في آفة الشح، والعياذ بالله.

وكذلك الحقد من بين الأسباب التي توقع في الشح، لأن المرء إذا كان حاقدًا على غيره فإنه سيسعى جاهدًا ألا ينفعه بنافعة من نفس، أو مال، أو هما معا، وهذا أمر بديهي، فقد أشار إليه ربنا جل وعلا في كلامه حين تحدث عن موقف الأنصار من المهاجرين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

فقد بين سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الذي حمل هؤلاء الأنصار على التضحية التي وصلت إلى حد الإيثار، إنما هو الإيمان بالله، مع سلامة الصدر من الأحقاد، والذي أثمر المحبة والمودة والموالاة.

٢. طرق الوقاية من البخل والشح.

وبعد أن تكلمنا عن أسباب البخل ننتقل إلى طرق الوقاية من البخل والشح، ويمكن تلخيصها في التخلص من الأسباب الجالبة للبخل، ونذكر منها الآتي:

١. الإيمان الصادق واليقين الجازم على رب العالمين.

إن اليقين على رب العالمين سواء بما أعده للمنفقين، أو بما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة؛ مما يقي الإنسان من البخل، وكذلك اليقين بأن الرزق بيد الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

[هود: ٦].

وكذلك اليقين بأن الله سيخلف على المنفق ما أنفقه، وأن ما عند الله خير وأبقى.

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: ٣٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾ [القصص ٦٠].

فإن من تيقن ذلك لن يبخل في أن ينفق مما آتاه الله تعالى.

٢. تذكر العواقب المترتبة على الشح.

عندما يتذكر المسلم العواقب المترتبة على البخل والشح والآثار السيئة، وما سيحصل للبخيل في الدنيا والآخرة، سيخشى من الوقوع في هذا الخلق الذميم فيسعى لتجنبه.

٣. عدم التعلق بالدنيا وزينتها.

وذلك بأن يعلم أن الله كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، وسيجزي كل إنسان بما يسعى، ولا يظلم ربك أحدًا.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾ [القصص ٦٠].

٤. مجاهدة النفس في دفع الشح عنها.

إن المسلم لا بد عليه أن يسعى لدفع الشح عن نفسه، وعليه أن يتذكر فضل من وقى عن نفسه الشح.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وعليه أن يسعى لإصلاح المجتمع من حوله، وذلك بإصلاح أهله ومن يعول؛ لكي ينجو المجتمع كله من هذا المرض الذي يميت القلوب قبل موت الأبدان.

٥. تذكر فضل الإنفاق في سبيل الله وأجره.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝٢٠﴾ [المزمل: ٢٠].

فمن تذكر ذلك الفضل والأجر لن يبخل بشيء.

٦. الاهتمام بإصلاح القلوب من الكبر والحقد والحسد وغيرها.

فمن اهتم بإصلاح قلبه من أمراض القلوب الخبيثة سهل عليه أن يتحرر بعد ذلك من الشح، بل سيصل إلى الإيثار في أسرع وقت ممكن، فإن الشح يعتبر ثمرة من ثمرات أمراض القلوب الخبيثة.

يقول الله تعالى عن الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الحشر: ٩].

ولم يحصل منهم ذلك إلا بعد أن طهروا صدورهم من الأمراض.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

ثانيًا: ذكر طرق العلاج من البخل والشح:

بعد أن تكلمنا عن أسباب البخل، وأهم طرق الوقاية منه لمن لم يصب به، وجب علينا أن نذكر أهم طرق العلاج لمن ابتلاه الله به، وأراد التخلص منه؛ ليصبح من السهل عليه أخذ الدواء بعد أن علم الداء، ويسعى إلى الشفاء بإذن الله تعالى.

لقد أبدى القرآن الكريم وأعاد في معالجة مشكلة البخل التي تنخر في جسد المجتمع المسلم، ونوع في أساليب تلك المعالجة ما بين ترغيب وترهيب، فإليك السبل ومن ذلك ما يلي:

١. **مدح المنفقين والمتصدقين.**

فقد مدح الله أبا بكر الصديق رضي الله عنه بكرمه، وإنفاقه في سبيله، وفكه للعاني، وبذله ماله لله تعالى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

وقد قال سبحانه في مدح من وقى نفسه من الشح: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [التغابن: ١٦].

وقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الحشر: ٩].

٢. **ترتيب الثواب العظيم للمنفقين والمتصدقين.**

يقول سبحانه: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٢].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٧٤].

٣. **حث المؤمنين على الإنفاق.**

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا

﴿خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧ - ٢٦٨].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١٠ - ١١].

وقال جل وعلا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٦].

٤. الوعد بالخلف على المنفق.

من أساليب القرآن أيضًا في علاج هذه الظاهرة هي: وعد المنفق بالخلف، وإقناعه بأن ما ينفقه من مال هو لنفسه، وأنه لا ينقص من ماله شيئًا، بل قد يزيده، ويبين القرآن للمنفق بأن ما عند الله خير مما أنفق، وأبقى، قال الله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠].

فمن استشعر أن ما عند الله من الأجر والثواب، والنعيم المقيم، وأنه خير مما ينفقه العبد آناء الليل وآناء النهار، فإنه سيسعى لعلاج نفسه من البخل.

٥. توجيه نظر الإنسان إلى أن المال ملك الله تعالى، وإنما الإنسان خليفة فيه.

ومن أساليب القرآن كذلك أنه جعل الإنسان يوجه نظره إلى النعم التي أنعم الله بها عليه من مال وغيره على أنها ليست ملكًا له حتى يمنعها عن عباد الله، وإنما هي ملك لله، وهو أمين أو خازن فقط على هذه النعم، ومن واجب الأمين أو الخازن: أن يتصدق وفق مراد صاحب النعمة، وقد دعا صاحب النعمة إلى إنفاقها على عباده، وفي مرضاته.

يقول الله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧].

٦. جعل الزكاة ركن من أركان الإسلام.

يقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال الرازي: «اقتضت حكمة الشرع تكليف مالك المال بإخراج طائفة منه من يده؛ ليصير ذلك الإخراج: كسرًا من شدة الميل إلى المال، ومنعًا من انصراف النفس بالكلية إليها. وتنبيها لها على أن سعادة الإنسان لا تحصل عند الاشتغال بطلب المال، وإنما تحصل بإنفاق المال في طلب مرضاة الله تعالى.

فإيجاب الزكاة علاج صالح متعين لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب، فالله سبحانه أوجب الزكاة لهذه الحكمة، وهو المراد من قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: تطهرهم وتزكيهم عن الاستغراق في طلب الدنيا»[١].

٧. إيراد القرآن لبعض قصص وأخبار أهل الكرم والجود من البشرية.

من ذلك ما أورده الله تعالى من قصة نبيه إبراهيم عليه السلام وإكرامه لأضيافه، فقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧].

فبمطالعة قصص وسير الكرماء، ولا سيما سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وسير الصحابة والتابعين، وقصص أبناء أمتنا المسلمة المعروفين بالكرم وهم كثر، فبمطالعة أخبار هذا الصنف من البشر سيكون له دور كبير في تحريك الأشحاء من داخلهم، علهم يتوبون أو يذكرون، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٨. حث المسلم على التوسط في الإنفاق.

أي: بلا إفراط ولا تفريط[٢]، وبإعطاء كل ذي حق حقه، فقليل دائم خير من كثير منقطع، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول تعالى آمرا بالاقتصاد في العيش ذامًا للبخل ناهيا عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٧٧.

(٢) قال الزمخشري رحمه الله تعالى: «وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي، فأما في القرب فلا إسراف، وسمع رجلٌ رجلًا يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير». الكشاف ٣/ ٢٩٣.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا.

وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا، فإنها تسمى الحسير»[1].

ولذلك يقول الرحمن ممتدحًا عباده: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

٩. ذم البخل وأهله.

فعادة الناس دائمًا النفور من المذموم سواءً ذمه الله ورسوله أم ذمه الناس وعابوه، فكيف بشيء يذمه الله ورسوله وكل الناس ممن سلمت فطرتهم؟! والمتأمل للقرآن الكريم يجد أن الخطاب القرآني لعباده المؤمنين يصور لهم البخل والشح دائمًا في قالب الذم، ولم تأت آية أو إشارة في آية تمدح البخل أو تزينه، وهذا امرٌ واضح وبين في كتاب الله تعالى، ويكفي في ذمه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ق: ٢٣ - ٢٥].

ففي هذه الآية ذم الله المانع للخير بصيغة المبالغة.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٧].

«فـ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾: بدل من قوله: ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، والمعنى: إن الله لا يحب من كان مختالًا فخورًا، ولا يحب الذين يبخلون»[2].

وقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٨ - ١١].

١٠. الخوف مما يقع على البخيل من العقاب الأخروي.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٧٠.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٨٧.

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

١١. عدم طاعة البخلاء، أو التشبه بهم.

فلقد حذر الله رسوله من طاعة البخلاء بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم: ١٠ - ١٢].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: ١٥٦].

فقد نهى الله المؤمنين عن مشابهة الذين كفروا في البخل بأنفسهم عن الجهاد في سبيل الله.

فعدم مصاحبة البخلاء والابتعاد عنهم، والذهاب إلى المجتمع المعروف بالسخاء، يحمل الشحيح على الاقتداء والتأسي، أو على الأقل التشبه.

١٢. النظر في آيات وأحاديث فضل الإنفاق، والحض على الصدقة.

النظر في فضل الإنفاق من كتاب الله عز وجل، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لكي تتعظ النفوس بما فيهما، ولكي تقف على أخبار وجزاء المنفقين، وأخبار وعاقبة البخلاء، كما في سورة القلم من قصة أصحاب الجنة.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد كان من هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثرة الإنفاق من النعم التي أنعم الله بها عليه من مال أو غيره، وكان من أشد الناس حرصًا على إنفاقها في مرضاة الله عز وجل دون بخل أو شح.

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: **(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)**[1].

(١) أخرجه البخاري ١/ ٨، رقم ٦، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسلم ٤/ ١٨٠٣، رقم ٢٣٠٨، كتاب الفضائل، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة.

فبالنظر في الآيات والأحاديث يسهل على النفس الوصول إلى التخلص من الأخلاق الذميمة، ويبعث فيها النشاط للتحلي بالأخلاق الحميدة.

١٣. مجاهدة النفس.

فلا بد من مجاهدة النفس والأخذ بعزيمتها، وحملها بجد على ترك البخل والشح، والتحلي بالإيثار والكرم، ووعظها تارة بالترغيب، وتارة أخرى بالترهيب، والصبر على ذلك زمانا، فإن هذه المجاهدة إن كانت صادقة توصل بسرعة إلى المراد، فالله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومع ذلك لا بد من محاسبة النفس أولًا بأول، فإن المحاسبة لها دور كبير في التخلص من هذا المرض، ولا سيما إن كان مع المحاسبة تأديب للنفس، وتتبع للمرض حتى الشفاء بإذن الله تعالى.

١٤. كثرة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

إذا علم العبد أن (القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء)[١]. كان لزامًا عليه أن يتوجه بقلبه لمالكه ومدبره ومقلبه ليصرف عنه من الأمراض ما يبعده عن مرضاته، ولهذا كان التخلص من البخل أو أي خصلة من خصال الشر لا يتحقق إلا بتوفيق الله سبحانه، ثم بالدعاء .

وكيف لا يكون الأمر كذلك والله سبحانه يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

فبالدعاء إن كان صادقًا يكفي الله العبد كل الأزمات، ويعينه على نفسه في التخلص من كل مرض.

١٥. النظر في العواقب والآثار المترتبة على الشح في الدنيا والدين والآخرة.

إن النظر في العواقب الضارة والآثار المهلكة المترتبة على الشح والبخل -سواء كانت هذه العواقب دنيوية أو أخروية، أو كانت على الفرد، أو على المجتمع الإسلامي- مما يخوف النفوس، ويحركها من داخلها، الأمر الذي ييسر عليها سبل الإقلاع، والتخلص من هذا الداء.

فعندما ينظر البخيل إلى عواقب البخل والشح، وما سيحصل له في الدنيا والآخرة، سيسعى حثيثًا لعلاج هذا الخلق الذميم.

وبعد أن أكملنا الكلام عن أسباب الوقوع

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٩/ ١٦٠، رقم ١٢١٠٧، والترمذي ٤/ ٤٤٨، رقم ٢١٤٠، أبواب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وابن ماجه ٢/ ١٢٥٧، رقم ٣٨٣٤، كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال الترمذي: وهذا حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٣٤٧، رقم ١٦٨٥.

في البخل والشح، وطرق الوقاية منها، وكيفية العلاج لمن ابتلاه الله بهذا الداء، وجب علينا أن نتحدث عن عاقبة البخل والشح في الدنيا والآخرة، وهذا ما ستتكلم عليه بالتفصيل في المبحث القادم، إن شاء الله تعالى.

عاقبة الشح والبخل

إن البخل دليل على قلة العقل وسوء التدبير، وهو أصل لنقائص كثيرة، ويدعو إلى خصال ذميمة، ومن شأنه: أن يهلك الإنسان ويدمر الأخلاق، ويؤخر صاحبه، ويبعده عن صفات الأنبياء والصالحين، كما أنه دليل على سوء الظن بالله عز وجل.

فالبخيل محروم في الدنيا، مؤاخذ في الآخرة، وهو مكروه من الله عز وجل، مبغوض من الناس، والشحيح أشد في الذم من البخيل، لأنه يجتمع فيه البخل مع الحرص.

وللشح والبخل آثار ضارة، وعواقب مهلكة، على الفرد وعلى المجتمع، ودونك طرفًا من هذه الآثار، وتلك العواقب:

١. تنوع العقاب في الآخرة:

وهذا من أعظم العواقب التي تقع على البخيل، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فالبخلاء «ظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم»[١]، «فلا يتوهمن هؤلاء البخلاء أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٨.

بخلهم هو خير لهم، بل هو شر لهم؛ وذلك لأنه يبقى عقاب بخلهم عليهم»[1].

ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

فهذه العاقبة أشد العواقب وأنكاها على النفس، فمهما واجه البخيل في الدنيا من عواقب ومصائب ورزايا فإنها لا تعد شيئًا أمام تلك الألوان العظام من عذاب الله تعالى، أجارنا الله وإياكم منه.

٢. يستبدل الله به غيره من عباده فينفق في أوجه الخير ما لا ينفقه الشحيح.

ولعل من أشد العواقب التي قد يواجهها البخيل بماله والضان به على دين الله وعباد الله، أن يستبدل الله به غيره من عباده فينفق في أوجه الخير ما لا ينفقه الشحيح؛ فيحوز المنفق الأجر والثواب مع رضوان الله عنه، قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد: ٣٨].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم بين الله سبحانه أنه من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، ومن تولى عنه بإنفاق ماله أبدل الله به من يقوم بذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾ [التوبة: ٣٨ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد: ٣٨]»[2].

٣. البخل يورث النفاق في القلب.

ومن العواقب الوخيمة للبخل أنه يورث النفاق في القلب.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٤٣.

(٢) الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٢٦٩.

مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ - ٨٠].

فالذي سبب لهم خلف الوعد والوقوع في خصلة النفاق هو بخلهم وشحهم ومنعهم الصدقات، ولهذا كان البخل موصلًا للنفاق بما يترتب عليه من خلف الوعد.

٤. **الحرمان من الأجر المترتب على الإنفاق في أبواب الخير.**

قال الله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

فهو «حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئا»[(١)]، «فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون، فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور، فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون على أنفسهم، وإنما يقللون من رصيدهم، وإنما يستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم، وإنما يحرمونها بأيديهم! أجل. فالله لا يطلب إليهم البذل، إلا وهو يريد لهم الخير، ويريد لهم الوفر، ويريد لهم الكنز والذخر، وما يناله شيء مما يبذلون، وما هو في حاجة إلى ما ينفقون»[(٢)].

٥. **الوقوع في الإثم بسبب منعه لما يجب عليه من حقوق وواجبات.**

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

فهذا العذاب الأليم ما ناله المعذبون إلا بسبب وقوعهم في إثم المنع من الإنفاق الواجب، البخلاء به، فمنع الواجب إثم يرتكبه البخيل بماله، فيعاقب عليه.

٦. **حرمان البخيل من التزكية والتطهير الذي يحوزه المنفقون.**

فإن البخيل يحرم من تزكية وتطهير النفقة للمنفق من الذنوب والخطايا، يقول الله تعالى لنبيه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال الماوردي رحمه الله تعالى: «فقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ فيها وجهان: أحدهما: أنها الصدقة التي بذلوها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٠٣.

من أموالهم تطوعًا، والثاني: أنها الزكاة التي أوجبها الله تعالى في أموالهم فرضًا؛ ولذلك قال: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، لأن الزكاة لا تجب في الأموال كلها، وإنما تجب في بعضها، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، أي: تطهر ذنوبهم، وتزكي أعمالهم»[1]، «والتزكية: جعل الشيء زكيًا، أي: كثير الخيرات، فقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية، فالمعنى: أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم، ومجلبة للثواب العظيم»[2].

٧. البخل من أسباب فقر البخيل، وتعريض ماله للتلف.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧ - ٢٦٨].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «ومعنى الآية: أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويقول للرجل: أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت به افتقرت، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، أي: بالبخل ومنع الزكاة»[3]؛ وذلك «لأن الشيطان يصد الناس عن إعطاء خيار أموالهم، ويغريهم بالشح أو بإعطاء الرديء والخبيث، ويخوفهم من الفقر إن أعطوا بعض مالهم»[4].

وكما في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ الآيات [القلم: ١٧ - ٢٠].

«فلما منعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها؛ أهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها»[5].

٨. فوات الخيرية في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٨٠].

فالبخيل الذي لا يتصدق ليس له من هذا الخير نصيب، و«المراد بالخير: حصول الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة»[6].

---

(١) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٩٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٧٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٥٩.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٩/ ٢٨٥ بتصرف.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٨٧.

٩. تعسير الأمور على البخيل.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل: ٨ - ١١].

ففي هذه الآية دليل على أن البخيل أموره كلها متعسرة.

١٠. حمل النفس على الوقوع في كل إثم ورذيلة.

فلقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآثام والرذائل التي يثمرها البخل حين قال -في الحديث الذي رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما-: **(اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)**(١).

وفي رواية لأبي داود من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **(إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا)**(٢).

١١. سبب في الهلاك وفساد المجتمع.

فقد بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم كما مر في حديث جابر بن عبد الله السابق.

١٢. يوقع الإنسان في كبائر الذنوب، ومن ذلك سفك الدماء واستحلال المحارم.

كما مر في حديث جابر بن عبد الله السابق أيضًا.

١٣. البخل يفسد العلاقات بين الناس.

فالبخل يعيق الصلح بين الناس، ويزرع الفرقة والتمزق في المجتمع، وإذا ابتلي المجتمع الإسلامي بالفرقة والقطيعة بين أهله، ومزقوا شر ممزق، كانت النتيجة: تمكن العدو، وإحكامه القبضة على أعناقه، وتضييق الخناق عليه، فتطول الطريق، وتكثر التكاليف، على النحو الذي نشهده، ونعيشه نحن المسلمين اليوم.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾

[النساء: ١١٤].

وختامًا لهذا المبحث نقول: إن البخيل بعد هذا كله أشد الناس عناءً وشقاءً في الدنيا، فهو مبغوض مكروه حتى من أقرب الناس إليه كزوجته وأبنائه وأقاربه، وربما تمنى موت البخيل أقربهم إليه، وأحبهم له، بل قد يصل بهم الحد إلى أن يدعوا عليه،

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٧٨، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

(٢) أخرجه أبو داود ٣/ ١٢٣، رقم ١٦٩٨، كتاب الزكاة، باب في الشح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٥٢١، رقم ٢٦٧٨.

لأنه حرمهم من نواله، وطمعًا في ثروته، حتى يستطيعوا التنعم بما حرمهم منه من أموال، فالبخيل يعيش في قلق واضطراب نفسي، يكدح في جمع المال والثراء، ولكن لا يستطيع الاستمتاع والتلذذ به، وسرعان ما يخلفه للورثة، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء مع وجود المال معه، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

موضوعات ذات صلة:

الإكراه، الحرام، الحلال، الضر